دكتور
سعيد عبد الفتاح عاشور
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب
جامعة القاهرة

الأيوبيون والمماليك
في
مصر والشام

طبعة جديدة مزيدة معدلة

١٩٩٦

Bibliotheca Alexandrina
0130254

دار النهضة العربية
للطبع والنشر والتوزيع
٣٢ شارع عبد الخالق ثروت
القاهرة

الأيوبيون والمماليك

في

مصر والشام

تأليف

دكتور

سعيد عبد الفتاح عاشور

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب ــ جامعة القاهرة

طبعة جديدة مزيدة معدلة

١٩٩٦

دار النهضة العربية

٣٢ شارع عبد الخالق ثروت ــ القاهرة

تليفون : [illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

اذا كان مولد الدولة الأيوبية فى منطقة الشرق الأدنى فى القرن السادس الهجرى ــ الثانى عشر للميلاد ــ يعتبر احدى النتائج الهامة التى تمخضت عنها الحركة الصليبية فى الجانب السياسى ، فان دولة بنى أيوب تعتبر بدورها مسئولة الى حد كبير عن قيام دولة سلاطين المماليك فى نفس المنطقة فى منتصف القرن السابع الهجرى ، الثالث عشر للميلاد • ففى كثير من جوانب النشاط السياسى والحربى والحضارى تبدو دولة سلاطين المماليك استمرارا لدولة بنى أيوب ، بمعنى أن الدولتين تمثلان حلقتين متداخلتين فى سلسلة تاريخية واحدة ، وذلك باستثناء بعض أوجه التباين الهامشية نتيجة لنوعية الحكام فى كل من الدولتين من ناحية ، ولطبيعة الظروف الخارجية التى أحاطت بكل منهما من ناحية أخرى ، مما ترك أثرا فى صورة البلاد الداخلية من ناحية ثالثة •

ولما كان المماليك الأوائل قد نشأوا وشبوا فى حجر سادتهم وأساتذتهم ملوك بنى أيوب ، فانهم منذ اللحظة الأولى التى أعلنوا فيها قيام دولتهم ، أظهروا تمسكا شديدا بما كان سائدا فى العصر الأيوبى من نظم ورسوم ؛ كما اعتبروا أنفسهم ورثة أساتذتهم الأيوبيين ليس فى ممتلكاتهم فحسب بل أيضا فى سياستهم الخارجية تجاه القوى المعاصرة سواء الصديقة أو المعادية • وهكذا صار من المتعذر على الباحث المتخصص أن يقف على الصورة الحقيقية لعصر سلاطين المماليك دون أن يبدأ بدراسة جذور ذلك العصر ، وهى جذور قوية ضاربة فى أعماق العصر الأيوبى • وبعبارة أخرى فان دراسة العصرين الأيوبى والمماليكى لا تكون الا متكاملة داخل اطار واحد يحيط بهاتين الدولتين ــ وبخاصة فى مصر والشام ــ احاطة شاملة منذ قيام الدولة الأيوبية سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) حتى سقوط دولة سلاطين المماليك سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) •

ولم تغب هذه الحقيقة عن العلمـاء المعاصرين الذين دونوا موسوعات ضخمة عالجوا فيها نظم الحكم والادارة والعديد من الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها • فها هو القلقشندى الذى دون موسوعته « صبح الاعشى فى صناعة الانشـا » فى أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع للهجـرة — الرابع عشر والخامس عشر للميلاد — يعترف بأن النظم المطبقة فى دولة سلاطين المماليك انما أكثرها مأخوذ مما كان سائدا فى دولة بنى أيوب ، وبأن الدولة الاخيرة انما هى بمثابة الأصل والاساس بالنسبة لدولة المماليك ، ويعبر عن ذلك بعنوان كبير وضعه فى صدر فصل من فصول موسوعته نصـه : « ما استقر عليه الحال من ابتداء الدولة التركية (أى دولة سلاطين المماليك) والى زماننا على رأس الثمانمائة ، مما أكثره مأخوذ من ترتيب الدولة الأيوبية التى هى أصل الدولة التركية » •

واذا نحن عالجنا تاريخ دولتى الايوبيين والمماليـك داخل اطار واحد ، فان علينا أن ندرك أن هذا الاطار يضم أيضا المرحلة النشطة فى تاريخ الحركة الصليبية فى الشرق الأدنى • حقيقة إن هذه الحركة ولدت فى أواخر الدولة الفاطمية ، ولكنها لم تشب وتصل الى عنفوان قوتها الا فى العصر الأيوبى • وحقيقة انه تم طرد آخر البقايا الصليبية من بلاد الشام فى العصر المماليكى ، ولكن طرد هذه البقايا لا يعتبـر بحال عن نهاية الحركة الصليبية فى الشرق الأدنى ، اذ استمرت ذيول هذه الحركة قائمة فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر للميلاد ، أى الثامن والتاسع للهجرة • وعندما نقول ان عصر دولتى الايوبيين والمماليك شهد المرحلة النشطة فى تاريخ الحركة الصليبية فى الشرق الأدنى ، فان علينا أن نعى الأبعاد الحقيقية لتلك الحركة بما فيها من تيارات حضارية وخاصة فى مجال العلاقات الاقتصادية والاجتماعية ، والفنية والسياسية بين دولتى الأيوبيين والمماليك من جهة والغرب الأوربى المسيحى من جهة أخرى ، مما ترك بصماته واضحة فى الاحوال الداخلية لمصر والشام فى ذلك العصر •

وهكذا اكتسب عصر الأيوبيين والمماليك فى تاريخ مصر والشـام طابعا خاصا مميزا أضفى عليه روحا جعلته يختلف فى كثير من معالمـه عن العصور السابقة واللاحقة • وقد رأينا أن نفرد لهذا العصر هـذه الدراسة التاريخية الموجزة التى ظهرت لأول مرة منذ عشرين عاما وأعيدت طباعتها عدة مرات دون أن تسمح لنا مشاغل الزمان بمراجعتها أو ادخال أى تعديل عليهـا •

وأخيرا شاءت الظروف أن نخصص لها جزءا من وقتنا فقمنـا بمراجعتها وتصويب ما ألم بها من تحريفات مطبعية ، وأضفنا اليهـا العديد من الاضافات التى تلقى مزيدا من الضـوء على ذلك العصر الحافل بالأحداث والتطورات •

والله ولى التوفيـق ••

أ • د •

سعيد عبد الفتاح عاشور

القاهرة فى جمادى الآخرة ١٤١٠ هـ

ينـاير ١٩٩٠ م

القسم الأول

الدولة الأيوبيـــة

الفصل الأول

مولد الدولة

مصر والحروب الصليبية :

ترتب على الحركة الصليبية التى دهمت المشرق الاسلامى فى أواخر القرن الخامس الهجرى ـ الحادى عشر للميلاد ـ نتائج بعيدة المدى فى تاريخ الشرق والغرب جميعا • ويهمنا فى دراستنا هذه ما يرتبط من تلك النتائج بالجانب السياسى • ذلك أن الأوضاع السياسية فى البلدان الاسلامية فى الشرق الأدنى تعرضت لتغييرات وتطورات سريعة منذ وصول الصليبيين الى الشام • وكثير من هذه التغييرات والتطورات جاءت الى مدى بعيد وليدة الخطر الصليبى • ولعل أهم هذه التغييرات ما طرأ على الخريطة السياسية لبلاد الشام ومصر من تبديل وتغيير بعد أن قضى الصليبيون على كثير من الأتابكيات والامارات الصغرى التى كانت قائمة فى بلاد الشام من جهة ، وبعد أن قامت دولة بنى أيوب لتحل محل الدولة الفاطمية فى مصر ، ثم تبسط نفوذها على معظم بلاد الشام داخل اطار وحدة تجمع بين البلدين ، من جهة أخرى •

ذلك أن انتصار الصليبيين فى الحملة الصليبية الاولى ، ونجاحهم فى تأسيس امارات لهم فى الرها وأنطاكية وطرابلس ، فضلا عن مملكة فى بيت المقدس ، كان له أثره السىء ورد فعله العنيف فى العالم الاسلامى ، الأمر الذى استثار بعض الزعماء المخلصين فى المشرق الاسلامى ، ودفعهم الى القيام بحركة جهاد واسعة ضد الصليبيين • ولم تلبث أن أدت حركة الجهاد فى القرن السادس الهجرى ـ الثانى عشر للميلاد ـ الى مولد جبهة اسلامية متحدة ، كان من أبرز روادها الأوائل عماد الدين زنكى أتابك الموصل ثم ابنه نور الدين محمود •

وقد استهدفت هذه الحركة توحيد القوى الاسلامية المبعثرة بين النيل والفرات ، لتجعل منها بنيانا مرصوصا يستطيع الصمود فى وجه الخطر الصليبى • وكانت هذه الفكرة — فكرة الجبهة الاسلامية المتحدة — هى الدافع الأول الذى جعل نور الدين محمود يتجه ببصره نحو مصر ، بعد أن تم له الاستيلاء على دمشق سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) وصار يسيطر على العديد من المدن الكبرى فى الشام مثل حلب وحمص ، فضلا عن الكثير من الحصون والقلاع الهامة ، وبخاصة فى شمال الشام[١] • وسنتكلم فيما بعد عن تدخل نور الدين محمود فى شئون مصر ، لنوضح كيف انتهى ذلك التدخل بسقوط الخلافة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية • ولكن ما نحب أن نؤكده فى هذا المقام هو أن التطورات السياسية التى انتهت بقيام الدولة الأيوبية ، انما جاءت نتيجة مباشرة من نتائج الحركة الصليبية •

والواقع أن الصليبيين لم يقلوا طمعا فى مصر عن نور الدين محمود ، بل ان الصليبيين تطلعوا الى دلتا النيل وسعوا لاحتلال مصر عقب استقرارهم فى بيت المقدس مباشرة • من ذلك أن جودفرى دى بوايون — أول حكام دولة الصليبيين فى بيت المقدس — وضع مشروعا للاستيلاء على مصر ، ولكنه توفى سنة ٤٩٤ هـ (١١٠٠ م) قبل أن يبدأ فى تنفيذ مشروعه • وعندما خلفه أخوه بلدوين الأول ، وتوج ملكا على بيت المقدس ، خرج سنة ٥١٠ هـ (١١١٦ م) للقيام بحملة استطلاعية أوصلته الى دلتا النيل ، فوصل الى أيلة على شاطىء البحر الاحمر ، ثم اتجه الى دير القديسة كاترينا فى شبه جزيرة سيناء • ولما رفض رهبان الدير أن يستضيفوه خوفا من السلطات الفاطمية فى القاهرة ، اتجه نحو الفرما ونهبها • ثم تقدم الى تنيس على شاطىء بحيرة المنزلة ، حيث مرض وتوفى بالعريش وهو فى طريق عودته سنة ٥١٢ هـ (١١١٨ م)[٢] •

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٤٩٧ وما بعدها (الطبعة الرابعة ، ١٩٨٦) •
(٢) المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٢٥٩ •

ومنذ ذلك الوقت لم يتخل الصليبيون عن فكرة الاستيلاء على مصر ، حتى كان منتصف القرن السادس الهجرى — الثانى عشر للميلاد — عندما رأى نور الدين محمود أن الجبهة الاسلامية المتحدة لا تكتمل حلقتها الا بالاستيلاء على مصر بالذات ، مما يحصر مملكة الصليبيين فى بيت المقدس بين فكى كماشة اسلامية تضغط عليها من ناحيتى الشمال والجنوب • وهكذا غدت مصر ميدانا رئيسيا فى الصراع بين نور الدين محمود والصليبيين •

ثم حدث فى أوائل سنة ٥٧٧ هـ (١١٦٢ م) أن توج عمورى الأول ملكا على مملكة بيت المقدس الصليبية ، مما يعتبر بداية مرحلة جديدة فى سياسة الصليبيين تجاه مصر • ذلك أن عمورى الأول اتصف بالشجاعة والجرأة والدهاء ، وهى صفات أجمع على وصفه بها المؤرخون المعاصرون من المسلمين والمسيحيين سواء •(٣) وقد أدرك عمورى أن سيطرة نور الدين محمود على حلب ودمشق وحماه وحمص شكلت سدا فى وجه الصليبيين ، وحالت دون توسعهم فى شمال الشام ، وبذلك صار الطريق الطبيعى الوحيد الذى بقى مفتوحا أمام حركة الصليبيين التوسعية هو طريق مصر •

وكانت الدولة الفاطمية فى ذلك الوقت تقاسى آلام الموت البطىء ، بعد أن انحلت الخلافة وفقدت هيبتها ، واختلت أحوال مصر الداخلية • ولا أدل على انحلال الدولة الفاطمية عندئذ من أن كثيرا من خلفائها انتهى أمرهم بالقتل ، فضلا عن تحكم الوزراء العظام فى شئون الدولة

---

(٣) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٦٤ هـ ،
Grousset : Hist des Croisades II. p. p. 438 — 442.
هذا ، وقد وصف المؤرخ ابن الاثير الملك عمورى بأنه « لم يكن للفرنج منذ ظهروا بالشام مثله شجاعة ومكرا ودهاء » . أنظر أيضا :
ابو شامة : كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٣٩٠ (تحقيق محمد حلمى محمد احمد) .

والخلافة جميعا • وقد حدث أن ما ت الخليفة الظافر مقتولا سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) ، فاستبد بالأمور فى مصر الوزير طلائع بن رزيك الأرمنى الاصل • وكان الخليفة الفائز — ابن الظافر — طفلا صغيرا ليس له من الخلافة الا لقبها • وعندما توفى الفائز وهو فى الحادية عشرة من عمره سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) أقام الوزير الخليفة العاضد ، الذي كان هو الآخر صغيرا فى السن ، مما مكن الوزير طلائع بن رزيك من اللهو بالخلافة واستعراض المرشحين لها « استعراض الغنم » على حد قوله[٤] •

ولم يلبث أن أحس الخليفة العاضد بثقل ذلك الكابوس ، فدبر مؤامرة مع بعض الأمراء لقتل ابن رزيك • ونجحت المؤامرة فعلا سنة ٥٥٦ هـ (١١٦١ م) ، فخلف ابن رزيك فى منصب الوزارة ابنه العادل ، حتى قتله شاور حاكم الصعيد ، وحل محله فى منصب الوزارة سنة ٥٥٨ هـ (١١٦٣ م) • ولكن شاور أمعن فى الاستبداد ، وساءت سيرته ، فخرج عليه ضرغام ، واشتدت المنافسة بين الرجلين ، فى الوقت الذى كان عمورى الأول ملك بيت المقدس يتطلع لغزو مصر •

وفعلا قام عمورى بغزو مصر سنة ٥٥٨ هـ (١١٦٣ م) فوصل الى بلبيس وحاصرها ، ولكن ضرغام أرغمه على الانسحاب ، فى الوقت الذى لجأ شاور الى نور الدين محمود بالشام « وأطمعه فى الديار المصرية »[٥] • وكانت غزوة عمورى لمصر قد أفزعت نور الدين لأنها كشفت عن نوايا الصليبيين تجاه وادى النيل ، مما يفسد عليه مشروع الجبهة الاسلامية المتحدة • لذلك قرر نور الدين أن يسرع بارسال جيوشه الى مصر لحمايتها من السقوط فى أيدى الصليبيين •

وكان أن أرسل نور الدين محمود حملته الاولى الى مصر سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٤ م) بقيادة أسد الدين شيركوه وبصحبته ابن أخيه

---

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ — حوادث سنة ٥٥٦ هـ •

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٣٤٦ •

صلاح الدين الذى كان عندئذ فى السابعة والعشرين من عمره . هذا فضلا عن شاور نفسه الذى صحب شيركوه فى تلك الحملة . ولمواجهة هذا الموقف استنجد ضرغام بالصليبيين ، وتعهد لعمورى الأول — مقابل مساعدته — بأن يعقد معه معاهدة تصبح مصر بمقتضاها تابعة للصليبيين(٦) . ولكن مهارة شيركوه ، وسرعته فى قطع الصحراء الشرقية رغم تقدم سنه مكنته من أن يسبق الصليبيين فى الوصول الى الدلتا ، فانتصر على جيش أرسله ضرغام ، ونجح فى الوصول الى القاهرة فى بداية مايو سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٤ م) . ولم يلبث أن تخلى عن ضرغام من كان حوله من الأعوان وعامة الناس ورجال الجيش والخليفة نفسه ، حتى انتهى أمره بالقتل أثناء محاولته الفرار ، فتولى شاور منصب الوزارة(٧) .

على أن شاور لم يرع العهود التى قطعها على نفسه لنور الدين ، فما كاد يتولى الوزارة حتى تنكر لأسد الدين شيركوه وطلب منه مغادرة مصر . وقد رد شيركوه على تصرفات شاور غير الودية باحتلال بلبيس والشرقية ، مما جعل شاور يحاكى سلفه ضرغام ، فاستنجد بالصليبيين ووعد عمورى الأول باعطائه مبلغا كبيرا من المال مقابل مساعدته . وسرعان ما عاد عمورى الأول على رأس حملة كبيرة الى الدلتا ، فى الوقت الذى أخذ شيركوه يقوى مركزه فى بلبيس بعد أن تلقى مساعدات من عرب كنانة بالشرقية . وعندما أخذت جيوش عمورى وشاور تحاصر شيركوه فى بلبيس ، تم الاتفاق على أن يغادر شيركوه وعمورى مصر ، وهو الأمر الذى تم فعلا فى أواخر سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٤ م) . وربما كان عمورى الأول أكثر تلهفا على العودة الى الشام ، بعد أن انتهز نور الدين محمود فرصة غيابه وشدد هجماته

---

(٦) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٥٣٢ (الطبعة الرابعة ، ١٩٨٦) .

(٧) أبو شامة : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ، حوادث سنة ٥٥٩ هـ (تحقيق محمد حلمى) .

على الصليبيين بالشام ليضغط على عمورى ويضطره الى الجلاء عن مصــــر .

عودة شيركوه الى مصر سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧ م) :

ولكن اذا كانت جيوش نور الدين محمود وعمورى الأول قد انسحبت جميعا من مصر سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٤ م) ، الا أن الطرفين خرجا من تلك التجربة بفكرة واضحة عن ثروة مصر وغناها من ناحية مع ضعفها الشديد من ناحية أخرى . وتجمع المصادر العربية على أن شيركوه غادر مصر فى تلك السنة « وهو فى غاية من القهر » على قول ابن تغرى بردى . أما ابن الاثير فيذكر أن شيركوه ظل بعد أن خرج من مصر « يتحدث بها ويقصدها ، وكان عنده من الحرص على ذلك كثير »[٨] . ولكن يبدو أن نور الدين محمود كان حريصا دائما على عدم تشتيت قواته ، فى الوقت الذى كثرت الاشــتباكات بينه وبين الصليبيين بالشام .

ومع ذلك ، فان هناك سببا قويا ظل يحرك عند نور الدين الرغبة فى غزو مصر ، ونعنى بذلك العامل المذهبى . ذلك أن الخلافة الفاطمية فى مصر كانت — فى نظره — مصدرا للفرقة فى العالم الاسلامى ، لأنها قسمت ولاء المسلمين فى الشرق الأدنى بين خلافتين ومذهبين : الخلافة العباسية السنية فى بغداد ، والخلافة الفاطمية الشيعية فى القاهرة . لذلك كان من الطبيعى أن يتجه نور الدين — وهو الحــاكم الســنى الحريص على دعم الجبهة الاسلامية المتحدة من الفرات الى النيل — الى التفكير فى القضاء على الخلافة الفاطمية فى مصر .

وكان أن أتيحت الفرصة مرة أخرى لنور الدين محمود عندما أرسل اليه الخليفة العاضد الفاطمى يشكو من استبداد شاور وجوره . ولم

---

(٨) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٦٢ هـ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٣٤٨ .

يكن نور الدين فى حاجة عندئذ الى مزيد من التحريض ضد شاور ، اذ كان فى قلبه منه « حزازة لكونه غدر بأسد الدين شيركوه واستنجد عليه بالفرنج »(٩) • لذلك بادر نور الدين بارسال حملة شيركوه الثانية الى مصر سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧ م) ، وكان بصحبة شيركوه فى تلك الحملة أيضا ابن أخيه صلاح الدين • ويبدو أن شيركوه عمل حسابا لاستنجاد شاور بالصليبيين ، فلم يشأ أن يغامر بقواته فى القيام بهجوم على القاهرة ، واختار أن يعبر النيل الى الجيزة ، حيث عسكر فى مواجهة الفسطاط على الضفة الغربية للنيل • وعندئذ أدرك الخليفة الفاطمى أن خطر قوات نور الدين عليه وعلى خلافته لا يقل عن خطر شاور والصليبيين •

ولم يلبث أن استنجد شاور بعمورى الأول ملك بيت المقدس الذى أسرع فى أواخر سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧ م) ليغزو مصر بجيوشه للمرة الثالثة • وعندما علم شاور بوصول حلفائه ، خف لاستقبالهم عند بلبيس ، واتجه معهم حيث عسكروا على الضفة الشرقية للنيل ، فى حين كان شيركوه لا يزال رابضا على الضفة الغربية فى مواجهة الفسطاط • وفى تلك المرة أراد الصليبيون أن يعقدوا اتفاقية مع شاور ، تضمن لهم أجرهم قبل أن يقدموا له العون فى محاربة شيركوه • وكان أن تعهد لهم شاور بدفع أربعمائة ألف دينار فى حالة بقائهم حتى طرد شيركوه من مصر ، على أن يدفع نصف هذا المبلغ مقدما(١٠) • ومن الواضح أن هذه الاتفاقية جعلت من الصليبيين حماة مصر والخلافة الفاطمية • لذلك تحمس لها الصليبيون ، وحرص عمورى الأول على اكسابها صفة رسمية ، فأرسل سفارة الى الخليفة الفاطمى فى قصره ، حيث تم اعتماد الاتفاق بين الطرفين •

وكانت الخطوة التالية هى أن تستعد قوات عمورى وشاور لعبور

---

(٩) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٤٨ •
(10) Schlumberger : Campagnes du Roi Amoury I,p. 116.

النيل الى الضفة الغربيه لمهاجمة شيركوه ، وهو الأمر الذى تم فعلا عن طريق جزيرة الروضة • وعندما أدرك شيركوه حرج موقفه اتجه الى الصعيد ، فاقتفى أثره عمورى الأول وشاور • وكان أن دارت بين الطرفين معركة البابين قرب الأشمونين بالمنيا (٥٦٢ هـ — ١١٦٧ م) • وشارك صلاح الدين فى تلك المعركة ، التى انتهت بانتصار شيركوه وارتداد عمورى ليعسكر على الضفة الشرقية للنيل قرب الفسطاط[١١] وكان من المحتمل أن ينجح شيركوه فى احتلال القاهرة لو اقتفى أثر عمورى فى الحال ، ولكنه تباطأ ، وآثر أن يتجه شمالا على الضفة الغربية للنيل ليحتل الاسكندرية التى « تلقاه أهلها طائعين » ، ورحبوا به معبرين عن استيائهم من تحالف شاور مع الصليبيين[١٢] •

ويبدو أن شيركوه خاف أن يحصره الصليبيون ومعه جميع قواته داخل مدينة الاسكندرية ، فترك صلاح الدين فى المدينة على رأس قوة صغيرة ، واتجه شيركوه نفسه الى الصعيد ليسيطر عليه • وكان أن حدث ما توقعه شيركوه اذ خرج عمورى لحصار صلاح الدين بالاسكندرية • وعندما ساءت حالة المدينة وقل الطعام بها ، تحرج موقف صلاح الدين الذى لم يكن بصحبته أكثر من ألف محارب • لذلك أرسل صلاح الدين الى عمه بالصعيد يشرح له سوء موقفه ، ويطلب منه النجدة العاجلة ، فاضطر شيركوه الى العودة شمالا فى أواخر سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧ م) • ويبدو أن شيركوه أدرك فى تلك المرحلة حرج موقفه ، فأرسل الى الصليبيين يطلب الصلح ، وتم الاتفاق — مثل المرة السابقة — على تبادل الأسرى ، وعلى أن يترك الطرفان مصر ، لينعم بها شاور من جديد •

---

(١١) ابن الاثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكيـة ، ص ١٣٢ وما بعدها (تحقيق عبد القادر احمد طليمات ، ١٩٦٣) •

(١٢) أبو شامة : كتابة الروضتين ، ج ١ ق ٢ ص ٣٤٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٥٩ •

وليس هناك شك فى أن الذى شجع عمورى على قبــول طلب الصلح هو احساسه بسوء موقف الصليبيين بالشام بسبب اشتداد هجمات نور الدين على جبهتهم • ومهما يكن من أمر ، فان عمورى لم يغادر مصر الا بعد أن حقق نوعا من السيادة الصليبية على شاور والخلافة الفاطمية جميعا • وأهم مظاهر هذه السيادة تعهد الفاطميين بدفع جزية سنوية للصليبيين قدرها مائة ألف دينار ، وبقاء قــوة صليبية تحمى أبواب القاهرة ، فضلا عن تعيين شحنة (مندوب) يمثل الملك الصليبى فى القاهرة ، ويكون له رأى مسموع فى شــــئون الحــكم[١٣] •

اســتيلاء نور الدين محمود على مصر :

على أنه اذا كان عمورى الأول قد غادر مصر مضطرا سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧ م) ، فليس معنى ذلك أنه تخلى عن فكرة الاستيلاء عليها ، لا سيما وأن تردد الصليبيين على مصر فى المرات السابقة أدى الى أنهم « اطلعوا على عوراتها وطمعوا فيها » على قول المؤرخ ابن تغرى بردى[١٤] • وقد أدرك عمورى الأول أنه فى حاجة الى مساعدة قوة خارجية تمكنه من الاستيلاء على مصر ــ فتحالف مع امبراطور الروم ــ الامبراطورية البيزنطية ــ وتم الاتفاق على أن تقوم قوات صليبية بيزنطية مشتركة بغزو مصر • ويبدو أن الامبراطور البيزنطى ــ مانويل الأول ــ كان عندئذ مشغولا فى البلقان ، فطلب امهاله بعض الوقت لينفذ اتفاقيته مع عمورى ضد مصر • أما الملك عمورى فلم يشأ انتظار ، وانفرد بالهجوم على دلتا النيل ، متذرعا بأن شاور تنكر لتعهداته مع الصليبيين ولم يف بالتزاماته لهم • بل ان شاور اضطر تحت ضغط الرأى العام الاسلامى الى أن يقلب سياسته رأسا

(١٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ١٢٤ (تحقيق عبد القادر أحمد طليمـــات) •

(١٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٣٥٠ •

على عقب ، فاتصل بنور الدين محمود طالبا مساعدته للتخلص من الحماية الصليبية .

وعندما غزا عمورى مصر للمرة الرابعة سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٨ م) لمس انقلابا كبيرا فى موقف السلطات الحاكمة ، اذ قاومته بلبيس واضطر الى استخدام العنف للاستيلاء عليها ، ثم تقدم مسرعا صوب القاهرة . أما شاور فقد أحس بحرج موقفه واستياء النـــاس من سياسته ، فأحرق الفسطاط فى نوفمبر سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٨ م) وأخذ يعد العدة للدفاع عن القاهرة(١٥) . ولم يلبث أن أدرك الملك عمورى صعوبة الاستيلاء على مدينة كبيرة معادية مثـــل القاهرة ، فتراجع عنها بعد أن دفع له شاور مائة ألف دينار . وكان أن انسحب الصليبيون الى جهـــة سرياقوس حيث ســمعوا باقتراب جيـــوش نور الدين محمود بقيادة شيركوه .

وقد تركزت خطة عمورى فى مباغتة جيوش شيركوه — وهى متعبة — قبل أن تتمكن هذه الجيوش من الاتحاد مع القوات الفاطمية . ولكن هذه الخطة انهارت من أساسها عندما علم عمورى أن شيركوه عبر الصحراء الشرقية الى القاهرة حيث رحب به الاهالى والتفوا حوله لحمايتهم من الصليبيين . وهكذا لم يجد عمورى فى تلك المرة حليفا يعتمد عليه فى مصر ، اذ اتحد المسلمون جميعا ضده ، فلم يبق أمامه سوى أن ينسحب فورا عائدا الى فلسطين فى يناير سنة ١١٦٩ م (٥٦٤ هـ) ومعه رجاله « خائبين مما أملوه »(١٦) .

أما شيركوه فقد « فرح به أهل مصر » ، واستقبلوه عند وصوله الى القاهرة استقبال البطل المخلص . وسرعان ما استدعاه الخليفة

---

(١٥) ابو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٩١ — ٣٩٢ (تحقيق محمد حلمى) .

(١٦) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٤ هـ ، التاريخ الباهر ، ص ١٣٨ .

العاضد الفاطمى وخلع عليه خلعة الوزارة ولقبه بالمنصور « وأجريت عليه وعلى عساكره الجرايات الكثيرة والاقامات الوافرة »[١٧] . وكان أن أخذ أرباب الدولة يترددون عليه لقضاء حوائجهم . ومن الطبيعى أن يحس شاور بخطر شيركوه ، لاسيما بعد أن رأى ترحيب الخليفة العاضد به ، ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئا « لأنه رأى العساكر كثيرة بظاهر البلد ، ورأى هوى العاضد معهم من داخله ». لذلك أرسل شاور مرة أخرى الى الصليبيين يستدعيهم لنجدته ويطلب منهم الحضور الى مصر عن طريق دمياط[١٨] . بل ان شاور دبر مؤامرة للقبض على شيركوه وأمرائه ، وقتلهم جميعا أثناء وليمة يولمها لهم . وكان شاور قد تعهد بدفع ثلث أموال البلاد لشيركوه ، فلما أرسل اليه الاخير يطلب منه الوفاء بوعده أخذ يماطل لكسب الوقت ، انتظارا لوصول الصليبيين لنجدته . وأخيرا اجتمع أعيان مصر ، وقالوا لشيركوه ان « شاور سبب فساد البلاد والعباد » : وطالبوا بقتله وانقاذ المسلمين من شره[١٩] .

وهكذا انتهى الامر بقتل شاور وولده الكامل فى يناير سنة ١١٦٩ م (٥٦٤ هـ) ، وشارك الخليفة الفاطمى نفسه فى التخلص منه . أما شيركوه ، فقد دخل على رأس قواته — وبصحبته ابن أخيه صلاح الدين — القاهرة دخول الظافرين . حيث أباح للناس نهب قصر شاور . على أن شيركوه لم يلبث أن توفى بعد شهرين (مارس ١١٦٩) فخلفه فى الوزارة ابن أخيه صلاح الدين[٢٠] .

ظهور صلاح الدين :

كان جيش شيركوه فى مصر يضم جماعة من أكابر الامراء النورية

---

(١٧) ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٢٩ (تحقيق عبد القادر طليمات) .

(١٨) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٣٥١ .

(١٩) أبو شامة : كتاب الروضتين ، جـ ١ ق ٢ ، ص ٣٩٦ وما بعدها .

(٢٠) ابن الاثير : كتاب الكامل ، حوادث سنة ٥٦٤ هـ .

الذين تطلع كل منهم الى منصب الوزارة عقب وفاة شيركوه • ولكن المصادر المعاصرة تؤكد أن الخليفة العاضد الفاطمى أصر على اختيار صلاح الدين للوزارة ، ولما تمنع « ألزم به وأحضر الى القصر وخلعت عليه خلع الوزارة » • وربما ظن العاضد الفاطمى أن صغر سن صلاح الدين نسبيا يجعله عديم الخبرة فيسهل على الخليفة استخدامه فى القضاء على بقية أمراء نور الدين فى مصر ، وبذلك يكون الخليفة قد تخلص من نفوذ نور الدين وخطر شاور جميعا[٢١] • ويذكر المؤرخ ابن الأثير أن الخليفة العاضد الفاطمى ظن أنه اذا ولى صلاح الدين الوزارة ، فانه سيكون « فى ولايته مستضعفا ؛ يحكم عليه ولا يجسر على المخالفة ، وأنه — أى الخليفة — يضع على العسكر الشامى من يستميلهم اليه ، فاذا صار معه البعض أخرج الباقين وتعود البلاد اليه »[٢٢] •

ولكن ما كاد صلاح الدين يتولى الوزارة ؛ حتى خيب ظن الخليفة الفاطمى ، فشرع فى استمالة الناس اليه بما بذله من أموال كان شيركوه قد جمعها ، « فمال الناس اليه وأحبوه ؛ وضعف أمر العاضد »• ثم ان صلاح الدين أخضع مماليك شيركوه وسيطر سيطرة تامة على الجند ، فى الوقت الذى أمده نور الدين محمود بقوة جديدة من العسكر ، فيها شمس الدولة توران شاه أخو صلاح الدين • وبفضل ذلك كله ، تمكن صلاح الدين من القضاء على قوة الجند السودان الذين كانوا آخر سلاح اعتمد عليه الخليفة الفاطمى لاستعادة نفوذه[٢٣] •

وكان البلاط الفاطمى فى ذلك الوقت مركزا لكثير من الفتن والمؤامرات ، ولا يحجم بعض رجاله عن الاستعانة بالأعداء فى سبيل

---

(٢١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٥٤٥ (الطبعة الرابعة ، ١٩٨٦) •

(٢٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ١٤٢ •

(٢٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٧٤ (تحقيق جمال الدين الشيال) •

تحقيق مصالح خاصة مؤقتة . من ذلك أن رئيس بلاط قصر الخليفة العاضد ـــ وكان خصيا نوبيا اســمه مؤتمن الخــلافة ـــ استاء من صلاح الدين عندما ثقلت وطأته على أهل القصر ، فدبر مؤامرة للخلاص منه ، وحاول أن يتصــل بعمورى الاول والصليبيين للحصــول على معونتهم . ولكن رسالة مؤتمن الخلافة الى عمورى وقعت فى يد صلاح الدين ، فرأى أن يستأصل الشر من جذوره ويقضى على أية محاولة للعودة الى سياسة ضرغام وشاور . لذلك قتل مؤتمن الخلافة فورا فى ٢٠ أغسطس سنة ١١٦٩ (٥٦٤ هـ)[٢٤] .

ثم لجأ صلاح الدين الى ابعاد جميع الخصيان ، والخدم السودان عن قصر الخلافة الفاطمية ، الامر الذى استثارهم . فتجمــع منهم خمسون ألفا وقاموا بثورة كبيرة فى الفسطاط . وقد أضطر صلاح الدين لاخماد هذه الثورة الى اشعال النار فى محلتهم التى اعتصموا فيها ، حتى طلبوا الامان فى أواخر أغسطس سنة ١١٦٩ م (٥٦٤ هـ) وانتقلوا الى الجيزة على الضفة الغربية للنيل . ولكن صلاح الدين أرسل اليهم أخاه توران شاه فى طائفة من العسكر « فأبادهم بالسيف »[٢٥] . وكذلك فعل صلاح الدين بحرس الخليفة الارمن ، اذ أشعل النار فى ثكناتهم ، وقبض عليهم حتى لا يعطيهم فرصة للقيام بما قام به السودان . وبذلك قضى صلاح الدين على عناصر المعارضة ، وأدب القوى التى حاولت الوقوف فى وجه آماله ومشاريعه ، فى حين « ضعف أمر العاضد بالكلية ، وتلاشى أمره ، وأمر صلاح الدين بتخريب محلة السودان وأعفى أثرها »[٢٦] . ولم يبق أمام صلاح الدين الا كبار المقطعين وملاك الأراضى الذين دفعهــم الحرص على ممتلكاتهم وضــياعهم

---

(٢٤) ابو شامة : كتاب الروضتين ، جـ ١ ق ٢ ، ص ١٧٨ ، ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٤ هـ .

(٢٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٧٦ ـــ ١٧٨ .

(٢٦) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٧٧ (تحقيق جمال الدين الشــيال) .

الواسعة الى مساندة الاوضاع القائمة ، فتخلص صلاح الدين من هؤلاء أيضا ، وأحل محلهم فى اقطاعاتهم جماعة من رجاله الوافدين معه صحبة جيوش نور الدين •

على أنه يلاحظ أن صلاح الدين قام بأعماله السابقة فى ذلك الدور بوصفه نائبا عن نور الدين محمود ، لا بوصفه وزيرا للخليفة الفاطمى• وبعبارة أخرى فان صلاح الدين استطاع حتى تلك المرحلة أن يحتفظ بعطف سيده نور الدين وعدم اثارة مخاوفه نتيجة للخطوات السريعة الناجحة التى دعم بها سلطانه فى مصر • والواقع ان صلاح الدين كان لا يستطيع بأى حال أن يستغنى عن معونة سيده نور الدين فى ذلك الدور المبكر من كفاحه ، لاسيما وأنه واجه صعابا عديدة داخل مصر فى الوقت الذى أخذ الصليبيون يتحفزون على الحدود الشرقية والشمالية للبـــلاد(٢٧) •

الصليبيون ومهاجمة مصر :

من الواضح أن نجاح قوات نور الدين محمود فى السيطرة على مصر أثار فزع الصليبيين بالشام ، بعد أن أحسوا بوقوعهم بين شقى الرحى • هذا الى أن سيطرة قوات نور الدين على القواعد البحرية فى شمال مصر — وبخاصة دمياط والاسكندرية — كان من شأنها أن تسلب الصليبيين انفرادهم بالسيطرة البحرية على ذلك الجزء من شرق البحر المتوسط •

وعندما فشل عمورى الاول ملك بيت المقدس فى الحصول على معونة سريعة من غرب أوربا لمواجهـــة خطر ازدياد نفوذ نور الدين محمود ، اتجه صوب الامبراطورية البيزنطية ، طالبا عقد تحالف بين

---

(٢٧) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٥٥٨ (الطبعة الرابعة ، ١٩٨٦) •

القوتين المسيحيتين لغزو مصر واقتسامها[٢٨] . وكان أن أعد الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين اسطولا كبيرا غادر الدردنيل فى يوليو ١١٦٩ م (٥٦٤ هـ) قاصدا قبرص ومنها الى صور ثم عكا للاتفاق مع الصليبيين على الخطة المشتركة لغزو مصر .

وقد تم الاتفاق فى هذه الخطة على غزو مصر برا وبحرا عن طريق دمياط ، فأقلع الاسطول البيزنطى صوب دمياط ، فى حين زحف الصليبيون برا فى أكتوبر سنة ١١٦٩ م (٥٦٥ هـ) من عسقلان الى الفرما قاصدين دمياط « ومعهم المنجنيقات والدبابات وآلات الحصار »[٢٩] ولكن الاسطول البيزنطى عندما وصل الى دمياط وقف عاجزا عن دخول الميناء ، بسبب المآصر ، وهى سلاسل حديدية ممتدة فى الماء بعرض الميناء لتمنع دخول سفن الاعداء .

وعندما علم صلاح الدين بتحركات الصليبيين ، ظن فى أول الامر أنهم سيقصدون القاهرة عن طريق الشرقية ، مثلما فعل الملك عمورى فى حملاته السابقة . لذلك أسرع صلاح الدين بتحصين بلبيس والقاهرة ، فضلا عن الاسكندرية وغيرها من المراكز الأمامية . فلما اتجهت الحملة الى دمياط وجد صلاح الدين نفسه فى موقف حرج ، لا سيما وأنه كان يخشى باستمرار نشوب ثورة ضده فى الداخل ، نتيجة لاستياء العناصر الموالية الخلافة الفاطمية من سياسته تجاه خصيان القصر والجند السودان .

ومع ذلك ، فان صلاح الدين ثبت للموقف ، وطلب النجدة العاجلة من سيده نور الدين « فسير نور الدين العساكر اليه أرسالا يتلو بعضها بعضا »[٣٠] . وفى الوقت نفسه كان تقى الدين عمر — ابن أخى

---

(28) Guillaume de Tyr (Rec. Hist. Cr. Doc. Occ. II p. 961)

(٢٩) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٨٠ .

(٣٠) ابن الأثير : كتاب الكامل ، حوادث سنة ٥٦٥ هـ .

صلاح الدين — ، وكذلك خاله شهاب الدين محمود الحارمى ، قد استطاعا دخول دمياط . فأرسل صلاح الدين الامدادات اليهما عن طريق النيل ، مما جعل الحصار الذى ضربه الصليبيون على المدينة غير تام[٣١] هذا الى أن أهل دمياط المحاصرين استغلوا جريان تيار النيل من الجنوب الى الشمال وأطلقوا على سطح الماء أوانى فخارية بها مواد مشتعلة ، أنزلت أبلغ الضرر بالاسطول البيزنطى ، فاضطر الى الابتعاد عن لسان النيل وعن المدينة[٣٢] .

ولم يلبث أن نفد تموين الاسطول ، واشتد القلق بالملك عمورى نتيجة للأخبار التى وصلته عن اشتداد هجمات نور الدين على الصليبيين بالشام . لذلك رفع عمورى الحصار عن دمياط ؛ وعاد ومعه جيوشه الى عسقلان فى أواخر ديسمبر سنة ١١٦٩ م (٥٦٥ هـ) ترافقهم خيبة الامل ، فى الوقت الذى لم يستطع بحارة السفن البيزنطية التحكم فيها بسبب اشتداد الرياح ، مما أدى الى غرق كثير منها .

ولا شك فى أن فشل هذه الحملة الصليبية البيزنطية أدى الى دعم مركز صلاح الدين فى مصر ، وجعل الخلافة الفاطمية تفقد آخر أمل لها فى التخلص من قبضته القوية . وكان أن أرسل الخليفة العاضد الفاطمى — عقب انسحاب الصليبيين — الىّ نور الدين يرجوه سحب جنده الاتراك من القاهرة بحجة أنهم بثوا الرعب فى قلوب أهلها . ولكن نور الدين أرسل اليه « يمدح الاتراك ، ويعلمه أنه ما أرسلهم واعتمد عليهم الا لعلمه بأن قنطاريات (رماح) الفرنج ليس لها الا سهام الاتراك ، فان الفرنج لا يرعبون الا منهم »[٣٣] .

---

(٣١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٥٦١ (١٩٨٦) .
(32) Guillaume de Tyr (Rec. Hist. Cr. II p. 968).
(٣٣) ابو شامة : الكتاب الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٦٠ .

سقوط الخـلافة الفاطمية :

وفى تلك الاثناء كان نور الدين قد شدد هجماته على الصليبيين بالشام ، كما فرض سيادته على الموصل سنة ٥٦٦ هـ (١١٧١ م) . على أن هناك مشكلة كبرى لها خطورتها أقلقت بال نور الدين محمود وصلاح الدين يوسف جميعا ، هى المشكلة الخاصة بضرورة وضع نهاية للخلافة الفاطمية . ذلك أن بقاء هذه الخلافة الشيعية تحت حماية قوة تدين بالمذهب السنى بدا أمرا غير طبيعى يتطلب وضع حل سريع له . ومن الثابت أن علاقة نور الدين محمود بالخلافة العباسية ، ازدادت متانة وقوة عقب نجاح نور الدين فى بسـط سيادته على الموصل[٣٤] . ولكن يبدو أن الخـلافة العباسـية كانت تنتظر من نور الدين أن يفعل شيئا ما اتجاه الخلافة الفاطمية التى ظلت قائمة تحت حمايته فى مصر . أما صلاح الدين يوسف فلم يكن أقل تحمسا للمذهب السنى لأنه كان شافعيا ملتزما : ولذا فانه أخذ يعمل منذ أن استتبت له الامور فى مصر على دعم المذهب السنى فى البلاد ، والخليفة الفاطمى فى قصره يسمع ويرى دون أن يقوى على مقاومة ذلك التيار الجديد .

ومع ذلك فانه يبدو أن صلاح الدين ظل متخوفا من الاقدام على الخطوة الحاسمة الخاصة باسقاط الخلافة الفاطمية . ويفسر البعض مخاوف صلاح الدين من الاقدام على هذه الخطوة بأنه فى حقيقة الامر كان متخوفا من نوايا سيده نور الدين محمود أكثر من تخوفه من قوة الشيعة والخلافة الفاطمية فى مصر . ذلك أن صلاح الدين أخذ يحس فى ذلك الدور بتغير شعور نور الدين نحوه ، وأن نور الدين بات يحسد صلاح الدين على ما حققه من مكانة فى مصر . وأنه أخذ يتوجس خيفة من ازدياد نفوذه مما يهدد مصالح نور الدين . لذلك رأى صلاح الدين

---

(٣٤) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٦٦ هـ .

أن يبقى على الخلافه الفاطميه فى صورتها الهشة ليستغلها عند الحاجة كستار يحميه من سيده نور الدين اذا تأزم الموقف بين الرجلين[٣٥] .

وهكذا أخذ صلاح الدين يماطل سيده نور الدين عندما طلب منه الاخير اسقاط الخلافه الفاطمية ، تحقيقا للوحدة المذهبية فى العالم الاسلامى . وقد رد صلاح الدين على طلب سيده نور الدين معتذرا « بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الاجابة الى ذلك ، لميلهم الى العلويين » . ولكن نور الدين « لم يصغ الى قوله » ، وأرسل اليه انذارا نهائيا فى صيف سنة ١١٧١ م (٥٦٦ هـ) يأمره فيه باحلال اسم الخليفه العباسى المستضىء محل اسم الخليفة الفاطمى العاضد فى خطبة الجمعه « وألزمه ذلك الزاما لا فسحة فيه »[٣٦] .

وأخيرا اضطر صلاح الدين الى اتخاذ تلك الخطوة الخطيرة ، فتم الدعاء فى أول جمعه من عام ٥٦٧ هـ (سبتمبر ١١٧١) للخليفة العباسى المستضىء أمير المؤمنين بالقاهرة . وحدث الانقلاب فى هدوء ، دون أن « ينتطح فيه عنزان » على قول المؤرخ ابن الاثير[٣٧] . ويقال ان الخليفة العاضد الفاطمى توفى بعد ذلك الانقلاب بثلاثة أيام دون أن يسمع بزوال دولته وسقوط خلافته ، لأن صلاح الدين عندما علم بمرضه أمر باخفاء الخبر عنه ليتركه يقضى نحبه فى هدوء . وبعد ذلك اتخذ صلاح الدين عدة اجراءات حاسمة للقضاء على آثار الخلافة الفاطمية فى مصر . من ذلك ما يرويه المقريزى أنه نزع المناطق الفضة التى كانت بمحاريب جوامع القاهرة ، والتى كانت تحمل أسماء الخلفاء

---

(٣٥) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٧ هـ .

(٣٦) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٢٠٠ ؛ ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٥٦ .

(٣٧) ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٥٦ ؛ الكامل ، حوادث سنة ٥٦٧ هـ .

الفاطميين[٣٨] . هذا فضلا عن أنه كان — بعد أن ولى الوزارة — قد أنشأ مدرسة للشافعية « ولم يكن بمصر للشافعية ، ولا لغيرهم مدرسة ، لأن الدولة كانت اسماعيلية » . كذلك فوض القضاء بالديار المصرية الى قاضى القضاة صدر الدين الهذبانى الشافعى ، الذى جعل « القضاة فى سائر الديار المصرية شافعية ، فاشتهر مذهب الشافعية ؛ واندرس مذهب الاسماعيلية بالكلية ، وانمحى أثره »[٣٩] .

ولا شك فى أن سقوط الخلافة الفاطمية لم يكن مجرد انقلاب عادى ؛ وانما كان حدثا خطيرا فى تاريخ العالم الاسلامى بوجه عام وفى تاريخ مصر بوجه خاص . فهاهى دولة الفاطميين تنهار بعد قرنين من الزمان تقريبا ، لتعود لزعامة العالم الاسلامى وحدتها المذهبية ، وتصبح الخلافة العباسية ، هى الوحيدة التى تدين لها غالبية المسلمين بولائهم الروحى . لذلك لا عجب اذا أقيمت الاحتفالات فى بغداد تعبيرا عن شعور الفرح بذلك النصر الذى تحقق للخلافة العباسية ، بل ان الخليفة العباسى المستضىء بأمر الله بادر بارسال الخلع الى نور الدين وصلاح الدين ، ومعها الاعلام والرايات السود شعار العباسيين[٤٠] .

---

(٣٨) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ق ١ ، ص ٤٣ — ٤٥ (تحقيق محمد مصطفى زيادة) .

(٣٩) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٩٧ — ١٩٨ (تحقيق جمال الدين الشيال) .

(٤٠) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٦٧ هـ ؛ المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ق ١ ، ص ٤٦ .

الفصل الثانى

صلاح الدين وتأسيس الدولة الايوبية

الوحشة بين صلاح الدين ونور الدين :

لم تلبث أن دبت الوحشة بين صلاح الدين فى مصر وسيده نور الدين بالشام ؛ وذلك عقب سقوط الخلافة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) بسبب تحديد علاقة الطرفين بعضهما ببعض . فحتى سقوط الخلافة الفاطمية كان صلاح الدين يباشر سلطانه الفعلى فى مصر بوصفه وزيرا شرعيا للخليفة الفاطمى ، فضلا عن قيامه بتنفيذ تعليمات نور الدين ؛ بوصفه نائبا عنه ، وقائدا لقواته فى مصر . وفى ذلك الدور كانت الخطبة على المنابر « بالديار المصرية للخليفة العاضد ، وبعده للملك العادل نور الدين »[1] . ولكن بسقوط الخلافة الفاطمية ووفاة الخليفة العاضد « صفا الوقت لصلاح الدين » على قول المؤرخ ابن تغرى بردى ، وصار يخطب باسمه على المنابر بعد الخليفة العباسى والملك العادل نور الدين محمود[2] .

ومع ذلك ، فان جميع الدلائل تشير الى أن صلاح الدين ظل فى تلك المرحلة محافظا على ولائه لسيده نور الدين محمود ، فكان لا يخرج عن أوامره « ويعمل له عمل القوى الامين ، ويرجع فى جميع مصالحه الى رأيه المتين »[3] . كل ما فى الامر هو أن الظروف التى أحاطت

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ص ١٧٣ (تحقيق جمال الدين الشيال) .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٣٥٧ .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ، جـ ١ ق ٢ ، ص ٥٠٣ (تحقيق محمد حلمى) .

بصلاح الدين أجبرته على توسيع دائرة نشاطه ، وذلك بحكم ولايته منصب الوزارة فى مصر • من ذلك أنه خرج الى جهة الرملة ، وعسقلان وغزة للقيام بهجمات محدودة على الصليبيين حتى يشعرهم بقسوته ، كما فتح قلعة أيلة وأسر من فيها من الصليبيين • أما فى الداخل ، فقد زار الاسكندرية « ليشاهدها ، ويرتب قواعدها ، وأمر بعمارة أسوارها وأبراجها »(٤) •

ولا شك فى أن هذا النشاط المتعدد الأوجه وما صحبه من ازدياد أهمية صلاح الدين على مسرح الاحداث ، كل ذلك استثار مخاوف سيده نور الدين محمود ، وخاصة بعد أن سقطت الخلافة الفاطمية ، وظهر صلاح الدين فى صورة الرجل الاول فى مصر • وكان على صلاح الدين عندئذ أن يحدد موقفه من سيده نور الدين ، وأن يختار أحد طريقين : فاما أن يظل على ولائه لنور الدين وفى هذه الحالة عليه أن يتقبل قرار نقله من مصر فى أية لحظة ؛ واحلال غيره محله • واما أن يستقل عن نور الدين ويخرج عن طاعته ؛ وفى هذه الحالة عليه أن يكون مستعدا للدخول فى معركة ضده . وقد تنتهى هذه المعركة بفوزه بمصر أو بأفول نجمه على أرضها(٥) •

ويروى لنا المؤرخون المعاصرون مثلا واضحا لتخوف صلاح الدين من نوايا سيده نور الدين فى ذلك الدور • ذلك أن صلاح الدين خرج من مصر فى أواخر سبتمبر سنة ١١٧١ م (٥٦٧ هـ) ، وذلك بناء على أوامر صدرت اليه من سيده نور الدين لمحاصرة حصن الشوبك — جنوبى البحر الميت — والاجتماع مع سيده هناك لمهاجمة حصنى الكرك والشوبك • ولم يستطع الصليبيون فى حصن الشوبك الصمود طويلا ، فطلبوا اعطائهم مهلة عشرة أيام للتسليم • ولكن صلاح الدين لم يلبث

---

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٩٨ — ١٩٩ •
(5) Grousset : Hist. des Croisades. II, p. 590.

— وهو أمام الشوبك — أن علم بمسيرة نور الدين اليه لمساعدته . وعندئذ أوجس صلاح الدين خيفة ، وخشى أن يقبض عليه سيده نور الدين ويمنعه من العودة الى مصر ، فبادر بالانسحاب والعودة الى مصر ، معتذرا « باختلال أمور البلاد — أى مصر — وأنه يخاف عليها من البعد عنها » ، وتحجج بأن العلويين على وشك اشعال ثورة فى القاهرة ، مما تطلب سرعة عودته . وهكذا لم يشأ صلاح الدين أن ينتظر وصول سيده نور الدين ، وانما قفل راجعا ، ويبدو « أن أصحابه وخواصه خوفوه من الاجتماع بنور الدين »(٦) .

ومن الطبيعى أن يستاء نور الدين محمود من سلوك نائبه فى مصر ، « فعظم عليه ذلك ولم يقبل عذره » . بل ان نور الدين أخذ يستعد للزحف على مصر لتأديب صلاح الدين : الامر الذى أخاف الاخير ، فعقد اجتماعا ضم أهل بيته وبعض خاصته للتشاور فيما يجب عمله لمواجهة الموقف . وفى الاجتماع تحدث بعض الشبان المتحمسين من أسرة صلاح الدين — مثل ابن أخيه المظفر تقى الدين عمر — فنادوا بالتصدى لنور الدين ومقاتلته . ولكن والد صلاح الدين — وهو الشيخ نجم الدين أيوب « وكان ذا رأى ومكر وعقل .. » تدخل فورا بلباقة : فشتم أولئك المتهورين . ثم نظر الى ابنه صلاح الدين يوسف وقال : « والله لو رأيت — أنا وخالك هذا — السلطان نور الدين لم يمكننا الا أن نترجل له ؛ ونقبل الارض بين يديه . ولو أمرنا بضرب عنقك بالسيف لفعلنا ! ... وهذه البلاد له ، وقد أقامك فيها نائبا عنه . فاذا أراد عزلك فأى حاجة الى المجىء ؟ يأمرك بكتاب مع نجاب حتى تقصد خدمته ويولى البلاد من يريد »(٧) . ثم

---

(٦) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٧ هـ ؛
ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٢٢١ — ٢٢٢ ؛
ابو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ق ٢ ، ص ٥١٨ .
(٧) المقريزى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٤٩ (تحقيق محمد مصطفى زيادة) .

نظر الشيخ نجم الدين أيوب الى الجميع وصاح فيهم « قوموا عنا ، فنحن مماليك نور الدين وعبيده ، يفعل بنا ما يريد » .

ولما خلا أيوب بابنه صلاح الدين همس فى أذنه « أنت جاهل قليل المعرفة . تجمع هذا الجمع الكثير وتطلعهم على ما فى نفسك ؟ فاذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه عن البلاد جعلك أهم الامور اليه وأولاها بالقصد . ولو قصدك لم تر معك أحداً من هذا العسكر ، وكانوا أسلموك اليه . وأما الآن بعد هذا المجلس ، فسيكتبون اليه ويعرفونه قولى . وتكتب أنت اليه وترسل فى هذا المعنى ، وتقول : أى حاجة الى قصدى ، يجىء نجاب يأخذنى بحبل يضعه فى عنقى . فهو اذا سمع هذا عدل عن قصدك واشتغل بما هو أهم عنده . والايام تندرج والله كل وقت فى شأن !! » .

وكان أن استجاب صلاح الدين لنصح والده ، وكتب الى نور الدين يعرب له عن ولائه ، كما أرسل اليه هدية ثمينة من الحيوانات النادرة والجواهر والاقمشة والمصنوعات والعطر (٨) .

ولكن يبدو أن كل ذلك لم يقلل من غضب نور الدين محمود ، ومخاوفه لاحساسه بأن صلاح الدين استولى فعلا على مصر ، بحيث « لم تخف حال نور الدين فى كراهية الملك الناصر (صلاح الدين) ، وقد علم بذلك جميع الاجناد والامراء وتحدث به العوام »(٩) .

أما صلاح الدين ، فانه لم يتقاعس عن حماية مكاسبه التى حققها فى مصر ، ولم يشأ أن يتخلى عن مطامعه ، وانما أخذ يستعد لما عساه

---

(٨) ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٥٨ — ١٥٩ ،
ابو شامة : كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٥١٨ — ٥٢٠ .
ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٢٢٢ — ٢٢٤ .
(٩) أبو شامة : كتاب الروضتين ، جـ ١ ق ٢ ، ص ٥٢٥ .

يحدث فى المستقبل . وكان أن فكر صلاح الدين وأهله « فى تحصيل مملكة يقصدونها ويتملكونها ، تكون عدة لهم ، ان أخرجهم نور الدين من مصر ساروا اليها وأقاموا بها »(١٠) . لذلك أرسل صلاح الدين أخاه شمس الدولة توران شاه فى أواخر سنة ١١٧٢ م (٥٦٨ هـ) لفتح بلاد النوبة ، حتى تصبح مأوى للأيوبيين فى حالة دخول نور الدين مصر . ولما اكتشف صلاح الدين أن بلاد النوبة فقيرة « قليلة الجدوى » ، أرسل أخاه توران شاه الى اليمن سـنة ١١٧٤ م (٥٧٠ هـ) حيث أخضعها وحقق تبعيتها لصلاح الدين(١١) . بل ان المؤرخ ابن الاثير يبالغ فيذكر أن صلاح الدين حرص فى ذلك الدور على عدم التوسع فى محاربة الصليبيين ليظلوا ستارا يفصل بينه وبين سيده نور الدين ، ولذلك أظهر « فتورا فى غزو الفرنج من ناحيته »(١٢) . ويتفق أبو شامة مع ابن الاثير فى وجهة نظره ، فيقول ان صلاح الدين كان يرى فى بقاء الصليبيين فى فلسطين فى تلك المرحلة ستارا يحميه من نور الدين ، وأنه « كان يعتقد أن نور الدين متى زال عن طريقه الفرنج أخذ البلاد منه ، فكان يحتمى بهم عليه ، ولا يؤثر استئصالهم »(١٣) .

حقيقة ان صلاح الدين قام بغزو ممتلكات الصليبيين فى الكرك والشوبك سنة ١١٧٣ م (٥٦٨ هـ) وذلك بناء على نصيحة والده ، ولكن هذه الغزوة لم تطل ، بل على العكس أدت الى تجدد الخلاف بينه وبين سيده نور الدين . ذلك أن صلاح الدين ما كاد يحاصر حصن الكرك ، حتى عاد وتخوف من نوايا نور الدين تجاهه ، وعندما علم صلاح الدين باقتراب سيده نور الدين من حصن الكرك ، انسحب فورا

---

(١٠) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٩ هـ ، المقريزى : كتـاب السلوك ، جـ ١ ، ص ٥٢ .

(١١) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٢٣٧ — ٢٤٣ .

(١٢) ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٦١ .

(١٣) أبو شـامة : كتاب الروضتين ، جـ ١ ق ٢ ، ص ٥٨١ — ٥٨٢ .

عائدا الى مصر ، متحججا بمرض أبيه « وأنه يخاف أن يحدث عليه حادث الموت »[١٤] . وفى تلك المرة ، كان صبر نور الدين قد نفد ، فصمم نهائيا على غزو مصر والقيام بعمل حاسم لتأديب صلاح الدين . ويذكر بعض المؤرخين أن صلاح الدين أخذ يستعد لمواجهة الموقف ، وأنه شرع فى بناء « السور الدائر بالقاهرة ومصر المحروستين وذلك خوفا من نور الدين الشهيد »[١٥] . ولا نميل الى الاخذ بهذا الرأى لأن التفكير فى ترميم السور كان حوالى سنة ٥٦٥ هـ (١١٦٩ م) عندما جاءت الاخبار باستعداد الصليبيين لغزو مصر . ومهما يكن من أمر ، فان نور الدين ما كاد يستعد لغزو مصر ، حتى دهمه الموت فجأة فى مايو ١١٧٤ م (٥٦٩ هـ) ، وبذلك صارت الساحة خالية أمام صلاح الدين[١٦] . والمرجح أن صلاح الدين أمر ببناء سور القاهرة سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) ، أى بعد وفاة نور الدين .

المؤامرة الكبرى ضد صلاح الدين (٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م) :

استطاع صلاح الدين فى مدى فترة قصيرة أن يتخلص من القوى التى اعترضت سبيله أو شكلت عقبات على طريق طموحاته ، فقضى على الجند السودان ، وهم دعامة الخلافة الفاطمية الذين ثاروا ضده ، ثم خلصه الموت من الخليفة العاضد الفاطمى ، ومن سيده نور الدين محمود جميعا . على أنه لم يكن معنى سقوط الخلافة الفاطمية من ناحية ، ووفاة نور الدين محمود من ناحية أخرى ، أن صلاح الدين

---

(١٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ص ٢٣٠ . هذا وقد توفى نجم الدين ايوب فعلا فى ذى الحجة سنة ٥٦٨ هـ لكن وفاته لم تكن بسبب مرض وانما نتيجة لسقوطه من فوق فرسه . وكان نجم الدين مولعا باللعب بالكرة وشدة الركض .

انظر : ابن أيبك الدوادارى : كنز الدرر جـ ٧ ص ٤١ (تحقيق المؤلف) .

(١٥) ابن أيبك الدودارى : كنز الدرر وجامع الغرر — الجزء السابع المسمى « الدر المطلوب فى اخبار ملوك بنى ايوب » ص ٤٢ (تحقيق المؤلف ، ١٩٧٢) .

(١٦) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٩ هـ .

غدا فعلا وارث الدولتين الفاطمية والنورية ، وأن الامور استقرت له تماما فى مصر والشام • ذلك أنه كان على صلاح الدين أن يواجه متاعب جمة من جانب أتباع الفاطميين فى مصر ، ثم من جانب ورثة نور الدين وأتباعه فى الشام • وقد أدرك صلاح الدين منذ وقت مبكر أنه لابد من وحدة اسلامية متينة فى الشرق الأدنى قبل الشروع فى حركة الجهاد الكبرى ضد الصليبيين • وهذه الوحدة لا تكتمل الا باخضاع العناصر المناوئة على امتداد الجبهة الاسلامية المواجهة للخطر الصليبى من الفرات الى النيل •

وأما من ناحية مصر ، فيلاحظ أنه اذا كانت الخلافة الفاطمية قد ماتت موتا صامتا فى ظاهر الامر ، الا أن المخلصين من أتباع تلك الخلافة لم يرضوا عن الانقلاب الذى حدث • وكان هؤلاء الأتباع اما من الشيعة أو من جماعة المنتفعين من النظام القديم ، وهؤلاء جميعا عز عليهم أن يعصف صلاح الدين بخلافتهم ومذهبهم ومصالحهم ونفوذهم • ومن المعروف فى التاريخ أن لكل دولة أنصارها ولكل نظام أشياعه ، حتى لو كانت هذه الدولة أو ذلك النظام يتصف بالفساد ، وهؤلاء الانصار والاشياع هم فى المقام الاول جماعة المنتفعين من ذلك النظام أو المتعيشين فى ظل تلك الدولة •

ولم تلبث أن دبرت مؤامرة كبرى فى القاهرة سنة ٥٦٩ هـ (مارس — ابريل ١١٧٤ م) — أى قبيل وفاة نور الدين محمود بقليل — ، اشتركت فى حبك أطرافها كافة العناصر المستفيدة من العهد البائد ، الناقمة على الوضع الجديد • واتخذ المتآمرون من السعى لاحياء الخلافة الفاطمية ستارا يخفون نواياهم خلفه ومحورا يلتقون حوله • أما زعماء هذه المؤامرة فكانوا الشاعر عمارة اليمنى ، وعبد الصمد الكاتب ، والقاضى العوريس داعى دعاة الشيعة ، وابن عبد القوى ، فضلا عن عدد آخر كبير من أتباع الدولة الفاطمية وموظفيها وبقايا الجند السودان ، وخدم القصر الفاطمى وغيرهم ، « وأجمعوا

على أن يقيموا خليفة ووزيرا »[١٧] .

وعندما أدرك المتآمرون أنهم فى مسيس الحاجة الى قوة خارجية تساعدهم فى تنفيذ مؤامرتهم ، اتصلوا بالباطنية الحشيشية ، وهى القوة الشيعية الكبرى فى بلاد الشام ، وطلبوا منهم العمل على قتل صلاح الدين[١٨] . ولم يكتف المتآمرون بذلك وانما اتصلوا أيضا بالصليبيين ، واتفقوا معهم على أن تقوم القوات الصليبية بغزو مصر فى نفس الوقت الذى يشعلون هم نار الثورة فى القاهرة والفسطاط ، حتى يقع صلاح الدين بين نارين[١٩] . يضاف الى ذلك أن المتآمرين اتصلوا كذلك بوليم الثانى النورمانى ملك صقلية ليهاجم أسطوله الاسكندرية فى الوقت الذى يدهم الصليبيون مصر من ناحية الشرق . وهكذا أحكم المتآمرون حلقة الحصار حول صلاح الدين ، ووضعوا جميع الترتيبات ، بحيث « لم يبق الا رحيل الفرنج » على قول ابن الاثير[٢٠] .

وقبل الشروع فى التنفيذ ، أرسل عمورى الاول رسولا الى القاهرة ، يحمل فى ظاهر الامر تحيات الملك الصليبى لصلاح الدين ، ولكنه استهدف فى الحقيقة رسم الخطوط النهائية للمؤامرة مع المتآمرين . وقد اختار المتآمرون فرصة تغيب توران شاه فى اليمن موعدا لتنفيذ مؤامرتهم ، حتى لا يحل محل أخيه صلاح الدين فى حالة قتله . ويبلغ من ثقة المتآمرين فى نجاح مؤامرتهم أنهم عينوا أعضاء

---

(١٧) ابو شامة : كتاب الروضتين ، جـ ١ ق ٢ ص ٥٦١ ، المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٥٣ ، هذا ويلاحظ أن الشاعر عمارة اليمنى لم يكن على مذهب الفاطميين « وانما كان شافعيا سنيا » ولكنه عندما قدم على الفاطميين من اليمن « احسنوا اليه وخولوه ، فرعى ذلك لهم » اى حفظ لهم الجميل عند انقضاء دولتهم . انظر : ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ص ٢١٢ .

(١٨) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٢٤٩ .

(١٩) Wiet : L'Egypte Arabe, p. 311.

(٢٠) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٦٩ هـ .

الجهاز الحكومى الجديد « وعينوا الخليفة والوزير ، وتقاسموا الدور والأملاك ، وكادت آمالهم تدنو من الادراك » ، بحيث لم يبق الا التنفيذ[٢١] . وكان ذلك فى الوقت الذى استجاب وليم الثانى ملك صقلية للدعوة التى وجهت اليه ، وأعد أسطولا ضخما من ستمائة سفينة تحمل ما يقرب من ثلاثين ألف رجل ، خرجت فعلا فى اتجاه الاسكندرية[٢٢] .

على أن المؤامرة لم تلبث أن تكشفت وتم اجهاضها قبل أن تولد . ذلك أن المتآمرين أشركوا معهم فى سرهم الفقيه الواعظ الحنبلى زين الدين على بن نجا[٢٣] ، فقام باطلاع صلاح الدين على جميع حلقات المؤامرة أولا فأول . وفى الوقت نفسه وصل المبعوث الذى أرسله عمورى الاول الى القاهرة محملا بالهدايا وعبارات الود لصلاح الدين ، فانكشف أمره بعد قليل . أما صلاح الدين ، فلم يكد يتأكد من حقيقة المؤامرة حتى قبض على المتآمرين فورا ، وصلب زعماءهم الشاعر عمارة بن أبى الحسن اليمنى ، وعبد الصمد الكاتب ، والعوريس القاضى . وتم ذلك فى ابريل سنة ١١٧٤ م (٥٦٩ هـ) ، فى حين اختفى آخر الامراء الفاطميين وهو ابن الخليفة العاضد[٢٤] .

أما عمورى الاول — ملك بيت المقدس — فلم يكد يعلم بانكشاف سر المؤامرة فى القاهرة ، وفشل خطته الموضوعة لغزو مصر ، حتى انهارت معنوياته ، وتوفى مقهورا فى بيت المقدس (يوليو ١١٧٤ م /

---

(٢١) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ص ٢٤٤ ، ابو شامة : كتاب الروضتين ، جـ ١ ق ٢ ، ص ٥٦٠ .

(٢٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٨٠ .

(٢٣) عن سيرته انظر :

ابن العماد : شذرات الذهب فى اخبار من ذهب ، جـ ٤ ص ٣٤٠ — ٣٤١ (القاهرة ١٣٥١ هـ) .

(٢٤) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٦٩ هـ .

٥٦٩ هـ)[٢٥] ولم يلبث أن وصل أسطول صقلية الى الاسكندرية فى ٢٨ يوليو من العام نفسه ، فوجد كل شيء قد انتهى ، فالمؤامرة فشلت بعد أن انكشفت ، وحليفه الملك عمورى الاول مات ، وبذلك فان الشروع فى غزو مصر صار غير ذى موضـــوع • ومع ذلك فان رجـــال الحملة النورمانية حاولوا اقتحام الاسكندرية ، ولكن المسلمين صمدوا لهم ، وأحرقوا بعضا من سفنهم ، فى حين قدم صلاح الدين نفسه مسرعا ومعه جيشه ، فهاجم النورمان وأغرق بعض سفنهم • وهكذا « ولت بقية المراكب هاربة ، وجاءتها أحكام الله الغالبة ، وبقى العدو بين قتل وغرق ، وأسر وفرق ••• »[٢٦] •

ثم ان صلاح الدين وجه جهوده بسرعة نحو اخماد ثورة أخـــرى قامت فى أسوان على حدود النوبة ، أشعلها أحد قادة الفاطميين — واسمه كنز الدولة — الذى جمع حوله فى أسوان بعض العناصر المتعاطفة مع الدولة الفاطمية ، وأوهمهم « أنه يملك البلاد ، ويعيد الدولة العبيدية (الفاطمية) المصرية » ، ثم زحف بهم على قوص • ولكن الحملة التى أرسلها صلاح الدين بقيادة أخيه العادل سيف الدين ، استطاعت أن تقضى على ذلك النفر من الجند السودان قضاء مبرما ، حتى « استأصل شأفتهم وأخمد ثائرتهم » • وكان ذلك فى أوائل ســـبتمبر ١١٧٤ م (٥٧٠ هـ)[٢٧] •

---

(٢٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ص ٥٧٦ (الطبعـــة الرابعة ، ١٩٨٦) •

(٢٦) ابو شامة : كتاب الروضتين ، جـ ١ ق ٢ ، ص ٥٩٨ ومابعدها ، ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٧٠ هـ •

(٢٧) ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، ص ٧٩ ، ابو شامة : كتاب الروضتين ، جـ ١ ق ٢ ، ص ٦٠٠ — ٦٠١ •

صلاح الدين ورأب الوحدة الاسلامية :

جاءت وفاة نور الدين محمود فى منتصف مايو سنة ١١٧٤ م (٥٦٩ هـ) خسارة كبرى للمسلمين ، لما ترتب عليها من تصدع الوحدة الاسلامية ، فى بلاد الشام وشمال العراق ، وهى الوحدة التى أجهد نور الدين نفسه فى بنائها . وكانت المشكلة الكبرى التى سببت ذلك التصدع ، هى تقسيم دولة نور الدين بين أمرائه وأهل بيته . ذلك أن الوريث الاول لنور الدين محمود فى حلب ودمشق كان ابنه الملك الصالح اسماعيل ، الذى لم يتجاوز عند وفاة أبيه الحادية عشرة . ولكن الملك الصالح اسماعيل هذا كان له ابن عم — هو سيف الدين غازى الثانى — أتابك الموصل — الذى فرح لوفاة عمه نور الدين ، وأسرع الى احتلال بعض المواقع باقليم الجزيرة مثل نصيبين والخابور وحران والرها وغيرها(٢٨) .

ثم ان المنازعات بعد وفاة نور الدين محمود لم تقتصر على ما شب بين ورثة نور الدين وبقايا البيت الزنكى فى شمال الشام واقليم الجزيرة ، وانما امتدت الى أمرائه ، فدب الخلاف بين أقوى رجلين من أمراء نور الدين ، وهما شمس الدين على بين الداية ، وشمس الدين محمد المعروف بان المقدم . وكان سبب هذا الخلاف الوصاية على الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود ، فاحتل ابن الداية قلعة حلب بوصفها المركز الاول للدولة النورية ، فى حين تحفظ ابن المقدم على شخص الملك الصالح اسماعيل فى دمشق ، وان كان الصالح اسماعيل لم يلبث أن نقل الى حلب بعد قليل(٢٩) .

ولا شك فى أن هذه الخلافات هددت مركز المسلمين فى الشرق

---

(٢٨) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٩ هـ ، التاريخ الباهر ، ص ١٧٥ وما بعدها .

(٢٩) أبو شامة : كتاب الروضتين ، جـ ١ ق ٢ ، ص ٥٩٥ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ٩ .

الادنى تهديدا خطيرا ، فى الوقت الذى كان الصليبيون يتوعدون ويهددون ويتحفزون . وفى تلك الازمة ظهر صوت ينادى بتحكيم صلاحُ الدين والالتفاف حوله ، بوصفه أقوى أمراء الدولة النورية ، والمتحكم فى ملك مصر بمواردها وثروتها وقوتها . ذلك أن القاضى كمال الدين الشهرزورى أشار على الامير ابن المقدم ، وعلى بقية أمراء نور الدين محمود بالرجوع الى رأى صلاح الدين يوسف والانقياد له ، وقال لهم « وقد علمتم أن صلاح الدين من مماليك نور الدين ونوابه ، والمصلحة أن نشاوره فيما نفعله ولا نخرجه من طاعة الملك الصالح ، ويجعل ذلك حجة علينا . وهو أقوى منا لأن له ملك مصر ، وربما أخرجنا وتولى هو خدمة الملك الصالح » . ولكن الامراء الطامعين خشوا بأس صلاح الدين « وخافوا أن يدخل صلاح الدين ويخرجهم »(٣٠) .

أما صلاح الدين نفسه ، فقد صار لا سلطان لأحد عليه فى مصر . وكان من الممكن أن يتدخل فى شئون الشام عقب وفاة نور الدين مباشرة ، لولا وصول الاسطول النورمانى الى الاسكندرية مما أخره بعض الوقت . لذلك اكتفى صلاح الدين بأن أرسل الى الشام يعلن حقه فى الوصاية على الصالح اسماعيل بن نور الدين وأملاكه . وفى الرسالة التى أرسلها صلاح الدين الى أمراء الشام قال لهم « لو أن نور الدين علم أن فيكم من يقوم مقامى ، أو يثق اليه مثل ثقته بى ، لسلم اليكم مصر التى هى أعظم ممالكه وولاياته . ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد الى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيرى »(٣١) .

وقد وجد صلاح الدين سندا قويا للتدخل بدعوى حماية وحدة المسلمين فى الوقت الذى شرع الصليبيون فعلا فى مهاجمة المدن

---

(٣٠) ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٦٢ ،
ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ص ٣ (تحقيق جمال الدين الشيال) .

(٣١) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ٧

والمعاقل الاسـلامية فى الشـام • ذلك أنه لم تكد تمضى على وفاة نور الدين محمود مدة قصيرة ، حتى شرع الصليبيون فى مهاجمة بانياس محاولين الاستيلاء عليها ، ولكن المدينة صمدت للحصـار أسبوعين • وبدلا من أن يحاول الامير ابن المقدم التصدى للصليبيين وردعهم ، اذا به « راسلهم ولاطفهم » ، وعرض عليهم ترك بانياس مقابل مبلغ كبير من المال ، واطلاق سراح الصليبيين فى دمشق ، ثم محالفتهم ضد صلاح الدين وأطماعه المقبلة[٣٢] •

وعندما علم صلاح الدين بتلك الاتفاقية « استصغر أهل الشام وعلم ضعفهم » وأدرك أن الاتفاق والصلح مع الصليبيين موجهان ضده ، وأن أمراء الشام « انما صالحوا الفرنج خوفا منه » • لذلك أرسـل صلاح الدين الى أمراء الشام « يقبح عليهم ما فعلوه » • وكان أخطر ما يخشاه صلاح الدين عندئذ هو أن تتمزق الجبهة الاسلامية بانفصال الشام عن مصر ؛ لأنه ــ كما قال ــ اذا « انفردت مصر عن الشام ، طمع أهل الكفر فى بلاد الاسلام »[٣٣] • على أن الامر لم يطل . اذ أدت الخلافات بين أمراء الدولة النورية الى استنجاد بعضهم ــ وعلى رأسهم ابن المقدم ــ بصلاح الدين ، فجاءت هذه الدعوة بداية مرحلة جديدة فى تاريخ الحركة الصليبية وفى تاريخ صلاح الدين جميعا •

ذلك أن الامير سعد الدين كمشتكين كان قد استبد بتدبير الملك الصالح اسماعيل وانتقل به الى حلب ؛ حيث قبض على الامير شمس الدين بن الداية واخوته • « وكان أولاد الداية أجل أصحاب الملك الناصر صلاح الدين »[٣٤] ، ولذا فانه استاء مما فعله سـعد الدين

---

(٣٢) ابو شامة : كتاب الروضتين ، جـ ١ ق ٢ ، ص ٥٩٤ •

(٣٣) المصدر السابق ، ص ٥٩٧ •

(٣٤) ابن ايبك : كنز الدرر وجامع الغرر ، جـ ٧ ص ٤٣ (تحقيق المؤلف) •

كمشتكين بأولاد الداية « وعظم ذلك عليه وأنكره وجعله من أكبر الحجج على قصد الشام »[٣٥] .

وكان أن خرج صلاح الدين من مصر على رأس جيش من سبعمائة فارس ، — بعد أن استخلف فى مصر أخاه العادل — ، فوصل دمشق فى أواخر نوفمبر سنة ١١٧٤ م (٥٧٠ هـ) ، دون أن يصطدم بالصليبيين فى الطريق . وقد أعلن صلاح الدين أنه عندما خرج الى الشام عندئذ ، لم يستهدف تحقيق أطماع ومكاسب شخصية ، وانما كان يسعى لاعادة بناء الوحدة الاسلامية . ولذا صرح « انا لا نؤثر للاسلام وأهله الا ما جمع شملهم وألف كلمتهم »[٣٦] . ومن ناحية أخرى ، فان صلاح الدين حرص فى ذلك الدور على اظهار الولاء للصالح اسماعيل بن نور الدين محمود ، وأعلنها على الملأ « أنا مملوك الصالح ، وما جئت الا لأنصره وأخدمه »[٣٧] . كذلك أعلن وفاءه للبيت الزنكى وللشهيد نور الدين محمود ، حتى لا يترك مجالا لاتهامه بالخيانة والنكران من جانب الطامعين والمناوئين ، « فالوفاء انما يكون بعد الوفاة ، والمحبة انما تظهر آثارها عند تكاثر أطماع العداة »[٣٨] . وتحت هذا الستار ، ستار الوفاء لسيده نور الدين وللبيت الزنكى ، والولاء للصالح اسماعيل وتربيته والقيام بأموره واسترداد أملاكه التى اغتصبها بعض أهل بيته فى اقليم الجزيرة ، أخذ صلاح الدين ينفذ سياسته الخاصة برأب الجبهة الاسلامية المتحدة ودعمها ، واعادتها الى سابق عهدها ممتدة من الفرات الى النيل .

ومهما يكن من أمر ، فان صلاح الدين استقبل فى دمشق استقبالا طيبا بعد أن فتح له ابن المقدم أبواب المدينة وسلمه اياها . ومن ناحية

---

(٣٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ١١ (تحقيق جمال الدين الشيال) .

(٣٦) المصدر السابق ، ص ١٨ .

(٣٧) ابن الاثير : الكامل — حوادث سنة ٥٧٠ هـ .

(٣٨) ابو شامة : كتاب الروضتين ، جـ ١ ق ٢ ، ص ٥٩٧ .

أخرى فان صلاح الدين استمال قلوب الدماشقة « وأنفق فى الناس مالا طائلا »[٣٩] • وبعد ذلك غادر صلاح الدين دمشق متجها شمالا ليعاقب سعد الدين كمشتكين الذى استبد بالامور فى حلب • وقد بدأ صلاح الدين بالاستيلاء على حمص فى ديسمبر سنة ١١٧٤ م (٥٧٠ هـ) ؛ ثم على مدينة حماه فى أواخر الشهر نفسه[٤٠] •

أما حلب فقد قاومت صلاح الدين ورفضت الاستسلام ، بل ان أصحاب كمشتكين فيها أسرعوا الى الاستعانة بالحشيشية والصليبيين جميعا • ولم يلبث أن أرسل سنان — مقدم الباطنية[٤١] — جماعة من الفدائيين الى معسكر صلاح الدين لقتله ، ولكن انكشف أمرهم قبل أن ينفذوا مهمتهم • ولما فشل الباطنية فى قتل صلاح الدين ، أرسل الحلبيون الى ريموند الثالث — أمير طرابلس الصليبى — يطلبون منه المساعدة ، ويعدونه بدفع الثمن اذا هو نجح فى تخليص حلب من حصار صلاح الدين • ويضيف ابن الاثير أن أمراء حلب طلبوا من أمير طرابلس الصليبى أن يهاجم بعض المراكز التى بيد صلاح الدين حتى يضطر الى رفع الحصار عن حلب[٤٢] •

وكان ريموند الثالث صاحب طرابلس — والوصى على عرش مملكة

---

(٣٩) ابو شامة : كتاب الروضتين ، جـ ١ ق ٢ ، ص ٦٠٤ (تحقيق محمد حلمى) •

(٤٠) المصدر السابق ، ص ٦٠٧ — ٦٠٨ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ص ٢٢ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٨٢ (تحقيق محمد محمود صبح) •

(٤١) هو ابو الحسن سنان بن سليمان بن محمد ، الملقب راشد الدين ، صاحب قلاع الاسماعيلية ومقدم الفرقة الباطنية بالشام ، واليه تنسب الطائفة السنانية . ابن خلكان : وفيات الاعيان ، جـ ٥ ص ١٨٥ (تحقيق احسان عباس) •

(٤٢) ابو شامة : كتاب الروضتين ، جـ ١ ق ٢ ، ص ٦١٠ — ٦١١ ، ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٧٠ هـ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ص ٢٤ •

بيت المقدس عندئذ — يدرك تماما أهمية تحالف الصليبيين مع حلب ، كما أدرك خطورة قيام وحدة اسلامية بين القاهرة ودمشق وحلب . لذلك أسرع ريموند الثالث الى نجدة حلب ، والقيام بدور حامى الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود ، لا حبا فيه وخدمة لامراء حلب — كما يقول المؤرخ الصليبى وليم الصورى — وانما ليسد الطريق فى وجه صلاح الدين ، ويحول دون قيام وحدة اسلامية فى الشرق الادنى(٤٣) . ولا شك فى أن قيام ريموند الثالث صاحب طرابلس بالوصاية عندئذ على ملك بيت المقدس القاصر المريض — بلدوين الرابع — حقق قدرا من الوحدة بين الصليبيين فى بلاد الشام(٤٤) .

ويبدو أن ريموند الثالث حاول أولا الالتجاء الى الوسائل السياسية، ففتح باب المفاوضات مع صلاح الدين حول مسألة حلب ، ولوح له بأن الفرنج اتحدوا « وصاروا يدا واحدة » . ولكن صلاح الدين لم يخش ذلك التهديد ، وأرسل بعض قواته للاغارة على امارة أنطاكية(٤٥) . وأخيرا لم يجد ريموند الثالث وسيلة لصرف صلاح الدين عن حلب سوى مهاجمة حمص التى كان صلاح الدين قد استولى عليها منذ أمد قريب . واذا كان صلاح الدين قد اضطر الى ترك حلب مؤقتا فى أوائل فبراير سنة ١١٧٥ م (٥٧٠ هـ) ، فانه فعل ذلك ليسترد حمص ثم يستولى على بعلبك . وبعد ذلك عاد صلاح الدين ليصطدم بالزنكيين الذين جمعوا قوات الموصل وحلب ضد صلاح الدين . وفى الموقعة التى دارت بين الطرفين عند قرون حماه(٤٦) فى أواخر ابريل سنة ١١٧٥ م (٥٧٠ هـ) انتصر صلاح الدين على الزنكيين . وكان

---

(٤٣) Guillaume de Tyr (Rec. Hist. Cr. — Hist. Occ. II, p. 1014

(٤٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢، ص ٥٧٩ (الطبعة الرابعة ، ١٩٨٦) .

(٤٥) ابو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ق ٢ ، ص ٦١١ .

(٤٦) القرن : راس الجبل واعلاه (لسان العرب) .

أن أتبع صلاح الدين انتصاره بمطاردة خصـومه حتى حلـب بنية محاصرتها . وفى تلك المرحلة ، قطع صلاح الدين خطبة الملك الصالح ابن نور الدين محمود ، وأزال اسمه عن السكة فى بلاده ، فى حين اتخذ صلاح الدين لنفسه لقب « ملك مصر والشام »(٤٧) . ولم يلبث أن تم الصلح بين الطرفين « على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام ، ولهم ما بأيديهم منها » . وبعد ذلك رحل صـلاح الدين عن حلب ليستولى على بارين(٤٨) .

على أنه لم يكن منتظرا من الزنكيين أن يتقبلوا ذلك الوضع الجديد فى سهولة ، فقام سيف الدين غازى — صاحب الموصل — بحركة تعبئة ضخمة ضد صلاح الدين ، واستعان من جديد بالصليبيين وعلى رأسهم ريموند الثالث صاحب طرابلس والوصى على عرش مملكة بيت المقدس . وفى الموقعة التى دارت عند تل السـلطان — على الطريق بين حماه وحلب — حلت الهزيمة فى ابريل سنة ١١٧٦ م (٥٧١ هـ) بالزنكيين وحلفائهم ، وقتل منهم كثيرون ، واستولى صلاح الدين على غنائم ضخمة(٤٩) . وبعد ذلك ركز صلاح الدين جهوده فى الاستيلاء على بعض القلاع الواقعة شرقى حلب — مثل بزاعة ومنبج وعزاز — ليقطع الصلة بين حلب والموصل . واستمر صلاح الدين يواصل نشاطه فى ذلك الإقليم حتى تم الصلح مرة أخرى بينه وبين الحلبيين ، فانصرف عن حلـب (١١٧٦ م / ٥٧١ هـ) .

أما الباطنية فلم يكونوا أقل هلعا من الصليبيين بسبب انتصارات صلاح الدين وازدياد نفوذه فى بلاد الشـام . ولم يلبث أن حاول الباطنية مرة أخرى اغتيال صلاح الدين أثناء حصاره عزاز فى صيف

---

(٤٧) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٧١ هـ ،
ابن واصل ، جـ ٢ ص ٣٢ .
(٤٨) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ص ٣٢ — ٣٤ .
(٤٩) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ص ٦٠

سنة ١١٧٦ م (٥٧٢ هـ) ، ولكن محاولتهم باءت بالفشل ، ولم يصب صلاح الدين الا بخدش فى خده . وكان لابد لصلاح الدين أن يثأر لنفسه من تلك الجماعة الهدامة ، ولذا فانه ما كاد يفرغ من الصلح مع الحلبيين حتى اتجه لحصار مصياب ، وهى قلعة شهيرة للباطنية(٥٠) . وقد قتل صلاح الدين كثيرين منهم ، ولم يتركهم الا بعد أن شفع فيهم شهاب الدين الحارمى ، خال صلاح الدين(٥١) .

وهكذا تحالفت قوى الزنكيين والباطنية والصليبيين جميعا ضد صلاح الدين فى ذلك الدور ، ليحولوا دون تحقيق وحدة اسلامية ، بين مصر والشام وشمال العراق ، وهى الوحدة التى كانت تنذر بالقضاء على الحلفاء الثلاثة .

ويلاحظ على ذلك الدور من أدوار تاريخ صلاح الدين أن جهوده كانت موزعة بين ثلاث جبهات : فهو يعمل ضد الانفصاليين من أمراء البيت الزنكى فى شمال العراق والشام . وفى الوقت نفسه يضطر الى الدخول فى مناوشات وحروب محلية ضد القوى الصليبية ، اما لارهابهم أو لصد عدوانهم ، لاسيما وأن الزنكيين لم يحجموا عن الاستعانة بالصليبيين ضد صلاح الدين . وأخيرا ، فقد كان على صلاح الدين دائما أن ينظر بعين الى مصر ، وبالعين الاخرى الى الشام ، فحرص فى تلك الاثناء على متابعة الاحوال فى مصر ، والاشراف على تحصينها ، والعمل على حمايتها ، بعد أن أثبتت التجارب أن أطماع الصليبيين فى مصر لا تقل عن أطماعهم فى الشام ، وأنهم يعملون حسابا كبيرا للوحدة بين مصر والشام(٥٢) .

---

(٥٠) « مصياب حصن حصين مشهور للاسماعيلية ، بالساحل الشامى قرب طرابلس ، وبعضهم يقول مصياف » . ياقوت الحموى : معجم البلدان .

(٥١) ابو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ق ٢ ، ص ٦٥٨ .

(٥٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٥٨٣ — ٥٩٠ . (١٩٨٦)

ولعل هذا هو السبب فى أننا عند دراستنا لتاريخ صلاح الدين فى ذلك الدور نجده لا يكاد يحارب الزنكيين عند حلب ، حتى يعقد معهم الصلح ويتجه لمدافعة الصليبيين . ولا يكاد يدخل فى حرب ضد الصليبيين حتى يقبل عروضهم للهدنة ويسرع الى مصر لينظر فى أحوالها ويشرف على تحصينها . ولا يكاد يقضى بعض الوقت فى مصر حتى يعود الى الشام ليبدأ الدورة من جديد .

وسنؤجل كلامنا عن جهود صلاح الدين فى تحصين مصر من ناحية ، وفى محاربة الصليبيين من ناحية أخرى ، حرصا على وحدة الموضوع ولنلقى الاضواء على سياسة صلاح الدين فى رأب الصدع الذى أصاب الوحدة الاسلامية عقب وفاة نور الدين محمود .

ذلك أنه اذا كان صلاح الدين قد اضطر الى عقد الصلح مع الحلبيين سنة ١١٧٦ م (٥٧١ هـ) كما سبق أن رأينا : الا أنه ظل فى قرارة نفسه يؤمن بأن أى عمل حربى واسع النطاق ضد الصليبيين يجب أن يسبقه ضم حلب والموصل ، وتوحيد الجبهة الاسلامية ، فى الشرق الادنى . واذا كان صلاح الدين قد شغل بعض الوقت بأمر الصليبيين وأمر مصر ، الا أنه لم يسقط من حساباته مطلقا أمر الموصل وحلب . وكان أن بدأ صلاح الدين بالموصل سنة ١١٨٢ م (٥٧٨ هـ) ، وذلك عندما « بلغه أن المواصلة كاتبوا الفرنج ، ورغبوهم فى قصد الثغور الاسلامية ، ليشغلوا السلطان عن قصدهم » . ولكنه « ألح فى القتال ، فلم ينل غرضا » ، لأن عز الدين مسعود صاحب الموصل (١١٧٦ — ١١٩٣ م / ٥٧٢ — ٥٨٩ هـ) كان قد أعد عدته للحصار ، وحشد داخل مدينته عددا ضخما من المقاتلين ، وكميات اضافية وافرة من الطعام والسلاح والذخيرة(٥٣) .

ويبدو أن صلاح الدين أخذ يشعر بالحرج لفشله فى الاستيلاء

---

(٥٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ١١٩ — ١٢١ .

على الموصل . ولذلك حاول أن يدعم مركزه بطلب التأييد من الخليفة العباسى الناصر لدين الله ، فأرسل رسالة الى الخليفة يتهم فيها أتابك الموصل بالتحالف مع الصليبيين . على أن أتابك الموصل لم يهتز أمام تلك المناورات ، بل لجأ الى الاستعانة ببعض القوى الاسلامية المجاورة ، مثل صاحب أذربيجان وصاحب خلاط ، وغيرهما . أما الخليفة العباسى فقد اكتفى بأن سعى للوساطة بين صلاح الدين والزنكيين(٥٤) . ولكن بعض المؤرخين يؤكد أن الزنكيين حالفوا الصليبيين عندئذ ، وطلبوا منهم مهاجمة دمشق لطرد صلاح الدين منها ، الامر الذى يفسر اشتداد الغارات الصليبية على بصرى ودمشق وحوران فى تلك الفترة . ولم تلبث هذه الهجمات الصليبية أن أثمرت فى تحويل نظر صلاح الدين عن الموصل ، فعاد الى شمال الشام فى صيف سنة ١١٨٣ م (٥٧٨ هـ)(٥٥) .

وعند عودة صلاح الدين من الجزيرة الى شمال الشام اتجه الى حلب لحصارها . ولم يكن لعماد الدين زنكى الثانى — أتابك حلب (١١٨٢ — ١١٨٣ / ٥٧٨ — ٥٧٩ هـ) ما لأخيه عز الدين أتابك الموصل من شجاعة ودهاء ، فلم يكد صلاح الدين يحاصر مدينته حتى أسقط فى يده ، ورفض أن يستنجد بالصليبيين أو حتى بأخيه عز الدين . ولم تجد مقاومة الحلبيين ، لأن حاكمهم عماد الدين أخذ يخطط للفرار ، وأرسل الى صلاح الدين سرا يعرض عليه تنازله عن حلب مقابل اعطائه بلدة سنجار . وكان أن رحب صلاح الدين بهذا العرض ، وزاده الخابور ونصيبين والرقة وسروج ، وتمت الصفقة فى يونيو ١١٨٣ م (٥٧٩ هـ)(٥٦) .

---

(٥٤) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٧٨ هـ .
(٥٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ٦١٢ (الطبعة الرابعة ، ١٩٨٦) .
(٥٦) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٩٨ ،
ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ١٤١ — ١٤٢ .

ولا شك فى أن استيلاء صلاح الدين على حلب وتوابعها جاء نصرا كبيرا لمشروع رأب الجبهة الاسلامية المتحدة ، كما كان ضربة كبرى أحس بها الصليبيون واعترف بها مؤرخوهم[٥٧] .

واذا كان صلاح الدين قد شغل عقب الاستيلاء على حلب بأمر الصليبيين فانه لم ينس الموصل ، فعاد الى حصارها للمرة الثانية سنة ١١٨٥ م (٥٨١ هـ) . ثم ترك صلاح الدين حصار الموصل مؤقتا ليستولى على ميافارقين . وعندما عاد صلاح الدين لمنازلة الموصل للمرة الثالثة اعتراه المرض . ويقال ان المواصلة انتهزوا فرصة مرض صلاح الدين ، فسعوا الى الصلح ، وتم الصلح فعلا بين صلاح الدين وعز الدين مسعود صاحب الموصل فى مارس سنة ١١٨٦ م (٥٨٢ هـ) . وبمقتضى ذلك الصلح رضى صاحب الموصل بأن يكون تابعا لصلاح الدين وبأن يخطب باسمه على المنابر ، ويضرب السكة باسمه[٥٨] .

وبذلك تم رأب الصدع الذى أصاب الوحدة الاسلامية ، بعد وفاة نور الدين محمود ، وعادت البلاد من الفرات الى النيل تخضع لسلطة عليا واحدة تتمثل فى شخص صلاح الدين . ولم يبق أمام صلاح الدين الا توجيه العناية لتحصين مصر ، تمهيدا لانزال ضربة قاصمة بالصليبيين .

صلاح الدين وتحصين مصر :

لم ينس صلاح الدين مطلقا مطامع الصليبيين فى مصر ، وظل متخوفا طوال الفترة التى قضاها فى احياء الجبهة الاسلامية المتحدة من أن يقوم الصليبيون بهجوم مباغت على مصر ، مثلما فعل عمورى الاول ملك بيت المقدس السابق[٥٩] . والواقع أن صلاح الوين لم يكن

(٥٧) Guillaume de Tyr (Rec. Hist. Cr. Occ.) II, p. 1114

(٥٨) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٧٢ .

(٥٩) سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين (أعلام العرب ، العدد ٤١) ، ص ١٣٥ .

مبالغا فى مخاوفه ، اذ يثبت التاريخ أن ثمة اتصالات جادة دارت سنة ١١٧٧ م (٥٧٣ هـ) بين الصليبيين والبيزنطيين للقيام بمحاولة جديدة لغزو مصر[٦٠] . لذلك كان لابد لصلاح الدين من أن يتخذ الأهبة ، ويضع نظاما قويا لتحصين مصر ، حتى يمكن التصدى لأية محاولة من جانب الصليبيين لغزوها .

والواقع ان تفكير صلاح الدين فى تحصين مصر يرجع الى أيام وزارته ، أى قبل سقوط الخلافة الفاطمية . من ذلك أن صلاح الدين شرع سنة ١١٧١ م (٥٦٧ هـ) فى ترميم سور القاهرة واصلاح ما فيه من عطب بعد أن « تهدم أكثره وصار طريقا لا يرد داخلا ولا خارجا »[٦١] . على أنه يلاحظ أن صلاح الدين كان فى ذلك الدور محدود النفوذ والسلطة ، قليل الموارد ، فهو لا يعدو أن يكون وزيرا للخليفة الفاطمى من جهة ، وتابعا لسيده نور الدين محمود من جهة أخرى . هذا الى أنه كان فى ذلك الوقت أيضا قليل الخبرة وخاصة فيما يتعلق بأحوال الصليبيين وخططهم فى الحرب . لذلك لم يكن منتظرا من صلاح الدين فى تلك المرحلة أن يقوم بأكثر مما تمكنه مسئولياته وامكاناته ، فاكتفى بترميم سور القاهرة القديم .

ولكن وضع صلاح الدين لم يلبث أن تغير بعد وفاة الخليفة العاضد الفاطمى ثم وفاة سيده نور الدين محمود ، اذ غدا صلاح الدين سيد البلاد ورجلها الاول المسئول عن سلامتها وحماية أمنها . هذا الى أن الفترة التى قضاها صلاح الدين فى الشام — يوحد قوى المسلمين ويحارب الصليبيين — أكسبته خبرة واسعة فى سياسة الشرق الادنى فى تلك المرحلة . ذلك أن صلاح الدين شاهد فى بلاد الشام عندئذ مدنا محصنة ، وحصونا منورة ، وأسوارا عالية محكمة البناء ، فضلا عن أنه أخذ فكرة واضحة عن فن التكتيك الحربى ، واكتسب خبرة واسعة

---

(٦٠) Guillaume de Tyr (Rec. Hist. Cr. Occ.) II, p. 1033

(٦١) ابو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ص ١٩٢ (طبعة النيل) .

فى فن الحرب ، وأساليب الحصار ، ودور الحصون والقلاع والاستحكامات فى حماية المدن • وهكذا عاد صلاح الدين من الشام الى مصر سنة ١١٧٦ م (٥٧٢ هـ) ثم سنة ١١٨١ م (٥٧٧ هـ) ليقوم فى كل مرة بسلسلة من التحصينات القوية لحماية مصر وعاصمتها وثغورها ضد أى هجوم مفاجىء من جانب الصليبيين •

وقد روى المؤرخ أبو شامة — على لسان العماد الاصفهانى — أن صلاح الدين « لما تملك مصر ، رأى أن مصر (الفسطاط) والقاهرة لكل واحدة منهما سور لا يمنعها ، فقال : ان أفردت كل واحدة بسور احتاجت الى جند مفرد يحميها ، وانى أرى أن أدير عليهما سورا واحدا من الشاطىء الى الشاطىء ، وأمر ببناء قلعة فى الوسط عند مسجد سعد الدولة ، على جبل المقطم »(٦٢) • وهكذا قرر صلاح الدين بناء سور ضخم يحيط بالقاهرة والفسطاط والعسكر والقطائع ، ليحمى عاصمة البلاد وأهلها من أى خطر خارجى ، كما قرر بناء قلعة ضخمة على جبل المقطم تكون مركزا للحكم ، وملاذا يحتمى به اذا هددته ثورة داخلية من جانب أتباع الدولة الفاطمية ، أو خطر خارجى من جانب الصليبيين •

ولم يتباطأ صلاح الدين فى تنفيذ مشروعه ، فجلبت الاحجار اللازمة للبناء من منطقة أهرام الجيزة ، وساعد فى عملية البناء عدد كبير من أسرى الصليبيين(٦٣) • أما عن القلعة فقد أحسن صلاح الدين اختيار موقعها ، بحيث تشرف على القاهرة ومصر اشرافا تاما ، وتستطيع حاميتها أن تقوم بعمليتين مزدوجتين ، هما ضبط الاهالى واخماد أية فتنة داخلية ، ثم صد أى هجوم خارجى تتعرض له القاهرة(٦٤) • ومن المعروف أن عمارة القلعة لم تتم الا فى عهد الكامل الايوبى سنة ١٢٠٧ م

---

(٦٢) المصدر السابق ، نفس الطبعة والجزء ، ص ٢٦٨ •

(٦٣) زكى محمد حسن : فنون الاسلام ، ص ٦٩ •

(٦٤) نظير حسان سعداوى : التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين ، ص ٩٢ •

(٦٠٤ هـ) ، وأن الكامل هو أول من شيد فيها قصورا ، كما أقام أبراجها الرئيسية ، ثم اتخذها مقرا له ومقاما للحكم . ومنذ ذلك الوقت غدت القلعة مقر الحاكم والحكومة ، وبها القصر السلطانى الذى عاش فيه بقية سلاطين الايوبيين ثم المماليك ، ثم أقام فيها الولاة العثمانيون ، فحكام مصر من أسرة محمد على الكبير حتى زمن الخديو اسماعيل .

أما سور القاهرة ، فقد استخدمت فيه أيضا الأحجار الضخمة . وروعى فى السور أن يكون محصنا بأبراج منيعة بعضها من طبقة واحدة والبعض الآخر من طبقتين . ويتكون البرج من قبو نصف دائرى يؤدى الى ستار الحائط بمزاغل تستخدم لرمى العدو المهاجم بالسهام منها ، أو القاء المواد الكاوية والزيت المغلى على المهاجمين[٦٥] .

على أن جهود صلاح الدين فى تحصين مصر لم تقتصر على عاصمة البلاد ، وانما امتدت لتشمل مختلف الثغور والموانى المصرية ، لاسيما بعد أن تكررت هجمات السفن الصليبية على تنيس ودمياط وغيرهما من الموانى . من ذلك ما يرويه أبو شامة من خروج صلاح الدين سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٧ م) الى دمياط ، وبصحبته ولداه الافضل على والعزيز عثمان ، فتفقد تحصينات الميناء ، ثم رحل الى الاسكندرية حيث تفقد سورها الدائرى ، وفحص الزيادات التى كان قد أمر بانشائها غداة استيلائه على الحكم . كذلك تفقد صلاح الدين الاسطول بالاسكندرية ، وأمر بعمارته وتجديد سفنه « وما انصرف حتى أمر باتمام الثغر وتعمير الاسطول »[٦٦] .

وبينما صلاح الدين منصرف فى السنوات التالية الى دعم الوحدة

---

(٦٥) للوقوف على تفاصيل القلعة والسور ، ارجع الى :

نظير حسان سعداوى : التاريخ الحربى المصرى ، ص ١٠٣ — ١٠٨ وسنشير الى بعض التفاصيل فى نهاية هذا القسم من الكتاب ، عند الكلام عن الفنون .

(٦٦) ابو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ص ٢٦٨ (طبعة النيل) .

الاسلامية ومحاربة الصليبيين بالشام ، كان العمل مستمرا لانجاز التحصينات التى أمر بها ، سواء فى القاهرة والاسكندرية أو غيرهما . وقد حدث سنة ١١٨١ م (٥٧٧ هـ) أن أغار الصليبيون على تنيس — شرقى بحيرة المنزلة — فخشى صلاح الدين أن يكون المقصود بتلك الغارة سبر غور المسلمين تمهيدا لغزو مصر من ناحية البحر ، وأمر بالعناية بتحصين دمياط وتنيس « ورتب المقاتلة على البرجين بدمياط ، وجهزت خمسمائة دينار لعمارة سورها والنظر فى السلسلة التى بين البرجين . وعمل تقدير برسم ما يحتاج اليه سور تنيس واعادته كما كان فى القديم » . كذلك أمر صلاح الدين فى العام نفسه ببناء برج بالسويس يسع عشرين فارسا « ورتبت فيه الفرسان »[٦٧] .

وهكذا عنى صلاح الدين عناية فائقة بتحصين عاصمة مصر وموانيها وثغورها حتى يأمن عادية الصليبيين . واذا كان صلاح الدين قد اهتم ذلك الاهتمام ببناء القلاع والابراج وتحصين المدن والثغور فى مصر ، فمن المتوقع أن يكون اهتمامه بذلك الامر عظيما فى بلاد الشام ، فأكثر من بناء الحصون فى المواقع الاستراتيجية فى تلك البلاد ، وحرص على تحصين القلاع لتكون مراكز لعملياته الحربية الكبرى ضد الصليبيين .

---

(٦٧) المقريزى : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٧٢ — ٧٤ .

الفصل الثالث

صلاح الدين والصليبيون

فكرة الجهاد على عصر صلاح الدين :

ولد صلاح الدين وشب فى بلاد الشام ، فى عصر شهد ازدهار حركة الجهاد الدينى ضد الصليبيين . ذلك أن عماد الدين زنكى ومن بعده ابنه نور الدين محمود أكسبا هذه الحركة طابعا عمليا واضحا ، لأنهما بدءا من النقطة التى كان ينبغى أن يبدأ منها المسلمون منذ ظهور الخطر الصليبى فى أفق الشرق الادنى ، وهى توحيد الجهود وجمع الشمل لاقامة جبهة اسلامية تضم — على الاقل — البلدان الاسلامية التى كانت أكثر تعرضا للخطر الصليبى ، وهى الشام ومصر وشمال العراق . واذا كان صلاح الدين قد نشأ فى اقليم هو بمثابة المسرح الاول للصراع بين المسلمين والصليبيين ، وشب فى عصر شهد اشتداد تيار حركة الجهاد ، وترعرع بين أناس لا شغل لهم الا الحرب والدفاع عن العقيدة والارض ، والتضحية بالروح والدم فى سبيل الحفاظ على التراث ضد الدخلاء المعتدين ... فلا غرابة أن نجد صلاح الدين وقد برز فى صورة البطل الذى « كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيما ، بحيث ما كان له حديث الا فيه ، ولا نظر الا فى آلته ، ولا كان له اهتمام الا برجاله ، ولا ميل الا الى من يذكره ويحث عليه » ، وذلك على قول معاصره ورفيقه وصديقه بهاء الدين ابن شداد(1) .

---

(1) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤٤ (تحقيق محمد محمود صبح) .

وبدراسة الدور الاول من مراحل حياة صلاح الدين ، يتضح لنا أن القدر تدخل أكثر من مرة لمساعدته ، فأتاح له فرصة المجيء الى مصر ثلاث مرات بصحبة عمه أسد الدين شيركوه . وعلى أرض مصر احتك صلاح الدين بالصليبيين واكتسب خبرة واسعة فى شئون الحرب والسياسة جميعا . ثم أتاح له القدر فرصة الظهور على سطح الاحداث عندما توفى عمه شيركوه ووقع اختيار الخليفة العاضد الفاطمى عليه — دون غيره من أمراء الجيش النورى — ليلى منصب الوزارة . وللمرة الثالثة يتدخل القدر لينجح صلاح الدين فى الخطـوة الجريئة التى خطاها نحو الغاء الخلافة الفاطمية واسقاطها ، وهى الخطوة التى شاء القدر أن تصحبها وفاة الخليفــة العاضد الفاطمى ، مما جعـل من صلاح الدين الزعيم الاوحد الذى لا ينافسه منافس فى مصر . واذا كانت تلك التطورات قد تمت فى ظروف صعبة بالنسبة لصلاح الدين نتيجة للثورات والفتن الداخلية والهجمات والضغوط الخارجية ، فان القدر شاء أن يقف الى جانب صلاح الدين ليحقق له النصر بعد الآخر على كافة خصومه فى الداخل والخارج . وعنـدما تأزم الموقف بين صلاح الدين وسيده نور الدين محمود وهم الاخير بغزو مصر لتنحية صلاح الدين ، توفى نور الدين فجأة ، فكان هذا حكم القدر ليجعل من صلاح الدين الرجل الاول ، ليس فى مصر فحسب ، بل فى دولة نور الدين محمود التى امتدت من الفرات الى النيل . ولا ندرى ماذا كان سيحدث لو أن العمر أمهل نور الدين محمود ليصل الى مصر على رأس جيشه ، ولكن ما نستطيع أن نؤكده هو أن تاريخ صلاح الدين كان سيتوقف عند تلك المرحلة ، لأنه كان من الصعب — ان لم يكن من المستحيل — على رجل واحد من رجال صلاح الدين فى مصر ، بل كان من المتعذر على صلاح الدين نفسه ، أن يرفع سـيفه فى وجه نور الدين محمود ، سيده الشرعى وولى نعمته ، الذى « طبق ذكره الارض »(٢) .

---

(٢) ابن الاثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ، ص ١٦٢ (تحقيق عبد القادر احمد طليمات) .

لذا نستطيع أن نقرر أنه اذا كان مجىء صلاح الدين الى مصر يمثل نقطة التحول الاولى فى حياة ذلك البطل ، فان وفاة نور الدين محمود فى مايو سنة ١١٧٤ م (٥٦٩ هـ) تمثل نقطة التحول الكبرى فى حياته • ذلك أن وفاة نور الدين المفاجئة تركت المسرح الاسلامى فى الشرق الادنى وليس عليه شخصية كبرى تستطيع أن تسد الفراغ الذى تركه ذلك البطل • وعندئذ ظهر صلاح الدين على المسرح ليكمل مسـيرة من سبقه من أبطال حركة الجهاد ، ويبذ عماد الدين زنكى ونور الدين جميعا فى القدرة على انتقاء أفضل الوسائل لتنفيذ أهدافه •

الدور التمهيدى فى الحرب بين صلاح الدين والصليبيين :

لعل أول ما يسترعى نظرنا فى حروب صلاح الدين ضد الصليبيين هو أن تلك الحروب مرت بدورين كبيرين : الدور الاول الذى امتد من سنة ١١٧٤ م حتى سنة ١١٨٦ م (٥٧٠ — ٥٨٢ هـ) ، ولم يكن صلاح الدين فى هذا الدور متفرغا لمحاربة الصليبيين ، وانما وجه جل جهوده نحو توحيد الجبهة الاسلامية ، وادخال القوى الاسلامية الصغيرة المبعثرة فى الشام وشمال العراق تحت سيادته ، ليتمكن من مواجهة الصليبيين فيما بعد ، ومن خلفه جبهة اسلامية قوية متحدة تشد أزره • واذا كان صلاح الدين قد اشتبك مع الصليبيين فى حروب فى ذلك الدور ، فان هذه الحروب كان يغلب عليها الطابع الدفاعى ، اما لحماية المسلمين وبلادهم ، واما ليحول بين الصليبيين ومساعدة بعض القوى الاسلامية الانفصالية التى أعمتها شـهوة الحكم عن رؤية الخطـر الخارجى ، فاستعانت بالصليبيين ضد صلاح الدين •

أما الدور الثانى من أدوار الحروب الصلاحية ضد الصليبيين ، فيمتد من سنة ١١٨٦ حتى سنة ١١٩٢ م (٥٨٢ — ٥٨٨ هـ) ، وفيه كان صلاح الدين قد فرغ من توحيد الجبهة الاسلامية ، من الفرات الى النيل ، فانصرف بكل طاقته الى فكرة الجهاد ، حتى حقق الانتصارات الضخمة التى خلدت اسمه فى التاريخ •

واذا قررنا أن الدور الاول التمهيدى لحروب صلاح الدين ضد الصليبيين بدأ بسنة ١١٧٤ م (٥٧٠ هـ) ، فليس معنى ذلك أن صلاح الدين لم يكن له عهد بمحاربة الصليبيين قبل ذلك التاريخ . حقيقة ان المصادر لا تمدنا بشىء ذى قيمة عن اسهام صلاح الدين فى مستهل حياته — قبل مجيئه لأول مرة الى مصر سنة ١١٦٤ م (٥٥٩ هـ) — فى محاربة الصليبيين . ولكن صلاح الدين الذى شب على مسرح الحروب الصليبية فى بلاد الشام ، وقضى شطرا هاما من حياته الاولى فى بلاط نور الدين بدمشق ، شاهد بلا شك صورة واقعية حية لمجتمع مضطرم بنيران الحماسة للدفاع عن الوطن والعقيدة ، وحماية نفسه وكيانه من عدو خطير ، وفد من أقصى الغرب ليعتدى على أصحاب البلاد ويسلبهم ديارهم .

وبوصول صلاح الدين — صحبه عمه شيركوه — الى مصر لأول مرة سنة ١١٦٤ م (٥٥٩ هـ) بدأت صفحة جديدة فى تاريخ نظرته الى الصليبيين وعلاقته بهم . ذلك أن الحملات الثلاث التى أرسلها نور الدين محمود الى مصر فى سنى ١١٦٤ ، ١١٦٧ ، ١١٦٨ م (٥٥٩ ، ٥٦٢ ، ٥٦٤ هـ) ، والتى شارك فيها صلاح الدين ، انما كانت فى حقيقة أمرها موجهة ضد الصليبيين الذين غزوا مصر فى تلك المرحلة وحاولوا امتلاكها . وتعتبر المعارك التى دارت بين المسلمين والصليبيين على أرض مصر عندئذ ، المحك الاول بين صلاح الدين والصليبيين ، اذ حدث فيها الاحتكاك المباشر بين الطرفين لأول مرة . من ذلك أن صلاح الدين قام بدور بارز فى موقعة البابين فى ابريل سنة ١١٦٧ م (٥٦٢ هـ) ، كما تعرض صلاح الدين لحصار الصليبيين فى الاسكندرية بعد ذلك ، مما أكسبه خبرة بأساليب الصليبيين فى الحرب .

ثم كانت الفوضى والانقسامات التى تعرضت لها دولة نور الدين محمود بعد وفاته ، الامر الذى ترتب عليه قيام بعض الإطراف المتنازعة فى الشام بدعوة صلاح الدين لانقاذ الموقف سنة ١١٧٤م (٥٧٠ هـ) . وقد خشى الصليبيون عاقبة نشاط صلاح الدين فى بلاد الشام ، وجهوده

لتوحيد القوى الاسلامية ، فتدخل ريموند الثالث أمير طرابلس والوصى على مملكة بيت المقدس ، للحيلولة دون استيلاء صلاح الدين على حلب . وفعلا نجح مؤقتا سنة ٥٧٠ هـ (فبراير ١١٧٥ م) فى صرف صلاح الدين عن قصده . وعلى الرغم من أن ريموند قام بدوره فى مهارة ، متظاهرا بحماية الزنكيين من أطماع صلاح الدين ، الا أن الاخير أظهر ثباتا عجيبا ، فظل يحارب الزنكيين حينا ، ويدافع الصليبيين أحيانا ، مع حرصه الشديد فى ذلك الدور على عدم توسيع دائرة الحرب ضد الصليبيين حتى لا يحارب فى جبهتين فى وقت واحد . وربما احتدت الحرب بين صلاح الدين والصليبيين فى ذلك الدور — مثلما حدث بين سنتى ١١٧٧ ، ١١٨٠ م (٥٧٣ ، ٥٧٦ هـ) ، ولكنها مع ذلك لم تتخذ صورة الحرب الشاملة . ثم ان الصليبيين أنفسهم كانوا يعانون اضطرابا كبيرا فى أحوالهم الداخلية عندئذ ، اذ كان بلدوين الرابع ملك بيت المقدس مريضا بالجذام ، ومشكلة العرش ووراثته تثير كثيرا من المنافسات بين أمراء الصليبيين . هذا فضلا عن اختلال أوضاع امارة أنطاكية فى الشمال .

وهكذا حتى استولى صلاح الدين على حلب سنة ١١٨٣ م (٥٧٩ هـ) ، ثم دخلت الموصل تحت طاعة صلاح الدين فى مارس سنة ١١٨٦ م (٥٨١ هـ) ، وعندئذ صار فى وسع صلاح الدين أن « ينصرف بكليته الى الفرنج »(٣) .

صلاح الدين ومملكة بيت المقدس الصليبية :

والواقع أن هجمات صلاح الدين على مملكة بيت المقدس أخذت تشتد فعلا بعد أن وضع يده على حلب سنة ١١٨٣ م (٥٧٩ هـ) . وكانت مملكة الصليبيين قد بلغت عندئذ درجة شديدة من الضعف ، بعد أن ساءت أحوال ملكها المريض ، وقام بالوصاية على العرش

---

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ٦٢٣ وما بعدها . الطبعة الرابعة ١٩٨٦) .

جاى لوزجنان ، وهو أمير ضعيف اتصف بالتردد وسوء التدبير(٤) .
وقد استولى صلاح الدين على بعض المعاقل الصليبية فى تلك السنة .
ثم حاول أن يستدرج الاعداء للدخول فى معركة فاصلة فى فلسطين .
ولكن الصليبيين « لم يخرجوا الى المصاف خوفا من المسلمين »(٥) .

على أن الامير أرناط — صاحب حصن الكرك — اتبع سياسة استفزازية جعلت صلاح الدين يفكر فى ضرورة اتخاذ اجراء حاسم سريع ضد الصليبيين . ولم يكن أرناط هذا من طراز الفرسان الذين مجدتهم العصور الوسطى لحرصهم على أزهى مبادىء الفروسية وهو التمسك بالشرف ، وانما عرف عنه حبه للسلب والنهب ونقض العهود والاعتداء على الابرياء المسالمين(٦) وقد استغل موقع امارته — حصن الكرك — لقطع طريق القوافل بين مصر والشام والحجاز . وفى سنة ١١٨٢ م (٥٧٨ هـ) شرع فى تنفيذ خطة تفيض حقدا على الاسلام والمسلمين ، استهدفت طعنهم فى أقدس مقدساتهم بالحجاز . وكان أن بدأ أرناط فى تلك السنة بالاستيلاء على أيلة وهو الميناء الهام على رأس خليج العقبة . ثم قام أرناط ببناء عدة سفن حملت أجزاؤها مفككة الى خليج العقبة حيث جمعت وركبت وتم شحنها بالمقاتلين . وبسرعة مفاجئة خرج أرناط على رأس هذه السفن لمهاجمة الموانى الاسلامية فى البحر الاحمر ، فبدأ بالموانى الواقعة على الشاطىء الغربى مثل عيذاب ، ثم نقل نشاطه الى شاطىء الحجاز ، حتى صار الصليبيون على مسيرة يوم واحد من المدينة المنورة(٧) .

ومن الواضح أن العدوان على الحرمين أمر لا يمكن أن يغفره أو

---

(٤) King : The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 111.

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٥٠ — ١٥١ (تحقيق جمال الدين الشيال) .

(٦) Guillaume de Tyr (Rec. Hist. Cr. Occid. II) p. 1116

(٧) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٧٨ هـ ، المقريزى : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٧٩ .

يسكت عنه المسلمون ، فأسرع العادل ـ أخو صلاح الدين ونائبه فى مصر ـ الى ارسال أسطول قوى فى البحر الاحمر ، نجح فى مطاردة انسفن الصليبية وتدميرها وأسر كثير من رجالها ، فى حين فر أرناط نفسه بصعوبة . ومن ناحية أخرى ، رد صلاح الدين على عدوان أرناط بحصار حصن الكرك فى أواخر سنة ١١٨٣ م ثم فى سنة ١١٨٤ م (٥٧٩ ـ ٥٨٠ هـ) ، وان لم يستطع الاستيلاء عليه لقوة تحصينه[٨] .

ويبدو أن صلاح الدين كان مشغولا عندئذ بتنظيم الاوضاع الداخلية فى دولته ، واحلال أبنائه محل اخوته وأبناء عمومته فى حكم الاجزاء الرئيسية من تلك الدولة الكبيرة ؛ فاكتفى بعقد هدنة مع انصليبيين مدتها أربع سنوات تبدأ بسنة ٥٨٠ هـ (١١٨٥ م)[٩] . وقد جاءت هذه الهدنة عظيمة الاهمية والنفع للطرفين ، اذ أتاحت لصلاح الدين فرصة لتنظيم دولته ، وفى الوقت نفسه أتاحت للصليبيين فرصة ذهبية لتصفية كثير من المشاكل الداخلية التى غرقت فيها دولتهم بعد وفاة بلدوين الرابع فى مارس سنة ١١٨٥ م . ولكن أرناط لم يشأ ـ بحماقته المعهودة ـ أن يترك اخوانه الصليبيين ينعمون بتلك الفرصة ، فتعجل فى اثارة الحرب مع صلاح الدين ، وهى الحرب التى جاءت كارثة على الكيان الصليبى فى بلاد الشام بأجمعها .

موقعة حطين :

انتهى الصراع الداخلى الذى نشب بين الصليبيين بعضهم وبعض ـ عقب وفاة بلدوين الرابع ـ باختيار جاى لوزجنان ملكا على مملكة بيت المقدس الصليبية . وفى الوقت الذى آل أمر المملكة لصليبية الى ذلك الملك الضعيف ، كان أرناط قابعا فى حصن الكرك ـ شرقى البحر الميت ـ وهو الحصن الذى كان يتحكم بموقعه الفذ فى طرق المواصلات بين مصر والشام والحجاز . ولكن أرناط كان « لا يستطيع أن يحيا هادئا

---

(٨) ابو شامة : كتاب الروضتين ، ج ٢ ص ٥٦ .

(٩) Eracles, II p.p. 12 — 14.

دون أن ينهب ويسرق »[١٠] ، ولذلك لم يلبث أن انقض فجأة على قافلة كبيرة للمسلمين متجهة من القاهرة إلى دمشق فى أواخر سنة ١١٨٦ وأوائل سنة ١١٨٧ م (٥٨٢ هـ) . ويبدو أن لعاب أرناط سال لتلك الثروة الضخمة التى تحملها القافلة فنصب لها كمينا ، واستولى على كل ما كانت تحمله من ثروة وبضائع ، وأسر رجالها فى حصن الكرك حيث « سامهم الشد والشدة »[١١] .

وقد بدأ صلاح الدين بأن أرسل الى أرناط مهددا ، طالبا منه رد الأسرى والغنائم . ولكن أرناط رفض ذلك ، بل لقد رفض الاستجابة لجاى لوزجنان ملك بيت المقدس عندما طلب منه الاخير رد الاسرى والغنائم الى صلاح الدين . وهكذا لم يبق أمام صلاح الدين الا الحرب ، فقام بحركة تعبئة شاملة لجميع قوى المسلمين وكافة مواردهم البشرية والمادية ، استعدادا لحركة جهاد كبرى ، لم تنته الا فى نهاية القرن الثالث عشر للميلاد بالقضاء على آخر البقايا الصليبية بالشام .

وقد اختار صلاح الدين أن يقيم فى تلك المرحلة بدمشق ، ومن ذلك المركز أخذ ينظم تحركات قواته من مصر وحلب والجزيرة وديار بكر . وعندما اكتملت استعداداته خرج صلاح الدين من دمشق فى منتصف مارس سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) ، فقصد الكرك أولا « ونازلها وقطع أشجارها ، ثم قصد الشوبك وفعل بها مثل ذلك » . ومن هناك اتجه الى بانياس — قرب طبرية — لمراقبة الموقف[١٢] .

وفى ذلك الوقت ، جمع الملك جاى لوزجنان جيوشه فى الناصرة ، فدارت المعركة الاولى بين المسلمين والصليبيين قرب صفورية فى مايو سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) ، وفيها سقط معظم الجيش الصليبى بين قتلى

---

(١٠) Grousset : Hist. des Croisades, II, p. 116.

(١١) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٥ .

(١٢) المقريزى : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٩٣ .

وأسرى • ويبدو أن هذه الكارثة التى حلت بالصليبيين ، جعلت ريموند الثالث يفيق الى رشده ، فنقض تحالفه مع صلاح الدين وانضم الى الجيوش الصليبية التى تجمعت فى صفورية استعدادا للانتقام •

وقد رد صلاح الدين على ذلك بمهاجمة طبرية — التى كانت للصليبيين — فاقتحمت جيوشه مدينة طبرية وأحرقتها فى يوليـــو سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) ، وان لم يستطع المسلمون الاستيلاء على قلعتها • ويؤكد المؤرخ أبو شامة أن صلاح الدين استهدف من مهاجمة طبــرية أن يجبر الصليبيين على ترك مواقعهم عند صفورية ، مما يمكنه من انزال الهزيمــة بهم بعد أن يعتريهم التعب لطول الطــريق وحرارة الجو[١٣] •

وكان أن نجحت خطة صلاح الدين ، فتحرك الصليبيون للدفاع عن طبرية ، وساروا فى شهر يوليو سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) فى ظروف قاسية ، بسبب حرارة الجو وقلة الماء ووعورة الطريق[١٤] • وعندما علم صلاح الدين أن الصليبيين أخذوا فى السير تجاهه ، سر سرورا كبيرا وقال « جاء ما نريد »[١٥] •

وأخيرا وصل الصليبيون الى قرون حطين — وهى هضبة مرتفعة على سفح طبرية — وهم فى حالة سيئة من الانهاك والعطش ، بينما كان المسلمون مدخرين قوتهم ، ينعمون بالماء العذب والظل المديد • وفى شهر يوليو ١١٨٧ م دارت موقعة حطين الشهيرة بين صلاح الدين والصليبيين ، فأحاط المسلمون بأعدائهم ، بحيث لم يجد الصليبيون مخرجا ســوى التراجع نحو قمة الجبل « والقتل والأسر يعملان فى فرسانهم » حتى قتل معظمهم ، وانهارت قوة الباقين ، فاستسلموا للمسلمين[١٦] •

---

(١٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ، جـ ٢ ، ص ٧٦ •

(١٤) King : The Knights Hospitallers in the Holy Land. p.p. 125 — 126 .

(١٥) أبو شامة : كتاب الروضتين ، جـ ٢ ، ص ٧٦ •

(١٦) عماد الدين الكاتب : الفتح القسى ، ص ٢٣ ، ابن الاثير : كتاب الكامل ، حوادث سنة ٥٨٣ هـ •

وكان من جملة الاسرى الملك جاى لوزجنان وأرناط صاحب حصن الكرك ، ومقدم الداوية ، فسيقوا جميعا الى صـلاح الدين فى خيمته حيث أحسن استقبالهم ، ما عدا أرناط الذى قتله صلاح الدين وفاء لقسم له[١٧] •

استيلاء صلاح الدين على ساحل الشام وبيت المقدس :

تعتبر موقعة حطين دون شك نقطة تحول خطيرة فى مجرى تاريخ الحروب الصليبية ، لأن الصليبيين لم يفيقوا مطلقا من تلك الضربة التى أودت بزهرة فرسانهم فى الشرق الادنى • ولم يكن منتظرا أن تتمكن مملكة بيت المقدس الصليبية من البقاء والصمود بعد فناء جيشها وأسر ملكها ، فى الوقت الذى ارتفعت معنويات جيوش المسلمين وأخـذوا يتطلعون لتحقيق مكاسب ضخمة عاجلة على حساب الصليبيين • أما عن صلاح الدين نفسه ، فالملاحظ أنه تحلى فى ذلك الدور من أدوار حروبه ضد الصليبيين بصفات التسامح والشهامة والمروءة والبعد عن التطرف ، وهى الصفات التى كثيرا ما أنزلت الاضرار بمصالح المسلمين وجعلت بعض المؤرخين المسلمين — مثل ابن الاثير — ينقدون صلاح الدين نقدا مرا لتساهله مع خصومه تساهلا أنزل الضرر بمصالح المسلمين[١٨] •

وكان المفروض أن يتجه صلاح الدين بعد حطين صوب بيت المقدس ليستولى عليها فى سهولة ، بعد أن غدت تلك المملكة الصليبية دون جيش يدافع عن عاصمتها ، ولكنه آثر أن يتجه أولا الى الموانى الساحلية ليحرم الصليبيين من أية معونة ترسل اليهم من غرب أوربا عن طريق البحر • وبعد ذلك يسـهل عليه انتزاع المدن والقلاع الداخلية من الصليبيين •

هذا بالاضافة الى أن استيلاء صلاح الدين على موانى فلسطين

---

(١٧) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ١٩٤ •

(١٨) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٦٤١ ، ٦٤٧ ، ٦٥٣ ، ٦٦٢ (الطبعة الرابعة ١٩٨٦) •

من شأنه أن يهيأ له اتصالا سريعا وسهلا بين شطرى دولته : مصر والشام[١٩] .

وهكذا استولى صلاح الدين على عكا فى سهولة ، اذ استسلمت له تلك المدينة بمجرد رؤية الجيش الاسلامى (يوليو ١١٨٧م / ٥٨٣ هـ) ويبدو أن السياسة الرحيمة التى اتبعها صلاح الدين مع الصليبيين فى عكا ، ساعدته فى الاستيلاء على العديد من المدن الساحلية والداخلية بعد ذلك ، مثل الناصرة ، وقيسارية ، وحيفا ، وصفورية ، وغيرها من المواقع القريبة من عكا[٢٠] . هذا فى الوقت الذى زحف العادل أخو صلاح الدين من مصر واستولى على يافا ، فى حين سقط حصن تبنين وصرفند وصيدا ، فى أيدى المسلمين ، فى أواخر شهر يوليو ١١٨٧م (٥٨٣ هـ) . كذلك استولى صلاح الدين على بيروت وجبيل وعسقلان ، رغم أن الاخيرة أبدت مقاومة عنيفة . وفى جميع تلك المدن والمناطق ، كان صلاح الدين يترك الحرية لأهاليها ويخيرهم بين البقاء أو الرحيل ، فآثر معظمهم الرحيل الى صور « حيث اجتمع كل افرنجى بقى فى الساحل »[٢١] .

ولا شك فى أن هذه السياسة كانت خطئا كبيرا وقع فيه صلاح الدين ودفع ثمنه فيما بعد ، لأن تجمع كافة عناصر المقاومة الصليبية فى مدينة صور ، أدى الى استحالة استيلاء صلاح لدين على تلك المدينة من ناحية ، والى تمكين الصليبيين من اتخاذها مركزا لاحياء مملكة بيت المقدس فيما بعد من ناحية أخرى .

وعندما أدرك صلاح الدين أن أمر صور غدا صعبا ، آثر أن يتجه الى داخلية فلسطين ليستولى على بيت المقدس . وكان أهل بيت المقدس

---

(١٩) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 249.

(٢٠) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ٢٠٢ (تحقيق جمال الدين الشيال) .

(٢١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٢٦ (تحقيق محمد محمود صبح) .

من الصليبيين قد استغلوا الفرصة التى أتاحها لهم اتجاه صلاح الدين الى الساحل بعد حطين ، وحصنوا مدينتهم . وهكذا رفضوا النداء الذى وجهه اليهم صلاح الدين لتسليم المدينة مقابل تأمينهم[٢٢] .

وعندما لمس صلاح الدين عناد الصليبيين فى بيت المقدس ، أقسم أن يستولى على المدينة بحد السيف ، فبدأ هجومه على المدينة من الجهة الشمالية فى ٢٩ سبتمبر سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) . وكان أن أدرك الصليبيون استحالة المقاومة ، فطلبوا الامان ، ولكن صلاح الدين تمنع عندئذ عن اجابتهم الى طلبهم . وأخيرا وافق صلاح الدين على أن يسمح لهم بالخروج سالمين ، مقابل فداء معين عن كل رجل وامرأة وطفـل[٢٣] .

وهكذا دخل صلاح الدين بيت المقدس فى يوم الجمعة الموافق الثانى من شهر أكتوبر سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) . وشاءت الظروف أن يوافق دخول المسلمين ذكرى الاسراء والمعراج ، فاحتفلوا بهذه المناسبة الدينية احتفالا كبيرا ، وأحسنوا معاملة الصليبيين ، مما جعل العديد من المؤرخين يشيدون بتسامح صلاح الدين ، ويقارنون بين معاملته للمسيحيين من جهـة ، ومعاملة الصليبيين للمسلمين عنـدما استولوا على بيت المقدس سـنة ١٠٩٧ م (٤٩١ هـ) من جهـة أخـرى[٢٤] .

صلاح الدين وغزو شمال الشـام :

وبعد أن أتم صلاح الدين تقويض البناء الصليبى فى فلسطين ، لم يبق أمامه الا البقايا الصليبية فى شـمال الشام ، مثل طرابلس وأنطاكية ، فضلا عن الحصون الداخلية ، مثل حصن الاكراد وحصن

---

(٢٢) Grousset : Hist. des Croisades, II, p. 809.

(٢٣) Runciman : A Hist. of the Crusades II, p. 464.

(٢٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ٦٤٧ (الطبعة الرابعة ١٩٨٦) .

المرقب . أما صور فقد فشلت كافة جهود صلاح الدين للاستيلاء عليها ، بعد أن تجمعت فيها البقايا الصليبية التى سمح لها صلاح الدين بالخروج آمنة من المدن التى استولى عليها . لذلك لم يجد صلاح الدين بدا من ترك صور وتوجيه جهوده ضد امارتى طرابلس وأنطاكية فى الشمال .

وقد بدأ صلاح الدين هجماته على طرابلس بالاستيلاء على بعض القلاع الصليبية الهامة فى إقليم الجليل ، مثل قلعة هونين ، كما حاصر صفد وحصن كوكب ، وان كانت هاتان القلعتان قد أظهرتا مقاومة عنيفة ، بحيث لم يستطع صلاح الدين الاستيلاء عليهما الا فى أواخر سنة ١١٨٨ وأوائل سنة ١١٨٩ م (٥٨٤ هـ)[٢٥] . وفى تلك الاثناء استولى صلاح الدين على بانياس فى أقصى الشمال من امارة طرابلس ، ثم أوغل فى امارة أنطاكية ، واستولى على جبلة فى يوليو سنة ١١٨٨ م (٥٨٤ هـ) . وبعد أن استولى صلاح الدين على اللاذقية ـــ أكبر موانى امارة أنطاكية ـــ فى أواخر يوليو سنة ١١٨٨ م (٥٨٤ هـ) ، هاجم حصن صهيون واستولى عليه فى مدة قصيرة .

وهكذا أخذت معاقل امارة أنطاكية تتساقط فى يد صلاح الدين معقلا بعد آخر ، بحيث لم يبق لتلك الامارة سوى ثلاثة حصون ، هى القصير وبغراس ودربساك[٢٦] . وحتى هذه الحصون لم يلبث أن استولى عليها صلاح الدين فى أواخر سنة ١١٨٨ م (٥٨٤ هـ) ، وبذلك غدت امارتا أنطاكية وطرابلس « مقصوصتى الجناح » ، على قول المؤرخ أبى شامة .

---

(٢٥) أبو شامة : كتـــاب الروضتين ، جـ ٢ ، ص ١٢٠ ، ١٣٥ (طبعـــة النيل) .

(٢٦) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٨٤ ، ابو شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٣٦ ـــ ١٣٧ .

صلاح الدين والحملة الصليبية الثالثة :

بدأ صلاح الدين هجومه الشامل الكبير على الصليبيين سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) ، ولم تمر ثلاث سنوات على هذا الهجوم حتى انكمشت الممتلكات الصليبية فى بلاد الشام ، بحيث لم يتبق فى حوزة الصليبيين من مملكة بيت المقدس الا صور ، ومن امارة طرابلس الا عاصمتها مدينة طرابلس وقلعة أنطرطوس وحصن الاكراد ، ومن امارة أنطاكية الا عاصمتها مدينة أنطاكية وحصن المرقب . هذا كله عدا بعض المواقع الثانوية الأقل أهمية(٢٧) .

ولا شك فى أن المصائب التى حلت بالصليبيين فى الشرق على يد صلاح الدين كان لها صداها الواسع ورد فعلها العنيف فى الغرب الاوربى ، فارتفع صوت البابوية ينادى ملوك أوربا وأمراءها بالقيام بحملة صليبية كبرى ، تسترد بيت المقدس من المسلمين ، وتثأر مما حل بالصليبيين فى الشام على يد صلاح الدين . وتحت تأثير البابوية وضغطها استجاب لهذه الدعوة ريتشارد قلب الاسد ملك انجلترا ، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا ، وفردريك بربروسا امبراطور ألمانيا . ومن هؤلاء الثلاثة تبلورت الحملة الصليبية الثالثة .

وقد اختار فردريك بربروسا الطريق البرى عبر البلقان وآسيا الصغرى ليصل الى بلاد الشام ، فى حين سلك زميلاه — ملكا فرنسا وانجلترا — طريق البحر . ويبدو أن الحملة الالمانية بزعامة فردريك بربروسيا تعرضت فى طريقها لمصاعب جمة من جانب الدولة البيزنطية ثم من جانب السلاجقة ، حتى انتهى الامر بغرق الامبراطور فردريك بربروسا فى أحد أنهار آسيا الصغرى ، مما أدى الى تشتت حملته سنة ١١٩٠ م (٥٨٦ هـ)(٢٨) .

---

(٢٧) Grousset : Hist. des Croisades, II, p. p. 834 — 835.

(٢٨) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث ٥٧٦ هـ ،
Runciman : Op. cit. III ; p. 15.

وفى الوقت الذى جمعت البقايا الصليبية فلولها فى الشام ، وانطلقت من صور لتسترد عكا من المسلمين ، وصل فيلب أوغسطس على رأس الشطر الفرنسى من الحملة الصليبية الثالثة ، ليشجع الصليبيين ويحيى فيهم الامل . ولم يضع فيلب أوغسطس الوقت ، وانما تزعم على الفور معركة عكا (ابريل سنة ١١٩١ م / ٥٨٧٠ هـ) ثم وصل ريتشارد قلب الاسد الى الشام فى ٨ يونيو من نفس العام لينبث فى الصليبيين مزيدا من القوة . أما صلاح الدين فقد بذل جهودا كبيرة لانقاذ عكا وشن هجمات قوية على الصليبيين ، ولكنه لم يفلح فى انقاذ المدينة التى اضطرت حاميتها الى الاستسلام فى يوليو ١١٩١ م (٥٨٧ هـ)(٢٩) .

واذا كان الخلاف بين فيلب أوغسطس وريتشارد قلب الاسد قد دفع فيلب الى الاعتذار بالمرض والعودة الى الغرب فى أوائل أغسطس سنة ١١٩١ م ، فان ريتشارد أختار أن يبقى بالشام بعض الوقت ليصفي الحساب بين صلاح الدين والصليبيين . وتعتبر الحروب التي دارت فى الشام بين ريتشارد قلب الاسد وصلاح الدين سنة ١١٩١ — ١١٩٢ م (٥٨٧ — ٥٨٨ هـ) من أهم حلقات الحروب الصليبية وأكثرها اثارة ومتعة للباحث . ذلك أن ريتشارد جمع بين الشجاعة والتهور ، فتزعم القوي الصليبية بالشام للقيام بحركة كبرى تستهدف استرداد بيت المقدس واعادتها الى سابق عهدها(٣٠) . وكان أن بدأ ريتشارد بمحاولة لاسترداد شاطىء فلسطين — من عكا الى عسقلان — فاستولى الصليبيون على حيفا ثم قيسارية فى نهاية أغسطس سنة ١١٩١ م (٥٨٧ هـ) ، ومنها اتجهوا صوب أرسوف .

على أن صلاح لدين لم يترك الصليبيين يواصلون زحفهم فى

---

(٢٩) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ص ٣٥٩ — ٣٦٠ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٧٦ .

(٣٠) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٦٨٦ وما بعدها (الطبعة الرابعة ١٩٨٦) .

سهولة ، وانما أخذ فى مطاردتهم ، وتحمل فى هذه المطاردة كثيرا من التضحيات ، حتى دارت موقعة أرسوف بين الطرفين فى أوائل سبتمبر سنة ١١٩١ م (٥٨٧ هـ) . وفى هذه الموقعة أحاط المسلمون بالصليبيين ، وأوشك صلاح الدين أن يقضى عليهم مثلما حدث فى حطين ، لولا ثبات ريتشارد الذى أعاد تنظيم رجاله فى سرعة ، واستطاع أن يحول المعركة الى صالح الصليبيين[٣١] .

ومع أن الصليبيين انتصروا فى أرسوف ، الا أن صلاح الدين ظل محتفظا بالسيطرة على داخلية فلسطين ، وبخاصة بيت المقدس . وكان أن حاول ريتشارد الزحف على بيت المقدس ، ولكنه لم ينجح فى الاستيلاء عليها بسبب يقظة صلاح الدين والاستعدادات الضخمة التى اتخذها للدفاع عن المدينة[٣٢] .

وأخيرا أدرك ريتشارد أن مشاكل الصليبيين الداخلية كثيرة ومعقدة ، وأن مركز صلاح الدين قوى متين ، وأن الاحوال فى غرب أوربا تتطلب منه العودة الى بلاده على جناح السرعة . لذلك لجأ ريتشارد الى فتح باب المفاوضات مع صلاح الدين ، وهى المفاوضات التى طالت ومرت بأدوار متعددة ، حتى أدت فى النهاية الى عقد صلح الرملة فى ٢ سبتمبر سنة ١١٩٢ م (٥٨٨ هـ) . وقد نص هذا الصلح على أن تكون للصليبيين المنطقة الساحلية الممتدة من صور الى يافا ، بما فيها قيسارية وحيفا وعكا . أما ما عدا ذلك من أرض فلسطين بما فيه بيت المقدس — فيظل بأيدى المسلمين[٣٣] .

وبعد عقد الصلح ، ركب ريتشارد البحر عائدا الى بلاده فى

---

(٣١) المقريزى : كتاب السلوك : جـ ١ ص ١٠٥ .

(٣٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ٣٧٥ .

(٣٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٦٣ ، عماد الدين الكاتب : الفتح القسى ، ص ٣٤٢ .

أوائل أكتوبر سنة ١١٩٢ م (٥٨٨ هـ) • ولم يلبث أن توفى صلاح الدين فى أوائل مارس سنة ١١٩٣ (٥٨٩ هـ) بعد مرض قصير ودفن فى دمشـــق •

ولا شك فى أن وفاة صلاح الدين المبكرة جاءت خسارة فادحة للعالم الاسلامى بوجه عام ، ومصر والشام بوجه خاص • ويكفى أنه — باعتراف جمهرة المؤرخين المسلمين والمسيحيين — كان أعظم شخصية شهدها عصر الحروب الصليبية ، مما دفعهم جميعا الى الترحم عليه ، والاشادة بقوته وبعد نظره ، وعدله ، وتسامحه[٣٤] •

* * *

(٣٤) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٤٠ ،
Runciman : Op. cit. ; III, p.p. 11 — 18.

الفصل الرابع

الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين

انقسام البيت الأيوبي :

ترك صلاح الدين خلفه دولة مترامية الأطراف ، وفراغا ضخما لم يستطع أحد من أبنائه السبعة عشر ، أو اخوته ، أو أبناء اخوته ، أن يملأه . ولا أقل من أن نلقى نظرة سريعة على أحوال الدولة الايوبية عند وفاة صلاح الدين ، لندرك مدى الخطر الذى كان يتهددها ويتهدد وحدة المسلمين فى الشرق الأدنى عندئذ[1] .

على أنه قبل أن نتكلم عن التوزيع الادارى فى الدولة الايوبية عند وفاة صلاح الدين ، يصح أن نشير الى أن صلاح الدين اعتمد فى الدور الأول من تاريخه على اخوته وأبناء عمومته فى توطيد سلطانه ، واختصهم بالمناصب الكبرى والولايات الرئيسية فى دولته . ولكنه لم يلبث أن غير سياسته ، فجعل لأبنائه المكانة الاولى ، واختصهم بالأجزاء الرئيسية الأكثر أهمية ، مستبقيا لأخوته وأقاربه المناصب الثانوية . وسواء كان الدافع لصلاح الدين الى ذلك عاطفة الأبوة التى جعلته يفضل أبناءه على اخوته ، أم كان الدافع تخوفه من أطماع أقاربه ، وازدياد نفوذ اخوته ، فالمهم أننا نجد الدولة الايوبية عند وفاة صلاح الدين وقد تقاسم حكم أجزائها عدد كبير من بنى أيوب ، فاستأثر أبناء صلاح الدين بالأجزاء المختارة ، وتقاسم بقية الأهل والاقارب الأجزاء الأقل أهمية .

---

(١) خلف صلاح الدين سبعة عشر ولدا ذكرا ، وابنة صغيرة . انظر : العماد الاصفهانى : الفتح القسى ، ص ٦٢٩ ، تحقيق محمد محمود صبح .

وكان أن احتفظ أكبر أبناء صلاح الدين — وهو الملك الأفضل نور الدين على — بدمشق (٥٨٩ هـ — ٥٩٢ هـ / ١١٩٣ — ١١٩٦ م) مركزا لدويلة تشتمل أيضا على الساحل وبيت المقدس وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس وهونين وتبنين ، حتى الداروم قرب حدود مصر . أما الابن الثانى لصلاح الدين — وهو الملك العزيز عثمان — فاحتفظ بمصر (٥٨٩ — ٥٩٥ هـ / ١١٩٣ — ١١٩٨ م) ، فى حين أخذ الابن الثالث لصلاح الدين — وهو الملك الظاهر غازى — حلب وشمال الشام (٥٨٩ — ٦١٣ هـ / ١١٩٣ — ١٢١٥ م) . أما الملك العادل سيف الدين أبو بكر — أخو صلاح الدين — فقد أخذ الكرك والاردن ، فضلا عن الجزيرة وديار بكر ، وكلها اقطاعات ثانوية متفرقة منحه اياها صلاح الدين ، ولا تتناسب مع مكانة الملك العادل وأهميته التى ستزداد وضوحا مع مضى الوقت[٢] . أما بقية أبناء صلاح الدين واخوته وآل بيته ، فكانت لهم اقطاعات ثانوية صغيرة ، مثل الظافر خضر بن صلاح الدين الذى أخذ بصرى وحوران ، والأمجد بهرام شاه ابن أخى صلاح الدين الذى أخذ بعلبك ، والمجاهد شيركوه الثانى (الصغير) ابن محمد بن شيركوه الكبير — عم صلاح الدين — الذى أخذ حمص ، والمنصور الاول محمد بن تقى الدين عمر الذى أخذ حماة . هذا فى حين أخذ سيف الاسلام طغتكين — وهو الاخ الرابع لصلاح الدين — اليمن وجزيرة العرب[٣] .

فاذا أضفنا الى ذلك كله تحفز أبناء البيوت القديمة الحاكمة فى الجزيرة ، مثل البيت الزنكى ممثلا فى عز الدين مسعود الأول ابن مودود أتابك الموصل (٥٧٦ — ٥٨٩ هـ / ١١٨٠ — ١١٩٣ م) وأخيه عماد الدين زنكى الثانى ابن مودود أتابك سنجار (٥٦٦ — ٥٩٤ هـ /

---

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ٣٧٨ — ٣٧٩ ، تحقيق جمال الدين الشيال .

(٣) عماد الدين الكاتب : الفتح القسى ، ص ٦٤٤ ، تحقيق محمد محمود صبح .

١١٧٠ — ١١٩٧ م) ، والبيت الأرتقى ممثلا فى قطب الدين سقمان الثانى صاحب كيفا وآمد ، وعماد الدين أبى بكر صاحب خرتبرت ، فضلا عن بنى سقمن فى خلاط ، ... أدركنا صورة الجبهة الاسلامية فى الشرق الادنى عند وفاة صلاح الدين(٤) .

النزاع بين أبناء البيت الأيوبى :

ولم تلبث أن نشبت حرب الوراثة بين أبناء البيت الأيوبى . ذلك أن صلاح الدين أوصى لابنه الأفضل — صاحب دمشق — بالسلطنة من بعده ، على أن تكون له السلطة العليا فى سائر أنحاء الدولة الأيوبية . ولكن الأفضل لم يكن بالشخص الذى يصلح للنهوض بتلك المهمة الكبيرة ، نظرا لما اتصف به من ضعف وسوء سيرة ، حتى وصفه المؤرخون بأنه أقبل على اللعب ليله ونهاره ، وتظاهر بلذاته(٥) . وزاد من مشاعر الكراهية له أنه نبذ أمراء والده ومستشاريه ، ووضع كل ثقه فى وزير جديد — هو ضياء الدين ابن الاثير — أخى المؤرخ الشهير . ولم يلبث وزراء صلاح الدين وامراؤه المستبعدون أن فروا الى بلاط الملك العزيز عثمان بمصر ، واستعدوه على أخيه الأفضل ، فخرج العزيز عثمان من مصر فى صيف سنة ١١٩٤ م (٥٩٠ هـ) قاصدا الشام حيث شرع فى محاصرة أخيه الأفضل فى دمشق ، الأمر الذى جعل الافضل بدوره يستنجد بعمه العادل(٦) .

وهكذا أتيحت الفرصة للعادل — وهو الرجل الطموح الذى كان يرجو أن يخلف أخاه صلاح الدين — ليقفز على أكتاف أبناء أخيه المتنازعين . وقد وصف المؤرخ ابن واصل الملك العادل بأنه كان « ذا

---

(٤) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٨٩ هـ .

(٥) المقريزى : كتاب السلوك ، حوادث سنة ٥٩٠ هـ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ١٢٠ .

(٦) ابن الاثير : كتاب الكامل ، حوادث سنة ٥٩٠ هـ .

مكر شديد وخديعة ، صبورا ذا أناة وتؤدة »(٧) . لذا لم يشأ أن يتعجل الحوادث عقب وفاة أخيه صلاح الدين ، وأخذ يتصرف بحكمة وأناة ريثما تتضج الثمرة . وعندما أتيحت الفرصة ، استجاب العادل لنداء الأفضل ، فالتقى بالملك الظاهر صاحب حلب والمنصور محمد صاحب حماة ، وأسد الدين شيركوه صاحب حمص ، والأمجد بهرام شاه صاحب بعلبك ، واتفق الجميع على منع العزيز عثمان من الاستيلاء على دمشق « علما منهم أن العزيز ان ملكها أخذ بلادهم » . وعندئذ أدرك العزيز أن لا قدرة له على مقاومة أولئك الامراء جميعا ، فانصرف عائدا الى مصر ، بعد أن اجتمع بعمه العادل فى صحراء المزة ، فطيب العادل نفسه ، وأعطاه احدى بناته ليتزوجها(٨) .

أما التسوية التي على أساسها انصرف العزيز ، والتى تمت فى يوليو سنة ١١٩٤ م (٥٩٠ هـ) ، فقد قضت بأن يحتفظ الأفضل بدمشق وطبرية وأعمال الغور ، فى حين يأخذ العزيز عثمان بيت المقدس وما يجاوره من أعمال فلسطين ، ويأخذ الظاهر غازى جبلة واللاذقية ، وذلك علاوة على ما بأيديهما فعلا(٩) .

وهكذا أخذ العادل يبدو فى صورة الحكم بين أبناء أخيه صلاح الدين ، والشخصية الكبرى الحريصة على وحدة البيت الايوبى ، والمحافظة على كيان المسلمين أمام الأخطار الخارجية(١٠) .

---

(٧) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٣ ص ٢٧١ ، تحقيق جمال الدين الشيال .

(٨) المقريزى : كتاب السلوك ، حوادث سنة ٥٩٠ هـ ، تحقيق محمد مصطفى زيادة .

(٩) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٩١ هـ .

(١٠) يروى أن العادل عندما التقى بالعزيز عثمان قرب دمشق قال له : « لا تخرب البيت وتدخل عليه الآفة ، والعدو وراءنا من كل جانب ، وارجع الى مصر واحفظ عهد ابيك » .
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ١٤١ .

على أن الأفضل لم يلبث أن تمادى فى لذاته ولهوه « فتشاغل عن أمور الناس بادمان الشراب » ، فى الوقت الذى عاد العزيز عثمان الى مطامعه ، فخرج من مصر قاصدا دمشق . وكان أن عاد الأفضل الى طلب النجدة من عمه العادل ، وعندئذ لجأ الأخير الى تحريض أمراء العزيز على تركه . وعندما وجد العزيز عثمان نفسه وحيدا اضطر الى العودة الى مصر . وسرعان ما تم اتفاق بين الامراء على أن يأخذ الأفضل مصر ويترك دمشق للعادل . ولتنفيذ ذلك جمع الأفضل والعادل جيوشهما واستوليا على بيت المقدس ، ثم شرعا يزحفان على العزيز عثمان فى مصر حتى وصلا الى بلبيس وحاصراها . وليس أدل على مهارة العادل من أنه خشى عندئذ أن يأخذ الأفضل مصر ولا يعطيه دمشق ، فأرسل العادل سرا الى العزيز عثمان يطلب منه الثبات ، ويتعهد بالانسحاب من بلبيس[11] . وهكذا عاد الأفضل الى دمشق ، فى حين جعل العادل من نفسه حكما بين أبناء صلاح الدين مما مكنه من أن يفرض كلمته عليهم جميعا .

ولكن الأفضل عاد فى تلك المرة الى دمشق ، ليترك كافة شئون الحكم فى يد وزيره ضياء الدين ابن الاثير ، « الذى اختلت به الاحوال غاية الاختلال وكثر شاكوه » . وكان أن ضج الناس من سوء الحكم وأعلنوا سخطهم على الأفضل وابن الاثير جميعا[12] .

وعندما وجد العادل أن الأمور قد نضجت لعزل الأفضل ، اتجه الى العزيز عثمان فى مصر ، وعقد معه اتفاقية لتحقيق ذلك الأمر . ثم خرج الاثنان — العادل والعزيز — من مصر فى يونية سنة ١١٩٦ م (٥٩٢ هـ) قاصدين دمشق ، « فما صدهم عن البلد صاد ، ولا ردهم راد »[13] . ولم تلبث أن سقطت دمشق فى أيديهما فى أوائل يوليو ،

---

(١١) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٩١ هـ .

(١٢) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ١٢٩ ، سنة ٥٩٢ هـ .

(١٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٦١ .

وعندئذ حل العادل محل الأفضل فى حكم دمشق وأواسط الشام ، فى حين أخذ العزيز عثمان لقب السلطنة ، وبقيت له مصر وبيت المقدس ، على أن يذكر اسمه فى الخطبة وينقش على السكة . أما الأفضل فقد تركت له مدينة صرخد فى اقليم حوران شرقى بصرى ، ليقيم فيها نسيا منسيا(١٤) .

مصر فى عهد العزيز عثمان :

حكم العزيز عثمان مصر قرابة خمس سنوات (١١٩٣ — ١١٩٨ م / ٥٨٩ — ٥٩٥ هـ) ، وكان قبل ذلك يحكم مصر باسم أبيه صلاح الدين وفى ذلك يقول المؤرخ ابن تغرى بردى عن العزيز عثمان أنه « ولى سلطنة مصر فى حياة والده صورة ، ثم تسلطن بعد وفاته استقلالا ، باتفاق الامراء وأعيان الدولة بديار مصر »(١٥) . ويلاحظ أن العزيز عثمان ولد بالقاهرة ، وهو لذلك يمثل أول حاكم من بنى أيوب يولد على أرض مصر ويتولى حكمها . وقد أشادت المصادر المعاصرة باستقامة العزيز عثمان ، وصلاح حكمه ، وعدله فى الرعية حتى وصفه ابن خلكان بأنه « كان ملكا مباركا ، كثير الخير ، واسع الكرم ، محسنا الى الناس »(١٦) .

ومع أن مصر ظلت فى ذلك الدور — مثلما كانت فى عهد صلاح الدين — قلب الدولة الايوبية ، الا أن أحوالها الاقتصادية تأثرت الى حد كبير بسبب انخفاض فيضان النيل (٥٩١ — ٥٩٢ هـ / ١١٩٤ م) ، مما ترتب عليه حدوث القحط وانتشار الوباء ، فهلكت المواشى ، وكثر الزحام فى الاسواق على الخبز لقلته « وكثرت الطرحي من الاموات على الطرقات ، وزادت عدتهم بمصر والقاهرة فى كل يوم عن مائتى

---

(١٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ١١٦ .
(١٥) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ١٢٠ .
(١٦) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، جـ ٣ ، ص ٢٥١ ، تحقيق احسان عباس .

نفس ، وبقى بمصر من لم يوجد من يكفنه ، وأكثرهم يموت جوعا »(١٧) .

ويبدو أن انشغال العزيز عثمان بالنزاع مع أخيه الافضل فى ذلك الدور ، لم يساعد على سرعة وضع حد لتلك الضائقة التى أثرت تأثيرا خطيرا فى أحوال البلاد .

العادل وتوحيد الدولة الايوبية :

واذا كانت الظروف التى ألمت بالبيت الايوبى بعد وفاة صلاح الدين قد ساعدت على ابراز أهمية العادل بوصفه كبير بنى أيوب وزعيمهم ، فان هذه المكانة كانت تلقى مسئولية كبيرة على كاهل العادل فيما يختص بالدفاع عن مصالح المسلمين ضد أى عدوان من جانب الصليبيين . وفعلا نهض العادل بمسئوليته تجاه العدوان الصليبي على خير وجه . من ذلك أنه حدث سنة ١١٩٧ م (٥٩٣ هـ) أن وفد بعض الصليبيين الالمان على بلاد الشام ، وهاجموا المسلمين وبخاصة قرب الساحل ، وعندئذ أسرع العادل الى جمع قوى المسلمين وأنزل هزيمة بالصليبيين عند تل العجول قرب غزة ، ثم أتبع ذلك بالاستيلاء على يافا فى سبتمبر سنة ١١٩٧ م (٥٩٣ هـ)(١٨) ، وقد رد الصليبيون على ذلك بالاستيلاء على بيروت فى أكتوبر ، ثم خططوا للزحف على بيت المقدس ، ولكن العادل طلب معونة العزيز عثمان من مصر ، فحضر اليه فى أوائل سنة ١١٩٨ م (٥٩٤ هـ) ، وتمكن المسلمون من الصمود فى وجه الصليبيين الذين ارتدوا فاشلين(١٩) .

ولم يكد يتم الصلح بين المسلمين والصليبيين فى أوائل يوليو سنة ١١٩٨ م (٥٩٤ هـ) ، حتى مرت الدولة الايوبية بعدة تطورات أنتهت بتوحيدها مرة أخرى تحت زعامة العادل . ذلك أن العـزيز عثمان

---

(١٧) المقريزى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ١٣٠ .

(١٨) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٢٣ .

ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٧٤ — ٧٥ .

(١٩) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر ، حوادث سنة ٥٩٤ هـ .

— سلطان مصر — توفى فى أواخر سنة ١١٩٨ م (٥٩٥ هـ) • وكان ابنه الاكبر ناصر الدين محمد — الملقب بالملك المنصور — فى العاشرة من عمره ، فأرسل الامير فخر الدين جهاركس — صاحب النفوذ فى مصر — الى العادل ، يستدعيه لحكم البلاد • ولكن المماليك الأسدية والصلاحية فى مصر خافوا بأس العادل ، فاستدعوا الملك الافضل من حوران ، وسلموه مقاليد الامور فى مصر فى يناير ١١٩٩ م (٥٩٥ هـ) • وكان العادل عندئذ يحاصر ماردين فى ديار بكر ، فاتفق الملك الافضل فى مصر مع الملك الظاهر غازى صاحب حلب للقضاء على سيادة عمهما العادل وأخذ دمشق منه[٢٠] •

وعندما علم العادل بمؤامرة ابنى أخيه ضده ، عاد مسرعا الى دمشق ، فوصلها فى ٨ يونيو سنة ١١٩٩ م (٥٩٥ هـ) وأخذ يعد المدينة بسرعة للدفاع • ولم تمض مدة طويلة حتى وصل الافضل على رأس العسكر المصرى ، والظاهر على رأس العسكر الحلبى ، وحاصرا دمشق طوال ستة أشهر ، ولكن دون أن يقوما بهجوم عام جاد • ويبدو أن طول مدة الحصار أدت بكثير من أمراء الافضل والظاهر الى تركهما والانضمام الى العادل ، فى الوقت الذى استغل العادل سوء تدبير الأخوين وأخذ يبذر بذور الخلاف بينهما ، حتى انتهى الأمر فى أواخر ديسمبر سنة ١١٩٩ م (٥٩٦ هـ) بعودة الافضل الى مصر والظاهر الى حلب[٢١] • وعندئذ لم يشأ العادل أن يترك الافضل يعود فى سلام الى القاهرة ، وانما تبعه الى مصر ، وأنزل هزيمة به قرب بلبيس • ولم يلبث أن استسلم الافضل ، وطلب أن يسمح له بالعودة الى اقطاعه المتواضع فى حوران ، على أن تكون مصر للعادل (١٢٠٠ م / ٥٩٦ هـ)[٢٢] •

---

(٢٠) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٩٥ هـ ،
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ١٤٨ •

(٢١) أبو شامة : كتاب الروضتين ، جـ ٢ ، ص ٢٢٦ •

(٢٢) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٩٦ هـ •

ولكن الظاهر والافضل لم يلبثا أن اتفقا فى العام التالى مرة أخرى ضد عمهما العادل ، وزحفا على دمشق ليحاصراها من جديد . وعندئذ أسرع العادل من مصر ليبذر بذور الخلاف بين الاخوين ، فعاد الظاهر الى حلب واعترف بسيادة عمه ، أما الأفضل فاختار عمه أن يعاقبه فى تلك المرة ، فلم يعطه سوى سميساط[٢٣] .

وهكذا صار العادل « سلطان البلاد جميعها » وبيده ملك مصر وبيت المقدس ودمشق ، فضلا عن أملاكه فى الجزيرة . واذا كان العادل قد نجح فى توحيد الدولة الايوبية من جـــديد ، فان ذلك تطلب منه اعادة تنظيم دولته . وقد استعان فى ذلك التنظيم بأبنائه ، فأناب ابنه الكامل محمد فى حــكم مصر ، وجعل المعظم عيسى فى دمشق ، وأعطى الأشرف موسى حران ؛ والمــلك الاوحد نجم الــدين أيوب ميافارقين . واحتفظ العادل لنفسه بالاشراف التام على جميع أنحاء الدولة ، « وصــار يتنقــل فى ممالك أولاده ، والعمــدة فى كل الممالك عليــه »[٢٤] .

وبذلك تم اعادة توحيد الجبهة الاسلامية مرة أخرى فى وجــه الصليبيين ، وقام على رأس تلك الجبهة رجل يعتبر من أقوى رجال عصره ، وهو السلطان العادل سيف الدين أبو بكر محمد بن أيوب ، أخو صلاح الدين .

الســلطان العــادل والصليبيون :

نظر الصليبيون والغرب الاوربى الى جهود العادل الايوبى فى توحيد الجبهة الاسلامية ، بعين القلق ، وأخذوا يدركون أهمية مصر بوصفها القاعدة الكبرى التى اعتمد عليها الايوبيون فى دعم نشاطهم ..

(٢٣) المقريزى : كتاب السلوك ، حوادث سنة ٥٩٨ هـ ، جـ ١ ، ص ١٥٦ .

(٢٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٢٢٧ .

الداخلى والخارجى • وكان أن ظهرت الدعوة فى الغرب الاوربى فى أوائل القرن الثالث عشر للميلاد (السابع للهجرة) لارسال حملة كبيرة ضد مصر • وقد عرفت هذه الحملة فى تاريخ الحركة الصليبية باسم الحملة الرابعة ، وهى التى انحرفت الى القسطنطينية ، ولم تصل الي مصر أو الشام •

أما الملك عمورى الثانى لوزجنان — ملك الصليبيين فى عكا — فقد ظل فى تلك الأثناء حريصا على عدم خرق الصلح الذى عقد مع المسلمين سنة ١١٩٨ م (٥٩٤ هـ) ، مستهدفا عدم استفزاز العادل حتى تأتى الحملة الصليبية المنتظرة الى الشرق • من ذلك أن ثلثمائة فارس من الفلمنكيين وصلوا فى نهاية سنة ١٢٠٣ م (٥٩٩ هـ) الى عكا ، وطلبوا من الملك عمورى الثانى البدء فورا بالزحف على بلاد المسلمين ، ولكن عمورى رد عليهم بأن الحماسة وحدها لا تكفى وبأن من الاصوب عدم خرق الهدنة مع المسلمين حتى يضمن الصليبيون قوة فعالة تحقق لهم الانتصار فى حروبهم ضد المسلمين(٢٥) •

ولكن حرص عمورى الثانى على احترام الصلح مع المسلمين لم يؤد الى تهاونه فى الدفاع عن سلامة الصليبيين • ذلك أن سياسته اتجهت الى عدم المبادره بالعدوان ، مع التأهب دائما للدفاع عن كيان الصليبيين ومصالحهم • من ذلك أن أميرا مسلما امتلك قلعة فى اقليم صيدا ، استغلها فى القيام باغارات بحرية عدوانية على ممتلكات الصليبيين وسفنهم • ولم تفلح الشكاوى التى بعث بها عمورى الى السلطان الملك العادل لوقف نشاط ذلك الامير ؛ وعندئذ قرر عمورى الثانى الرد على العدوان بالمثل • وكان أن تربص أسطوله لقافلة من السفن الاسلامية — بلغ عدد سفنها نحوا من عشرين سفينة —

---

(25) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 296.

قادمة من مصر الى موانى الشام ، واستولى الصليبيون على ما فيها من بضائع قدرت بنحو ستين ألف دينار ، كما أسروا رجالها الذين بلغ عددهم نحوا من مائتى رجل[٢٦] . وبعد ذلك شرع عمورى فى القيام باغارة على اقليم الجليل ، فأوغل الصليبيون حتى كفر كنا — على الطريق بين عكا وطبريه — واعتدوا على أرواح المسلمين وممتلكاتهم[٢٧] . ولكن العادل خرج اليهم ، وعندئذ أوقف الصليبيون زحفهم ، واختاروا أن يتريثوا حتى تصل الحملة الصليبية المنتظرة . ولم تلبث أن جاءت الاخبار بانحراف الحملة الصليبية الرابعة ، واتجاهها الى القسطنطينية ، مما ساعد على ابرام الصلح بين المسلمين والصليبيين فى سبتمبر ١٢٠٤ م (٦٠١ هـ)[٢٨] .

ويبدو أن العادل أدرك عندئذ أنه فى سياسته تجاه الصليبيين أفرط فى التسامح ، مما تسبب فى الأذى الذى أخذ يلحق بالمسلمين . ذلك أنه لم يكتف بعدم الهجوم ، بل كثيرا ما كان يغض الطرف عن العدوان الصليبى ، رغبة منه فى عدم اشعال نار العداوة بين الطرفين . من ذلك أن الصليبيين — وبخاصة الاسبتارية فى حصن الاكراد — دأبوا منذ سنة ١٢٠٦ م (٦٠٣ هـ) على الاغارة على مدينة حمص ، فى الوقت الذى استولى قراصنة قبرس سنة ١٢٠٧ م (٦٠٤ هـ) على عدة سفن « من أسطول مصر »[٢٩] . ومع ذلك كله ، فان العادل اكتفى بانذار ملك الصليبيين ، وقنع برد أسرى المسلمين . ومن الواضح أن سياسة العادل وتسامحه كانتا لا تتفقان بأى حال وروح العصر وحماسة المسلمين الذين دأبوا على عقد اجتماعات فى جامع دمشق لاعلان

---

(26) Grousset Hist. des Croisades, III p. 180.

(٢٧) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٦٠٠ هـ .

(٢٨) تاريخ ابن الوردى (تتمة المختصر فى أخبار البشر) ، جـ ٢ ، ص ١٨٢ ، تحقيق أحمد رفعت البدراوى .

(٢٩) ابن الاثير : الكامل ، سنة ٦٠٤ هـ ،
سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ، ص ٣٩ .

استنكارهم لسياسة الاستكانة التى اتبعها العادل . وكان أن قطعت امرأة شعرها ، وبعثت به الى العادل ، وقالت له « اجعله قيدا لفرسك فى سبيل الله »[٣٠] .

وتحت تأثير هذه الضغوط ، قام العادل ببعض الاعمال الحربية ضد الصليبيين سنة ١٢٠٧ م (٦٠٣ هـ) فى اقليم طرابلس . ولكنه لم يلبث أن عقد الصلح معهم بعد قليل[٣١] .

---

(٣٠) ذيل الروضتين
(Rec. Hist. Cr. Tome 5 , pp. 156 — 158)

(٣١) ابن ايبك : كنز الدرر وجامع الغرر ، ج ٧ ، ص ١٦٠ ، (تحقيق المؤلف) .

الفصل الخامس

السلطان الكامل والحملة الصليبية الخامسة على مصر

تطلع الصليبيين الى مصر :

أدرك الصليبيون منذ بداية استقرارهم بالشام فى أواخر القرن الحادى عشر للميلاد (الخامس للهجرة) أهمية مصر لهم ولمشاريعهم فى الشرق الأدنى ، فأخذوا يتطلمون للاستيلاء عليها ، وقام جودفرى دى بوايون ــ أول حاكم صليبى على بيت المقدس ــ بأولى المحاولات الاستكشافية فى أرض مصر سنة ١٠٩٩ م (٤٩٣ هـ) ، ثم أعقبه أخوه بلدوين ــ أول ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية ــ فغزا أرض مصر فعلا سنة ١١١٦ م (٥٠٩ هـ) .

وقد سبق أن أشرنا الى التنافس بين شاور وضرغام فى أواخر عصر الدولة الفاطمية ، وكيف أدى ذلك التنافس الى تدخل الصليبيين فى شئون مصر ، وقيام ملكهم عمورى الاول بأربع حملات على مصر (١١٦١ ــ ١١٦٨ م / ٥٥٦ ــ ٥٦٤ هـ) . واذا كان الصليبيون قد فشلوا فى مصر ، فان فشلهم كان حافزا لهم على الاحساس بمدى الخطر الذى يتهددهم بعد أن غدا نور الدين ــ ومن بعده صلاح الدين ــ يسيطران على الشام ومصر جميعا ، ويحصران الكيان الصليبى بين فكى كماشة الجبهة الاسلامية المتحدة . ولم يخف على الصليبيين والغرب المسيحى أن مصر كانت المخزن الرئيسى الذى استمد منه صلاح الدين موارده التى مكنته من الاطاحة بالصليبيين فى موقعة حطين ، ثم من الاستيلاء على بيت المقدس وغيرها من المدن والموانى والمعاقل الصليبية فى بلاد الشام . وبعد الصدمة القوية التى تعرض لها الغرب الاوربى نتيجة لتلك الخسائر ، أفاق الغربيون فى أوائل القرن الثالث عشر للميلاد

أمام حقيقة كبرى ، هى أن مفتاح بيت المقدس موجود فى مصر ، وأنه اذا أراد الصليبيون أن ينعموا بحياة آمنة فى بلاد الشام فعليهم أن يحكموا قبضتهم على مصر أولا .

وكان المفروض أن تتجه الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤ م (٦٠٠ هـ) ضد مصر على وجه التحديد . ولكن مطامع البنادقة ومتطلبات سياستهم الاقتصادية ، جعلتهم يوجهون الحملة صوب القسطنطينية ، حيث أزاح الصليبيون الأمبراطورية البيزنطية وأقاموا أمبراطورية لاتينية غربية . وازاء هذا الفشل الذى منيت به الحملة الصليبية الرابعة فى ميدان الحركة الصليبية ، قام البابا انوسنت الثالث ومن بعده البابا هونريوس الثالث ، بالدعوة لحملة صليبية جديدة لتدارك الخطأ الذى وقعت فيه الحملة الرابعة . وقد بدأت هذه الدعوة فعلا منذ وقت مبكر يرجع الى سنة ١٢١٣ م . ومن أجل ذلك عقد مجمع اللاتران الرابع فى روما سنة ١٢١٥ برئاسة البابا انوسنت الثالث نفسه[1] .

حنا دى برين ومهاجمـة مصر :

وسرعان ما أخذت أفـواج الصليبيين المتحمسين تفد من الغرب الأوربى على بلاد الشام تلبية لنداء البابوية ، فى الوقت الذى آمن حنا دى برين — ملك مملكة بيت المقدس الصليبية فى عكا (١٢١٠ — ١٢٢٥ م) — بفكرة غزو مصر . وكانت خطة حنا دى برين تستهدف دخول مصر عن طريق الاسكندرية أو دمياط ، وأيده فى هذه الخطة جمهرة الصليبيين فى بلاد الشام ، وعلى رأسهم الداوية والاسبتارية ، فضلا عن الصليبيين فى قبرس[2] .

وعندما اكتملت استعدادات الصليبيين فى بلاد الشام ، ترك الملك حنا دى برين حامية قوية فى عكا للدفاع عنها ضد أى هجوم اسلامى

(1) Setton : A History of the Crusades, vol. 2, pp. 378 — 379.

(2) Brehier : L'Eglise et l'Orient, pp. 191 — 192.

مفاجىء ، ثم خرج على رأس الاسطول الصليبى متجها الى دمياط فى أواخر مايو سنة ١٢١٨ م (٦١٥ هـ) • ولم يغب عن الصليبيين عندئذ أن يتصلوا بنجاشى الحبشة المسيحى ليتعـاون معهم فى طعن الدولة الاسلامية من الجنوب عن طريق غزو الحجاز وهدم الكعبة[٣] •

على أنه يلاحظ أن الصـليبيين ارتكبوا خطئا كبيرا سنة ١٢١٨ م (٦١٥ هـ) بغزوهم مصر عن طريق دمياط والنيل • وكان المفروض أن يستفيد الصليبيون عندئذ من تجارب عمورى الاول ، التى أثبتت أن الوصول الى القاهرة أمر ممكن عن طريق الصحراء الشرقية • وربما كان عذر حنا دى برين هو أن عمورى كانت له قاعدة حربية كبرى فى جنوب فلسطين — هى مدينة عسقلان — استطاع أن يعتمد عليها فى غزو مصر عن طريق الشرق • أما حنا دى برين ، فلم يجد للصـليبيين أية قاعدة على الحدود يمكنهم الارتكاز عليها فى طريقهم الطويل • وهكذا اختار الصليبيون النزول على دلتا النيل فى مواجهة دمياط ، لا لأن دمياط أقرب الموانىء المصرية الكبرى من الصليبيين بالشـام فحسب ، بل أيضا لأن فرع دمياط يمثل فى نظرهم طريقا سهلا يوصلهم الى داخلة البلاد • ونسى الصليبيون مدى ما يمكن أن يتعرضوا له فى غزوهم مصر عن طريق النيل من عقبات طبيعية : تتمثل فى السدود والجسور والترع مما يجعل وصولهم الى القاهرة عن هذا الطريق أمرا صعبا بل ربما متعذرا[٤] •

ومهما يكن من أمر ، فان الصليبيين نزلوا على الضفة الغربية للنيل المواجهة لمدينة دمياط ، اذ يبدو أنهم وجدوا المدينة محصنة تحصينا قويا ، بينما امتدت بعرض مجرى النيل مآصر ، وهى سلاسل ضخمة من الحديد تحول دون دخول السفن المعادية من البحر الى داخل مجرى

---

(3) Coulbeaux : Hist. d'Abyssinie pp. 256 — 266.

(4) King : The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 190.

النهـر[٥] . هذا بالاضافه الى برج السلسلة ، وهو بمثابة حصن بناه المسلمون وسط مجرى النهر عند مصبه ، لحماية دمياط ودفع أى عدوان يقع عليها[٦] .

ولما علم الملك الكامل — الذى كان ينوب عن أبيه السلطان العادل فى حكم مصر — بنزول الصليبيين فى مواجهة دمياط ، أسرع على رأس جنده ، ونصب معسكره جنوبى دمياط — وهو المكان الذى صار يعرف منذ ذلك الوقت باسم منزلة العادلية — حتى يكون على اتصال بالمدينة من ناحية ، ويمنع الصليبيين من العبور الى ضفتها من ناحية أخرى . وكان ذلك فى الوقت الذى كلف السلطان العادل ابنه الملك الأشرف موسى بالضغط على الصليبيين فى الشام « فسار فى عسـكره الى حمص ، ودخل بلاد الفرنج ليشغلهم عن محاصرة دمياط »[٧] .

ولم يلبث أن أدرك الصليبيون فداحة الخطأ الـذى وقعوا فيه برسوهم على الضفة العربية للنيل بدلا من الضفة الشرقية القائمة عليها مدينة دمياط فعلا . مما أثار أمامهم مشكلة صعبة هى كيفية عبور نهر النيل للوصول الى المدينه . هذا بالاضافة الى أنهم أضاعوا كثيرا من الوقت عقب نزولهم لى الشاطىء ، مما أعطى المسلمين فرصة للتأهب والاستعداد .

وكان أن قضى الصليبيون ثلاثة أشهر كاملة يهاجمون برج السلسلة حتى تمكنوا أخيرا — فى أغسـطس سنة ١٢١٨ م (٦١٥ هـ) — من الاستيلاء على البرج . وقطع المآصر التى كانت تعترض مدخل النهر[٨] .

---

(٥) المقريزى كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ١٨٨ ، حوادث سنة ٦١٥ هـ .

(٦) ابن الاثير الكامل ، حوادث سنة ٦١٤ هـ .

(٧) ابن العديم زبدة الحلب فى تاريخ حلب ، ج ٣ ، ص ١٨٠ ، حوادث سنة ٦١٤ هـ تحقيق سامى الدهان .

(٨) ابن الاثير الكامل ، حوادث سنة ٦١٤ هـ .

ولا شك فى أن سقوط برج السلسلة فى قبضة الصليبيين وقطع تلك المآصر جاء نذير خطر كبير بالنسبة للمسلمين . ذلك أن المعاصرين اعتبروا ذلك البرج « قفل الديار المصرية »[٩] ، فى حين كانت المآصر بمثابة البوابة التى تحول دون دخول سفن الأعداء الى داخلية البلاد .

ويقال ان السلطان العادل لم يحتمل سماع تلك الأخبار السيئة ، فمرض مرض الموت ، ثم لم يلبث أن توفى بفالقين بالشام فى نهاية أغسطس سنة ١٢١٨ م (جمادى الآخرة سنة ٦١٥ هـ)[١٠] .

أبناء العادل ومدافعة الصليبيين :

أدرك أبناء السلطان العادل — فى مصر والشام — أن الخطر الذى يهددهم ، ويهدد المسلمين جميعا فى المنطقة ، خطر فادح ، وأنه لو ثبت الصليبيون أقدامهم فى مصر ، فلن يبقى للمسلمين مقام فى مصر والشام . لذلك أجمعوا أمرهم على بذل كل ما فى وسعهم للتصدى للصليبيين فى مصر من ناحية ، وللضغط عليهم فى الشام لاجبارهم على سحب قواتهم من مصر من ناحية أخرى .

وكانت الخطوة الاولى أمام السلطان الكامل هى سد مجرى نهر النيل فى وجه الغزاة حتى لا يتمكنوا من التوغل فى البلاد . لذلك عمل على اقامة جسر ضخم بعرض المجرى . ولكن الصليبيين قطعوا ذلك الجسر ، وعندئذ استحضر الكامل عدة مراكب كبيرة وأغرقها بعرض مجرى النهر ليعوق تقدم السفن الصليبية[١١] . وفى تلك المرة أيضا تحايل الصليبيون على تفادى تلك العقبة ، فحفروا خليجا هناك كان

---

(٩) ذيل الروضتين
(Rec. Hist. Cr. Or. Tome 5, p. 161).

(١٠) تاريخ ابن الوردى « تتمة المختصر فى اخبار البشر » . جـ ٢ ، ص ٢٠١ ، تحقيق أحمد رفعت البدراوى .

(١١) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٦١٤ هـ .

النيل يجرى فيه قديما . وأجروا فيه الماء الى البحر . وبذلك استطاعت السفن الصليبية أن تدخل فى النهر حتى موضع مقابل لمنزلة العادلية حيث كان معسكر الكامل[١٢] .

ولم تكد أخبار هذه الانتصارات التى أحرزها الصليبيون فى مصر تصل الى الشام ، حتى تشجع اخوانهم وهاجموا بعض المراكز الاسلامية قرب عكا . ولكن المسلمين تصدوا للصليبيين ، وأنزلوا بهم خسائر جسيمة ، كما خرج الملك المعظم عيسى من دمشق واقتحم قيساريا وهدمها ؛ فى حين أغار الابن الثالث للسلطان العادل — وهو الملك الأشرف موسى — على امارة طرابلس الصليبية[١٣] . ومع ذلك فانه يبدو أن المعظم عيسى كان متخوفا من عواقب الحرب مع الصليبيين فى مصر ، فقام سنة ١٢١٩ م (٦١٦ هـ) بهدم عدة حصون قوية فى الشام ؛ حتى لا يستفيد الصليبيون منها اذا استولوا عليها ، بل انه هدم أبراج مدينة بيت المقدس وأسوارها حتى لا يتحصن الصليبيون فيها فى حالة استيلائهم عليها ، الأمر الذى أثار موجة من الذعر بين صفوف المسلمين داخل المدينة وخارجها ، فهجرها كثيرون من أهلها خوفا على أرواحهم[١٤] .

سقوط دمياط :

أما فى مصر ، فعلى الرغم من أن الموقف فى تلك المرحلة كان يشير الى تفوق الصليبيين ، الا أن حنا دى برين أخذ يواجه مشاكل عديدة عقب استيلائه على برج السلسلة . ذلك أن كثيرا من الصليبيين ظنوا أن مهمتهم انتهت بسقوط ذلك البرج وأنهم أوفوا بقسمهم الصليبى ،

---

(١٢) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ، ص ١٩٥ .

(١٣) ذيل الروضتين
(Rec. Hist. Cr. Or. Tome 5, p. 166)

(١٤) تاريخ ابن الوردى « تتمة المختصر فى أخبار البشر » ، جـ ٢ ، ص ٢٠٣ ، تحقيق أحمد رفعت البدراوى .

فانسحبوا عائدين الى بلادهم • وهكذا صار على حنا دى برين أن ينتظر وصول امدادات جديدة ، وهى الامدادات التى وصلت من أوربا فعلا خلال سنة ١٢١٨ م (٦١٥ هـ) • على أن الملك حنا دى برين لم يهنأ بوصول تلك الامدادات لأنها جاءت بزعامة مندوب بابوى — هو الكاردينال بلاجيوس — الذى تزعم الحملة الصليبية بأكملها • ولاشك فى أن ظهور زعيم جديد للصليبيين فى مصر أضعف الملك حنا دى برين ، فضلا عن أن ذلك الازدواج فى القيادة أنزل أبلغ الضرر بالحملة الصليبية الخامسة ومستقبلها(١٥) •

أما عن الجبهة الاسلامية ، فمن الواضح أن السلطان العادل عندما توفى فى أغسطس سنة ١٢١٨ م (٦١٥ هـ) خلف لأبنائه تركة ثقيلة • ذلك أنه كان على ابنه الكامل — الذى خلف أباه فى مصر — طرد الصليبيين من الأراضى المصرية ، كما كان على ابنه المعظم — الذى خلف أباه فى دمشق — حراسة جبهة الشام ، والضغط على الصليبيين لاجبارهم على ترك مصر • هذا فضلا عن أنه كان على ملوك الشام جميعا — من بنى أيوب — مساعدة الكامل فى مصر وتقديم العون السريع له •

وقد حاول الكامل القيام بهجوم على المعسكر الصليبى فى أوائل أكتوبر سنة ١٢١٨ م (٦١٥ هـ) فعبر نهر النيل ، وانقض عليهم ، ولكنهم صمدوا فى وجهه ، وربما تغلبوا على مقدمة جيشه ، مما اضطر الكامل الى الانسحاب السريع • وقد أراد الصليبيون أن ينتهزوا الفرصة للعبور الى ضفة النيل الشرقية التى تقع عليها مدينة دمياط ، ولكنهم فشلوا فى ذلك(١٦) • وزاد من موقف الكامل سوءا أن البدو أتوا من سيناء والشرقية ، ليستفيدوا من حالة الفوضى التى نجمت

---

(15) Grousset : Hist. des Croisades, III, p. 211.

(١٦) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٦٧ ، الطبعة الرابعة ١٩٨٦ •

عن الغزو الصليبي ، فأغاروا على القرى ونهبوها « وبالغوا في الافساد فكانوا أشد على المسلمين من الفرنج »[١٧] . ثم ضاعف من خطورة الموقف أن أحد القواد في معسكر الكامل — وهو ابن المشطوب — دبر عندئذ مؤامرة لعزل الكامل ، واحلال أخيه الأصغر — وهو الفائز بن العادل — محله في الحكم[١٨] .

ولم يسع الكامل لمواجهة هذه الأخطار سوى أن يستنجد بأخيه المعظم . ولكن حدث قبل أن يصل المعظم الى مصر أن خشي الكامل على نفسه من المتآمرين ، فهرب من معسكره في العادلية ليلا ، وترتب على ذلك فرار الجند في أثره ، فلما أصبح الصباح وجد الصليبيون المعسكر الاسلامي أمامهم خاويا ، فعبروا في غير صعوبة الى الضفة الشرقية للنهر « آمنين بغير منازع ولا ممانع » ، وغنموا كل ما في معسكر المسلمين من عدد وسلاح ومؤونة[١٩] .

وهكذا ساء الموقف في مصر ، لولا وصول المعظم في الوقت المناسب ، فأعاد الثقة الى نفس أخيه الكامل ، وتخلص من ابن المشطوب ، وأعاد تنظيم الجيش الاسلامي الذي رابط عند فارسكور جنوبي العادلية . وبفضل هذه الاجراءات السريعة ، تمكنت دمياط من الصمود تسعة أشهر أخرى ، قاومت فيها المحاولات التي بذلها الصليبيون للاستيلاء عليها . وتذكر بعض المصادر المعاصرة أن الكامل والمعظم أرسلا في طلب المعونة من شتى أنحاء العالم الاسلامي ، وأنهما أوضحا لبقية الحكام المسلمين ما يترتب على سقوط مصر في أيدي الصليبيين من مخاطر « فانهم متى ملكوها لا يمتنع عليهم شيء من الممالك بعدها »[٢٠] .

---

(١٧) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنه ٦١٤ .

(١٨) المقريزي : السلوك ، جـ ١ ص ١٩٥ — ١٩٦ ، تاريخ ابن الوردي ، جـ ٢ ، ص ٢٠٢ .

(١٩) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٦١٤هـ .

(٢٠) المقريزي : السلوك ، جـ ١ ص ١٩٥ ، تحقيق محمد مصطفى زيادة .

وعندما علم الكامل بوصول نجدات قـوية للصليبيين من قبرص وغرب أوربا ، أرسل اليهم بعرض سخى ، هو استعداده لاحياء مملكة بيت المقدس الصليبية القديمة واعادتها الىّ ما كانت عليه قبل حطين سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) باستثناء حصن الكرك الذى يبقى فى حوزة المسلمين ، على أن يجلوا الصليبيون عن مصر . وقد قبل هذا العرض المـلك حنا دى برين وأمراء مملكته والصليبيون الفرنسيون . ولكن المندوب البابوى بلاجيوس رفض الموافقـة عليه ، وشـاركه رأيه الاسبتارية والداوية الذين ظنوا أن امتلاك مصر بات أمرا سهلا[٢١] . وثمة خطأ آخر وقع فيه بلاجيوس زعيم الحملة ، ومؤيدوه من فرسان الاسبتارية والداوية ، هو اصرارهم على توجيه هجماتهم ضد معسكر الكامل والمعظم فى فارسكور ، بدلا من تركيز جهودهم فى حصار دمياط ، مما عرضهم للهزيمة والفرار . ولم تلبث أن وصـلت نجدات قوية للصليبيين فى سبتمبر سنة ١٢١٩ م (٦١٦ هـ) ، فشددوا هجماتهم على دمياط التى ازدادت أحوالها سوءا ، فاضطرت الى الاستسلام فى نوفمبر سنة ١٢١٩ م (٦١٦ هـ)[٢٢] .

وكان أن أتى الصليبيون كثيرا من أعمال السـفك والعدوان فى دمياط[٢٣] ، كما أنهم خططوا لاتخاذ دمياط مركزا منيعا دائما لهم ، « فبالغوا فى عمارتها وتحصينها » . أما المسلمون ، فكانت خسارتهم بضياع دمياط عظيمة ؛ ضاعف منها ظهور خطر التتار فى الجناح الشرقى للعالم الاسلامى ، اذ استولى جنكيز خان فى ذلك الدور على خوارزم وبلاد ما وراء النهر ومعظم فارس ، وسقطت بخارى فعلا فى يده سنة

---

(٢١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٧٦٩ ، الطبعة الرابعة ١٩٨٦ .

(٢٢) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٦١٤ هـ .

(٢٣) تاريخ ابن الوردى « تتمة المختصر فى اخبار البشر » ، جـ ٢ ، ص ٢٠٣ ، حوادث سنة ٦١٦ هـ ، تحقيق احمد رفعت البدراوى .

١٢٢٠ م (٦١٧ هـ)(٢٤) .

الصليبيون والزحف على القاهرة :

ومع أن الظروف كلها كانت فى صالح الصليبيين عقب سقوط دمياط ، الا أن الانقسامات التى تعرض لها الصليبيون ، والأخطاء التى وقعوا فيها ، أنزلت بهم كثيرا من الاضرار حتى أدت الى فشلهم فى نهاية الامر . ذلك أن الملك حنا دى برين لم يستطع أن يتعاون مع المندوب البابوى بلاجيوس ، فانسحب الملك الصليبى عائدا الى عكا فى أواخر مارس سنة ١٢٢٠ م (٦١٧ هـ) تاركا بلاجيوس يضيع على الصليبيين بقية ذلك العام والنصف الاول من عام ١٢٢١ م (٦١٧ — ٦١٨ هـ) فى ركود تام . ولم يكن الا فى أواخر يونيو سنة ١٢٢١ م (٦١٨ هـ) عندما قرر بلاجيوس الزحف على القاهرة ، فأرسل الى حنا دى برين فى عكا يسأله العودة لمساعدة بقية الصليبيين فى غزو مصر . وكان أن خشى حنا دى برين أن يتهم بعدم التعاون وبالتفريط فى حق الهدف الصليبى ، وهو ما يعرضه لنقمة المسيحيين جميعا . لذلك حضر الى دمياط فى أوائل يوليو فى الوقت الذى شرع الصليبيون فعلا فى الزحف جنوبا بمحاذاة نهر النيل فى اتجاه قلب البلاد(٢٥) .

وفى تلك المرحلة الخطيرة فعل الأيوبيون كل ما أمكنهم لانقاذ مصر ، فجمعوا الناس ، وأقاموا خطا دفاعيا قبالة طلخا ، حيث شيد الكامل منزلة على الضفة الشرقية للنيل ، أطلق عليها اسم « المنصورة »(٢٦) . وفى أواخر يوليو سنة ١٢٢١ م (٦١٨ هـ) اجتمع الاخوة الثلاثة — الكامل والمعظم والأشرف — فى المنصورة ، على رأس

---

(٢٤) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٦١٧ ،
تاريخ ابن الوردى ، جـ ٢ص ٢٠٣ — ٢١٠ ،
D'Ohsson : Hist. des Mongols, I p. 216 f.

(25) Archer : The Crusades, p. 318.

(٢٦) تاريخ ابن الوردى، جـ ٢ ص ٢٠٣ ، سنة ٦١٦ هـ ،
المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ، ص ٢٠١ .

جيوشهم استعدادا للمعركة الفاصلة ضد الصليبيين . هذا مع ملاحظة أن الكامل استمر طوال تلك الاثناء يكرر عرضه على الصليبيين بالجلاء عن مصر مقابل احياء مملكة بيت المقدس الصليبية ، بمعنى تسليمهم القدس وعسقلان وطبرية واللاذقية وجبلة ، وجميع ما فتحه صلاح الدين من الساحل الى الكرك والشوبك ، على أن يصالحوا ويسلموا دمياط . فأبوا ذلك ، وطلبوا ثلاثمائة ألف دينار عوضا عن تخريب سور القدس ، وقالوا : لابد من تسليم الكرك والشوبك »[٢٧] . وكان أن واصل الصليبيون زحفهم وسط مثلث كبير ، تحيط به المياه من ثلاث جهات : هي بحيرة المنزلة شرقا ، وفرع دمياط غربا ، والبحر الصغير — أو أشموم طناح — جنوبا .

على أن السفن الاسلامية حرصت على أن تتخذ مكانها فى النيل لتسد الطريق فى وجه السفن الصليبية وتحول دون اتصال الصليبيين أثناء زحفهم بقاعدتهم فى دمياط[٢٨] . وهكذا حتى وصل الصليبيون الى نقطة تفرع البحر الصغير (بحر أشموم طناح) من فرع دمياط ، وهى المنطقة التى تمثل رأس مثلث يحيط به الماء من ثلاث جهات ، فقطع المسلمون السدود فى الوقت الذى كان نهر النيل مليء بماء الفيضان . ولم يشعر الصليبيون الا وقد غاصت سيقانهم وسيقان خيولهم فى الوحل ، بعد أن غرقت الارض تحت أقدامهم بالماء ، بحيث لم يتبق أمامهم سوى ممر ضيق يمكنهم العودة عن طريقه الى دمياط[٢٩] .

---

(٢٧) تاريخ ابن الوردى ، جـ ٢ ص ٢١١ ، حوادث سنة ٦١٨ هـ .
(٢٨) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٢٤١ .
(٢٩) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ، ص ٢٠٧ ،
ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٤ ، ص ٩٦ سنة ٦١٨ هـ ، تحقيق حسنين محمد ربيع .

فشل الصليبيين وجلاؤهم عن دميــاط :

وكان أن تنبه الصليبيون الى خطورة موقفهم ، فأرادوا الارتداد بسرعة نحو دمياط ، ولكن السلطان الكامل كان قد أنزل خلفهم عنـد شارمساح — شمالى شربين — ألفى فارس ليقطعوا على الصليبيين خط الرجعة . وهكذا تجمد الموقف بالنسبة للصليبيين ، وأحاطت بهم المياه من كل جانب ، فلا هم يستطيعون القتال ، ولا هم يستطيعون العودة الى قاعدتهم دمياط . ولم يبق أمامهم الا طلب الصـلح من السلطان الكامل فى أواخر أغسطس سنة ١٢٢١ م (٦١٨ هـ) . ومن الواضح أن موقف الصليبيين كان عندئذ جد خطير ، لأنه لو صبر الكامل يومين « لأخذ برقابهم »(٣٠) . لذلك عارض المعظم والاشرف فى اجابة الصليبيين الى طلبهم . ولكن الكامل — الذى اشتهر بتسامحه — رأى السـماح للصـليبيين بالخروج من مصر ، لأنه كان يخشى وصـول حملة صليبية من الغرب . على أن الكامل اشـترط على الصليبيين أن يبعثوا اليه برهائن من ملوكهم يبقون لديه حتى يسلموا دمياط ، فوافق الصليبيون على ذلك ، وأرسلوا الى الكامل عشرين من كبرائهم على رأسهم حنا دى برين والمندوب البابوى بلاجيوس ، فى حين أرسل اليهم الكامل — مقابل ذلك — ابنه الصالح نجم الدين أيوب ومعه جماعة من خواصه(٣١) .

وأخيرا تم جلاء الصليبيين عن دمياط فى ٧ سبتمبر سنة ١٢٢١ م (٦١٨ هـ) فدخلها الملك الكامل فى اليوم التالى . وكان أن أبحر الصليبيون الغربيون عائدين الى أوربا ، فى حين اتجه حنا دى برين ورجاله الى الشام بعد أن عقد هدنة مع الأيوبيين مداها ثمان سنوات (١٢٢١ — ١٢٢٩ م / ٦١٨ — ٦٢٦ هـ) .

---

(٣٠) ذيل كتاب الروضتين سنة ٦١٨ هـ ؛
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٤٢ .
(٣١) المقريزى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٢٠٨ .

وهكذا انتهى أمر الحملة الصليبية الخامسة بالفشـل ، بعد أن أوشكت فى بعض مراحلها على النجاح ، وأضاع الصليبيون من أيديهم فرصة احياء مملكة بيت المقدس واسترداد مدينة القدس ذاتها مقابل الجـلاء عن دميـاط ، فاضطروا فى النهـاية الى الجلاء عن دمياط بلا مقابل[٣٢] .

(٣٢) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٦١٤ هـ .

الفصل السادس

السلطان الكامل والامبراطور فردريك الثانى

الخلاف بين أبناء العادل :

أظهر أبناء العادل الثلاثة ـ الكامل محمد والمعظم عيسى والأشرف موسى ـ تضامنا قريا بعد وفاة أبيهم . والى ذلك التضامن يرجع الفضل فى التغلب على خطر الحملة الصليبية الخامسة التى هددت مصر . على أن هذا التحالف لم يلبث أن انفرط عقده فى نهاية سنة ١٢٢٣ وأوائل سنة ١٢٢٤ م (٦٢٠ ـ ٦٢١ هـ) نتيجة لأطماع المعظم عيسى وجشعه[١] . ذلك أن المعظم عيسى أراد أن يتوسع ويضيف المزيد الى أملاكه . ولكنه بدلا من أن يتوسع على حساب الصليبيين بالشام ، لجأ الى العدوان على ممتلكات أخويه وأقاربه . من ذلك أنه هاجم حماة واستولى على بعض أعمالها ، مثل المعرة وسلمية . وكانت حماة وأعمالها لابن عمه الناصر صلاح الدين قلج أرسلان ، فغضب الأشرف موسى والكامل محمد لذلك ، وأرسل الكامل الى أخيه المعظم عيسى يطلب منه الرحيل عن حماة وأعمالها ، فرحل المعظم « بأمر الكامل صاحب مصر والأشرف »[٢] على أن المعظم « تركها وهو حنق » مما فتح باب الخلاف بين المعظم من ناحية وأخويه الكامل والأشرف من ناحية أخرى (١٢٢٣ م / ٦٢٠ هـ) .

والواقع ان ملوك بنى أيوب كانوا فى ذلك الوقت أحوج الى الاتحاد

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ص ١٩٢ وما بعدها (تحقيق سامى الدهان) .

(٢) تاريخ ابن الوردى (تتمة المختصر فى أخبار البشر) ج ٢ ص ٢١٤ حوادث سنة ٦٢٠ هـ .

منهم فى أى وقت منذ وفاة مؤسس الدولة الايوبية ، صلاح الدين[٣] .

ذلك أن خطرا جديدا — هو خطر الخوارزمية — لاح فى الافق عندئذ ، وهدد منطقة الشرق الأدنى بأجمعها . وقد ظهر هذا الخطر نتيجة مباشرة لحركة توسع التتار ، بعد أن دمر جنكيزخان دولة الاتراك الخوارزمية سنة ١٢٢٠ — ١٢٢١ م (٦١٧ — ٦١٨ هـ) . وكانت الهزيمة قد حلت بعلاء الدين محمد بن خوارزم شاه ، فاضطر الى الفرار الى طبرستان حيث توفى ، وخلفه ابنه جلال الدين منكبرتى الذى أقام فى غزنة على رأس ستين ألفا من فلول عسكر أبيه . ولكن جنكيز خان لاحقه ، ففر جلال الدين ومعه رجاله الى بلاد الهند ، فى حين ملك التتر غزنة « وقتلوا أهلها ، ونهبوا وسبوا الحريم ، ولم يبقوا على أحد ، ثم أحرقوها [كأن لم تغن بالأمس] »[٤] .

على أن السلطان جلال الدين منكبرتى ما كاد يعلم بعودة جنكيزخان الي قراقورم فى جوف قارة آسيا ، حتى رجع الى فارس حيث التف حوله الأتراك الخوارزمية من جديد ، وبذلك أحيا الدولة الخوارزمية مرة أرى ، متخذا أصفهان عاصمة له . وبدلا من أن يعمل جلال الدين فى ذلك الدور على حماية العالم الاسلامى من خطر التتار الوثنيين ، قام — وهو الحاكم المسلم — بمهاجمة الخليفة العباسى فى العراق ، وطارد جيوشه حتى قرب بغداد سنة ١٢٢٥ م (٦٢٢ هـ) . وبعد ذلك اتجه جلال الدين لمهاجمة اقليم جورجيا — على مقربة من ممتلكات الملك الاشرف موسى بن العادل الايوبى — الأمر الذى جعل الاشرف

---

(٣) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ، ص ٢١٤ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٤ ص ٦٢ ، سنة ٦١٦ هـ) تحقيق حسنين محمد ربيع ، تاريخ ابن الوردى ، ص ٢٠٥ وما بعدها (سنة ٦١٦ هـ) تحقيق احمد رفعت البدراوى .

يهرع الى دمشق طالبا معونة أخيه المعظم عيسى[٥] .

ومن الواضح أن الاشرف كان أكثر احساسا بخطر الخوارزمية ، بحكم متاخمة بلاده فى الجزيرة وخلاط لهم . ولكن المعظم لم يأبه للخطر الخارجى ، وكان كل ما يعنيه هو تحقيق أطماعه على حساب اخوته وأهل بيته ، فانتهز فرصة مجىء الاشرف اليه وقبض عليه ، ولم يطلق سراحه الا بعد أن تعهد له بمساعدته فى الاستيلاء على حمص وحماة ، ثم فى مهاجمة أخيهما الثالث — الكامل محمد — فى مصر . وقد تعهد الأشرف موسى بكل ذلك ، ولكنه ما كاد يفلت من يد المعظم ، حتى أكد تحالفه مع أخيه الكامل وأخبره بكل ما حدث[٦] .

على أن وجه الخطورة فى النزاع الذى قام عندئذ بين أبناء العادل ، هو أن الفريقين المتنازعين استعانا بقوى خارجية ، فاستنجد الملك المعظم عيسى بالخوارزمية فى حين استنجد الملك كامل محمـد بالامبراطور فردريك الثانى صاحب صقلية وامبراطور الدولة الرومانية المقدسة فى غرب أوربا . وكان أن حاصر السلطان جلال الدين منكبرتى خلاط — مقر مملكة الأشرف موسى — فى يونيو ١٢٢٦ م (٦٢٣ هـ) ، كما أرسل جلال الدين الى المعظم « خلعة لبسها وشق بها دمشق وقطع الخطبة للملك الكامل »[٧] . وعندما بلغت هذه الاخبار مسامع السلطان الكامل أخذ

---

(٥) المقريزى : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٢١٥ (تحقيـق محمد مصطفى زيادة) ؛

D'Ohsson : Hist. des Mongols. III, pp. 5 — 19.

(٦) تاريخ ابن الوردى ، ج ٢ ، ص ٢١٨ — ٢١٩ (سنة ٦٢٣ — ٦٢٤ هـ) ؛

العينى : عقـد الجمان — حوادث سنة ٦٢٤ هـ ؛

ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ص ٢٠٥ (سنة ٦٢٤) .

(٧) المقريزى : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٢٢١ — ٢٢٢ (تحقيـق محمد مصطفى زيادة) .

يستعد للحرب ، مما أنذر باشتعال الموقف فى العالم الاسلامى (سبتمبر ١٢٢٧ م / ٦٢٤ هـ) .

الكامل وفردريك الثانى :

عندما علم الملك الكامل انتماء أخيه المعظم « الى سلطان العجم جلال الدين بن خوارزم شاه ، خاف أن يكون اتفاقهما سببا لزوال الدولة »[٨] ، فاستنجد بالامبراطور فردريك الثانى — كما ذكرنا — وتعهد له مقابل مساعدته أن « يعطيه بيت المقدس وجميع فتوح صلاح الدين بالساحل »[٩] . وكان مبعوث الكامل الى الامبراطور هو شيخ الشيوخ الأمير فخر الدين يوسف ، الذى أحسن الامبراطور استقباله فى صقلية ، ورد على السلطان الملك الكامل بسفارة مماثلة ، تحمل « هدية سنية وتحف غريبة » . وكان أن تلقى الكامل هدية الامبراطور بالسرور البالغ ، وأحسن استقبال السفير « وأكرمه اكراما زائدا » . وفى طريق عودة سفارة الامبراطور الى صقلية ، مرت بدمشق لتطلب من المعظم تسليم بيت المقدس للامبراطور ، ولكن المعظم أساء استقبال السفير « وأغلظ له ، وقال : قل لصاحبك ما أنا مثل الغير ، وما له عندى سوى السيف »[١٠] .

والواقع ان استنجاد السلطان الكامل لم يكن الدافع الوحيد الذى حرك فردريك الثانى للذهاب الى الشام ، وانما كانت البابوية تضغط عليه ضغطا شديدا للقيام بحملة صليبية جديدة تصحح الأوضاع التى نجمت عن فشل الحملة الصليبية الخامسة على مصر . والمعروف أن

---

(٨) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ص ٢٠٦ (تحقيق حسنين محمد ربيع) .

(٩) العينى : عقد الجمان ، حوادث ٦٢٤ هـ (مخطوط) ، المقريزى ، السلوك ، ج ١ ص ٢٢١ — ٢٢٣ وفى مفرج الكروب لابن واصل « ووعده ان يعطيه البيت المقدس وبعض الفتوح الناصرى » .

(١٠) العينى : عقد الجمان (حوادث سنة ٦٢٤ هـ) .

تلك الحقبــة تعــرف فى التاريخ الاوربى باســم « عصر البابوية والامبراطورية » ، نظرا لما شهدته من احتدام الخلاف واشتداد الصراع بين السلطتين الدينية — وعلى رأسها البابا — والعلمانية — وعلى رأسها الامبراطور — فى غرب أوربا • وقد وعد الامبراطور فردريك الثانى بتنفيذ رغبة البابا فى القيام بحملة صليبية فعلا ؛ ولكن يبدو أنه كان متخوفا من أن يمتدى البابا على حقوقه وممتلكاته أثناء غيابه فى الشرق ؛ ولذا أخذ يماطل البابوية ، ويؤجل مشروعه الصليبى مرة بعد أخرى ، حتى ضاق البابا ذرعا ، فأصدر جريجورى التاسع قرار الحرمان ضد الامبراطور فى أواخر سبتمبر سنة ١٢٢٧ م (٦٢٤ هـ)(١١) •

وكان هجوم البابوية على فردريك الثانى عنيفا فى تلك المرة ، فاضطر الامبراطور الى الاذعان ، وقرر القيام بحملته الصــليبية ، فغادر صقلية فى يونيو ١٢٢٨ م (٦٢٥ هـ) قاصدا بلاد الشــام ، معتمدا على وعود صديقه السلطان الكامل الذى مناه ببيت المقــدس « وبعض الفتوح الناصرى » أى فتوح الناصر صلاح الدين ، وما كان قد استولى عليه من الصليبيين •

ويجمع المؤرخون على أن هذه الحملة التى عرفت بالسادسة ، كانت أغرب واحدة فى سلسلة الحملات الصليبية قاطبة • فاذا كانت الحملات الصليبية الاخرى قد حظيت بعطف البابوية وتمتعت ببركتها ، فان حملة فردريك الثانى حلت بها لعنة البابوية وكان على رأسها امبراطور محروم من الكنيسة مطرود من رحمتها • واذا كانت بقية الحملات الصليبية قد حرصت على أن تجيش الجيوش وتجمع الآلاف من المقاتلين والمتطوعين لمحاربة المسلمين ، فان الامبراطور فردريك الثانى أتى الى الشــام وليس معه سوى خمسمائة فارس • واذا كان قدة الحملات الصليبية وزعماؤها قد غادروا الغرب الاوربى قاصدين بلاد المسلمين وقد امتلأت صدورهم بمشاعر الحقد والكراهية للمسلمين . فان الحملة الصليبية

---

(11) Kantorowicz : Fredrick the Second , p. 111.

السادسة تزعمها امبراطور شب فى بيئة كانت مركزا مزدهرا للحضارة الاسلامية ، فتشرب حب المسلمين وحضارتهم منذ طفولته ، مما جعل حملته تتسم بمسحة واضحة من الحب والتسامح[١٢] .

وتدل جميع الشواهد على أن فردريك الثانى أتى الى الشام ليفاوض لا ليحارب ، حتى أن أحد المؤرخين علق على حملته بأنه غادر أوربا ليقوم بنزهة جميلة فى الشرق يزور فيها سلطان مصر[١٣] . وكما سبق أن أشرنا ، فانه خرج الى بلاد الشام معتمدا على وعود السلطان الكامل له باعطائه بيت المقدس مقابل ما يقدمه له الامبراطور من مساعدات « بشغل سر أخيه المعظم »[١٤] . على أن فردريك الثانى لم يعتمد على وعود السلطان الكامل وحده ، وانما قام — قبل مغادرته الغرب — باجراء اتصالات واسعة مع عدد آخر من أمراء البيت الايوبى بالشام ، وذلك لاعداد المناخ المناسب لرد بيت المقدس الى الصليبيين . ونستدل على ذلك من رسالة أوردها القلقشندى ، وهى عبارة عن خطاب أرسله الملك الجواد — أحد أمراء بنى أيوب بالشام[١٥] — الى الامبراطور فردريك الثانى ، ردا على رسالة كان الامبراطور قد بعث بها الى ذلك الملك الايوبى . وفى الفقرة الاخيرة من رسالته ، يقول الملك الجواد « وأما ما ذكره المقام العالى السلطانى الكاملى الناصرى[١٦] ... من أنه لا فرق بين المملكتين ، فهذا هو المتفق فى صدق عهده وخالص

---

(١٢) سعيد عاشور : بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص ١١١ وما بعدها . (جامعة بيروت العربية ، ١٩٧٧) .

(١٣) Grousset : Hist. des Croisades, III, p. 281.

(١٤) المقريزى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٢٢١ — ٢٢٢ .

(١٥) هو الملك الجواد مظفر الدين يونس بن شمس الدين مودود ابن الملك العادل ابو بكر بن ايوب — انظر (ابن خلكان —وفيات الأعيان — ج ٥ ، ص ٨٣ — تحقيق احسان عباس) .

(١٦) كانت كنية السلطان الكامل هى « الملك الكامل ناصر الدين ابو المعالى محمد) .

وده ... »[١٧] . ونخرج من هذه الرسالة بنتيجتين هامتين : الاولى هى أن مراسلات فردريك الثانى قبل شروعه فى حملته الصليبية لم تقتصر على الكامل وحده ، وانما امتدت الى غيره من ملوك بنى أيوب . والنتيجة الثانية هى أن تلك المراسلات حفلت بروح الود والصداقة ، حتى أن السلطان الكامل أرسل الى فردريك الثانى يخبره بعدم وجـود فرق بين المملكتين . وتعتبر هذه الروح ظاهرة فريدة فى عصر الحروب الصـليبية .

فردريك الثانى فى الشـام :

على أن الامبراطور فردريك الثانى لم يكد يصل الى عكا فى سبتمبر سنة ١٢٢٨ م / ٦٢٥ هـ حتى وجد الأمور على غير ما كان يشتهى . ذلك أن البابا — للمرة الاولى والاخيرة فى تاريخ البابوية والحـركة الصليبية — أرسل سرا الى ملوك المسلمين فى مصر والشام — نعنى ملوك بنى أيوب بوجه عام والسلطان الكامل بوجه خاص — محرضا اياهم على عدم اعطاء الامبراطور فردريك بيت المقدس ، حتى لا يكون ذلك سلاحا يشهره فى وجه البابوية ويعتمد عليه فى دعم سلطته فى الغرب الاوربى . وهـكذا أثبتت الاحـداث أن المعركة بين البابوية والامبراطورية كانت فى نظر البابا أهم بكثير من المعركة بين الصليبيين والمسلمين فى بلاد الشام[١٨] .

ومن ناحية أخرى ، فانه اذا كان فردريك الثانى قد أتى الى الشام معتمدا على وعود السلطان الكامل باعطائه بيت المقدس ، فانه عنـد وصوله الى الشام صدم وانهارت آماله بسبب التغيير المفاجىء فى سياسة السلطان الكامل . ذلك أن المعظم عيسى صاحب دمشق — الذى كانت أطماعه هى السبب فى استنجاد السلطان الكامل بالامبراطور فردريك —

---

(١٧) القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ٧ ، ص ١١٧ — ١١٨ .

(١٨) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج ١ ص ٣٩٦ وما بعدها (الطبعة الرابعة) .

كان قد توفى فى أواخر سنة ١٢٢٧ م / ٦٢٤ هـ تاركا ابنه الناصر داود يخلفه فى ملكه • وكان الناصر داود عند وفاة أبيه شابا فى العشرين من عمره ، محبا للهو عديم الخبرة ، مما هيأ للكامل محمد والاشرف موسى فرصة طيبة لاقتسام ممتلكات أخيهما المتوفى المعظم عيسى • أما الناصر داود فقد منحه عماه الكرك والشوبك وغيرهما من الجهات الثانوية[١٩] • وهكذا استقرت الأوضاع وهدأت بين أبناء البيت الايوبى ، ولم يعد السلطان الكامل فى حاجة الى معونة الامبراطور الوافد من الغرب •

ويصور لنا المؤرخون المعاصرون حيرة السلطان الكامل فى ذلك الوقت ، لأن فردريك الثانى لم يحضر الى الشام الا بناء على طلب السلطان • وفى ذلك يقول المؤرخ ابن واصل — ومن بعده المقريزى — « تحير الملك الكامل ، ولم يمكنه دفعه ولا محاربته ، لما كان تقدم بينهما من الاتفاق ، فراسله ولاطفه »[٢٠] • ويبدو أن الكامل أحس « أن ليس من مصلحته ولا مصلحة البيت الايوبى أن يصطدم بالصليبيين بالشام فى تلك المرحلة التى شهدت تعرض الوطن الاسلامى فى الشرق الاوسط لتهديد الخوارزمية ومن ورائهم التتر ، ولذا حرص على ملاطفة الامبراطور • ومن ناحية أخرى أدرك الكامل أن أى تساهل مع الصليبيين أو تفريط فى حقوق المسلمين سيثير ضده الرأى العام فى العالم الاسلامى ، وبخاصة فى دمشق التى كانت أكثر احساسا من غيرها بالخطر الصليبى[٢١] •

ومهما يكن من أمر ، فان موقف فردريك ساء فى الشرق • ذلك أنه

---

(١٩) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٦٢٥ ، المقريزى : السلوك ، جـ ١ ص ٢٢٦ •

(٢٠) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٤ ص ٢٣٤ — ٢٣٥ (تحقيق حسنين محمد ربيع) ، المقريزى : السلوك : جـ ١ ط ، ٢٢٩ (تحقيق محمد مصطفى زيادة) •

(٢١) Grousset : Op. cit. III; p. 300.

خرج من بلاده محروما من الكنيسة ، مغضوبا عليه من البابوية ، معتمدا على وعود السلطان الكامل باعطائه بيت المقدس مما يضمن له تصحيح مركزه فى الغرب الاوربى • ولو كان الامبراطور يعلم أن السلطان الكامل سينكث بوعده لمـا خرج الى الشرق أصلا ، أو لكان قد استعد استعدادا جديا لمحاربة المسلمين ، ولاصطحب معه جيشا كبيرا يضاهى الحملات الصليبية السابقة التى خرجت من الغرب الاوربى •

وهكذا لم يتبق لفردريك الثانى سوى سلاح واحد ، هو سلاح المفاوضة والاستعطاف ، واستخدام كافة وسائل الدبلوماسية لتحقيق غرضه ، حتى يعود الى الغرب الاوربى مرفوع الرأس ، منتصرا على البابوية • لذلك بادر فردريك الثانى بارسال بعثة من رسـولين الى السلطان الكامل ، تحمل له هدايا نفيسة — من منسوجات حريرية وأوان ذهبية وفضية — مطالبا اياه بتحقيق وعده وتسليم بيت المقـدس للامبراطور • غير أن الكامل تنكر لوعوده ، وأعلنها فى صراحة أنه كان سيعطى بيت المقدس للامبراطور ثمنا للمساعدة التى يحصل عليها منه • أما وقد تبدل الموقف ، ولم يعد السلطان فى حاجة الى تلك المساعدة ، فانه لا يستطيع التفريط فى بيت المقدس[٢٢] •

ولم تفلح جهود الامير فخر الدين يوسف — مندوب السلطان — فى التوصل الى حل بين الطرفين ، فساء موقف فردريك الثانى ، لا سيما بعد أن وصلته أخبار من الغرب بأن البابا استغل فرصة غيابة واعتدى على ممتلكاته • ولعل هذه الاخبار فى حد ذاتها كانت كافية لدفـع فردريك الثانى الى التذلل للسلطان الكامل ، حتى حكى عنه أنه كان يبكى بكاء مرا فى مراحل المفاوضات[٢٣] • ويبدو ذلك من خلال رسالة أرسلها الامبراطور فردريك الى السلطان الكامل أثناء المفاوضات ، جاء

---

(٢٢) سعيد عاشور : بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، البحث السادس ، ص ١١١ •

(٢٣) Kantorowicz : Fredreck the Second: p. 185.

فيها « أنا مملوكك وعتيقك ، وليس لى عما تأمره خروج . وأنت تعلم أنى أكبر ملوك البحر . وقد علم البابا والملوك باهتمامى وطلوعى ، فان رجعت خايبا انكسرت حرمتى بينهم . وهذا القدس هى أصل اعتقادهم وضجرهم .. فان رأى السلطان أن ينعم على بقبضة البلد والزيارة فيكون صدقة منه ، ويرتفع رأسى بين ملوك البحر ... »(٢٤) .

استيلاء الصليبيين على بيت المقدس :

ولم تلبث هذه الاستعطافات أن أثرت فى نفس السلطان الكامل — وهو الرجل الذى عرف بتسامحه المفرط — فوافق على اعطاء فردريك بيت المقدس لقمة سائغة دون حرب أو قتال . ويبدو أن استعطاف الامبراطور وتذلله للسلطان كان مصحوبا بقدر من الاصرار على ضرورة وفاء السلطان بما كان قد تم الاتفاق عليه . ويوضح هذه الحقيقة المؤرخ ابن واصل عندما يقول : « وأبى ملك الفرنج أن يرجع ى بلاده الا بما وقع الشرط عليه من تسليم القدس اليه وبعض الفتوح انصلاحى »(٢٥) . يضاف الى ذلك أنه رغم تذلل الامبراطور ، فانه لجأ الى التلويح بالقوة ، فقام بتحصين يافا ، مما جعل السلطان الكامل يخشى حدوث تحالف بين فردريك وبقية القوى الصليبية فى بلاد الشام للقيام بعمل مشترك ضد المسلمين . وفى تلك المرحلة بالذات كان السلطان الكامل غير مستعد لفتح جبهة جديدة لأن ذلك معناه وقوعه بين ثلاثة أعداء : ابن أخيه الناصر داود من ناحية ، والصليبيين من ناحية ثانية ، والخوارزمية الذين استنجد بهم الناصر داود من ناحية ثالثة .

وهكذا رضخ السلطان الكامل لمطلب الامبراطور ، لأنه « خاف من

---

(٢٤) المكتبة الصقلية : ج ٢ ، ص ١٤ (ذيل الباب الثانى والسبعين من كتاب الوافى بالوفيات) .

(٢٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ : ص ٢٤١ — حوادث سنة ٦٢٦ هـ (تحقيق حسنين محمد ربيع) .

غائلته عجزا عن مقاومته » على قول المقريزى(٢٦) . وتحت تأثير الامير فخر الدين يوسف ، وافق الكامل على عقد اتفاقية يافا مع الامبراطور فردريك الثانى فى فبراير ١٢٢٩ م / ٦٢٦ هـ . ويمقتضى هذه الاتفاقية تقرر الصلح بين الطرفين لمدة عشر سنوات ، على أن يأخذ الصليبيون بيت المقدس وبيت لحم والناصرة وتبنين وصيدا . وتكون لهم القرى على الطريق من عكا الى القدس فقط . وبخصوص بيت المقدس استرط المسلمون أن تبقى المدينة على ما هى عليه ، فلا يجدد سورها ، وأن يكون الحرم بما حواه من الصخرة والمسجد الاقصى بأيدى المسلمين ، وتقام فيه شعائر الاسلام(٢٧) .

وكان أن أثار استيلاء الصليبيين على بيت المقدس موجة عامة من السخط والاسى فى العالم الاسلامى ، « فاستعظم المسلمون ذلك وأكبروه ، ووجدوا له من الوهن والتألم ما لم يمكن وصفه »(٢٨) . ويفصل المقريزى مدى الأسى الذى حل بالمسلمين لضياع بيت المقدس فيقول ، : « فاشتد البكاء وعظم الصراخ والعويل ... وعظم على أهل الاسلام هذا البلاء . واشتد الانكار على الملك الكامل ، وكثرت الشناعات عليه فى سائر الأقطار ... »(٢٩) .

---

(٢٦) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ص ٢٣٠ .(تحقيق محمد مصطفى زيادة) .

(٢٧) العينى : عقد الجمان ، حوادث سنة ٦٢٦ هـ (مخطوط) ؛ ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٦٢٦ هـ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٤ ص ٢٤١ ، ابو الفدا : المختصر فى اخبار البشر ، جـ ٢ ص ١٤١ (سنة ٦٢٦ هـ) ، تاريخ ابن الوردى ، جـ ٢ ، ص ٢٢٢ (سنة ٦٢٦ هـ) ؛ ابن ايبك : كنز الدرر ، جـ ٧ ص ٢٩٢ — ٢٩٣ (تحقيق المؤلف) .

(٢٨) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٦٢٦ هـ .

(٢٩) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ، ص ٢٣١ . اما ابن واصل فيقول انه عند تسليم القدس للفرنج « وقع فى أهل القدس الضجيج والبكاء ، وعظم ذلك على المسلمين ، وأنكروا على الملك الكامل هذا الفعل واستشنعوه منه » — مفرج الكروب ، جـ ٤ ص ٢٤٣ .

وسرعان ما أحس الكامل بأنه تورط مع ملك الفرنج — على قول المقريزى — فحاول أن يهون من أمر تسليم بيت المقدس للصليبيين ، وبرر مسلكه بأعذار لم يقبلها معاصروه . بل ان الامبراطور فردريك الثانى نفسه أحس بما سببته تلك الاتفاقية للسلطان من حرج « فاعتذر للامير فخر الدين بأنه لولا يخاف انكسار جاهه ما كلف السلطان شيئا من ذلك ... »[٣٠] .

ومهما يكن من أمر ، فان الصليبيين استولوا على بيت المقدس بسهولة تامة ، وهى المدينة التى أجهد صلاح الدين ورجاله أنفسهم فى استردادها ، فدخلها فردريك الثانى فى ١٩ مارس ١٢٢٩ م / ٦٢٧ هـ ليتوج نفسه امبراطورا فى كنيسة القيامة . ثم عاد الى عكا ، ومنها انصرف بعد قليل عائدا الى غرب أوربا[٣١] .

جمود الايوبيين تجاه الصليبيين بالشام :

مر الصليبيون عقب عودة الامبراطور فردريك الثانى الى غرب أوربا بدور طويل من الضعف والانحلال ، بسبب ما نشأ بينهم وبين بعض من خلافات ومنازعات[٣٢] . أما الايوبيون فقد اعتراهم أيضا التمزق والضعف والانحلال فى تلك الفترة — أى فى الربع الثانى من القرن الثالث عشر للميلاد ، السابع الهجرى — الأمر الذى أدى الى جمودهم أمام الصليبيين . وعدم محاولتهم استغلال سوء أوضاع الصليبيين بالشام للقضاء على البقايا الصليبية فى الشرق . وأقل ما كان ينتظر من ملوك بنى أيوب فى ذلك الدور هو محاولة استعادة بيت المقدس من الصليبيين ، لا سيما وأن المدينة بقيت فى أيديهم غير محصنة ، خربة الأسوار ، دون جيش صليبى يحميها ويدافع عنها[٣٣] .

---

(٣٠) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ، ص ٢٣٠ .

(٣١) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 314.

(٣٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ص ٨٠٥ (الطبعة الرابعة ، ١٩٦٨) .

(٣٣) المرجع السابق ، ص ٨٠٧ .

وربما كان السبب فى حرص الايوبيين على عدم اثارة حرب مع الصليبيين بالشام فى ذلك الدور ، تخوفهم من الخوارزمية وسلطانهم جلال الدين منكبرتى . ذلك أن الخوارزمية لم يكتفوا بتهديد الخلافة العباسية فى بغداد ، بل دأبوا على محاكاة التتر فى تدميرهم المدن والقرى ، وتخريب البلاد ، وقتل العباد ، على امتداد الطرق التى يسلكونها ، حتى لو كانت تلك البلاد من بلاد الاسلام . ولم يكن السلطان الكامل محمد وأخوه الملك الأشرف موسى مبالغين فى مخاوفهما من الخوارزمية ، اذ نجح جلال الدين الخوارزمى فى الاستيلاء على خلاط فى ابريل سنة ١٢٣٠ م / ٦٢٧ هـ بعد حصار ستة أشهر ، وعندئذ اقتحم الخوارزمية المدينة ، ووضع خوارزمشاه « السيف فى أهلها ، وسبى النساء والصبيان »(٣٤) ويقال انه كان من جملة الاسرى زوجة الملك الأشرف موسى ، فانتهك السلطان جلال الدين منكبرتى عرضها فى نفس الليلة التى استولى فيها على المدينة(٣٥) .

وكان أن أفزعت همجية الخوارزمية حكام المسلمين فى البلدان المجاورة ، فتناسوا ما بينهم وبين بعض من خصومات لمواجهة ذلك الخطر ، وتحالف الايوبيون مع عدوهم السابق كيقباذ الاول — سلطان سلاجقة الروم — ضد جلال الدين الخوارزمى . وتم اجتماع قوات الايوبيين تحت زعامة الملك الأشرف موسى مع قوات سلاجقة الروم تحت قيادة كيقباذ فى سيواس ، ومنها زحف الحلفاء على خلاط . وفى المعركة التى دارت بين الطرفين قرب أرزنجان فى أغسطس سنة ١٢٣٠ م/ ٦٢٧ هـ حلت الهزيمة ساحقة بالخوارزمية وفر سلطانهم جلال الدين

---

(٣٤) ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب — جـ ٣ ص ٢٠٨ (تحقيق سامى الدهان) .

(٣٥) ابن ايبك : كنز الدرر وجامع الغرر — الجزء السابع المسمى الدر المطلوب فى اخبار ملوك بنى ايوب ، ص ٢٩٩ (تحقيق المؤلف ، القاهرة ١٩٧٢ .

الى أذربيجان بعد أن فقد كثيرا من رجاله(٣٦) .

وهكذا استرد الأشرف موسى خلاط ، وتم الصلح بعد قليل بينه وبين جلال الدين خوارزمشاه . ولم يلبث أن قتل جلال الدين بأيدى بعض الأكراد سنة ١٢٣١ م / ٦٢٩ هـ ، وعندئذ تمزقت دولته ، وهامت جموع الخوارزمية فى عديد من بلاد الشرق الادنى ، يعرضون خدماتهم على من يرغب فى شرائها من حكام المسلمين(٣٧) .

ومع ذلك ، فان الايوبيين فى الشام ومصر ظلوا عندئذ فى حالة خوف وقلق ، لأن الخطر الذى هددهم فى تلك الحقبة لم يكن خطر الخوارزمية فحسب ، وانما كان من وراء هؤلاء التتار بجحافلهم وعنفهم . ولم يلبث التتار أن استولوا على ممتلكات الخوارزمية ، وبذلك غدت الخطوة التالية أمامهم هى غزو العراق ، ثم ممتلكات الايوبيين فى الجزيرة وسلاجقة الروم فى آسيا الصغرى(٣٨) .

وكان المفروض أمام ذلك الخطر أن يتحالف الايوبيون مع سلاجقة آسيا الصغرى لصد المغول ، مثلما تحالفوا من قبل ضد جلال الدين الخوارزمى ، ولكن علاء الدين كيقباذ الاول — سلطان سلاجقة الروم (١٢١٩ — ١٢٣٧ م / ٦١٦ — ٦٣٤ هـ) — أراد أن يستغل الموقف الناجم عن مقتل جلال الدين لمنازعة الايوبيين ملكية خلاط والرها وحران(٣٩) . وعندما أدرك السلطان الكامل حقيقة نوايا السلاجقة ، جمع حوله القوى الايوبية فى الشام وزحف لمنازلة السلاجقة فى آسيا الصغرى سنة ١٢٣٤ م / ٦٣١ هـ . على أن ملوك بنى أيوب عادوا

---

(٣٦) ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ، جـ ٣ ص ٢٠٩ (تحقيق سامى الدهان) ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٢٧٣ .

(٣٧) ابو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٣ ص ١٥١ .

(٣٨) D'Ohsson : Hist. des Mongols, III, p. 62.

(٣٩) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ص ١٤٧ .

وتخوفوا من ازدياد نفوذ السلطان الكامل ، وخشوا ان هو نجح فى السيطرة على سلاجقة الروم أن يتمكن من القضاء عليهم جميعا . لذلك تآمروا على السلطان الكامل ، وأرسلوا فى الخفاء الى علاء الدين سلطان سلاجقة الروم يؤكدون وقوفهم الى جانبه ضد الكامل . وهكذا انتهى الموقف بعودة الكامل من حيث أتى ، فى حين احتل السلاجقة حران وخلاط والرها سنة ١٢٣٥ م (٦٣٢ هـ)(٤٠) .

---

(٤٠) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٥ ص ٨٧ ، ٩٨ (سنة ٦٣٢ هـ) تحقيق حسنين محمد ربيع .

الفصل السابع

الصالح نجم الدين أيوب ولويس التاسع

نهاية السلطان الكامل وقيام الصالح أيوب :

لم يقتصر الانقسام فى صفوف المسلمين فى منطقة الشرق الادنى فى الربع الثانى من القرن الثالث عشر للميلاد (السابع الهجرى) على ما حدث من عداء بين سلاجقة الروم والايوبيين ، بل ان البيت الايوبى نفسه لم يلبث أن انقسم على نفسه ، فانشق الملك الاشرف موسى صاحب دمشق على أخيه الاكبر السطان الكامل محمد صاحب مصر ، وأخذ يدبر ثورة شاملة ضده مستعينا فى ذلك بأسد الدين شيركوه صاحب حمص[1] ، وضيفة خاتون الوصية على حلب[2] ولكن القدر شاء أن يموت الملك الاشرف موسى فى أواخر أغسطس سنة ١٢٣٧ م (٦٣٥ هـ) قبل أن تشتعل نار الحرب الاهلية فعلا بين ملوك البيت الايوبى[3] .

وكان الاشرف موسى قد أوصى قبـــل وفاته بأن يخلفه فى ملك دمشق أخوه الملك الصالح اسماعيل صاحب بصرى . ولم يكد الملك الصالح اسماعيل يتسلم زمام الامور فى دمشق حتى أعاد تكوين الحلف المضاد للسلطان الكامل محمد ، فاتصد بالمجاهد شيركوه صاحب

---

(١) هو الملك المجاهد اسد الدين شيركوه صاحب حمص المتوفى سنة ٦٣٧ هـ بحمص . (وفيات الأعيان لابن خلكان ، ج ٢ ص ٤٨٠ — ٤٨١ — تحقيق احسان عباس) .

(٢) ابنة الملك العادل الايوبى ، ووالدة الملك العزيز محمد بن الظاهر غازى ابن السلطان صـــلاح الدين ــ توفيت سنة ٦٤٠ هـ (أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٥٨) .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٩٩ .

حمص ، والمظفر تقى ادين محمود صاحب حماه ، وضيفة خاتون التى كانت « المرجع فى الامور »(٤) فى حلب ، ليكونوا جميعا يدا واحدة ضد الكامل ، بحيث « يتفقون على منعه من النزول الى الشام ، وأن يقتصر على الديار المصرية »(٥) .

وقد استجاب جميع ملوك الايوبيين بالشام لدعوة الصالح اسماعيل ما عدا المظفر محمود صاحب حماه ، والناصر داود صاحب الاردن والكرك . ولكن السلطان الكامل أسرع بالحضور من مصر ، فقضى على تلك الحركة وهى لا تزال فى المهد ، وحاصر دمشق وقطع الماء عنها ، حتى وقعت فى يده فى أوائل سنة ١٢٣٨ م (٦٣٥ هـ) ، وعندئذ عاقب الصالح اسماعيل بعزله واعطائه اقطاعا صغيرا فى بعلبك والبقاع(٦) .

على أن السلطان الكامل نفسه توفى بعد قليل ، فى مارس سنة ١٢٣٨ م (٦٣٥ هـ) . وقد أجمع المؤرخون المعاصرون على مدحه ، فوصفه أبو الفدا بأنه كان « ملكا جليلا مهيبا حازما حسن التدبير »(٧) . أما ابن واصل فيقول عنه انه « كان عظيم الهيبة ... وكان يباشر الامور بنفسه ... وكان محبا للعلماء ومجالستهم وبسماع مناظراتهم ... »(٨) . ولا شك فى أن وفاة الكامل الايوبى فى ذلك الوقت جاءت نذيرا بتفكك الدولة الايوبية وانهيارها . حقيقة أن ابنه العادل الصغير (الثانى) سيف الدين أبا بكر خلفه فى الحكم ، وصارت له

---

(٤) ابو الفدا : المختصر فى اخبار البشر ، جـ ٣ ، ص ١٥٨ .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٥ ، ص ١٢١ — ١٢٢ (تحقيق حسنين محمد ربيع) .

(٦) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ص ٢٥٧ (تحقيق محمد مصطفى زيادة) .

(٧) ابو الفدا : المختصر فى اخبار البشر ، جـ ٣ ص ١٦١ (حوادث سنة ٦٣٥ هـ) .

(٨) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٥ ، ص ١٥٦ — ١٥٨ .

السلطنة ــ أى السلطة العليا فى الدولة الايوبية ــ ولكن الاوضاع اضطربت فى بلاد الشــام بعد أن اشــتعلت الحرب بين المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص ، والمظفر (الثانى) تقى الدين محمود صاحب حماه ، فى حين اســتولى الملك الصــالح نجم الدين أيوب ــ ابن الكامل ــ على دمشق سنة ١٢٣٩ م (٦٣٦ هـ) ، مما أوقعه فى نزاع مع أخيه السلطان العادل الصغير[٩] . وفى ذلك النزاع استعان كل طرف بأنصار من البيت الايوبى نفسه ، فاعتمد العادل الصغير على المجاهد شيركوه صاحب حمص ، واعتمد الصالح أيوب على المظفر تقى الدين صاحب حماه . هذا بالاضافة الى أن كل فريق استخدم جموعا من الخوارزمية المرتزقة الذين تفرقوا فى البلاد المجاورة بعد مقتل سلطانهم جلال الدين منكبرتى .

ثم حدث فى نهاية سنة ١٢٣٩ م (٦٣٧ هـ) أن استطاع الصالح اسماعيل ــ عم العادل الصغير والصالح أيوب ــ أن يسترد دمشق التى كان أخوه السلطان الكامل قد طرده منها[١٠] . وقد ظل الصالح اسماعيل يحكم دمشق خمس سنوات (١٢٤٠ ــ١٢٤٥ م / ٦٣٧ ــ ٦٤٣ هـ)، فى حين وقع الصالح أيوب فى قبضة الناصر داود صاحب الاردن والكرك ، حتى أطلق الاخير سراح الاول بعد أن اتفق معه على القيام بحملة على مصر لانتزاعها من العادل الصغير[١١] . وكان كبار أمراء العادل الصغير قد اســتاءوا منه فى ذلك الوقت لتحجبه عنهم واشتغاله باللهو عن مصالح الدولة ، فقبضوا عليه فى أواخر مايو سنة ١٢٤٠ م (٦٣٧ هـ) وعزلوه ، واستدعوا بدله أخاه الصالح

---

(٩) المقريزى : كتاب الســلوك ، جـ ١ حوادث سنة ٦٣٥ هـ ، سنة ٦٣٦ هـ .

(١٠) ابو الفدا : المختصر فى اخبــار البشر ، جـ ٣ ، ص ١٦٤ (سنة ٦٣٧ هـ) .

(١١) ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ، جـ ٣ ، ص ٢٤٦ — ٢٤٧ (تحقيق سامى الدهان) .

نجم الدين أيوب ــ ابن الكامل ــ الذى دخل القاهرة ليصبح سلطانا (١٢٤٠ ــ ١٢٤٩ م / ٦٣٧ ــ ٦٤٧ هـ)(١٢) .

الايوبيون والصليبيون :

وقعت بلاد الشام فى حالة شديدة من الفوضى بسبب النزاع الذى اشتد بين الصالح أيوب وعمه الصالح اسماعيل صاحب دمشق ، وهو النزاع الذى شارك فيه كثير من ملوك البيت الايوبى فى بلاد الشام ، مثل ملوك حمص وحماه والاردن . وزاد من تلك الفوضى أنها دبت فى الوقت الذى تعرضت بلاد الشام لغزو جموع من الخوارزمية من ناحية ، وتهديد المغول الذين اقترب خطرهم من ناحية أخرى ، ثم وصول حملة صليبية جديدة الى ساحل الشام من ناحية ثالثة .

ذلك أنه حدث قبل أن ينتهى أمد الصلح الذى عقده السلطان الكامل مع الامبراطور فردريك الثانى أن دعت البابوية لحملة صليبية جديدة ، وصلت الى الشام فى مطلع سبتمبر سنة ١٢٣٩ م (٦٣٧ هـ) وعلى رأسها ثيبوت الرابع أمير شامبنى . ويؤخذ على هذه الحملة أن زعماءها افتقروا تماما الى المرونة السياسية التى ميزت ريتشارد قلب الاسد وفردريك الثانى . وهكذا لم يحاول ثيبوت الرابع استغلال المنازعات العنيفة الناشبة بين ملوك البيت الايوبى عندئذ ، واتبع سياسة جامدة أدت الى فشل حملته فى نهاية الامر(١٣) .

وكان بيت المقدس لا يزال فى قبضة الصليبيين منذ أن استرده الامبراطور فردريك الثانى . ولكن الناصر داود أسرع ــ عندما علم بنزول الصليبيين فى عكا سنة ١٢٣٩ م (٦٣٧ هـ) باحتلال بيت المقدس ، بدعوى أن الصليبيين عمروا المدينة وحصنوها ، وبذلك نقضوا شروط

---

(١٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٥ ص ٢٦٥ وما بعدها (تحقيق حسنين محمد ربيع) .

(١٣) Grousset : Op. cit. : III p. 374.

الصلح مع المسلمين(١٤) . ولاشك فى أن استيلاء المسلمين على بيت المقدس عندئذ جاء صدمة قوية أصابت الصليبيين ؛ فأخذوا يتدبرون أمرهم ، حتى استقر رأيهم أخيرا على أن يتجهوا الى عسقلان للاستيلاء عليها وهدم تحصيناتها ، وبعد ذلك يقصدون دمشق بوصفها مركز الحركة الاسلامية فى بلاد الشام(١٥) .

وعندما اتجه الصليبيون من عكا الى عسقلان ، بادر العادل الصغير — الذى كان لا يزال سلطان مصر قبل عزله — بارسال جيش أنزل هزيمة بالصليبيين قرب غزة فى ١٣ نوفمبر سنة ١٢٣٩ م (٦٣٧ هـ) ، وسيق كثير من أسراهم الى القاهرة(١٦) .

ثم كان أن تمت فى صيف سنة ١٢٤٠ م (٦٣٧ هـ) المؤامرة التى انتهت بعزل العادل الثانى من حكم مصر ، وقيام الصالح نجم الدين أيوب بدله فى السلطنة ، كما سبق أن ذكرنا ، وعندئذ استاء الملك الصالح اسماعيل صاحب دمشق ، لاسيما وأن الصالح أيوب أراد أن يرضى حليفه الناصر داود صاحب الكرك ، فاتفق الطرفان « على أن تكون الديار المصرية للملك الصالح نجم الدين أيوب ، والشام والشرق للملك الناصر (داود) »(١٧) وتلفت الصالح اسماعيل حوله فلم يجد سوى الصليبيين ، فمد يده اليهم وطلب منهم محالفته ضد الصالح أيوب فى مصر ، والناصر داود فى الاردن . وفى مقابل ذلك تعهد الصالح اسماعيل باعطاء الصليبيين بيت المقدس ، واعادة مملكة الصليبيين الى ما كانت عليه قديما ، بما فيها الاردن . ولكى يبرهن صاحب دمشق على صدق نواياه تجاه الصليبيين ، بادر فورا بتسليمهم القدس وطبرية

---

(١٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٨١٧ (الطبعة الرابعة ١٩٨٦) .

(١٥) Stevenson : The Crusaders in the East; p. 317.

(١٦) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ق ٢ ص ٢٩٢ (سنة ٦٣٧ هـ) ، ذيل الروضتين (Rec. Hist. Cr. Or. V, p. 139)

(١٧) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٥ ، ص ٢٥٩ .

وعسقلان ، فضلا عن عدد آخر من قلاع الشام التى كانت بأيدى المسلمين(١٨) .

وكان أن ثار الرأى العام فى العالم الاسلامى فى مصر والشام على الصالح اسماعيل مثلما ثار من قبل على السلطان الكامل . وقد رفضت حاميات بعض القلاع اطاعة الاوامر الصادرة اليها من الصالح اسماعيل ، فحضر بنفسه ليؤدب تلك الحاميات ويسلم الحصون والقلاع التى وعد بتسليمها الى الصليبيين . أما الصليبيون فقد فرحوا لحصولهم على بيت المقدس مرة أخرى ، وحصنوا قلعتى طبرية وعسقلان ، ثم رابطوا بعد ذلك بين يافا وعسقلان استعدادا للخطوة التالية . وعندئذ وعدهم الصالح اسماعيل « بأنه اذا ملك مصر أعطاهم بعضها » ، فسال لعابهم لذلك ، واتجهوا صوب غزة عازمين على غزو مصر(١٩) .

وتؤكد المصادر المعاصرة أن الملك الصالح اسماعيل صاحب دمشق والملك المنصور ابراهيم الايوبى صاحب حمص(٢٠) ، حضرا على رأس جيوشهما لمعاونة الصليبيين فى غزوهم مصر . ولكن القوات الشامية التابعة للصالح اسماعيل والمنصور ابراهيم لم تتقبل فكرة طعن اخوانهم المسلمين ، فلم تكد تصل هذه القوات الى غزة حتى انضمت الى العسكر المصرى ، ليتعاون الجميع فى ضرب الصليبيين . وهكذا حلت الهزيمة بالصليبيين ، فقتل منهم عدد كبير ، وسيق الاسرى الى القاهرة ، فى حين انسحب الباقون الى عسقلان حيث عقدوا صلحا مع الصالح نجم الدين أيوب سلطان مصر سنة ١٢٤٠ م (٦٣٨ هـ)(٢١) .

---

(١٨) المقريزى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٣٠٣ .

(١٩) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٢٢ .

(٢٠) خلف المنصور ابراهيم اباه المجاهد شيركوه (الثانى) فى حكم حمص سنة ١٢٤٠ م (٦٣٧ هـ) وظل يحكمها حتى سنة ١٢٤٦ م (٦٤٤ هـ) — زامباور : معجم الانساب ج ١ ص ١٥٣ .

(٢١) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ص ٣٤٤ (سنة ٦٣٨ هـ) تحقيق المؤلف ، ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ٣٢٢ — ٣٢٣ (سنة ٦٣٨ هـ) ، Eracles, p. p. 418 - 420.

واذا كانت هذه الحملة الفرنسية لم تستطع البقاء فى بلاد الشام بعد ذلك ، وانما غادرت عكا عائدة الى الغرب الاوربى فى سبتمبر سنة ١٢٤٠ م (٦٣٨ هـ) ه فان حملة أخرى جديدة وصلت الى عكا فى الشهر التالى بقيادة ريتشارد دى كورنوول ، أخى ملك انجلترا هنرى الثالث • على أنه يبدو أن هذه الحملة كانت صغيرة ، فلم تستطع القيام بعمل حربى هام فى الشرق ، عدا تحصين عسقلان ليتخذها الصليبيون قاعدة لصد أى هجوم من ناحية مصر[٢٢] • وبعد أن أتم ريتشارد تحصين عسقلان فى مارس سنة ١٢٤١ م (٦٣٨ هـ) ، أجاب الصالح أيوب الى طلبه الخاص باحترام الصلح المعقود بينه وبين ثيبوت الرابع • وبمقتضى هذه الاتفاقية اعترف الصالح أيوب للصليبيين بملكية الحصون التى آلت اليهم فى فلسطين ، فضلا عن بيت المقدس • ولم يلبث أن قفل ريتشارد دى كورنوول عائدا الى بلاده فى مايو سنة ١٢٤١ م (٦٣٨ هـ) ، تاركا خلفه الصليبيين ببلاد الشام غارقين فى خلافاتهم الداخلية ؛ مما أوقعهم فى حروب أهلية ، بينهم وبين بعض[٢٣] •

الخوارزمية واسترداد بيت المقدس :

لم يلبث أن دب النزاع مرة أخرى بين الصالح أيوب فى مصر ، وعمه الصالح اسماعيل فى دمشق • وساند الاخير الناصر داود فى الاردن • وكان أن لجأ ملكا دمشق والاردن الى طلب مساعدة الفرنجة ، وعرضا عليهم مقابل تلك المساعدة أن يوافقا على أن تكون سيطرة الصليبيين على بيت المقدس تامة ، بمعنى أن يستولى الصليبيون على الحرم الشريف بما فيه المسجد الاقصى وقبة الصخرة وغيرهما من الاماكن التى ظلت — ولو اسميا — فى حوزة المسلمين وتحت اشرافهم

---

(٢٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٠٣٩ — ١٠٤٠
(٢٣) Grousset : Op. cit. ; III, p.p. 303 - 304.

منذ استيلاء الصليبيين على بيت المقدس(٢٤) •

ومن ناحية أخرى ، فان الصالح أيوب عرض على الصليبيين فى ذلك الوقت نفسه أن يحالفوه ضد ملكى دمشق والاردن مقابل نفس الثمن الذى عرضه هذان الملكان على الصليبيين • وهكذا يكون الملوك الايوبيين الثلاثة — الصالح أيوب والصالح اسماعيل والناصر داود — قد أقروا فى تلك السنة (١٢٤٣ — ١٢٤٤ م / ٦٤١ ﻫ) مبدأ استيلاء الصليبيين على الحرم الشريف ووضع أيديهم على المقدسات الاسلامية فى بيت المقدس • ويروى المؤرخ ابن واصل أنه مر ببيت المقدس عندئذ « فرأيت الرهبان والقسوس على الصخرة المقدسة ، وعليها قنانى الخمر برسم القربان • ودخلت الجامع الاقصى وفيه جرس معلق • وأبطل بالحرم الشريف الاذان والاقامة »(٢٥) •

أما الصليبيون ، فيبدو أنهم اتبعوا سياسة ذات وجهين مع ملكى الشام وسلطان مصر ، وذلك ليحتفظوا بالمكاسب التى حققوها على حساب المسلمين جميعا دون عناء • على أن الصليبيين كانوا لا يستطيعون المضى فى هذه السياسة طويلا ، ولم يلبثوا أن أحسوا بأن الاوضاع تضطرهم الى الوقوف بجانب أحد الطرفين ضد الطرف الآخر • وكان أن انتصرت وجهة نظر الداوية الخاصة بمهاجمة مصر ، فاختار الصليبيون الوقوف الى جانب ملكى دمشق والاردن ، بوصفهما أقرب اليهم ، فضلا عن أن التحالف معهما يعنى كسب بعض ملوك الايوبيين فى شمال الشام ، مثل المنصور ابراهيم صاحب حمص(٢٦) • ولم يلبث هؤلاء الملوك الثلاثة — الصالح اسماعيل والناصر داود والمنصور

---

(٢٤) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ، ص ٣١٥ (تحقيق محمد مصطفى زيادة) .

(٢٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٥ ، ص ٣٣٣ (تحقيق حسنين محمد ربيع) .

(٢٦) Stevenson : The Crusaclers in the East, p. 322.

ابراهيم — ، أن قرروا غزو مصر بمساعدة الصليبيين ، فحشدوا قواتهم عند غزة ، وقدموا للصليبيين وعودا كثيرة مقابل مشاركتهم فى الهجوم على الصالح أيوب فى مصر[٢٧] .

أما الصالح أيوب ، فلم يجد قوة يمكنها أن تسعفه اسعافا سريعا سوى الخوارزمية ، فاتصل بهم طالبا معونتهم ، الامر الذى ترتب عليه تحول الموقف تحولا سريعا فى صالحه . ذلك أن دعوة الصالح أيوب ما كادت تصل الى الخوارزمية حتى رحبوا بتلك الفرصة التى أتاحت لهم منفذا لدخول بلاد الشام ، فاندفع منهم عشرة آلاف فى اتجاه دمشق ، ولما وجدوا هذه المدينة قوية التحصين ، استولوا على طبرية ثم على نابلس ، ومنها اتجهوا صوب بيت المقدس[٢٨] .

وكانت بيت المقدس عندئذ أشبه بمدينة مفتوحة ضعيفة التحصين ، ليس فيها ملك أو زعيم صليبى يدافع عنها ، فاستنجد من فيها من الصليبيين باخوانهم فى أنطاكية وطرابلس ، فضلا عن ملك قبرس . ولكن أحدا من هذه الاطراف لم يتحرك لانقاذ الصليبيين فى بيت المقدس ، اذ يبدو أن الجميع كانوا فى شغل بمشاكلهم الخاصة . أما ملوك الايوبيين بالشام فكان لا يجرؤ أحدهم على التدخل لمنع الخوارزمية — وهم مسلمون — من الاستيلاء على بيت المقدس من الصليبيين ، والا تعرض لنقمة المسلمين جميعا[٢٩] .

وهكذا اقتحم الخوارزمية بيت المقدس فى ١١ يوليو سنة ١٢٤٤ م (٦٤٣ هـ) ، فاستولوا على المدينة فى سهولة ، وعندئذ طلب من فيها من الصليبيين وساطة الناصر داود ملك الاردن لتأمين خروجهم ، فتوسط لهم ، وخرج منهم ستة آلاف قاصدين يافا ، وذلك فى شهر

---

(٢٧) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨٢٤ (الطبعة الرابعة ١٩٨٦) .

(٢٨) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٣١٦ .

(٢٩) Grousset : Op. cit. III, p. 412.

أغسطس • على أن الخوارزمية لم يتركوهم فى طريقهم آمنين ، وانما اعتدوا عليهم ، مثلما اعتدوا على كنيسة القيامة وغيرها من الاماكن المسيحية فى بيت المقدس(٣٠) •

وكانت هذه آخر مرة يسترد فيها المسلمون بيت المقدس فى عصر الحروب الصليبية ، اذ لم يقدر لجيش غير اسلامى أن يقتحم هذه المدينة حتى الحرب العالمية الاولى •

الصالح أيوب وتوحيد الدولة الايوبية :

وبعد أن استعاد الخوارزمية بيت المقدس من الصليبيين ، اتجهوا صوب غزة للاجتماع بالعسكر الذى أرسله السلطان الصالح أيوب لمشاركتهم فى ضرب قوات ملوك الشام ومن ناصرهم من الصليبيين الذين خططوا لغزو مصر (أكتوبر ١٢٤٤ م / ٦٤٢ هـ) • وكانت العساكر التى أرسلها الصالح أيوب بقيادة الامير ركن الدين بيبرس — وكان من أكبر مماليك الصالح أيوب — فى حين كان مع عسكر الشام الملك المنصور ابراهيم بن شيركوه صاحب حمص ، ولم يحضر الملك الصالح اسماعيل أو الملك الناصر داود • وكان المنصور ابراهيم قد مر وهو فى طريقه الى غزة بمدينة عكا — قاعدة مملكة الصليبيين — « فاستدعى الفرنج على ما كان قد وقع عليه اتفاقهم ، ووعدهم بجزء من بلاد مصر ، فخرجت الفرنج بالفارس والراجل »(٣١) • ولكن الهزيمة حلت بالصليبيين « ومن انضم اليهم من منافقى المسلمين » ،

---

(٣٠) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٥ ، ص ٣٣٧ (تحقيق حسنين محمد ربيع) ، ابن أيبك : كنز الدرر ، جـ ٧ ص ٣٥٢ (تحقيق المؤلف) .

(٣١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٣ ، ص ١٧٢ (سنة ٦٤٢ هـ) والأمير ركن الدين بيبرس هذا غير الأمير ركن الدين بيبرس الذى اعتلى عرش سلطنة المماليك بعد ذلك وتلقب بالظاهر . ولا يعدو الأمر تطابقا فى الاسم والكنية . (ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ص ٣٢٢) .

حتى قدرت خسائر الصليبيين بثلاثين ألف قتيل وثمانمائة أسير ، بحيث « لم يفلت منهم الا الشارد النادر »[٣٢] •

ولا شك فى أن هذه كانت أفدح كارثة حلت بالصليبيين منذ موقعة حطين سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) ، حتى أطلق المؤرخون عليها اسم « حطين الثانية »[٣٣] • وكانت جموع الخوارزمية التى بفضلها تحقق هذا النصر يأملون فى أن يكافأهم الصالح أيوب بالسماح لهم بالاستقرار فى مصر • ولكن يبدو أنه تنكر لهم لأنه خشى ما يترتب على دخولهم مصر من ضرر بالبلاد والعباد ، فلم يسمح لهم الا بالاستقرار فى بلاد الشام على حساب ما يستولون عليه من أراض فى حوزة الصليبيين • ولم تلبث جموع الخوارزمية أن أخذت تغير على ممتلكات الصليبيين وضياعهم حتى وصلت الى مشارف عكا • أما العسكر المصرى ، فقد انفصل عن الخوارزمية بعد موقعة غزة ، واتجه لمعاقبة صاحبى دمشق والكرك لتحالفهما مع الصليبيين وشروعهما فى غزو مصر • وقد نجح العسكر المصرى فى الاستيلاء على القدس والخليل وبيت جبريل والاغوار ، من الناصر داود صاحب الكرك الذى لم يتبق له سوى مراكز قليلة الاهمية مثل الكرك وعجلون[٣٤] • ولم تستطع دمشق مقاومة الحصار الذى فرضته عليها جيوش الصالح أيوب ، وبداخلها صاحبها الصالح اسماعيل ومعه حليفه الملك المنصور صاحب حمص • وكان أن استسلمت دمشق فى أكتوبر سنة ١٢٤٥ م (٦٤٣ هـ) ، فاستولى عليها الملك نجم الدين أيوب ، وهذا « هو استيلاؤه الثانى عليها »[٣٥] • وقد عوض الصالح اسماعيل عن دمشق ببعلبك وبصرى وأعمالهما[٣٦] •

---

(٣٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٥ ، ص ٣٣٨ — ٣٣٩ ، المقريزى : السلوك ، جـ ١ ص ٣١٧ ، ذيل الروضتين
(Rec. Hist. Cr. Or. Tome 5 p. 193)

(٣٣) Grousset : Op. cit. III, p. 415.

(٣٤) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٣١٨ •

(٣٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٥ ، ص ٣٤٨ •

(٣٦) ذيل الروضتين (Rec. Hist. Cr. Or. Tome 5 p. 193)

على أن الخوارزمية ظلوا فى حالة استياء وقلق بعد أن تنكر لهم الصالح أيوب ، مما خيب آمالهم فيه . وقد حدث بعد استيلاء الصالح أيوب على دمشق أن منع الخوارزمية من دخولها ، وأقطعهم الساحل « فتغيرت نياتهم واتفقوا على الخروج عن طاعة السلطان »(٣٧) . وكان أن ثار الخوارزمية بالشام ، واتصلوا بالامير ركن الدين بيبرس — أحد قادة قوات الصالح أيوب وكانت أمه خوارزمية — وحسنوا له الانضمام اليهم فى ثورتهم ، ففعل ذلك(٣٨) . وهكذا أتيحت الفرصة للناصر داود صاحب الكرك ، والصالح اسماعيل طريد دمشق ، فانضموا الى الثوار للانتقام من الصالح أيوب ، وزحفوا جميعا على دمشق وحاصروها . وعندئذ أظهر الصالح أيوب صبرا وثباتا ، فلجأ الى « أعمال الحيلة والتدبير » وبدأ باستمالة الحلبيين ، فضلا عن المنصور ابراهيم صاحب حمص ، وتحايل حتى استحضر الامير ركن الدين بيبرس الى مصر حيث قبض عليه وأعدمه . وبفضل هذه الاجراءات تمكن الصالح أيوب من انزال الهزيمة بالخوارزمية — بين بعلبك وحمص — فتبدد شمل تلك الجموع ، ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك(٣٩) .

وبعد القضاء على جموع الخوارزمية بالشام ، اتجه صلاح الدين نحو الصليبيين ، فتمكنت جيوشه فى ١٧ يونيو سنة ١٢٤٧ م (٦٤٥ هـ) من انتزاع قلعة طبرية منهم ، ثم استولى على عسقلان فى أكتوبر من العام نفسه ، وبذلك انحسرت حدود الصليبيين الى أبواب يافا(٤٠) .

وهكذا استعادت الدولة الايوبية وحدتها ، وصار السلطان الصالح أيوب يجمع فى قبضته بين القاهرة ودمشق وبيت المقدس .

---

(٣٧) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٢٢ .
(٣٨) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٢٥ .
(٣٩) المقريزى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٣٢٤ .
(٤٠) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٣٧٨ ، العينى : عقد الجمان ، حوادث ٦٤٥ هـ (مخطوط) .

وفى دمشق أقام السلطان فى الفترة من نوفمبر سنة ١٢٤٨ حتى ابريل سنة ١٢٤٩ م (٦٤٦ — ٦٤٧ هـ) حيث وفد عليه ملك حماه المنصور (الثانى) سيف الدين محمد ، وملك حمص الاشرف مظفر الدين موسى (الثانى) ، وغيرهما من ملوك البيت الايوبى بالشام ، لتقديم فروض الولاء والطاعة . كذلك قام الصالح أيوب بزيارة مدينة بيت المقدس بعد أن عادت نهائيا الى أحضان الدولة الاسلامية ، فقوى تحصيناتها ودعمها ، ووفد عليه فيها العديد من ملوك الشام يعبرون له عن ولائهم[٤١] .

الحملة الصليبية السابعة على مصر :

أحدث استيلاء المسلمين على بيت المقدس سنة ١٢٤٤ م (٦٤٢ هـ) رد فعل عنيف فى الغرب الاوربى المسيحى ، فقامت البابوية — كعادتها فى أعقاب كل كارثة تحل بالصليبيين فى الشرق — بالدعوة لحملة صليبية جديدة . وكانت ظروف الغرب الاوربى عندئذ تحول دون تلبية كثير من ملوك أوربا وأمرائها تلك الدعوة ، فلم يستجب لها الا لويس التاسع ملك فرنسا ، وهو الرجل الذى اشتهر بالتقوى والورع ، حتى لقب بالقديس .

وفى الوقت الذى أخذ لويس التاسع ملك فرنسا يواصل استعداداته لحملته الصليبية ، اذا بأخبار هذه الاستعدادات تتسرب الى السلطان نجم الدين أيوب . ذلك أن الامبراطور فردريك الثانى الذى ظل مصادقا للسلطان الكامل — ومن بعده لابنه الصالح أيوب — أرسل سرا الى السلطان الصالح ، يخبره بأن ملك فرنسا « عازم على المسير الى أرض مصر وأخذها »[٤٢] . وكان السلطان الصالح أيوب مريضا

---

(٤١) ذيل الروضتين (Rec, Hist. Cr. Or. Tome 5 p. 194)
ابن ايبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٣٦٠ (تحقيق المؤلف) .

(٤٢) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ص ٢١٩ (بولاق) ، ابن الجوزى : مرآة الزمان (المكتبة الصقلبة ج ٣ ، ص ٥١٧) .

فى دمشق عندما بلغه تلك الاخبار ، فحمل الى مصر ، ونزل عند أشموم طناح ليكون على مقربة من ساحة العمليات العسكرية .

أما لويس التاسع فقد وصل على رأس حملته الى جزيرة قبرص فى سبتمبر سنة ١٢٤٨ م (٦٤٦ هـ) حيث قضى الصليبيون بضعة أشهر استراحوا فيها من دوار البحر ، وحصلوا على ما يلزمهم من مواد التموين . وعندما استقر رأيهم على مهاجمة دمياط ، أبحروا اليها فى مايو سنة ١٢٤٩ م (٦٤٧ هـ) . وهنا نلاحظ ملاحظتين : الاولى هى أن فكرة الاستيلاء على مصر بوصفها مفتاح بيت المقدس كانت لا تزال مسيطرة على عقول الصليبيين فى الشرق والغرب جميعا . والملاحظة الثانية هى أن لويس التاسع أراد أن يمهد لهجومه بنوع من حرب الاعصاب ، فاتبع أسلوب المغول بارسال رسائل مليئة بعبارات التهديد والوعيد الى حكام البلاد التى يعتزمون غزوها ليفتوا فى عضدهم فيستسلمون دون مقاومة . من ذلك أن لويس التاسع ما كاد يصل الى دمياط فى أوائل يونيو سنة ١٢٤٩ م (٦٤٧ هـ) ، حتى بعث برسالة عنيفة الى السلطان الصالح يعلمه فيها بسوء موقف المسلمين فى الاندلس ، ويطالبه بالاستسلام فورا « وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت فى طاعتى ، تملأ السهل والجبل ، وعددهم كعدد الحصى ، وهم مرسلون اليك بأسياف القضا ... فسيوفنا حداد ، ورماحنا مداد ، وقلوبنا شداد ... »[٤٣] . وعندما تسلم الصالح أيوب هذه الرسالة وهو مريض طريح الفراش ، أغرورقت عيناه بالدموع ، ورد على لويس منددا بغروره ، مذكرا اياه بما حل بالصليبيين على أيدى المسلمين ، منذرا بأنه سيندم حيث لا ينفع الندم « فلو نظرت أيها المغرور حد قلوبنا ، وجد حروبنا ، لرأيت فرساننا أسنتهم لا تمل ، وقلوبهم لا تذل ... »[٤٤] .

---

(٤٣) ابن ايبك : كنز الدرر ، جـ ٧ ص ٣٦٦ — ٣٦٧ (تحقيق المؤلف).

(٤٤) المصدر السابق ، ص ٣٦٨ ، وكذلك المقريزى : السلوك ، جـ ١ ص ٣٣٤ — ٣٣٥ .

والواقع أن التحذير الذى كان أرسله الامبراطور فردريك الثانى ، أفاد الصالح أيوب ، اذ تمكن من اعداد دمياط لمقاومة الحصار ، بعد أن أثبتت التجارب اختيار الصليبيين لها لتكون نقطة ارتكاز يعتمدون عليها فى غزوهم مصر . وكان أن عهد السلطان الصالح الى الامير فخر الدين يوسف بالوقوف على رأس قوة على البر الغربى لفرع دمياط لمنع الصليبيين من النزول على ذلك البر[٤٥] . أما دمياط ذاتها ، فقد شحنت « بآلات عظيمة وذخائر وافرة ، وجعل فيها بنى كنانة ، وهم مشهورون بالشجاعة »[٤٦] .

وعندما وجد لويس لتاسع أن دمياط قوية التحصين ، بحيث يتعذر عليه النزول على برها ، قرر النزول على الضفة الغربية للنيل المواجهة لدمياط . وعلى الرغم من أن قوات الامير فخر الدين تصدت للصليبيين وقاومتهم ، الا أنها لم تنجح فى الحيلولة بينهم وبين النزول الى الشاطىء ، مما جعل الامير فخر الدين ومعظم رجاله يفرون ليلا الى الضفة الشرقية حيث تقوم مدينة دمياط[٤٧] . ولم يلبث أن استولى الرعب على أهل دمياط ، فتركوا مدينتهم بما فيها هاربين ، بعد أن أشعلوا النار فى سوقها . بل ان عرب كنانة الذين عهد اليهم الصالح أيوب بالدفاع عن المدينة ، ولوا هاربين تاركين أبواب دمياط مفتوحة[٤٨] .

وهكذا غدت دمياط مدينة مفتوحة خالية من المدافعين « فتملكها الفرنج بغير قتال » فى ٦ يونيو سنة ١٢٤٩ م (٦٤٧ هـ) . ويروى المؤرخ المقريزى أن الصليبيين عندما رأوا أبواب دمياط مفتوحة ،

---

(٤٥) النويرى : نهاية الارب ، جـ ٢٧ ورقة ٩٠ (مخطوط) ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ورقة ٣٥٥ — ٣٥٦ (مخطوط) .

(٤٦) ابو الفدا : المختصر فى اخبار البشر ، جـ ٣ ، ص ١٧٨ (سنة ٦٤٧ هـ) .

(٤٧) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ، ص ٣٣٥

(٤٨) ابو الفدا : المختصر فى اخبار البشر ، جـ ٣ ، ص ١٧٨ — ١٧٩ .

ولا أحد يحميها تخوفوا من أن يكون فى الامر خدعة • ولكن الحقيقة لم تلبث أن تكشفت واضحة « فدخلوا المدينة بغير كلفة » ، واستولوا على ما فيها من مؤن وآلات وأسلحة وأموال « صفوا عفوا »[٤٩] •

على أن الصليبيين لم يحاولوا فى حملتهم هذه — سنة ١٢٤٩ م (٦٤٧ هـ) — أن يستفيدوا من الاخطاء التى وقعت فيها الحملة الصليبية الخامسة سنة ١٢١٩ م (٦١٦ هـ) ذلك أنه كان من المفروض أن يستغل لويس التاسع فرصة سقوط دمياط فى يده دون عناء ، ويبادر بالزحف الى داخلية البلاد قبل أن يعيد المسلمون تنظيم صفوفهم • ولكن الصليبيين أضاعوا فى دمياط خمسة أشهر كاملة (يونيو — نوفمبر ١٢٤٩ م / ٦٤٧ هـ) وربما استهدف الملك لويس أن ينتظر انحسار فيضان النيل الذى كان سببا فى فشل حملة حنا دى برين على مصر قبل ذلك بثلاثين عاما[٥٠] • ومهما تكن الاعذار التى حاول بها بعض الكتاب تبرير تباطؤ لويس التاسع فى دمياط ، فالذى يعنينا هو أن هذا التباطؤ أعطى السلطان الصالح فرصة طيبة للاستعداد واعادة تنظيم جيشه •

وكان السلطان الصالح أيوب قد عاقب أمراء بنى كنانة عقابا قاسيا لفرارهم من دمياط ، كم وبخ الامير فخر الدين ورجاله لعدم ثباتهم أمام الصليبيين • ولكن المرض اشتد على السلطان ، وكان مرضا مستعصيا « أيس منه » ، فحمل الى قلعة المنصورة حيث استمر — وهو على فراش الموت — يواصل تنظيم شئون الدفاع[٥١] • وفى تلك الاثناء لم يسلم الصليبيون من أية مقاومة اسلامية ، وانما دأب المسلمون على شن هجمات متوالية على الصليبيين ، وأسروا منهم كثيرين ،

---

(٤٩) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ص ٣٣٦ •

(٥٠) محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر ، ص ١٢٠ وما بعدها (القاهرة ١٩٦١) •

(٥١) ابو الفدا : المختصر فى اخبار البشر ، جـ ٣ ، ص ١٧٩ (سنة ٦٤٧ هـ) •

أرسلوهم تباعا الى القاهرة(٥٢) .

وأخيرا وصلت امدادات الى لويس التاسع بصحبة أخيه سنة ١٢٤٩ م (٦٤٧ هـ) فقرر الصليبيون الزحف جنوبا فى اتجاه القاهرة . ولم يكد لويس التاسع يشرع فى الزحف على رأس جيشه ، حتى توفى السلطان الصالح نجم الدين أيوب فى ٢٣ نوفمبر ١٢٤٩ (١٥ شعبان ٦٤٧ هـ) .

ولا شك فى أن وفاة الصالح أيوب فى تلك الظروف الحرجة جاءت خسارة كبرى للمسلمين ، لعدم وجود من يحل محله بسرعة فى حكم البلاد من جهة ، وفى مواجهة الخطر الصليبى من جهة أخرى(٥٣) .

موقعة المنصورة :

كان للصالح أيوب ابن واحد اسمه توران شاه ، وصفته المصادر بأنه شاب مستهتر عديم الخبرة ، وكان عند وفاة أبيه ينوب عنه فى حصن كيفا وديار بكر(٥٤) . والى أن يصل توران شاه الى مصر ليحل محل أبيه ، قامت زوج أبيه — شجرة الدر أرملة الصالح أيوب — بدور بارز ، حفظه لها التاريخ ، فأخفت خبر موت زوجها السلطان ، وأرسلت الى توران شاه تستدعيه على عجل من كيفا ، فى الوقت الذى استمرت الاستعدادات تجرى على قدم وساق للدفاع عن البلاد(٥٥) .

ولكن حدث — على الرغم من كل هذه الاحتياطات أن تسرب خبر وفاة السلطان ، لا الى عامة أهل مصر فحسب ، بل الى الصليبيين

---

(٥٢) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ، ص ٣٣٧ . (تحقيق محمد مصطفى زيادة) .

(٥٣) ابن ايبك : كنز الدرر ، جـ ٧ ، ص ٣٧٠ وما بعدها (تحقيق المؤلف) .

(٥٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٣٦٤ .

(٥٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ورقة ٣٦٢ — ٣٦٣ (مخطوط) .

أيضا . لذلك رأى الملك لويس التاسع أن يسرع بالهجوم ليستفيد من تلك الظروف السيئه التي أمست فيها البلاد ، وليتمكن من انزال ضربته بالمسلمين قبل وصول نوران شاه(٥٦) .

وعندما تحرك الجيش الصليبي من دمياط في ٢٠ نوفمبر سنة ١٢٤٩ م (٦٤٧ هـ) ، اختار الملك لويس طريق الدلتا الكثير الترع والقنوات ، فسار الصليبيون على الضفة الشرقية لفرع دمياط بحذاء النيل ، واتجهوا جنوبا في الاقليم الذي أطلق عليه الصليبيون اسم « جزيرة دمياط » . وهي عبارة عن مثلث تحده من الشمال الشرقي بحيرة المنزلة ، ومن العرب فرع دمياط ، ومن الجنوب الشرقي فرع أشموم طناح المعروف باسم البحر الصغير(٥٧) . وفي أثناء زحف الصليبيين جنوبا . تعرضوا لهجمات كثيرة ، حتى وصلوا في النهاية الى نقطة تفرع بحر أشموم من فرع دمياط ، وهي النقطة التي تمثل رأس المثلث . وعندما وصلوا الى ذلك المكان ، وجدوا أن النيل يفصل بينهم وبين المنصوره . ولكنهم استطاعوا عبور بحر أشموم عن طريق مخاضة قريبة اسمها مخاضة سلمون . وفي تلك المرحلة قتل الامير فخر الدين قائد الجيش الايوبي ، الامر الذي جعل موقف المسلمين يزداد تأزما ، حتى « كادت تكون الهزيمة بالكلية »(٥٨) .

ولم ينقذ الموقف عندئذ سوى حماقة الصليبيين . ذلك أن فريقا منهم تسرع في اقتحام المنصورة ، دون أن يستجيب الى ما أصدره الملك من تعليمات تطالب رجال جيشه بالتمهل والتأني(٥٩) . وكان أن اندفعت مقدمة الجيش الصليبي داخل مدينة المنصورة ، وانتشر أفرادها في الطرقات والدروب ، في الوقت الذي وجد المسلمون قوة

---

(٥٦) العيني . عقد الجمان — حوادث سنة ٦٤٧ هـ (مخطوط) .
(٥٧) محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر ، ص ١٢٨
(٥٨) ابن واصل مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ورقة ٣٦٦ أ (مخطوط) .
(٥٩)
Mathieu Paris, VII. pp. 11 - 14 & Joinville, pp. 118 - 119.

جديدة فى المماليك البحرية ، الذين أطلق عليهم المؤرخ المعاصر ابن واصل اسم « داوية الاسلام » . ولم يبالغ هذا المؤرخ عندما أطلق على ذلك اليوم اسم « يوم الكبسة » لأن الموقف كان خطيرا جدا ينذر بالنسبة للمسلمين بأوخم العواقب(٦٠) . ولكن المماليك البحرية أنقذوا الموقف ، فأحاطوا بشراذم الصليبيين الذين تفرقوا فى دروب المنصورة ، وأوسعوهم قتلا ، حتى انتهت المعركة بهزيمة الصليبيين وفرار من نجا من القتل(٦١) . وكان عدد ضحايا الصليبيين فى المنصورة بضعة آلاف ، مما جعل بعض المؤرخين الاوربيين يعتبرها « مقبرة الجيش الصليبى » ، فى حين وصفها المقريزى بأنها كانت « أول ابتداء النصر على الفرنج »(٦٢) .

ولا شك فى أن موقعة المنصورة أعادت الثقة الى نفوس المسلمين ، فقويت عزائمهم وتطلعوا الى استئصال شأفة الغزاة . هذا فى الوقت الذى حافظ لويس التاسع على ثباته ، وأخذ يعيد تنظيم صفوف جيشه بسرعة ، على الرغم مما كان يعانيه من نقص فى المؤن وفى أعداد الفرسان ؛ فضلا عن انتشار الحمى بين رجاله(٦٣) .

توران شاه والصليبيون :

وفى تلك المرحلة ، وصل المعظم توران شاه الى المنصورة فى أواخر فبراير سنة ١٢٥٠ م (٦٤٧ هـ) بعد أن نودى به سلطانا فى دمشق وهو فى طريقه الى القاهرة . وقد أدى وصول السلطان الجديد الى ارتفاع الروح المعنوية عند المصريين ؛ « وتيمن الناس بطلعته »(٦٤) .

---

(٦٠) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢، ورقة ٣٦٦ (مخطوط) .
(٦١) العينى : عقد الجمان ، حوادث سنة ٦٤٧ هـ (مخطوط) .
(٦٢) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٥١ ،
Grousset : Op. cit. III, p. 465.
(٦٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨٤٦ (الطبعة الرابعة ، ١٩٨٦) .
(٦٤) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٥١ — ٣٥٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٤٦ .

أما لويس التاسع فقد أخذ يدرك استحالة الزحف على القاهرة ، وأنه من الأسلم العودة الى دمياط ليستغل هذه المدينة الساحلية الكبيرة فى مساومة المسلمين . على أن انسحاب الصليبيين الى دمياط لم يكن عندئذ بالمهمة السهلة ، وهذا هو السر فى تردد لويس فى اتخاذ تلك الخطوة حتى الخامس من شهر ابريل . وفى كل يوم كان موقف الصليبيين يزداد سوءا بسبب انقطاع المواصلات بينهم وبين دمياط ، مما هددهم بالجوع وتطلب منهم أن يتدبروا أمرهم بسرعة . فحتى ذلك الوقت ، كانت الغلبة فى النيل — بين دمياط والمنصورة — للسفن الصليبية التى نجحت فى امداد الصليبيين بكل ما احتاجوا اليه من زاد وعتاد . ولكن السلطان توران شاه شيد عدة سفن ، حملت أجزاؤها على الجمال الى شمالى المعسكر الصليبى ، حيث ركبت وأنزلت فى الماء وشحنت بالمقاتلين . ولم تلبث هذه لسفن الاسلامية أن انقضت على المراكب الصليبية « وأخذتها أخذا وبيلا » ، وبذلك قطعت الطريق على السفن الصليبية ، وحالت دون اتصال الصليبيين بقاعدتهم فى دمياط(٦٥) . وتفيض المصادر المعاصرة بأخبار المعارك النيلية التى نشبت عندئذ بين السفن الاسلامية والسفن الصليبية ، وكيف أن هذه المعارك أدت الى استيلاء المسلمين على عشرات السفن الصليبية وأسر بضعة آلاف من رجالهم ، فضلا عن كميات ضخمة من المؤن والأسلحة(٦٦) .

وفى خضم هذه المصاعب ، لجأ لويس التاسع الى محاولة فتح باب المفاوضات مع المسلمين ، على أساس ترك دمياط مقابل اعادة بيت المقدس الى الصليبيين . وقد أراد الملك لويس أن يضرب بهذا العرض عصفورين بحجر ، فيسترد بيت المقدس مما يحفظ له ماء وجهه أمام البابوية وشعبه فى غرب أوربا ، وفى الوقت نفسه يضمن لجيشه

---

(٦٥) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ص ٣٥٣ .

(٦٦) عن تفاصيل هذه المعارك انظر المصدر السابق ، وكذلك : العينى : عقد الجمان ، حوادث ٦٤٧ هـ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ورقة ٣٧١ ، أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٣ ، ص ١٨٠ .

انسحابا آمنا ومخرجا سالما من مصر • ولكن عرض لويس التاسع جاء بعد فوات الاوان « فلم تقع الاجابة الى ذلك » ورفض توزان شاه طلبه(٦٧) •

وفي الخامس من ابريل سنة ١٢٥٠ م (٦٤٨ هـ) بدأ الصليبيون يتراجعون نحو دمياط بحذاء الضفة الشرقية للنيل ، فى حين حمل المرضى والجرحى فى السفن • والواقع أن العملية لم تكن انسحابا بالمعنى المعروف فى الحروب ، وانما هى عملية « هروب الى دمياط » كما أسماها المؤرخ المعاصر ابن واصل(٦٨) • ولم يترك المسلمون الصليبيين يتراجعون فى سهولة وانما « ركب المسلمون أكتافهم » أى تعقبوهم وأنزلوا بهم خسائر جسيمة • وهكذا حتى وصل الصليبيون الى شرمساح ، عند منتصف الطريق بين المنصورة ودمياط • ولم تكد مقدمة الجيش الصليبى تصل الى فارسكور ، حتى غلب المرض على لويس التاسع ومعظم رجال جيشه ، فى الوقت الذى « أحدق المسلمون بهم يتخطفونهم طول الليل قتلا وأسرا »(٦٩) • وعندما أيقن المسلمون سوء موقف الصليبيين ؛ قرروا أن يشنوا عليهم هجوما عاما عند فارسكور • وكان المرض قد اشتد بلويس التاسع ، فلم يعد يقوى على القتال ، وقاده أحد رجاله ليستريح فى منية أبى عبد الله ، وهى احدى قرى شرمساح • وفى موقعة فارسكور حلت الهزيمة ساحقة بالصليبيين ، ووقع الجيش الصليبى بأجمعه تقريبا بين أسرى وقتلى • وكان من جملة الاسرى لويس التاسع نفسه ، وقد سيق مكبلا بالاغلال

---

(٦٧) ابو الفدا : المختصر فى اخبار البشر ، جـ ٣ ، ص ١٨٠ ،
Grousset : Op. cit. III, p. 419.

(٦٨) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ورقة ٣٦٩ (مخطوط) •

(٦٩) العينى : عقد الجمان ، حوادث سنة ٦٤٨ هـ (مخطوط) ،
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ؛ ص ٣٦٤ •

الى المنصورة حيث سجن فى دار القاضى ابن لقمان ، ووكل به الطواشى صبيح المعظمى(٧٠) .

نهاية الدولة الايوبية :

ولم يهتم المسلمون كثيرا — وهم فى نشوة نصرهم — بأمر دمياط ، اذ باتوا يعتقدون أن استردادها صار أمرا مفروغا منه . ولذلك ركزوا طلباتهم فى الحصول على الممتلكات الصليبية بالشام . وكان أن أجاب الملك لويس على هذا الطلب بأنه لا سلطان له على الصليبيين وممتلكاتهم بالشام ، الامر الذى أغاظ توران شاه ، فصمم على غزو الشام ، كما طالب بمبلغ ضخم من المال فداء للجيش الفرنسى ، على أن يكون الجلاء عن دمياط ثمنا لاطلاق الملك الفرنسى نفسه(٧١) .

وقد وافق لويس التاسع على هذه الشروط ، وعندئذ أبرمت معاهدة بينه وبين توران شاه نصت على أن يستمر الصلح بين الطرفين عشر سنوات ، وأقسم الطرفان على ذلك(٧٢) .

على أن توران شاه لم يلبث أن قتل فى المحرم سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) قبل أن يتم تنفيذ الاتفاقية السابقة مع الصليبيين . ولعل أهم ما ترتب على مقتل توران شاه من تطور خطير فى تاريخ مصر والشام والشرق الادنى ، هو سقوط دولة الايوبيين وقيام دولة سلاطين المماليك فى حكم مصر والشام ، وهو ما سنعالجه فى الباب الآتى : أى فى القسم الثانى من هذا الكتاب .

---

(٧٠) المقريزى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٣٥٦ ،
ابو الفدا : المختصر فى اخبار البشر ، ج ٣ ، ص ١٨١ .

(٧١) Grousset : Op. cit. III, p. 484.

(٧٢) جوزيف نسيم يوسف : لويس التاسع ، ص ٦١ .

الفصل الثامن

الأوضاع الحضـارية فى العصر الايوبى

الحيــاة الدينيــة :

لعل أهم ما تتصف به الحيــاة الدينية فى العصر الايوبى ، هو تقويض المذهب الشيعى فى مصر ، ودعم المذهب السنى ٠ ومن المعروف أن المذهب الشيعى فى العصر العباسى الثانى وجد سندا قويا له فى البويهيين بالمشرق الاسلامى ، وفى الفاطميين بالمغرب ٠ ولكن الاتراك السلاجقة الذين حلوا محل البويهيين فى الهيمنة على الخلافة العباسية حاربوا التشيع فى المشرق ، حتى أن الوزير السلجوقى نظام الملك لجأ الى شتى الوسائل لدعم المذهب السنى ٠ وكان الأتابك عماد الدين زنكى ــ ومن بعده ابنه نور الدين محمود ــ من أتباع السلاجقة ، لذلك أظهرا حماسة شديدة فى مقاومة التشيع وما كادت تتم لنور الدين محمود السيطرة على مصر ، حتى تعجل القضاء على الخلافة الفاطمية ، والدعوة على منابر المساجد لامام أهل السنة ، وهو الخليفة العباسى فى بغــداد ٠

وقد حذا صلاح الدين حذو سيده نور الدين محمود فى العمل على تقويض أركان التشيع ، واستخدم فى ذلك العنف والقتل حينا ، وأساليب السياسة وانشاء المدارس لتكون مراكز للفقه السـنى ، أحيانا ٠ أما الشيعة وأنصار الخلافة الفاطمية فى مصر ، فلم يستسلموا لتلك السياسة ، لانهم أدركوا أن الامر بالنسبة لهم ليس الا مسألة حياة أو موت ، فقاموا بعدة ثورات فى عاصمة البلاد وأطرافها ، كما سبق أن أوضحنا ٠ ولكن صلاح الدين تصدى لهذه الثورات فى حزم حتى أخمدها ٠ واذا كانت بقايا المذهب الشيعى قد ظلت قائمة فى مصر حتى عصر سلاطين المماليك ــ وما بعد عصر سلاطين المماليك ــ فان

هذه البقايا كانت هشة ضعيفة ، يغلب عليها الطابع الفردى ، وتظهر حينا لتختفى بسرعة ويعفو أثرها بعد قليل .

وثمة ظاهرة دينية أخذت تزداد وضوحا فى العصر الايوبى ، هى ظاهرة انتشار التصوف واتخاذه مظهرا جماعيا بعد أن كان فى العصور السابقة يمثل اتجاها فرديا محدودا . وصحب ذلك ، الاكثار من بناء دور ومنازل للصوفية عرفت باسم الخانقاوات ، فى حين عرف الصوفية باسم الفقراء . ويفهم مما كتبه المقريزى أن صلاح الدين أنشأ أول خانقاه بمصر — وهى خانقاه سعيد السعداء — (٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م) ، وولى عليها شيخا عرف بشيخ الشيوخ ، ووقف عليها الاوقاف للانفاق على من فيها من الفقراء (الصوفية) ، كما خصص لهم فى كل يوم طعاما ولحما وخبزا ، وبنى لهم حماما بجوارهم[١] . كذلك أعطى المقريزى صورة حية عن بعض جوانب نشاط أولئك الصوفية ، فقال ان « لهم فى يوم الجمعة هيئة فاضلة » ، فيخرج صوفية خانقاة سعيد السعداء فى موكب جميل ، على رأسهم شيخ الخانقاة « وبين يديه خدام الربعة الشريفة ، قد حملت على رأس أكبرهم ، والصوفية مشاة بسكون وخفر الى باب الجامع الحاكمى » . وبعد الصلاة يعودون بنظام الى الخانقاة ، والناس مصطفين لمشاهدتهم[٢] .

ولا يخفى علينا أن التصوف ليس مجرد ظاهرة دينية ، وانما هو أيضا ظاهرة اجتماعية خطيرة . وكان أن وفد على مصر فى العصرين الايوبى والمماليكى كثير من زعماء المتصوفة ومشايخهم — وبخاصة من بلاد المغرب والاندلس — وهؤلاء أشاعوا حياة الزهد والتقشف ، مما ترك أثرا عميقا فى المجتمع والحياة الاجتماعية .

---

(١) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٤١٥ (بولاق) .

(٢) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

الحياة العلميـــة والفـــكرية :

اشتهر سلاطين بنى أيوب وملوكهم بحبهم للعلم والعلماء ، فكان صلاح الدين يجمع حوله رجال العلم ويحضر مجالسهم ويستمع اليهم ويشاركهم فى أبحاثهم[٣] . أما العزيز عثمان الذى خلف أباه صلاح الدين فى السلطنة ، فقد قال عنه ابن خلكان أنه « سمع الحديث من الحافظ السلفى . والفقيه أبى طاهر بن عوف الزهرى ، وسمع بمصر من العلامة أبى محمد بن برى النحوى وغيرهم »[٤] . ومثل هذا يقال عن بقية سلاطين بنى أيوب ، وبخاصة السلطان الكامل الذى قال عنه المقريزى « وكان يحب أهل العلم ، ويؤثر مجالستهم ، وعنـــده شغف بسماع الحديث النبوى ... وكان يناظر العلماء ، وعنده مسائل غريبة من فقه ونحو يمتحن بها ، فمن أجاب عنها قدمه وحظى عنده . وكانت عنده بالقلعة جماعة من أهل العلم ... فينصب لهم أسرة ينامون عليها بجانب سريره ليسامروه ... »[٥] .

لذلك لا عجب اذا اشتهر من بنى أيوب أنفسهم أعلام فى شتى ضروب المعرفة ، منهم المؤرخ الشهير أبو الفدا ، وهو عماد الدين اسماعيل ابن الملك الافضل نور الدين على بن جمال الدين محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، وهو صاحب حماه المتوفى سنة ٧٣٢ هـ (١٣٣١ م) ، ومن مؤلفاته كتاب « المختصر فى أخبار البشر » . ومنهم بهرام شاه بن فرخشاه صـــاحب بعلبك المتوفى سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١ م) ، وكان شاعرا أديبا . ومنهم الملك الناصر بن الملك المعظم عيسى المتوفى سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) وكان مشتغلا بتحصيل الكتب النفيسة ، ويجيز الادباء . والملك المعظم عيسى بن الملك العادل صاحب

---

(٣) السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ، جـ ٤ ، ص ٣٢٩ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، جـ ٣ ، ص ٢٥١ (تحقيـق احسان عباس) .

(٥) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ، ص ٢٥٨ (تحقيق محمـد مصطفى زيادة) .

دمشق ، المتوفى سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧ م) ، وكان راغبا فى الادب وأهله ، حتى شرط لكل من يحفظ المفصل للزمخشرى مائة دينار وخلعة ...[٦] .

كذلك ظهر تقدير سلاطين بنى أيوب وملوكهم للعلم فى عنايتهم بالمكتبات ، وأهمها المكتبة التى عنى بها السلطان الكامل بالقلعة ، وكانت فى الاصل تؤلف مكتبة القاضى الفاضل ، ثم آلت الى ابنه الاشرف أحمد ، حتى أمر السلطان الكامل بوضع اليد عليها ، ونقلها الى القلعة لتصبح نواة لمكتبة كبرى ضمت ثمانية وستين ألف مجلد . وقد تم نقلها الى القلعة سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩ م) .

واذا كانت هذه هى رغبة سلاطين بنى أيوب وملوكهم فى العلم ، فاننا لا نعجب لكثرة ما أسسوه فى مدارس ، درست فيها العلوم الدينية وغير الدينية ، وصارت مراكز لحياة علمية نشطة فى ذلك العصر .

والواقع أن الايوبيين عندما دأبوا على انشاء المدارس فى مصر لم يكونوا مبتكرين ، وانما كانوا محاكين لما شاهدوه وسمعوا به فى الدولة العباسية . ذلك أن ظاهرة انتشار المدارس كانت من أبرز سمات الحياة العلمية فى العصر العباسى الثانى ، وخاصة بعد أن أسس نظام الملك — وزير السلطان ملكشاه السلجوقى — المدرسة النظامية فى بغداد سنة ٤٥٧ هـ ، وافتتحها سنة ٤٥٩ هـ (١٠٦٧ م)[٧] . ولم تلبث أن استوعبت المدارس شتى ألوان العلوم والمعرفة ، فضلا عن أنها غدت مراكز لنشر المذهب السنى ، وشن الحرب على الشيعة ومحاربة التشيع[٨] . وكان من الطبيعى أن يحاكى الاتابكة فى العراق والشام

---

(٦) جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية (جـ ٣ ، ص ١٠) .

(٧) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، جـ ٢ ، ص ١٢٨ — ١٣١ ، تحقيق احسان عباس) .

(٨) حسين أمين : تاريخ العراق فى العصر السلجوقى ، ص ٢٢٢ .

سادتهم سلاطين السلاجقة فى انشاء المدارس ، فأقاموا الكثير منها ، مثل المدرسة الاتابكية التى أنشأها سيف الدين غازى بن عماد الدين زنكى بالموصل قرابة منتصف القرن السادس الهجرى ، الثانى عشر للميلاد • ومدرسة الجامع النورى التى أنشأها نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى فى الموصل • كذلك كان طبيعيا أن يحاكى صلاح الدين سادته فى انشاء المدارس •

ومهما يقال عن أهداف صلاح الدين من انشاء المدارس ، فان التوسع فى اقامة هذا النوع من المؤسسات جاء فى حد ذاته مظهرا قويا لرقى الحياة الفكرية فى عصر الايوبيين • وقد بدأ صلاح الدين بانشاء مدرستين فى حياة الخليفة العاضد الفاطمى ، اذ يروى ابن الاثير أنه كانت بمصر دار تسمى دار المعونة يحبس فيها من يراد حبسه ، فهدمها صلاح الدين وبناها مدرسة للشافعية سنة ٥٦٦ هـ[٩] • وقد عرفت هذه المدرسة باسم الناصرية نسبة الى الناصر صلاح الدين • أما المدرسة الثانية فكانت للمالكية ، وقد عرفت باسم المدرسة القمحية ، نسبة الى القمح الذى كانت تحصل عليه من الوقف الذى وقفه عليها صلاح الدين[١٠] • ولم تلبث أن سقطت الخلافة الفاطمية ، فأقام صلاح الدين ثلاث مدارس أخرى ، وبذلك صار عدد المدارس التى أقامها بالقاهرة خمس مدارس ، خلاف ما أقامه فى أقاليم الدولة ، وبخاصة دمشق وبيت المقدس •

وقد حاكى سلاطين الايوبيين — ومن بعدهم سلاطين المماليك — صلاح الدين فى بناء المدارس • ولا يخفى علينا أن المدارس كانت تدرس فيها العلوم الدينية ، لذلك قصد الحكام باقامتها التقرب الى الله وكسب الثواب • ومن أهم هذه المدارس المدرسة الكاملية التى أنشأها السلطان الكامل سنة ٦٢١ هـ (١٢٢٤ م) ، والمدرسة الصالحية

---

(٩) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٦ هـ •

(١٠) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، جـ ٢ ، ص ٣٦٤ (بولاق) •

التى أقامها السلطان الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٣٩ هـ (١٢٤١ م)[١١] • وكانت هذه المدرسة الاخيرة أول مدرسة فى مصر تجمع بين مذاهب السنة الاربعة •

وكانت المدارس فى تلك العصور أشبه بالجامعات اليوم ، فهى معاهد للتعليم العالى ، ولكل مدرسة مذهبها الذى تتبعه ، وان كان بعضها يشتمل على أربع كليات للمذاهب الاربعة • وكان المفروض فى المدرسة أن تكون مركزا للعلوم الدينية — من فقه وحديث وتفسير وغيرها — ولكن الوضع لم يلبث أن تطور حتى غدت المدارس مراكز لتدريس النحو والفلسفة والعلوم الطبيعية ، فضلا عن العلوم الدينيــة •

وقام بالتدريس فى المدرسة مدرس أو أكثر ، اختير من مشايخ علماء عصره ، وأوسعهم علما وأبعدهم صيتا ، لأنه على أساس مكانته وشهرته تتوقف سمعة المدرسة وأهميتها • وكان يساعد المدرس معيد ، وظيفته أن يعيد على الطلبة ما ألقاه عليهم المدرس ، فهو أكبر منهم درجة ، ويجلس معهم ليستمع الى ما يعطيه المدرس ، وبعد ذلك يرجع اليه الطلاب لشرح ما قد يكون قد صعب عليهم فهمه • ومنذ العصر الايوبى صار منصب المعيد مرموقا ، بحيث قل أن خلت منه مدرسة من مدارس ذلك العصر • من ذلك أن صلاح الدين عين معيدين بالمدرسة الناصرية • كما عين الصالح نجم الدين أيوب معيدين اثنين لكل واحد من المدرسين الاربعة فى مدرسته[١٢] • واعتمد التدريس عادة فى ذلك العصر على الالقاء والتلقين والاملاء ، وربما دارت مناقشات علمية بين المدرس وتلاميذه •

---

(١١) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ٣٧٤ ،
ناجى معروف : تاريخ علماء المستنصرية ، ج أ ، ص ٣٧ — ٣٨ (بغداد ١٩٦٥) .

(١٢) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ١٥٧ ، المقريزى : المواعظ ، ج ٢ ص ٣٦٢ وما بعدها .

ومن المعروف أن المدارس ومعاهد التعليم العالى ، لابد لها من مكتبات دسمة ، يرجع اليها المدرسون والطلاب ، ويعتمدون على ما فيها من كتب فى التحصيل والاستزادة . لذلك عنى الايوبيون عناية كبيرة بالمكتبات ، وذلك اقتداء بنور الدين محمود الذى خصص لمدرسته فى دمشق كتبا كثيرة يجد فيها طلاب العلم حاجتهم من المعرفة(١٣) . هذا مع ملاحظة أن المكتبات فى ذلك العصر لم تكن مقصورة على المدارس فحسب ، وانما وجدت بالجوامع وغيرها مكتبات غنية ، فضــلا عن المكتبات الخاصة . وكان لكل مكتبة من المكتبات العامة عدد من الموظفين يقومون بتنظيم الكتب ورعايتها والمحافظة عليها ، فضــلا عن خدمة المترددين على المكتبة من طلاب العلم . وأهم هؤلاء الموظفين الخازن (الامين) والنساخ ، والمجلدون ، والمناولون ...

وبالاضافة الى المدارس التى كانت تمثل معاهد التعليم العالى أو الجامعى ، وجدت فى العصر الايوبى مكاتب — أو كتاتيب — لتعليم الصغار القراءة والكتابة وتحفيظهم القرآن . وقد أنشأ صلاح الدين عددا من هذه المكاتب لتعليم « أبناء الفقراء والايتام خاصة » ، مما جعل الرحالة ابن جبير يعتبر ذلك من « مآثره الكريمة المعربة عن اعتنائه بأمور المسلمين كافة »(١٤) .

ولما كانت المنشآت السابقة — من مدارس ومكاتب ومكتبات — فى حاجة الى موارد مالية ثابتة ، تضمن لها الاستمرار فى أداء رسالتها ، وتوفر للمعلمين والمتعلمين فيها مستوى كريم من العيش ، يجعلهم ينصرفون الى طلب العلم بنفوس راضية مطمئنة ، فان سلاطين الايوبيين وملوكهم لجأوا الى دعم مدارسهم بالاوقاف الغنية التى أوقفوها عليها . ولم تكن جميع هذه الاوقاف أراض زراعية ، وانما يذكر المقريزى أن صلاح الدين وقف على مدرسته الصلاحية التى أقامها بجوار مقام

---

(١٣) النعيمى : الدارس فيما فى دمشق من مدارس ، ج ١ ، ص ٦٠٨ احمد شلبى : تاريخ التربية الاسلامية ، ص ١٣٠ وما بعدها .

(١٤) رحلة ابن جبير ، ص ٢٢ (تحقيق حسين نصار) .

الامام الشافعى ، حماما وفرنا وحوانيت ، فضلا عن الجزيرة التى كانت تسمى جزيرة الفيل بالنيل ، خارج القاهرة(١٥) . أما المدرسة القمحية التى أقامها صلاح الدين للمالكية ، فقد سبق أن ذكرنا أنها سميت كذلك نسبة الى القمح الذى كانت تغله الاوقاف التى أوقفها صلاح الدين بالفيوم على تلك المدرسة . كذلك حبست على المكاتب الخاصة بتعليم الصغار أوقاف للانفاق على مؤدبيها وتلاميذها ، كما كانت « تجرى عليهم الجراية الكافية لهم »(١٦) .

ومن الواضح أن المستوى المعيشى لمدرسى المدرسة وطلابها توقف على قيمة الوقف الموقوف عليها ، ومقدار ما يغله ذلك الوقف من ايرادات . ولما كانت هذه القيمة غير ثابتة ، لان انتاج الارض يرتبط بحالة الفيضان ، وما قد يتعرض له الزرع من آفات ، فان رجال العلم فى تلك العصور لم يكونوا على حال دائم من البسطة وسعة العيش . هذا الى أن الاوقاف الموقوفة على المدارس لم تكن ثابتة ، وانما تعرضت أحيانا للزيادة . من ذلك أن الملك السعيد بركة — ابن الظاهر بيبرس — أضاف الى الاوقاف التى أوقفها الصالح نجم الدين أيوب على المدرسة الصالحية(١٧) .

أما عن الحياة الادبية ، فقد نشطت فى العصر الايوبى ، وان كانت الاحداث التى ألمت بالعالم الاسلامى فى الشرق الادنى — وخاصة ما يتعلق بالحروب الصليبية — قد صبغت الادب صبغة خاصة ، فكسدت سوق الشعر ، واتجهت القرائح الى الادعية ومدح النبى (ص) وكذلك المعانى الصوفية(١٨) . ومن أشهر شعراء مصر فى العصر الايوبى ابن سناء الملك المصرى المتوفى سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) ، وقد استكثر

(١٥) المقريزى : المواعظ والاعتبار . جـ ٢ ، ص ٣٦٤ وما بعدها .
(١٦) رحلة ابن جبير ، ص ٢٢ (تحقيق حسين نصار) .
(١٧) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، جـ ٢ ، ص ٣٧٤ ، أحمد أحمد بدوى : الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية ، ص ٤٩ .
(١٨) جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، جـ ٣ ، ص ١٢ — ١٣ .

من الموشحات وأجاد فيها[١٩] . وكمال الدين ابن النبيه المصرى المتوفى سنة ٦١٩ هـ (١٢٢٢ م) ، وابن شمس الخلافة المتوفى سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٥ م)[٢٠] ، وعمر بن الفارض الذى اتصف شعره بمسحة واضحة من التصوف ، وجمال الدين بن مطروح المتوفى سنة ٦٤٩ هـ (١٢٥١ م) ، وبهاء الدين زهير المتوفى سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م)[٢١] .

أما عن النثر فى ذلك العصر فقد اتصف باتقان الصناعة اللفظية ، والتفنن فى البديع والجناس والسجع ، والمبالغة فى التنميق ، كما يبدو ذلك بوضوح فى أسلوب عماد الدين الاصفهانى ، وخاصة كتابه « الفتح القسى فى الفتح القدسى » الذى أرخ فيه لاستيلاء صلاح الدين على بيت المقدس . ومن أعلام النثر فى ذلك العصر القاضى الفاضل المتوفى سنة ٥٩٦ هـ (١٢٠٠ م) ، وكان وزير صلاح الدين ، وكتب عددا من الرسائل[٢٢] .

كذلك شهد العصر الايوبى نشاطا فى علوم اللغة ، وبخاصة النحو والصرف . واشتهر من علماء اللغة فى ذلك العصر أبو محمد بن برى المتوفى سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) ، وأبو الفتح البلطى المتوفى سنة ٥٩٦ هـ (١٢٠٠ م) . وابن عبد المعطى الزاوى المتوفى سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١ م) ، وابن الحاجب المتوفى سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م)[٢٣] .

أما عن علم التاريخ فقد شهد هو الآخر نشاطا كبيرا فى العصر الايوبى ، فاتجه بعض المؤرخين نحو كتابة موسوعات فى تاريخ الدولة الاسلامية ، واتجه آخرون نحو شرح تراجم العظماء وتدوين مآثرهم ،

---

(١٩) ياقوت : معجم الادباء ، ج ١٩ ، ص ٢٥٦ .

(٢٠) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٣٢٧ .

(٢١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٣٣٢ (تحقيق احسان عباس) .

(٢٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ٢ ص ٢٤٢ .

(٢٣) جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٣ ، ص ٥٥ — ٥٦ .

فى حين عنى القسـم الاكبر من المؤرخين بذكـر أحداث الصراع بين المسـلمين والصليبيين . ومن مؤرخى ذلك العصر أبو على الجوانى المصرى المتوفى سنة ٥٨٨ هـ (١١٦٣ م) ولة شجرة رسول الله (ص) فى النسب النبوى . والملك المعظم عيسى الايوبى المتوفى سنة ٦٣٩ هـ (١٢٤١ م) . وبهاء الدين بن شداد صاحب كتاب سيرة صلاح الدين يوسف ــ واسم الكتاب « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » ــ وقد توفى سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٥ م) ، وشهاب الدين أبو شامة المتوفى سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٧ م) صاحب كتاب الروضتين ، وابن ظافر الازدى صاحب كتاب الدول المنقطعة وقد توفى سنة ٦١٣ هـ (١٢١٦ م) ، وجمال الدين القفطى المتوفى سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) صاحب كتاب العلماء بأخبار الحكماء . هذا بالاضافة الى ابن الاثير ، وأبى صالح الارمنى ، وابن عساكر الدمشقى ، وغيرهم .

الزراعــة والاقطاع :

اعتمدت مصر فى حياتها القتصادية ــ طوال تاريخها ــ على الزراعة بوجه خاص . فبالزراعة اشتغلت غالبية أهلها ، وعلى الانتاج الزراعى عاش معظم سكانها . ومن المعروف أن مصر لم تستخدم الرى الدائم لاول مرة الا فى القرن التاسع عشر للميلاد ، ولذلك اعتمدت الزراعة فى العصور الوسطى ــ ومن جملتها العصر الايوبى ــ على رى الحياض ، بمعنى تقسيم الاراضى الزراعية الى حياض كبيرة تغمر بمياة الفيضان مدة كافية ، ثم تصرف تلك المياه لتبذر البذور . وقد أدى اتباع هذه الطريقة إلى جعل البلاد والعباد تحت رحمة الفيضان ، فاذا جاء مستوى الفيضان طبيعيا تمكن الناس من زراعة الارض فى اطمئنان ، وظهر المحصـول طيبا فى مقداره وأثمانه . أما اذا جاء الفيضان منخفضا دون وفاء النيل ، فمعنى ذلك ضعـف المحصـول وارتفاع أسعار الغلال ، مما يترتب عليه حدوث المجاعات وانتشار الاوبئة فى البلاد .

وفى ضـــوء هذه الظاهرة يمكن أن نفسر ما حدث بمصر فى تلك العصور من أزمات اقتصادية نتيجة انخفاض فيضان النيل . ومن أمثلة ذلك ما حدث سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠١ م) فى عهد السلطان العادل الايوبى ، اذ « احترق البحر احتراقا عظيما[٢٤] ... واشتد بالناس الجوع وأكل بعضهم بعضا ، وأكلوا الميتة ... وهرب أكثر أهل مصر الى الغرب والى الحجاز واليمن والشام ... وكان يقوم الرجل فيذبح ولده الصــغير ، وتساعده أمه على طبخه ، ويأكلونه ... وحصر من كفنه الســلطان فى مدة عشرة أيام فكانوا مائة ألف وعشرين ألف . وصلى خطيب الاسكندرية فى يوم واحد على سبعمائة جنازة من أعيان الناس ، خارج عمن لا يعبأ به ... »[٢٥] ومهما يكن فى هذه الاقوال من مبالغات ، فانها تدل على سوء أحوال البلاد وأهلها ، وما كانت تتعرض له من أزمات خطيرة فى حالة عدم وفاء النيل .

ولا ينتظر فى مثــل هذه الاوضاع أن يحيا الفــلاح حياة آمنة مستقرة ، طالما كان تحت رحمة الطبيعة من ناحية وتحت رحمة الحكام من ناحية أخرى . واذا كانت الطبيعة تشدد قبضتها على الفلاح حينا وترحمه أحيانا ، فان الحكام كانوا فى الغالب لا يرحمونه أبدا ، فأثقلوا عليه بالإلتزامات والرسوم ، ولم يتهاونوا فى جمع المفروض عليه من ضرائب وأموال . ومن الضرائب التى فرضت على الفلاحين فى ذلك العصر الخراج وشد الاحباس ، فضلا عن الزكاة .

---

(٢٤) المقصود بالبحر ، بحر النيل أو نهر النيل ، واحترق بمعنى جف وانعدم الماء به .

ويعنى لفظ البحر فى اللغة ما نعرفه اليوم جغرافيا باسم البحر الملح وكذلك النهر العذب . جاء فى القرآن الكريم « وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح اجاج » . جاء فى لسان العرب لابن منظور « البحر الماء الكثير ملحا كان أو عذبا » .

(٢٥) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٧ المسمى الدر المطلوب فى اخبار ملوك بنى أيوب ، ص ١٤٨ — ١٤٩ (تحقيق المؤلف) . وانظر ايضا كتاب النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، ج ٦ ص ١٧٣ .

ومن الثابت فى تصور النظم الاقطاعية فى الشرق والغرب فى العصور الوسطى أن الاقطاع اتخذ طابعا حربيا . ذلك أن الحكام والملوك كانوا يجدون أنفسهم فى حاجة الى محاربين وفرسان مزودين بالسلاح والخيول مما يتطلب أموالا ونفقات لا تتحملها مواردهم ، فيلجأون الى توزيع الاراضى فى صورة اقطاعات على الامراء والاجناد ، مقابل ما يؤدونه من خدمة عسكرية للحكام . وهذا المبدأ الذى يفسر المؤرخون فى ضوئه تطور النظام الاقطاعى فى الغرب الاوربى منذ أيام شارل مارتل فى القرن الثامن للميلاد ، ينطبق أيضا على النظم الاقطاعية التى عرفت فى الشرق على أيام السلاجقة والايوبيين . وهكذا عرفت مصر زمن الايوبيين الاقطاع الحربى الذى كان مطبقا عند السلاجقة . ولم يتخذ هذا الاقطاع صفة وراثية ، وانما صار للمقطع أن يتمتع بالارض المقطعة له طالما هو يؤدى الخدمة العسكرية المتفق عليها فى شروط عقد الاقطاع .

ولم يكد صلاح الدين يوطد أقدامه فى مصر ، حتى قام سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١ م) ثم سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) « باقطاع البلاد والتوقيع بها على الاجناد »(٢٦) . وعندما عزم صلاح الدين على تقسيم دولته بين أبنائه وأهل بيته ، جعل ذلك التقسيم على أسس اقطاعية ، وكذلك حرص من بعده أخوه السلطان العادل على أن يكون أولاده — دون غيرهم — هم أصحاب الاقطاعات الكبرى فى مصر(٢٧) .

وهكذا ظل النظام الاقطاعى سائدا فى مصر حتى نهاية العصر الأيوبى ، فأقطع الصالح نجم الدين أيوب أهل بيته اقطاعات وافرة ، كما اختص الخوارزمية باقطاعات واسعة مقابل ما قدموه من خدمات حربيـة . ولم ينس الصالح أيوب مماليكه الاتراك الذين ساندوه

---

(٢٦) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ٢ ص ٦٢ .

(٢٧) حسنين محمد ربيع : النظم المالية فى مصر زمن الايوبيين ، ص ٢٩ — ٣٠ .

وناصروه ، فمنحهم الاقطاعات الوافرة ، « وكان اذا مات أحد من مماليكه ، وكان له ولد ، أنعم باقطاع والده عليه »[٢٨] .

وكان على المقطعين أن يؤدوا خدمات اقطاعية ، منها ما هو مالى — مثل ضرائب الزكاة والجوالى وغيرهما — ، ومنها ما هو على شكل خدمات مدنية مثل رعاية شئون الامن فى الإقطاع ، والعناية بمرافق الزراعة وصيانة الجسور . هذا كله عدا الواجبات الحربية — التى هى الاساس فى فكرة الاقطاع — فكان على المقطع أن يعد العدد المقرر له من الجند ، ويخصص جزءا من اقطاعه لكل منهم ، أو يمنح كل جندى مرتبا معينا يناسبه[٢٩] .

وكان من المنتظر أن يؤدى انتشار النظام الاقطاعى إلى سوء حال الفلاحين ، لأنه جعلهم أشبه شىء برقيق الارض ، كما جعلهم تحت رحمة طبقة جديدة هى طبقة كبار الأمراء الاقطاعيين . ولكن النظم التى وضعتها الدولة الايوبية حرصت على أن تحمى الفلاحين من عسف السادة الاقطاعيين ، فكان التوقيع الخاص بالاقطاع فى ذلك العصر يأمر المقطع بضرورة الامر بالمعروف ، واتباع العدل والاهتمام بالقضاء وعدم أخذ رشوة من الناس ، وحسن الجوار مع زملائه من المقطعين المجاورين له[٣٠] ... ويبدو أن القيود التى وضعتها الدولة الايوبية على السادة الاقطاعيين ، وخاصة فيما يتعلق بتحديد الايجارات والجبايات التى يدفعها الفلاح لسيده الاقطاعى ، حمت الفلاح من العسف من ناحية ، كما حدت من نفوذ وثروة السادة الاقطاعيين من ناحية أخرى[٣١] .

---

(٢٨) ابن ايبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٣٧٠ — ٣٧١ ؛
النويرى : نهاية الارب ، ج ٢٧ ، ص ٩٠ (مخطوط) .

(٢٩) حسنين محمد ربيع : النظم المالية ، ص ٣٤ .

(٣٠) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١١ ، ص ٣٣ — ٣٤ ،
ج ١٣ ص ١٤٤ — ١٤٨ .

(٣١) Poliak : The Ayybid Feudalism, p. 430.

ولا أدل على عناية الايوبيين بشئون الزراعة وادراكهم لأهميتها لحياة مصر وشعبها ، من عنايتهم الفائقة بعمارة القناطر والجسور ، حتى أن صلاح الدين عهد الى الامير قراقوش الاسدى بذلك . وقد أتى ابن مماتى — الذى عاصر الدولة الايوبية — بثبت طويل عن خلجان مصر وترعها وجسورها ، وأوان سدها ، وأوقات فتحها ، مما يلقى أضواء على مدى العناية بمرافق الرى والزراعة فى ذلك العصر[٣٢] . وكانت الجسور عندئذ على نوعين : جسور سلطانية تستفيد منها سائر البلاد ، ولذا تعهدت الحكومة باقامتها وصيانتها والانفاق عليها . وجسور خاصة بجهة معينة ، ويعود نفعها على تلك الجهة لا غير ، ولذا اختص أهالى تلك الجهة من المقطعين والفلاحين باقامتها ورعايتها والانفاق عليها[٣٣] .

الصناعة والتجارة :

والى جانب الزراعة ، ازدهرت فى العصر الايوبى عدة صناعات ، أهمها صناعة النسيج التى اشتهرت بها مصر طوال العصور الوسطى ، حتى أن هناك أنواعا معينة من المنسوجات المصرية أحرزت شهرة عالمية فى أوربا فى تلك العصور ، مثل قماش الفستيان Fustian الذى نسب الى الفسطاط . ومن أهم مراكز صناعة النسيج فى ذلك العصر تنيس ودمياط والبهنسا وأخميم ، وفيها جميعا صنعت أفخر المنسوجات الحريرية والكتانية والقطنية والصوفية .

وبالاضافة الى صناعة المنسوجات اشتهرت مصر باستخراج الزيوت من بذور السمسم والكتان وغيرهما ، واستخدمت بعض هذه الزيوت فى صناعة الصابون وهى الصناعة التى اشتهرت بها قفط . هذا عدا صناعات أخرى عديدة ازدهرت فى مصر ، مثل صناعة السكر

---

(٣٢) ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٢٠٥ وما بعدها (تحقيق عزيز سوريال عطية) .

(٣٣) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ١٠١ (بولاق) .

من القصب ، اذ كانت مصر تنتج عندئذ كميات ضخمة من السكر ، يستهلك بعضها داخل البلاد ، ويصدر الباقى الى الخارج . وقد اتبعت الحكومة الايوبية سياسة الاحتكار فى عصر قصب السكر ، فحتمت على المشتغلين بهذه الصناعة عصر القصب فى معاصرها العديدة المنتشرة فى كافة أنحاء البلاد . كذلك فرضت على الصناع وعلى الانتاج الصناعى بعض الضرائب ، مثل الرسوم المفروضة على منتجات دار الطراز ، وما يحصل برسم أجرة الصناع الذين يعملون فى خزائن السلاح(٣٤) .

أما التجارة الخارجية ، فقد شهدت نشاطا ملحوظا فى عصر الدولة الايوبية . ذلك أن قيام نور الدين محمود بتوحيد مصر والشام تحت حكمه ، ترتب عليه ازدياد حجم التبادل التجارى بين الجانبين . حقيقة ان سيطرة الصليبيين على حصنى الكرك والشوبك بالاردن ، مكنتهم فى بعض المراحل من اعتراض طريق القوافل بين مصر والشام والحجاز . ولكن نور الدين محمود — ومن بعده صلاح الدين — لم يسكتا عن ذلك التهديد ، حتى انتهى الامر باستيلاء المسلمين على حصنى الكرك والشوبك جميعا ، وتأمين طرق القوافل فى تلك المنطقة الهامة التى تعتبر حلقة الوصل بين جناحى الدولة الاسلامية ، الافريقى والآسيوى .

وثمة ملاحظة أخرى هامة : هى أن الكثيرين يظنون أن الحرب كانت مستمرة ، وأن العداء ظل مستحكما بين المسلمين والصليبيين فى الشام طوال عصر الحروب الصليبية . ولكن الواقع يختلف عن هذا ، لأن الحروب الصليبية كانت تشتعل نارها حينا وتخمد أحيانا . وفى الاوقات التى يتوقف خلالها القتال ، كانت تحدث اتصالات حضارية ، ومعاملات اقتصادية ، على جانب كبير من الاهميـة بين المسـلمين والصليبيين . وقد ذكر ابن جبير — وهو معاصر لصلاح الدين — أنه « من أعجب ما يحدث به فى الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج الى بلاد الفرنج وسبيهم يدخل الى بلاد المسلمين » . ثم شرح ابن جبير كيف

---

(٣٤) ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٠٥ .

أنه غادر دمشق فى قافلة اسلامية للتجار متجهة الى مدينة عكا التى كانت تحت سيطره الصليبيين . فلما وصلت القافلة الاسلامية الى عكا « وهى قاعدة مدن الافرنج بالشام » ، نزلت فى خان معد خصيصا لنزول القوافل الاسلامية(٣٥) .

ثم انه من المعروف أيضا أن الحروب الصليبية أدت الى ازدياد النشاط التجارى بين الشرق والغرب ، وان القوى التجارية الايطالية — وبخاصة البندقية وجنوه وبيزة — رأت فى تلك الحروب فرصة لدعم نشاطها التجارى مع بلدان المشرق الاسلامى . لذلك ازدادت تجارة مصر الخارجية منذ العصر الايوبى بالذات ، وقصد التجار الاوربيون ثغرى دمياط والاسكندرية لشراء حاصلات الشرق . وقد عبر صلاح الدين عن ذلك فى احدى رسائله ، فقال « ومن هؤلاء الجيوش البنادقة والبياشقة (البيازنة) والجنوية ، كل هؤلاء تارة يكونون غزاة لا تطاق ضراوة ضرهم ولا تطفأ شرارة شرهم ، وتارة يكونون سفارا يحتكمون على الاسلام فى الاموال المجلوبة ، وتقصر عنهم يد الحكام المرهوبة . وما منهم لا من هو الآن يجلب الى بلدنا آلة قتاله وجهاده : ويتقرب الينا باهداء طرائف أعماله ... »(٣٦) .

ولم تفلح المراسيم التى أصدرتها البابوية لمنع التجار الاوربيين من التعامل مع المسلمين فى عصر الحروب الصليبية ، اذ أدى حرص المدن التجارية الايطاليه على مواصلة نشاطها التجارى ، الى سعيها لتجديد المعاهدات الاقتصادية مع السلطان العادل ، وذلك بعد وفاة صلاح الدين . كذلك أدت سياسة التسامح التى اتبعها العادل والكامل الى اتجاه كثير من التجار الاوربيين بسفنهم نحو شواطىء مصر . ولم تلبث الاسكندرية — بصفة خاصة — أن شهدت نشاطا تجاريا واسعا نتيجة للامتيازات التى منحها سلاطين الايوبيين لتجار المدن الايطالية

---

(٣٥) رحلة ابن جبير ، ص ٢٨٨ — ٢٩٣ (تحقيق حسين نصار)

(٣٦) أبو شامة كتاب الروضتين ، جـ ١ ، (طبعة النيل) .

حتى أنه وجد بميناء الاسكندرية فى شتاء سنة ١١٨٧ — ١١٨٨ م (٥٨٣ هـ) سبع وثلاثون سفينة ايطالية تجارية ، وهذا عدد ضخم بالنسبة لموسم فصل الشتاء بالذات(٣٧) .

أما عن التجارة الداخلية ، فكانت لا تقل نشاطا فى العصر الايوبى ، حتى أن الرحالة ابن جبير وصف بعض مدن مصر فى ذلك العصر — مثل منفلوط وأبى تيج وغيرهما — بأن فيها « الاسواق وسائر ما يحتاج اليه من المرافق »(٣٨) . وتشهد كتب الحسبة فى ذلك العصر ، على مدى نشاط التجارة الداخلية فى العصر الايوبى ، وعلى ما كان هناك من اشراف دقيق على الاسواق والباعة(٣٩) .

الحيـاة الاجتماعية :

جاءت الدولة الايوبية — من الناحية الزمنية — بين دولتين اتصفتا بالبذخ ، وتميزت الحياة الاجتماعية فيهما بالاسراف والمبالغة فى اقامة الحفلات ، هما الـدولة الفاطمية والدولة المماليكية ، . ولـكن دولة الايوبيين أحاطت بنشأتها ظروف غير الظروف التى أحاطت بالدولة السابقة لها أو اللاحقة بها ، اذ ولدت الدولة الايوبية فى وقت كان الصليبيون بالشام قد بلغوا ذروة قوتهم ، حتى هدد خطرهم بابتلاع البلدان الاسلامية ، ليس فى الشام فحسب ، بل أيضا فى مصر والحجاز . لذلك لم تكن هناك فرصة أمام الايوبيين ليحيوا حياة اجتماعية مترفة ، اذ غلبت فكرة الحرب على السلاطين ، وطغت عقيـدة الجهـاد على أحاسيس الناس ومشاعرهم ، مما لم يترك مجالا للتوسع فى الاحتفالات وحياة الترف . واذا توافر الوقت أحيانا فى العصر الايوبى لممارسة حياة الترف ، فان المال كان من الصعب أن يتوافر ؛ لأن خراسة القوافل ،

---

(٣٧) Heyd : Hist. du Commerce, Tome 2, p.p. 391 - 399.

(٣٨) رحلة ابن جبير ، ص ٣١ — ٣٢ (تحقيق حسين نصار) .

(٣٩) عبد الرحمن الشيزرى : كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة . تحقيق السيد الباز العرينى) .

وتحصين المدن والقلاع . واعداد الجيوش ، وبناء السفن والاساطيل ، وتوفير العدد وآلات الحرب ••• كل ذلك كان كفيلا بأن يستنفد ما فى خزينة بنى أيوب • وحسبنا أن أول ما فكر فيه الخليفة المعز لدين الله الفاطمى عند وصوله الى مصر كان تعمير القاهرة والعناية بأسواقها ، واقامة المنشآت المتباينة فيها ، ورعاية الحفلات الدينية والمبالغة فى احيائها • أما صلاح الدين الايوبى ، فما كادت تستقر له الامور فى مصر ، حتى فكر فى بناء قلعة الجبل وبناء سور القاهرة وتحصين ثغور البـــلاد •

وقد وصف ابن شداد صلاح الدين الايوبى وصفا يصور روح العصر ، فقال ان « حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيما • بحيث ما كان له حديث الا فيه ، ولا نظر الا فى آلته ، ولا كان له اهتمام الا برجاله ، ولا ميل الا الى من يذكره ويحث عليه • لقد هجر فى محبة الجهاد فى سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسائر بلاده . وقنع من الدنيا بالسكون فى ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة »(٤٠) •

وبينما نسمع عن خلفاء الفاطميين ، وعن سلاطين المماليك ، أن كلا منهم مات تاركا فى خزائنه مالا مكدسا وتحفا عديدة ، اذا بكتب التاريخ المعاصرة تجمع على أن صلاح الدين مات ولم يترك فى خزانته سوى سبعة وأربعين درهما من الفضة وجراما واحدا من الذهب ••• لقد استنفد الجهاد كل ما عدا ذلك من أموال وايرادات(٤١) •

وليس معنى ذلك أن الحياة الاجتماعية فى مصر صارت على زمن الايوبيين مجدبة كل الجدب ، خشنة كل الخشونة • ذلك أن طبيعة البشر وطبيعة المجتمع جعلتا الناس ــ حكاما ومحكومين ــ لا ينسون

---

(٤٠) ابن شداد النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، ص ٤٤ تحقيق محمد محمود صبح) •

(٤١) سعيد عاشور . الناصر صلاح الدين ، ص ٢٨٥ وما بعدها .

تماما نصيبهم من الدنيا ، فاهتموا باحياء الحفلات الدينية وغير الدينية ، ولكن دون اسراف ، وبلا تهتك . من ذلك أن المقريزى عندما يشير الى بعض الاحتفالات فى العصر الايوبى ، فانه لا يتعرض لألوان الاباحية والمنكرات التى انتقدها فى مرارة عند اشارته الى الاحتفالات فى العصرين الفاطمى والمماليكى[٤٢] .

والواقع أن لايوبيين اقتصدوا فى الحفلات ، وألغوا بعض ما ارتبط منها بأعياد الشيعة ، فى حين حوروا البعض الآخر بما يتفق وتحول البلاد رسميا من المذهب الشيعى الى المذهب السنى . من ذلك مثلا أن عاشر المحرم — وهو يوم عاشوراء — كان يوم حزن عند الفاطميين ، تغلق فيه الاسواق ، فجعله الايوبيون يوم فرح يوسعون فيه على عيالهم ، ويصنعون فيه الحلوى ويطبخون الحبوب[٤٣] .

وهكذا شـــهدت مصر فى العصر الايوبى اهتماما باحياء الاعياد وبالحفلات ، ولكن مع مراعاة الاقتصاد . فنسمع عن الأسمطة السلطانية فى العصر الايوبى ، ونسمع أن أول من ركب بشعار السلطنة فى مصر كان السلطان صلاح الدين الايوبى ، ولكننا لا نسمع عن الاسراف والمبالغة اللتين اتصفت بهما الحفلات والمواكب الفاطمية والمماليكية .

ومع ذلك فاننا نجد فى المصادر المعاصرة اشارات الى أن بعض خلفاء صلاح الدين أسرفوا أحيانا فى اقامة الاســمطة واحياء بعض الحفلات ، وربما كان ذلك لاحساسهم بأن حدة الهجمة الصليبية قد خفت الى حد ما . من ذلك ما اشتهر به السلطان العزيز عثمان من مد الاسمطة الكبرى لأعيان دولته ، وموظفيها بين حين وآخر[٤٤] . أما السلطان الكامل محمد فقد أقام سماطا بسنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧ م) بمناسبة ختان ابنه العادل الصغير ، وأنفق فى ذلك الســماط أموالا

---

(٤٢) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ص ١٣٦ (تحقيق محمد مصطفى زيادة) .

(٤٣) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، جـ ١ ص ٤٩٠ (بولاق) .

(٤٤) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ص ٤٧ .

طائلة(٤٥) . وتكرر ذلك فى عهد السلطان العادل الصغير الذى أقام سماطا فى الميدان الاسود — تحت القلعة — ذبح لأجله ألف رأس من الغنم ، فضلا عن البقر والجاموس والابل والخيل(٤٦) . ولكن هذا الاسراف لم يكن الطابع الغالب على الدولة الايوبية ، وبخاصة فى الشطر الاول من عمرها .

ويفهم مما ذكره عبد اللطيف البغدادى — الذى زار القاهرة فى العصر الايوبى — أن المجتمع بلغ درجة كبيرة من الرقى فى ذلك العصر ، فوصف البغدادى حمامات القاهرة ، وقال انه لم يشاهد فى البلاد التى زارها أتقن منها صنعة واحكاما ، لما اتصفت به من أرض مكسوة بالرخام الجميل ، وأحواض واسعة يجرى فيها الماء الساخن والبارد ، ومقاصير بأبواب للمستحمين(٤٧) .

كذلك أفاض ابن جبير فى وصف عناية صلاح الدين بالاغراب الذين يفدون الى الاسكندرية وغيرها من مدن مصر لطلب العلم ، فأمر السلطان « بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا الى ذلك ، ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم ، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم ... » . أما أبناء السبيل من المغاربة فكانت تصرف لهم جرايات من الخبز وغيره أثناء مرورهم بمصر فى طريقهم الى الحج(٤٨) .

ولم تكن مدن الصعيد أقل رقيا فى مستواها عن مدن الوجه البحرى والقاهرة ، اذ ذكر ابن جبير عن بعض مدن الصعيد — مثل قنا وقفط — أنها كانت ممتازة « حسنا ، ونظافة بنيان ، واتقان وصنع » . كذلك امتدح ابن جبير تحشم نساء الصعيد « وصون نساء أهلها ، والتزامهن البيوت ، فلا تظهر فى زقاق من أزقتها المرأة البتة »(٤٩) .

---

(٤٥) النويرى : نهاية الارب ، جـ ٢٧ ورقة ٢٩ (مخطوط) .
(٤٦) المصدر السابق ، ورقة ٦٣ ، المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ، ص ٢٨٩ — ٢٩٠ .
(٤٧) البغدادى : كتاب الافادة والاعتبار ، ص ٢١٤ .
(٤٨) رحلة ابن جبير ، ص ١٠ (تحقيق حسين نصار) .
(٤٩) رحلة ابن جبير ، ص ٣١ ، ٣٦ (تحقيق حسين نصار) .

الادارة ونظم الحـكم :

صار صلاح الدين بعد زوال الخلافة الفاطمية ، ووفاة نور الدين محمود ، هو سيد مصر والشام والحاكم الاوحد عليهما جميعا .

ومن الثابت تاريخيا أن صلاح الدين لم يتخذ لقب « سلطان » رسميا ، وان كان بعض المؤرخين قد أضفوا عليه هـذا اللقب الذى تمسك به خلفاؤه من الايوبيين والمماليك ، تأكيدا لما لكل منهم من سيادة عليا على الدولة وعلى بقية الملوك فيها . ولما كان صلاح الدين كثير التغيب عن مصر بسبب اشتغاله بأمر الجهـاد ضد القوى الصليبية بالشام ، فانه صار عليه أن يترك شخصا يعتمد عليه فى حكم مصر وينوب عنه فى ادارة شئونها أثناء غيابه عنها . لذلك استحدث صلاح الدين وظيفة نائب السلطنة ، وهو الشخص الذى ينوب عن السـلطان ، واستمرت هـذه الوظيفـة بعـد ذلك قائمة فى عصرى الايوبيين والمماليـك .

ومن الثابت أن انشاء وظيفة نائب السلطان فى العصر الايوبى أضعف من أهمية الوزير . فالوزارة التى كان لها شأن كبير فى العصر الفاطمى حتى صار للخلفاء الفاطميين نوعين من الوزارة — وزارة تفويض ووزارة تنفيذ — انحطت وظيفتها وضعف شأنها فى العصرين الايوبى والمماليكى ، بعد أن استحوذ نائب السلطنة على ما كان للوزير من اختصاصات ونفوذ . وقد غدا الوزير فى العصر الايوبى « وزير تنفيذ » لا غير . واذا كان صلاح الدين قد اعتمد على وزيره القاضى الفاضل ، ووثق فيه ، وعهداليه بكثير من الامور ، فان بعض خلفاء صلاح الدين استغنى أحيانا عن وظيفة الوزير . من ذلك أن السلطان العادل الاول — أو الكبير — استوزر الصاحب صفى الدين بن شكر ، ولكنه لم يلبث أن تغير عليه ، فأقاله من الوزارة ، وترك المنصب خاليا دون أن يعين فيه وزيرا ، حتى نهاية حكمه(٥٠) .

---

(٥٠) ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات — ترجمة صفى الدين بن شكر (تحقيق احسان عباس) .

وكذلك فعل السلطان الكامل بن العادل ، اذ أعاد ابن شكر الى الوزارة ، فلما بغى ابن شكر « وأحدث حوادث كثيرة ، وحصل مالا جما ، عزله الكامل وأحاط بجميع موجوده ... ولم يستوزر بعد ابن شكر أحدا »[٥١] .

وبالاضافة الى وظيفة الوزارة وجدت وظائف أخرى سامية فى الدولة الايوبية ، بعضها يختص بالبلاط ، والبعض الآخر يختص بالدواوين . فمن وظائف البلاط وظيفة الحاجب الذى يقوم بادخال الناس على السلطان ، ووظيفة الاستادار الذى ينظر فى شئون البيوت السلطانية ويشرف على ادارتها ، ووظيفة الدوادار الذى يقوم بابلاغ الرسائل ورفع القصص الى السلطان والحصول على توقيعه على المراسيم والمناشير السلطانية ، ووظيفة ناظر الخاص المكلف برعاية شئون السلطان المالية ...

أما عن الدواوين والوظائف الادارية فقد تكلم عنها باسهاب ابن مماتى المصرى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ (١٢٠٩ م) ، وكان نصرانيا ثم أسلم ، وتولى نظارة الدواوين المصرية . وقد ألف كتابا شهيرا أسماه قوانين الدواوين ، شرح فيه نظام حكومة مصر وقوانينها فى عصر الدولة الايوبية . ويفهم منه أنه كان بمصر عدد كبير من الدواوين — مثل ديوان الانشاء ، وديوان بيت المال ، وديوان الجيش — ولكل ديوان من هذه الدواوين ناظر — أى رئيس ، وميزانية خاصة ، وعدد من الموظفين يتبعون الناظر وينفذون أوامره . وكان ابن مماتى نفسه ناظرا على ديوان بيت المال فى أوائل العصر الايوبى[٥٢] .

هذا بالاضافة الى عدد آخر من الوظائف ، بعضها ذو صبغة ادارية ، مثل والى القاهرة ، والبعض الآخر ذو صبغة دينية مثل

---

(٥١) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٠٥ ، ٢٢٠ (تحقيق محمد مصطفى زيادة) .

(٥٢) ابن مماتى : قوانين الدواوين (تحقيق عزيز سوريال عطية ، القاهرة ١٩٤٣) .

قاضى القضاة والمحتسب • وجدير بالذكر أن صلاح الدين كان شافعى المذهب ، ولذا حرص على أن يكون قاضى القضاة شافعيا • وظل الشافعية يتمتعون بذلك التكريم حتى أوائل دولة المماليك ، عندما عين السلطان الظاهر بيبرس قاضيا للقضاة من كل مذهب ، فصار عددهم أربعة يمثلون مذاهب أهل السنة الاربعة •

المالية العامة :

أدى انتقال النظام المالى فى الدولة الايوبية من الاقتصاد النقدى الى الاقتصاد الاقطاعى الى ضعف ديوان المال ، ثم زواله ليحل محله ديوان جديد اختص بالنظر فى جميع الشئون المالية فى الدولة ، من ايرادات ومصروفات ، ولذا سمى ديوان النظر(٥٣) •

أما عن الايرادات ، فقد تنوعت مواردها ، ومعظمها كان قديما وجده صلاح الدين الايوبى بمصر ، فأبقاه على حاله • ومن الثابت أن المورد الاول لايرادات الدولة الايوبية كان الاقطاع الحربى ، وهذا يرتبط بالخراج لأنه كان على المزارع أن يدفع الضريبة السنوية المفروضة على الارض التى يقوم بفلاحتها ، ليقوم المقطع باستقطاع النسبة المطلوب منه دفعها لخزانة الدولة • وكان صلاح الدين قد أدخل ما يسمى بالبدل فى جمع الخراج ، بمعنى أن يؤدى الخراج عينا ، فيدفع الفلاح كميات من الشعير أو الفول أو الحمص بدلا من القمح مثلا • وحددت نسبة البدل بحيث يؤدى المزارع أردبين شعير بدلا من اردب واحد قمح ، أو يؤدى اردبا ونصف فول بدلا من اردب القمح وهكذا(٥٤) •

وارتبط بالمال الخراجى أيضا الحراج والمعادن • أما الحراج فيقصد به أشجار السنط التى وجدت بكثرة فى بعض أنحاء البلاد ،

---

(٥٣) حسنين محمد ربيع : النظم المالية فى مصر زمن الايوبيين ، ص ٤٠ (١٩٦٤) •

(٥٤) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٥٤ — ٤٥٥ •

مثل البهنسا والاشمونين وأخميم وقوص • وكانت هذه الغابات تعتبر ملكا للسلطان ، ويدفع أهالى تلك الجهات رسوما مقابل انتفاعهم بأخشابها(٥٥) • وأما المعادن فأهمها الذهب والزمرد والنطرون والشب ، وقد احتكرها السلطان ، فلا تباع الا فى المتجر السلطانى بالاسكندرية ، ولا يجوز لأحد الرعايا المتاجرة فيها(٥٦) •

وبالاضافة الى الخراج وجدت ضرائب أخرى عديدة غذت موارد الدولة ، منها الجوالى وهى الضريبة المفروضة على أهل الذمة ، أى النصارى واليهود القادرين على حمل السلاح • وقد بلغ المتحصل من هذه الضريبة سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) مائة وثلاثين ألف دينار(٥٧) • ومنهــا أموال المواريث الحشرية ، وهم الذين يموتون دون وريث • ومنها متحصلات ديوان الاحباس الخاصة والعامة — أى الاوقاف — ، وهى على أنواع كثيرة ، منها الدور والحوانيت والطواحين والاراضى التى وقفها المسلمون فى عصور سابقة • ومنها الاموال الهلالية ، وهى الايجارات الشهرية المتحصلة من الجهات السكنية الخاصة بسلاطين بنى أيوب ، ومن سبقهم من خلفاء الفاطميين • ومنها متحصل دار الضرب ، وهى الرسوم التى تجبيها الدولة من أصحاب الاموال الذين يرغبون فى سك ما لديهم من ذهب أو فضة فى شكل عملة رسمية(٥٨) •

هذا كله بالاضافة الى المكوس ، وهى الضرائب التجارية ، ومعظمها غير شرعى • وكان صلاح الدين قد ألغى معظم المكوس الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) — عندما كان لا يزال نائبا عن نور الدين محمود فى مصر — وعددها ٨٨ مكسا جملة حصيلتها مائة ألف دينار سنويا • ثم أعاد صلاح الدين بعد ذلك فرض بعض هذه المكوس ، مثل مكس

---

(٥٥) النابلسى : لمع القوانين المضية فى دواوين الديار المصرية ، ص ٤٨ •

(٥٦) ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٨١ ، ٣٢٨ ، ٣٣٤ •

(٥٧) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، جـ ١ ، ص ١٠٧ (بولاق) •

(٥٨) ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٣٢ — ٣٣٣ •

تجار الكارم — وهى الضريبة المفروضة على التوابل الواردة الى البلاد — ومكس الخمس وهى الضريبة المفروضة على ما يجلبه التجار الاوربيون وغير المسلمين من بضائع ...

أما أبواب المصروفات فكانت عديدة ، تشهد عليها أسماء بعض الدواوين التى اختصت بالمصروفات . ومن هذه الدواوين ديوان الخاص السلطانى ويقوم بالانفاق على شئون الدور السلطانية ، بعد جمع الايرادات الخاصة بالسلطان . ومن هذا الديوان كان ينفق على المطبخ السلطانى والاسمطة والخيول السلطانية فى الاعياد وغيرها ، فضلا عن الهدايا والمنح والهبات التى كانت تخرج باسم السلطان .

أما ديوان الجيش فكان مركز توزيع الاقطاعات ، ومنه يتم الانفاق على الجند وشئون التعبئة والاسلحة والمؤن والحاميات والحصون والتحصينات والمواقع والمدن العسكرية ، مثل العادلية والمنصورة والصالحية . وكذلك ديوان الاسطول ، كان ينفق منه على دور الصناعة ، صناعة السفن . هذا فى حين قام ديوان الاحباس بالانفاق على المؤسسات الخيرية والدينية كالمساجد والخانقاوات والمدارس والبيمارستانات ، ونحوها[٥٩] .

وقد تعرضت البلاد فى بداية الدولة الايوبية لضائقة مالية ، بسبب هروب الذهب منها ، نتيجة لعدم استقرار الاوضاع فى أواخر العصر الفاطمى . ولكن صلاح الدين واجه ذلك الموقف فى سرعة وحزم ، فسك عمله ذهبية جديدة سليمة العيار ، مما أعاد الثقة الى سوق المال[٦٠] . على أنه يبدو أن أعباء الحرب الطويلة التى شنها صلاح الدين ضد اصليبيين ألجأته سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٨ م) الى ضرب درهم نصفه من الفضة ونصفه من النحاس ، فضاق الناس بهذه الدراهم الرديئة ،

(٥٩) حسنين محمد ربيع : النظم المالية ، ص ٥٨ وما بعدها .
(٦٠) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٤٥ .

مما جعل السلطان الكامل يصدر فلوسا نحاسية • وبالجملة ، فان حالة النقد ظلت مضطربة أيام الايوبيين ، وذلك نتيجة للحروب الصليبية ، مما أثر تأثيرا سيئا فى النشاط الاقتصادى داخل البلاد[٦١] •

الجيش والبحرية :

سبق أن أشرنا الى أن الدولة الايوبية جاءت وليدة أحداث الحروب الصليبية ، وثمرة مشروع الجبهة الاسلامية المتحدة • وقد قدر للدولة الأيوبية أن تعاصر أشد مراحل الحروب الصليبية ضراوة وعنفا على مسرح الشرق الادنى • لذلك كان مـن الطبيعى أن يزداد الاهتمام بالجيش فى أيام تلك الدولة ، لأنه أداة الجهاد • وقد أقيم سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) — أى فى الوقت الذى كن صلاح الدين نائبا فى مصر عن سيده نور الدين محمود — عرضا عسكريا فى القاهرة ، شهده رسل البيزنطيين والصليبيين ، فشارك فى ذلك العرض نحو أربعة عشر ألف فارس ، كل منهم مزود بمتاعه من الخيل وغير ذلك ، ولكل منهم غلام يحمل سلاح الحرب • هذا عدا الجنود المشاه والعربان الملحقين بالجيش[٦٢] ولما كان رزق الفـارس الواحد من الطواشية لا يقـل عن سبعمائة دينار وقد يزيد على الألف ، فان الاحتفاظ بجيش كبير كان معناه تحميل صلاح الدين عبئا ثقيلا لا تستطيع خزائن الدولة النهوض به • لذلك لجأ صلاح الدين الى تطبيق نظام الاقطاع الحربى ، بمعنى توزيع الاقطاعات على الامراء ليتولوا هم الانفاق من دخلها على كتائبهم التى يتألف منها الجيش • وكان صلاح الدين هو أول من بدأ سياسة الاقطاع الحربى ، وهى السياسة التى بلغت ذروتها فى عصر سلاطين المماليك كما سنرى فيما بعد • وفى ذلك يقول المقريزى « اعلم أنه لم يكن فى الدولة الفاطمية بديار مصر ، ولا فيما مضى قبلها من دول أمراء

---

(٦١) De Bellard : Evolution Monetaire d'Egypte Medievale, p. 450.

(٦٢) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، جـ ١ ، ص ٨٦ (بولاق) •

مصر ، لعساكر البلاد اقطاعات ... ولما انقضت دولة الفاطميين بدخول الغز من بلاد الشام ، واستولى صلاح الدين يوسف بن أيوب على مملكة مصر تغير الحال بعض التغير لا كله »(٦٣) .

وقد أعاد صلاح الدين تنظيم الجيش عدة مرات . من ذلك أنه في سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١ م) بلغت عدة الجيش الايوبى في مصر ٨٦٤٠ فارسا منهم ١١١ أميرا ، ٦٩٧٦ فارسا من الطواشية ، ١٥٥٣ قراغلامية أى جنديا عاديا . ووصلت النفقة على هؤلاء ٥٠٠ر٦٧٠ر٣ دينارا(٦٤) . على أن الجيش الايوبى لم يظل على حال واحد من الكثرة العددية والنفقات طوال العصر الايوبى ، فانخفض عدده بعد انتهاء مرحلة الجهاد الصلاحى ضد الصليبيين ، وبعد عقد صلح الرملة سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) . ثم ازدادت أعداد الجيش وارتفعت نفقاته أيام السلطان الكامل عندما أخذ تيار الحروب الصليبية يتجه الى مصر .

وبالاضافة الى الجيش الدائم ، ضم جيش صلاح الدين فرقا مساعدة من التركمان والاكراد والعربان وغيرهم ، وهؤلاء كانوا بمثابة جند غير نظاميين ، يعملون مقابل أجور معينة يتقاضونها ، وان كانوا لم يقلوا — في حالات كثيرة — عن الجند النظاميين حماسة ورغبة في الجهاد(٦٥) .

أما عن تنظيم الجيش ، فكن ينقسم الى أطلاب ، كل طلب يتكون من عدد يتراوح بين سبعين ومائتى جندى(٦٦) . وعند المسير الى

---

(٦٣) المصدر السابق — نفس الجزء والطبعة ، ص ٨٥ — ٨٦ .

(٦٤) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ، ص ٧٥ (تحقيق محمد مصطفى زيادة) .

(٦٥) ابو شامة : كتاب الروضتين ، جـ ٢ ص ٧٦ ، المقريزى : المواعظ ، جـ ١ ص ٨٦ .

(٦٦) (الطلب بلغة الغز (الاتراك) هو الأمير المقدم الذى له علم معقود وبوق مضروب وعدة من مائتى فارس الى مائة فارس الى سبعين فارسا) المقريزى : المواعظ ، جـ ١ ، ص ٨٦ .

القتال ، توزع الاسلحة والزرد والنفقات على الجند ، على أن يستحضر كل جندى ما يلزمه من كميات المؤن • ويذكر العماد الكاتب أنه عندما خرج مع السلطان صلاح الدين من مصر لمحاربة الصليبيين بالشام سنة ٥٧٣ هـ (١١٧٧ م) ، نودى بأن يأخذ العساكر معهم مؤونة تكفيهم عشرة أيام ، حيث أنه كان من غير المتوقع أن يحصلوا على مؤن فى أرض العدو • لذلك أقيم سوق للعساكر ، وأقبل الجند على شراء ما يلزمهم بعد أن أعطاهم أمراؤهم رواتب الاقامات الاقطاعية المعتادة(٦٧) •

هذا عن الجيش ، أما عن الاسطول المصرى فكان فى حالة سيئة عند قيام الدولة الايوبية ، بسبب الخلل الذى أصاب كافة أجهزة الدولة فى أواخر العصر الفاطمى من ناحية ، فضلا عن فقدان جزيرتى قبرس وكريت — وكانتا بمثابة القواعد الامامية للاساطيل الاسلامية فى شرق حوض البحر المتوسط — من ناحية أخرى • ثم كان وصول الصليبيين الى الشام فى أواخر القرن الخامس الهجرى — الحادى عشر للميلاد — واستيلاؤهم على معظم الموانى الكبرى على ساحل بلاد الشام ، فى عصر كانت تلك البلاد تمثل الجناح الشرقى لأية دولة قوية تقوم على أرض مصر • وقد لمس صلاح الدين بنفسه فى الدور الاول من حياته بمصر ، كيف أدى ضعف الاسطول المصرى الى تمكين عمورى الاول — ملك بيت المقدس — من القيام بهجماته الجريئة التى أوصلته الى قلب البلاد ، فى الوقت الذى اعتمد الصليبيون على القوى البحرية المسيحية فى حوض البحر المتوسط — مثل الدولة البيزنطية والنورمان بصقلية — فى طعن صلاح الدين ومهاجمته فى عقر دولته •

لذلك أخذ صلاح الدين يهتم بالاسطول اهتماما بالغا • وقام ديوان الاسطول بالاشراف والانفاق عليه • وخصص لذلك الديوان موارد هامة ، منها متحصلات اقليم الفيوم وايزاد الزكاة ، فضلا

---

(٦٧) أبو شامة : كتاب الروضتين ، جـ ١ ص ٢٧١ •

عن حصيلة النطرون(٦٨) . وقام ديوان الاسطول بالانفاق على المشتغلين بالخدمة فيه ، فضلا عن النفقة على دور الصناعة — حيث كانت تصنع السفن — وهى ثلاثة فى مصر (الفسطاط) والاسكندرية ودمياط(٦٩) .

وبفضل هذا التشجيع ، غدا الإسطول الصلاحى منذ سنة ٥٧٥ هـ (١١٧٩ م) قوة ضاربة قوامها ثمانون قطعة ، منها ستون من الشوانى — وهى المراكب الضخمة المزودة بالابراج والقلاع — وتحمل الواحدة منها مائة وخمسين رجلا ، وهى تصلح فى حالات الهجوم والدفاع(٧٠) . وعشرون طرادة ، وهى سفن سريعة الحركة ، تحمل الخيل « وأكثر ما يحمل فيها أربعون فرسا »(٧١) وقسم صلاح الدين هذا الاسطول الى قسمين ، الاول يتألف من ثلاثين سفينة مهمتها حماية شواطىء مصر والدفاع عنها ، والثانى يتألف من ثلاثين سفينة مهمتها مهاجمة الصليبيين وموانيهم بالشام(٧٢) .

ولم يلبث أن قام هذا الاسطول بواجبه على أتم وجه ، فأقلق بال الصليبيين بالشام . وهاجم موانيهم الكبرى مثل عكا ، وقطع الطريق على السفن التى تحمل لهم الامدادات من غرب أوربا . وعندما أقدم أرناط — صاحب حصن الكرك الصليبى — على انزال اسطول فى البحر الاحمر — قرب أيلة — سنة ٥٧٨ هـ (١١٧٠ م) ، وشرع فى مهاجمة الموانى المصرية — مثل عيذاب — فى طريقه لغزو الحجاز ، أصدر صلاح الدين تعليماته الى أخيه العادل فى مصر ، فأعد أسطولا قويا فى البحر الاحمر . وكانت السفن تصنع فى دار الصناعة فى مصر

---

(٦٨) حسنين محمد ربيع : النظم المالية ، ص ٧١ .
(٦٩) ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٤٠ (تحقيق عزيز سوريال عطية) .
(٧٠) درويش النخيلى : السفن الاسلامية على حروف المعجم ، ص ٨٣ وما بعدها .
(٧١) ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٣٩ .
(٧٢) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ص ٧٢ ، أبو شامة : كتاب الروضتين ، جـ ٢ ص ٢ .

الفسطاط) ، وتحمل أجزاؤها مفككة على ظهور الجمال الى شاطىء البحر الاحمر ، حيث يتم تجميعها وتركيبها . ثم خرج ذلك الاسطول تحت قيادة الحاجب حسام الدين لؤلؤ ــ متولى الاسطول بديار مصر عندئذ ــ « فظفر بمراكب الفرنج فحرقها وأسر من فيها »(٧٣) . وهكذا أثبت الاسطول المصرى وجوده فى البحرين المتوسط والاحمر . وازداد دور هذا الاسطول بروزا فى الاحداث التى أعقبت موقعة حطين سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) ، اذ قام الاسطول بدور فعال فى مساعدة صلاح الدين فى الاستيلاء على بعض الموانى الهامة بالشام ، مثل عكا .

على أنه يبدو أن همم خلفاء صلاح الدين فترت عن الاهتمام بأمر الاسطول ، فضعف شأنه واضمحل أثره . وفى ذلك يقول المؤرخ المقريزى « فلما مات السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، استمر الحال فى الاسطول قليلا . ثم قل الاهتمام به ، وصار لا يفكر فى أمره الا عند الحاجة اليه . فاذا دعت الضرورة الى تجهيزه طلب له الرجال ، وقبض عليهم من الطرقات ، وقيدوا فى السلاسل نهارا ، وسجنوا فى الليل حتى لا يهربوا . ولا يصرف لهم الا شىء قليل من الخبز ونحوه . وربما أقاموا الايام بغير شىء كما يفعل بالاسرى من العدو . فصارت خدمة الاسطول عارا يسب به الرجال . واذا قيل لرجل فى مصر : يا أسطولى ، غضب غضبا شديدا ، بعدما كان خدام الاسطول يقال لهم المجاهدون فى سبيل الله . والغزاة فى أعداء الله ، ويتبرك الناس بدعائهم !! »(٧٤) .

ولم يكن ذلك الا فى أواخر أيام الدولة الايوبية ، بعد أن دهمت مصر حملتان صليبيتان ــ الحملة الخامسة سنة ١٢١٩ م (٦١٦ هـ) والحملة السابعة سنة ١٢٤٩ م (٦٤٦ هـ) عندما أدرك سلاطين بنى

---

(٧٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٦٢٠ (الطبعة الرابعة ، ١٩٨٦) .

(٧٤) المقريزى : كتاب المواعظ والاعتبار ، جـ ٢ ، ص ١٩٤ (بولاق) .

أيوب الاواخر أهمية الاسطول فى حماية البلاد . وظهر ذلك فى الوصية الشهيرة التى تركها الصالح نجم الدين أيوب لابنه توران شاه ، والتى جاء فيها « فالاسطول أحد جناحى الاسلام ، فينبغى أن يكونوا شباعا ، ورجال الاسطول اذا أطلق لهم كل شهر عشرين درهم مستمرة راتبه ، جاءوا من كل فج عميق ... »(٧٥) .

الفنـــون :

واصل التطور الفنى تقدمه فى العصر الايوبى ، على الرغم مما أحاط بتلك الدولة من ظروف حربية جعلتها توجه طاقتها الكبرى نحو الدفاع عن الوطن الاسلامى فى الشرق الادنى وحمايته من الخطـر الصـليبى .

ففى فـن العمارة ازدهر فى العصر الايوبى عنصران من عناصر العمارة الاسلامية ، أولهما المدارس التى أخذت تنتشر انتشارا سريعا لتنهض بدور بارز فى الحياتين الثقافية والمذهبية ، وثانيهما تطور بناء الاسوار والاستحكامات والقلاع وفق ظروف الحرب ضد الصليبيين بالشـام(٧٦) .

وقد سبق أن أشرنا الى أن صلاح الدين عندما أقام دولته فى مصر كان يخشى خطرا داخليا من جانب أتباع الفاطميين وشيعتهم ، وخطرا خارجيا على البلاد من جانب الصليبيين . لذلك أمر صلاح الدين سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) ببناء سـور يحيط بالقاهرة ومصر (الفسـطاط والقطائع والعسكر) . ويرجع الفضل الى البحاثة على بك بهجت فى الكشف عن جزء من هذا السور ، ثم واصل التنقيب من بعده الاستاذ حسن الهوارى حتى تم كشف جزء من السور يبلغ طوله ٨٤١٫٣٠ مترا . وكان هذا السور هو ثالث الاسوار التى أحاطت بالقاهرة منذ انشائها

---

(٧٥) النويرى : نهاية الأرب ، جـ ٢٨ ورقة ٩٢ (مخطوط) .

(٧٦) زكى محمد حسن : فنون الاسلام ، ص ٦٨ — ٦٩ .

حتى أيام صلاح الدين . اد بنى السور الاول جوهر الصقلى وبنى السور الثانى بدر الدين الجمالى • وكان هذان السوران الأولان من اللبن ، فى حين كان السور الثالث من الحجارة ، وقد أشرف على بنائه أبو سعيد قراقوش عبد الله الاسدى الملقب ببهاء الدين ، وهو مشـيد القلعة أيضا(٧٧) •

أما قلعة الجبل فتقع على أحد المرتفعات المتصلة بجبل المقطم ، وهى تتألف من مساحتين من الارض مستقلتين ، الشمالية تقترب من شكل المستطيل ولها أبراج بارزة ، ويفصلها عن الجنوبية جدار سميك ذو أبراج • وفى وسط هذا الجدار باب القلعة الذى يعرف الآن باسم الباب الجوانى • ويشكل الجزء الشمالى من القلعة الحصن نفسه ، فى حين كان الجزء الجنوبى يضم الملحقات والقصور السلطانية وما يتبعها من اصطبلات وغيرها •

ويغلب على الظن أن الجزء الشمالى تم تشييده على أيام صلاح الدين نفسه ، فى حين أن الجزء الجنوبى الذى يضم الملحقات تم على عهد السلطان الكامل الايوبى(٧٨) •

وبفضل تشجيع صلاح الدين ، وما اتصف به قراقوش من مهارة وحزم ، سار العمل فى بناء قلعة الجبل بهمة كبيرة ، فجلبت أحجار البناء من منطقة أهرام الجيزة . وسخر فى نقلها وفى عملية البناء آلاف من أسرى الصليبيين الذين عملوا أيضا فى بناء سور القاهرة • وفى الجهة الجنوبية من القلعة ، نحت قراقوش بئرا فى الصخر ، أطلق عليه اسم بئر يوسف نسبة الى صلاح الدين يوسف • وقد عرف هذا البئر باسم الحلزون ، ويتألف من طابقين ، عمـق الاول خمسون مترا والثانى

---

(٧٧) عبد الرحمن زكى : قلعة صلاح الدين وقلاع اسلامية معاصرة ، ص ٩٧ ، وما بعدها .

(٧٨) نظير حسان سعداوى : التـاريخ الحربى المصرى ، ص ١٠١ — ١٠٣ •

أربعون مترا • ولكل طابق من هذين الطابقين ساقية تدور بواسطة الدواب لرفع المياه • وكان ماء البئر عذبا فى أول الامر ، حتى أراد قراقوش توسيعها فاتصلت بعين مالحة أفسدت ماء البئر ، الامر الذى جعل القلعة بعد ذلك تعتمد على النيل فى امدادها بالماء(٧٩) •

وثمة قلاع أخرى بناها صلاح الدين فى العديد من أنحاء البلاد ، أهمها قلعة سيناء بقرب عين صدر ، وقلعة فرعون فى جزيرة فرعون فى خليج العقبة • وكان الهدف من بناء هاتين القلعتين الحيلولة دون امتداد الخطر الصليبى الى اقليم البحر الاحمر ، وخاصة بعد أن قام أرناط صاحب الكرك بحملته الشهيرة التى استهدفت الحجاز سنة ١١٨٢ م (٥٧٨ هـ) •

هذا عن العمائر الحربية فى العصر الايوبى • أما العمائر المدنية ، فأهم ما بقى منها اليوم قبة الامام الشافعى التى أنشأها السلطان الكامل سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) ، وتمتاز بما فيها من نقوش وزخارف ، مع ملاحظة أن كثيرين من الامراء قاموا بتجديدها فى العصور التالية • ومن مدارس العصر الايوبى توجد مدارس الصالحية ، التى أنشأها السلطان الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م) ، وقد تعرضت للخراب على مر السنين ، فلم يبق منها اليوم ، الا مدخلها وواجهة غنية بالنقوش والكتابات التاريخية(٨٠) •

هذا عن العمارة ، أما عن فن الحفر فى العصر الايوبى ، فان الحفر على الخشب احتفظ بالاساليب الفنيـة التى كانت متبعة فى العصر الفاطمى ؛ وان كانت الزخارف النباتية قد بدت أكثر اتقانا ، كما حل خط النسخ محل الخط الكوفى • ومن روائع أمثلة الحفر على الخشب فى العصر الايوبى ، تابوت الاميرة العادلية بضريح الامام الشافعى ، فى حين أن تابوت هذا الامام نفسه يعتبر أعظم المنتجات الخشبية فى

---

(٧٩) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٣ ، ص ٣٧٦ — ٣٧٧ •
(٨٠) زكى محمد حسن : فنون الاسلام ، ص ٧٠

العصر الايوبى[٨١] . ويتألف غطاء هذا التابوت وجوانبه من حشوات ذات زخارف نباتية دقيقة ، مجمعة فى أطباق نجمية وأشكال هندسية . والتابوت غنى بالنقوش المكتوبة بالخط النسخ والخط الكوفى ، منها نقش باسم النجار الذى صنعه ، وهو عبيد النجار المعروف بابن معالى ، ونقش بتاريخ صناعته وهو سنة ٥٧٤ هـ (١١٧٨ م) .

ومن أعظم التحف الخشبية كذلك ، التابوت الذى نقل من المشهد الحسينى بالقاهرة الى دار لآثار الاسلامية ، وهو مصنوع من خشب الساج الهندى ، وتنقسم جوانبه الى مناطق مستطيلة تحبسها اطارات ، عليها كتابات بخط النسخ الايوبى وبالخط الكوفى ، وجميع هذه الكتابات عبارة عن آيات من القرآن الكريم .

كذلك توجد فى دار الآثار الاسلامية (متحف الفن الاسلامى) بالقاهرة ثلاثة جوانب من تابوت خشبى جميل ، خاص بالامير حصن ابن ثعلب المتوفى سنة ٦١٣ هـ (١٢١٦ م) . أما الجانب الرابع من هذا التابوت فمحفوظ فى متحف فكتوريا وألبرت بلندن[٨٢] .

أما النحت فى الحجر والجص فقد حافظ فى العصر الايوبى على الاساليب التى كانت سائدة فى العصر الفاطمى . ومن أبدع أمثلة الحفر فى الجص فى العصر الايوبى الجزء الاسفل من المنارة الايوبية فوق الباب الاخضر بالمشهد الحسينى بالقاهرة[٨٣] . أما النحت فى الحجر فمن أمثلته فى العصر الايوبى واجهة تربة أبى منصور اسماعيل ، وفيها كتابة بالنسـخ على أرضية نباتية وافريز من زخارف هندسية ونباتية . وأما الحفر فى العاج زمن الايوبيين ، فقد اتبعت فيه نفس الاساليب التى طبقت أيام الفاطميين ، وان كانت الزخارف قد اقتصرت

---

(٨١) ديماند : الفنون الاسلامية ، ص ١٢٢ .
(٨٢) زكى محمد حسن : اطلس الفنون الزخرفية ، ص ١٢٣ — ١٢٥ ، فنون الاسلام ، ص ٤٦٤ .
(٨٣) حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ، ج ١ ص ٨٥ .

على الاشكال النباتية والهندسية • ولم تصلنا أمثلة كبيرة من تحف عاجية ترجع الى العصر الايوبى •

ويبدو أن صناعة الخزف أخذت تضمحل فى مصر منذ نهاية القرن السادس الهجرى ، وان كانت قد ازدهرت بعد ذلك فى بلاد الشام فى القرنين التاليين • وقد استخدم الخزافون المصريون والشوام فى العصر الايوبى نفس الاشكال الزخرفية والاساليب الفنية التى عرفت فى العصر الفاطمى ، وهو الامر الذى يتضح فى الاوانى المدهونة بطلاء واحد ، تقليدا الخزف الصينى • هذا فى حين أخذ يختفى الخزف ذو البريق المعدنى من مصر[٨٤] •

وعلى العكس ، ازدهرت صناعة الزجاج فى العصر الايوبى ، حتى أن الباحثين المتخصصين يتخذون نهاية القرن الثانى عشر للميلاد بداية العصر الذهبى لهذه الصناعة فى العالم الاسلامى ، عندما بلغت أجمل صورها فى تزيين التحف بالزخارف المذهبة والمموهة بالمينا • هذا مع ملاحظة أن الفضل فى تقدم هذه الصناعة فى ذلك العصر ، انما يرجع الى الصناع الشوام — وخاصة فى حلب ودمشق — وان كانت مصر قد أسهمت بنصيب وافر فى انتاج الزجاج المطلى ، مثلما أسهمت العراق وفارس أيضا فى تلك الصناعة[٨٥] •

أما عن التحف المعدنية ، فمن المعروف أن كثيرا من أرباب هذه الصناعة هاجروا من الموصل الى مصر والشام فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر للميلاد) تحت تأثير عدم الاستقرار الذى ساد بلاد المشرق الاسلامى • وقد اشتغل هؤلاء الفنانون لحساب الامراء الايوبيين فى دمشق وحلب والقاهرة ، مطبقين الاساليب الفنية التى نقلوها معهم من المشرق[٨٦] • ومن القطع المعدنية التى ترجع الى

---

(٨٤) ديماند : الفنون الاسلامية ، ص ٢١٨ •

(٨٥) المرجع السابق ، ص ٢٣٨ •

(٨٦) زكى محمد حسن : فنون الاسلام ، ص ٥٤٩ — ٥٥٠ •

العصر الايوبى ، بعض الاوانى التى تحمل أسماء سلاطين بنى أيوب والتى تتميز بموضوعات زخرفية مسيحية ، مما يشير الى تسامح هؤلاء السلاطين • ويوجد فى متحف اللوفر اناءان من النحاس المكفت بالفضة ، قوام زخرفتهما رسوم آدمية وحيوانية ونباتية ، وعليهما كتابة تحمل اسم السلطان الملك الناصر يوسف •

أما فى المنسوجات ، فقد ورث العصر الايوبى عن العصر الفاطمى أساليب صناعة الاقمشة ذات الزخارف المنسوجة ، وان كانت أقمشة العصر الايوبى أكثر بساطة من أقمشة العصر الفاطمى • كذلك يلاحظ أن صناعة المنســوجات الكتانية أخذت تضمحل منذ العصر الايوبى لتزداد العناية بالمنسوجات الحريرية • وهناك مجموعة مطرزة بألوان متعددة ، مصنوعة بغرزة متتابعة ، وتحمل كتابات نسخية وكوفية ، من الراجح أنها ترجع الى القرن الســادس الهجرى ، الثانى عشر للميــلاد(٨٧) •

* * *

وبعد ، فانه يتضح من العرض الموجز السابق أن عجلة الفنون لم تتوقف فى العصر الايوبى ، وأن صليل السيوف فى ذلك العصر لم يعرقل تيار التقــدم الحضــارى • وفى الوقت الذى كان بنو أيوب يخوضون أضخم معركة للجهاد عرفها المسلمون منــذ قيام دولتهم الكبرى فى القرن السابع للميلاد ، اذا بالمدارس تشيد ، والمكتبات تنشأ ، والحصون والقلاع تبنى ، والصناعات والحرف والفنــون تزدهر ، لتسهم كلها فى اقامة أعظم بناء حضــارى عرفه العالم فى العصور الوسطى ، هو بناء الحضارة الاسلامية •

---

(٨٧) ديماند : الفنون الاسلامية ، ص ٢٥٧ •

القسم الثـــانى

الدولة المماليكيـــة

الفصل الأول

قيام دولة المماليك البحرية

رأينا فى القسم السابق من هذا الكتاب كيف انقسمت الدولة الايوبية على نفسها عقب وفاة صلاح الدين الايوبى سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣ م) ، فصارت دمشق وحلب والكرك وبصرى وبعلبك وحمص وحماة ... وغيرها ، مراكز لوحدات سياسية يحكمها بعض أبناء البيت الايوبى الذين لقبوا بالملوك . وعلى رأس هؤلاء الملوك جميعا يوجد سلطان — هو صاحب مصر غالبا — المفروض أن تكون له الزعامة العليا ورئاسة الدولة ، حتى أنه كان يلقب أحيانا بلقب « سلطان الاسلام بمصر والشام وما معهما »[1] .

كذلك رأينا كيف دب الشقاق بين ملوك بنى أيوب ، وأدى هذا الشقاق الى نشوب حروب فيما بينهم وبين بعض ، فضلا عن استمرار الخلافات بين ملوك بنى أيوب من ناحية وأبناء البيوت القديمة التى ظلت تحكم أجزاء من الوطن الاسلامى فى الشرق الادنى من ناحية أخرى ، مثل أبناء البيت الزنكى فى الموصل وسنجار وكيفا وآمد وخرتبرت ، فضلا عن بنى سكمان فى خلاط[2] .

وفى وسط تلك الفوضى الضاربة التى عمت العلاقات بين حكام المسلمين فى الشرق الادنى — وخاصة فى مصر والشام — حرص كل حاكم أو ملك على تكوين عصبية لنفسه ، يعتمد عليها فى الاحتفاظ

---

(١) ابن ايبك : كنز الدرر وجامع الغرر — الجزء السابع المسمى « الدر المطلوب فى اخبار ملوك بنى ايوب » ص ٣٦٢ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ٣ .

بامارته وفى صد عدوان جيرانه • ولم يجد أمراء المسلمين فى ذلك العصر — سواء كانوا أيوبيين أو غير أيوبيين — وسيلة لتحقيق هدفهم الا عن طريق الاكثار من شراء المماليك — أو الرقيق الابيض — فاشتروا منهم أعدادا كبيرة ، وعنوا بتدريبهم وتنشأتهم ليكونوا عدة لهم وسندا • وهكذا شهدت السنوات الاخيرة من القرن السادس والنصف الاول من القرن السابع للهجره (القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد) ازدياد نفوذ المماليك فى شتى الامارات والدول الاسلامية فى الشرق الادنى ، ومن جملتها مصر •

وسرعان ما غدا لأولئك المماليك كلمة مسموعة فى الاحداث والخلافات التى تعرضت لها المنطقة ، مما يشير الى ازدياد نفوذهم وسطوتهم • من ذلك ماترويه المصادر من أنه عندما توفى الملك العزيز عثمان سلطان مصر سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٨ م) ، وتطلع عمه العادل سيف الدين — أخو صلاح الدين — للاستيلاء على مصر ، خشى الامراء الاسدية والصلاحية فى مصر سطوة العادل ، فتدخلوا فورا ، واستدعوا الملك الافضل من صرخد ، وسلموه مقاليد الامور فى مصر فى يناير سنة ١١٩٩ م (٥٩٥ هـ)[٣] •

ومرة أخرى نسمع أن المماليك كانوا هم الذين دبروا مؤامرة لعزل السلطان الملك العادل — الصغير أو الثانى — ابن السلطان الملك الكامل ، واحلال الصالح نجم الدين أيوب محله فى السلطنة ، وذلك سنة ٦٣٧ هـ (١٢٣٩ م)[٤] •

وكان السلطان الصالح نجم الدين أيوب هو صاحب الفضل فى تكوين فرقة جديدة من المماليك قدر لها أن تنهض بدور خطير فى التاريخ ، هى فرقة المماليك البحرية • ويبدو أن الصالح نجم الدين

---

(٣) المقريزى : كتاب السلوك ، ج ١ ص ١٤٦ وما بعدها .
(٤) المصدر السابق • ص ٢٩٥ .

أحس بفضل المماليك عليه فى الوصول الى دست السلطنة من ناحية ، كما أحس بحاجته الى قوة من المماليك ينتمى أفرادها اليه ويرتبطون بالولاء له ، بعد أن لمس غدر الطوائف الاخرى ، من ناحية أخرى . وكان أن كون هذه الفرقة الجديدة من المماليك الاتراك ، « فاشترى من المماليك الترك ما لم يشتر أحد من المماليك مثله من قبله ، حتى عاد أكثر جيشه مماليكه ، وذلك لكثرة ما جرب من غدر الاكراد والخوارزمية وغيرهم من الجيوش »(٥) .

أما عن السبب فى تسمية هذه الفرقة بالبحرية ، فمن المرجح أن ذلك يرجع الى اختيار الصالح نجم الدين أيوب جزيرة الروضة فى بحر النيل مركزا لهم(٦) . وكان معظم هؤلاء المماليك من الاتراك — مجلوبين من بلاد القفجاق شمالى البحر الاسود — ومن بلاد القوقاز قرب بحر قزوين . وقد أجمع المؤرخون المعاصرون على أن الاتراك القفجاق عندئذ امتازوا عن غيرهم من طوائف الترك بحسن الطلعة وجمال الشكل وقوة البأس ، فضلا عن الشجاعة النادرة . وبفضل هذه الصفات من جهة ، ونتيجة للظروف الخارجية والداخلية التى أحاطت بمصر فى أواخر العصر الايوبى من جهة أخرى ، تمكن المماليك من الاستئثار بحكم مصر ، كما سنفصل بعد قليل . ذلك أن البحرية بالذات توصلوا الى السلطنة ، وظلوا يحكمون مصر والشام نحو قرن وثلث (٦٤٨ — ٧٨٤ هـ / ١٢٥٠ — ١٣٨١ م) استطاعوا

---

(٥) ابن ايبك : كنز الدرر وجامع الغرر ، ج ٧ ، ص ٣٧٠ (تحقيق المؤلف) .

(٦) جاء فى لسان العرب : البحر الماء الكبير ، ملحا كان او عذبا . قال الأزهرى : كل نهر لا ينقطع ماؤه — مثل دجلة والنيل وما اشبههما من الأنهار العذبة الكبار — فهو بحر .

قال تعالى : « وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهذا ملح اجاج » (فاطر ١٢) .

وكثيرا ما يتردد اسم « بحر النيل » فى المصادر المعاصرة .

فيها مواجهة المشاكل العديدة التى واجهت المسلمين فى الشرق الادنى عندئذ ، سواء كانت هذه المشاكل خارجية من جانب الصليبيين والتتار ، أو داخلية فى صورة ثورات أو مؤامرات أو أزمات اقتصادية . وعندما زالت دولة المماليك البحرية حلت محلها دولة أخرى من المماليك أيضا ، هم المماليك الجراكسة أو البرجية (٧٨٤ — ٩٢٢ هـ / ١٣٨٢ — ١٥١٧ م) ، وبذلك تكون دولة سلاطين المماليك بمصر والشام قد استمرت أكثر من قرنين ونصف قرن ، أى حتى غزا السلطان سليم العثمانى البلاد .

وسنرى أنه طوال تلك الحقبة ، ظل المماليك يمثلون ارستقراطية حاكمة ، بوصفهم القوة الحربية التى فرضت سيطرتها على البلاد والعباد ، ونهضت بمهمة الدفاع عنهم . واذا كان المماليك فى دولتيهم ينسبون الى عنصر بعينه — الاتراك القفجاق أو الجراكسة — فانه ليس معنى ذلك أن جميع المماليك فى مصر والشام كانوا طوال ذلك العصر ينتمون الى هذا العنصر أو ذاك . ذلك أنه بدأ يظهر منذ عهد بيبرس أفراد من المماليك من أصل مغولى ، وهؤلاء ارتقى بعضهم فى وظائف الدولة حتى أن السلطان كتبغا نفسه (٦٩٤ — ٦٩٦ هـ / ١٢٩٤ — ١٢٩٦ م) كان مغولى الاصل . وفى ضوء هذه الظاهرة يمكننا أن نفسر ظاهرة انتشار بعض العادات المغولية على عصر سلاطين المماليك ، مثل أكل لحوم الخيل فى الحفلات والمناسبات(٧) ، وصناعة بعض أنواع الخمور من لبن الخيل بالذات .

وعندما لمس تجار الرقيق أن سلاطين المماليك وامراءهم فى مصر يقدرون بضاعتهم ويدفعون فيها الاموال الطائلة ، نشطوا فى جلب المماليك . وقد أسهم فى هذه التجارة أيضا بعض التجار الاوربيين

---

(٧) من المرجح ان ملوك الأيوبيين باشروا ذبح بعض رؤوس الخيل واكل لحومها على نطاق ضيق فى الولائم ، ولكن هذه الظاهرة انتشرت وصارت من العادات المألوفة فى عصر سلاطين المماليك .

ـ وخاصة من المدن الايطالية ـ الذين نافسوا التجار الشرقيين فى جلب المماليك الى مصر والشام • وأدى ذلك الى تنوع أصول المماليك تنوعا واضحا وبخاصة منذ القرن الثامن الهجرى ، الرابع عشر للميلاد ، فوجد منهم الاتراك والشراكسة والمغول والصقالبة والروم والاسبان والالمان ••• وغيرهم •

وقد انتسب هؤلاء المماليك غالبا الى أساتذتهم ، أى سادتهم الذين اشتروهم بالمال من التجار ، وأشرفوا على تربيتهم • فالمماليك الطاهرية بيبرس نسبوا الى السلطان الظاهر بيبرس ، والمماليك الاشرفية خليل نسبوا الى السلطان الاشرف خليل ، وهكذا • وأحيانا كان ينسب المملوك الى تاجره الذى جلبه ، كالمماليك العثمانية نسبة الى الخواجا عثمان أحد كبار تجار المماليك ، وقد اشتهر بحسن بضاعته مما أدى الى الانتساب اليه من باب الفخر • كذلك ربما نسب المملوك الى قيمته التى اشترى بها ، اذا كانت كبيرة تستحق المباهاة لما لها من دلالة على عظم الصفات والمواهب التى يتحلى بها المملوك • مما أدى الى ارتفاع ثمنه • ومن أمثلة ذلك قلاوون الالفى الذى اشترى بألف دينار[٨] •

هذه كلمة موجزة عن أصل المماليك الذين ظهروا على مسرح تاريخ الشرق الادنى فى فترة من أخطر فترات تاريخ العصور الوسطى • وبقى أن نعرف كيف تمكن هؤلاء المماليك من أن يحلوا محل سادتهم الايوبيين فى حكم مصر والشام •

---

(٨) سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، ص ١٣ •

مقتل توران شاه وقيام شجر الدر فى الحكم :

والواقع أن انتصار المماليك البحرية على الصليبيين فى المنصورة ثم فى فارسكور (٦٤٧ هـ / ١٢٥٠ م) أدى الى ازدياد قوة شوكتهم ، واعتدادهم بأنفسهم ، لاعتقادهم بأنهم أصحاب الفضل فى انقاذ البلاد والعباد من كابوس خطير . ومنذ أن انتصر المماليك البحرية على جيوش لويس التاسع ، أخذوا يرددون عبارة « نحن خلصنا مصر والشام بسيوفنا من أيدى الفرنج »[٩] .

وكان ذلك فى الوقت الذى وصل الى مصر توران شاه ابن الصالح نجم الدين أيوب ، وصاحب الحق الشرعى فى حكم البلاد ، كما سبق أن ذكرنا فى القسم السابق . ومن الواضح أن المعظم توران شاه كان يريد أن يحس بأهميته ومكانته ، ويباشر سلطاته على أوسع نطاق . لذلك وجد توران شاه فى المماليك البحرية عقبة تعترض سلطانه ، مما أدى إلى سوء العلاقات بين الطرفين منذ بداية الامر .

ومما يوضح رغبة السلطان المعظم توران شاه فى الاستئثار بالنفوذ والسلطان ما يشير اليه المقريزى من أن توران شاه ما كاد يطمئن الى هزيمة الصليبيين فى المنصورة وفارسكور ، حتى « أخذ فى ابعاد رجال الدولة » فتخلص من كل من خشى منافستهم له من أبناء بيته ، ومنهم الملك المغيث عمر الايوبى الذى أخرجه توران شاه من قلعة الجبل الى الشوبك ، حيث اعتقل . كذلك أخرج الملك السعيد فخر الدين حسن الايوبى من مصر الى دمشق حيث اعتقـل . أما كبار أمراء الدولة وموظفيها الذين اعتمد عليهم أبوه — مثل الامير حسام الدين نائب السلطنة — فقد عزلهم أيضا ، وأحل محلهم غيرهم[١٠] .

---

(٩) ابن ايبك : كنز الدرر — الجزء الثامن ، المسمى « الدرة الزكية فى أخبار الدولة التركية » . تحقيق هارمان — ص ٢٢ (القاهرة ١٩٧١) .

(١٠) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ، ص ٣٥٨ .

بل ان توران شاه لم يحفظ الجميل لزوج أبيه شجر الدر — التى صانت له عرشه وملكه بعد وفاة أبيه — فأرسل اليها « يهددها ويتوعدها » ، ويطالبها بما خلفه أبوه من مال وجواهر[١١] . وكان أن تخوفت شجر الدر من نوايا توران شاه « لما بدا منه من الهوج والخفة ؛ فكاتبت المماليك البحرية بما فعلته فى حقه من تمهيد الدولة وضبط الامور حتى حضر وتسلم المملكة ، وما جازاها به من التهديد والمطالبة بما ليس عندها »[١٢] .

ولم يكن المماليك فى مصر فى حاجة الى مزيد من التحريض ضد توران شاه . وتروى المصادر أن الفارس أقطاى الذى أرسلته شجر الدر لاستدعاء توران شاه من حصن كيفا ، كان قد حصل منه — بعد البشارة — على وعد بأن يؤمره . ولكن توران شاه عاد فتنكر لوعده ، فاستاء أقطاى ، وكتم الشر ، حتى حرك كتاب شجر الدر منه ساكنا . كذلك اشتد استياء المماليك من توران شاه عندما وجدوا أنه احتجب عنهم ، وانصرف الى الفساد ، وعبث بهم وبحظايا أبيه . وأخيرا أدرك البحرية سوء ما يضمره لهم توران شاه عندما رأوه وهو سكران ذات ليلة يجمع الشموع بين يديه ، ويضرب رءوسها بالسيف واحدة بعد أخرى — حتى تتقطع — وهو يردد « هكذا أفعل بالبحرية » ، ويسمى كل واحد من زعماء البحرية باسمه . وهكذا « أطرح جانب أمراء أبيه ومماليكه ، وكل منهم بلغه عنه من التهديد والوعيد ما نفر قلبه منه ، واعتمد على بطانته الذين وصلوا معه من حصن كيفا ، وكانوا أطرافا أراذل ، فاجتمعت البحرية على قتله »[١٣] .

ولم يكد تورانشاه يصل الى فارسكور ، ويمد السماط على العادة ،

---

(١١) ابن ايبك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٣٨٢ (سنة ٦٤٨ هـ) .
(١٢) المقريزى : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٣٥٨ .
(١٣) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ١٨١

حتى تقدم اليه واحد من البحرية — هو الامير بيبرس البندقدارى — وضربه بالسيف فأطار أصابع يده • وعندئذ أسرع توران شاه بالفرار الى برج خشبى كان قد نصب له فى فارسكور ، وهو يصيح « من جرجنى ؟ » ، فقالوا له « الحشيشية » • ولكنه رد قائلا « لا والله الا البحرية • والله لا أبقيت منهم بقية !! »[١٤] • وعندئذ أدرك البحرية أنه لابد لهم من الاسراع فى العمل ، وقال بعضهم لبعض « تمموه والا أبادكم » فبادروه بالهجوم على البرج • ولكن تورانشاه احتمى بأعلا البرج ، وأغلق بابه ، والدم يسيل من يده • فأضرم البحرية النار فى البرج ، حتى اضطر تورانشاه الى الفرار منه ، وألقى بنفسه فى ماء النيل ، والبحرية تلاحقه بالنشاب حتى غرق ، فمات جريحا حريقا غريقا[١٥] •••

وبمقتل تورانشاه سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) انقرضت دولة بنى أيوب من أرض مصر ، بعد أن حكموها نحوا من احدى وثمانين سنة[١٦] •

سلطنة شجر الدر :

على أن قتلة توران شاه وجدوا الامور غير مهيأة تماما لأن يتولى أحدهم منصب السلطنة ؛ ولذلك أجمعوا على تولية شجر الدر ذلك المنصب • ولا شك فى أن شجر الدر تعتبر من ناحية الاصل والنشأة أقرب الى المماليك ، ولذلك يعتبرها المقريزى « أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك »[١٧] • وقد أجمع المؤرخون المعاصرون على أن شجر الدر كانت « خيرة ، دينة ، رئيسة ، عظيمة فى النفوس » • بل

---

(١٤) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ، ص ٣٥٩
(١٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ورقة ٣٧١ (مخطوط) .
(١٦) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ، ص ٣٦١ .
(١٧) المصدر السابق — نفس الجزء والصفحة .

لقد وصفها بعضهم بأنها « كانت أحسن تدبيرا من زوجها الصالح (نجم الدين أيوب) ... »[١٨] .

ولكن قيام امرأة فى حكم المسلمين « لم يقع قبلها ولا بعدها » . وقد أحست شجر الدر نفسها بالحرج ، فكانت لا توقع باسمها على المناشير ، وانما جعل توقيعها « والدة خليل » . وخليل هذا ولد كانت قد أنجبته من الصالح أيوب ، وتوفى فى حياة أبيه[١٩] . ونقش اسمها على السكة (النقــود) فى صيغة « المستعصمية الصــالحية ، ملكة المسلمين ، والدة الملك المنصور خليل » . أما الخطباء فى المساجد فكانوا يقولون فى الدعاء لها « واحفظ اللهم الجهة الصالحة ، ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، أم خليل المستعصمية ، صاحبة الملك الصالح » .

ويفهم من هذا كله ، أن شجر الدر تحرجت من ذكر اسمها صراحة فى المناسبات الرسمية ، فضلا عن أنها أرادت أن تضفى على حكمها صبغة شرعية ، فهى حينا تتمسح بالخلافة العباسية ، وتحرص على أن تلقب بالمستعصمية اشارة الى صلتها بالخليفة العباسى المستعصم[٢٠] . وأحيانا تتمسك بلقب « أم خليل صاحبة الملك الصالح » اشارة الى صــلتها بالبيت الايوبى والملك الصــالح نجم الدين أيوب بوجــه خاص[٢١] .

---

(١٨) القرمانى : اخبار الدول وآثار الأول فى التاريخ ، ص ١٩٧ .

(١٩) ابن ايبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٢٧٤ (تحقيق المؤلف) .

(٢٠) Lane - Poole (S.) A Hist. of Egypt in the Middle Ages, p. 255.

(٢١) Ibid.

جلاء الفرنسيين عن مصر :

وكانت أولى المشاكل التى واجهت السلطانة شجر الدر أنها قامت فى السلطنة ، والفرنسيون ما ازلوا رابضين على أرض مصر . حقيقة أن لويس التاسع كان أسيرا فى المنصورة ، ولكن دمياط نفسها كانت فى قبضة الفرنسيين تمثل قاعدة بحرية لهم ، يمكن أن يستغلها الغرب الأوربى فى أنزال امدادات أو حملة جديدة تحاول تصحيح الاوضاع التى نجمت عن هزيمة الصليبيين فى المنصورة وفارسكور . ولذلك كان على شجر الدر أن تبدأ بالتفكير فى وسيلة لاسترداد دمياط أولا ، قبل الشروع فى أى عمل آخر داخل البلاد أو خارجها .

وكان أن ندب الامير حسام الدين لمفاوضة لويس التاسع ، مما أدى الى مفاوضات طويلة بين الجانبين[٢٢] . وبعد « محاورات ومراجعات » ، تم الاتفاق على أن يطلق المسلمون سراح لويس التاسع مقابل ثمانمائة ألف دينار يدفع نصفها مقدما ، وأن يجلو الصليبيون عن دمياط . وبعد أن تم الاتفاق ، أرسل لويس التاسع الى الصليبيين بدمياط يأمرهم بتسليم المدينة للمسلمين . ولكنهم تمنعوا كثيرا ، حتى وافقوا أخيرا على ذلك . وفى الوقت نفسه ، قامت مرجريت زوجة لويس التاسع — وكانت بدمياط — بجمع نصف الفدية المتفق عليها . وعند ذلك تم الافراج عن الملك الفرنسى ، فى حين ظل بقية الاسرى — وعددهم أكثر من اثنى عشر ألف أسير — فى حوزة المسلمين لحين دفع باقى الفداء المتفق عليه[٢٣] .

---

(٢٢) ابن واصل . مفرج الكروب ، ج ٢ ورقة ٣٨٣ (مخطوط) .
(٢٣) المقريزى : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٣٦٣ .

موقف بنى أيوب من السلطنة المالكية :

جرت العادة منذ أن قام صلاح الدين باعادة بناء الوحدة بين مصر والشام ، على أن تكون لسلطان مصر هيمنة على بقية الملوك والامراء فى بلاد الشام • لذلك بادرت شجر الدر — عقب سلطنتها — الى ارسال الخطيب أصيل الدين محمد لاستحلاف أمراء الشام على الولاء للسلطانة الجديدة(٢٤) • ولكن لم يكن منتظرا من أمراء الايوبيين أن يرتضوا الخضوع لماليكهم ، لاسيما وأن بنى أيوب ظلوا يعتقدون أنهم أصحاب الحق الشرعى فى حكم مصر والشام جميعا ، بوصفهم أبناء البيت الايوبى •

وكان أن بدأت نار الثورة تشتعل فى الشام ضد سلطنة المماليك الوليدة فى مصر ، فأبى ملوك بنى أيوب أن يعترفوا بما تم فى مصر من قيام المماليك فى حكم البلاد واعلان شجر الدر سلطانة • وكان المعظم توران شاه — وهو فى طريقه من كيفا الى مصر — قد عين الامير جمال الدين بن يغمور نائبا للسلطنة فى دمشق ، فامتنع ذلك الامير عن الحلف لشجر الدر(٢٥) • وكانت هناك عندئذ بدمشق فئة من المماليك أطلق عليهم اسم القيمرية(٢٦) ، فامتنعوا أيضا عن الاعتراف بالولاء للنظام الجديد فى مصر • وهكذا اختلت الاوضاع فى بلاد الشام ، فاستولى الملك السعيد حسن بن العزيز عثمان الايوبى على مال مدينة غزة ثم اتجه الى الصبيبة فملكها(٢٧) • وثار الطواشى بدر الدين لؤلؤ

---

(٢٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ورقة ٣٧٣ (مخطوط) •

(٢٥) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ، ص ٣٦٦ •

(٢٦) نسبة الى قلعة قيمر « وهى قلعة فى الجبال بين الموصل وخلاط ، ينسب اليها جماعة من أعيان الامراء بالموصل وخلاط ، وهم أكراد » — ياقوت : معجم البلدان •

(٢٧) ابو الفدا : المختصر فى اخبار البشر ، جـ ٣ ص ١٨٢ ، العينى : عقد الجمان جـ ١٨ ق ٢ ورقة ٣١٨ (مخطوط) •

الصالحى — نائب الكرك والشوبك — واتجه الى الشوبك حيث أخرج الملك المغيث عمر الايوبى من الحبس ، « وملكه الكرك والشوبك وأعمالهما ، وحلف له الناس ، وقام يدبر أمره لصغر سنه »[٢٨] .

ولم يلبث أن أخذ ملوك بنى أيوب يتكتلون بالشام للوقوف فى وجه المماليك بمصر ، بل لغزو مصر ذاتها واسترداد ملكها للايوبيين . وكان أن كتب الامراء القيمرية من دمشق الى الناصر يوسف الايوبى صاحب حلب ، يعرفونه بالامتناع عن الحلف لشجر الدر ، ويطلبون منه الحضور الى دمشق لتسليمها اليه . وقد استجاب الناصر لتلك الدعوة ، وتسلم دمشق فى سهولة ، فخلع على الامراء القيمرية ، وعلى جمال الدين ابن يغمور[٢٩] .

وأخيرا أدرك المماليك فى مصر أن الامر ليس بالسهولة التى توقعوها ، وأن موقف الايوبيين فى الشام يهدد بالقضاء على دولتهم الوليدة فى مصر . وكان ذلك فى الوقت الذى أخذ الخليفة العباسى المستعصم بالله يعيب على أهل مصر أنهم يخضعون لحكم امرأة ، فأرسل اليهم يقول « ان كانت الرجال قد عدمت عندكم فاخبرونا حتى نسير اليكم رجلا »[٣٠] .

وكان أن أدرك المماليك فى مصر « أن المرأة لا تقوم بسياسة المملكة » وأنه من المصلحة — لمواجهة كافة هذه المشاكل — أن تتزوج شجر الدر من الامير عز الدين أيبك — أتابك العساكر — على أن تترك له شئون الحكم وتتخلى عن السلطنة . وتمت هذه الخطوة فى يوليو

---

(٢٨) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ، ص ٣٦٦ .

(٢٩) ابن ايبك : كنز الدرر ، جـ ٧ ، ص ٣٨٥ (تحقيق المؤلف) ، النويرى : نهاية الأرب ، جـ ٢٧ ورقة ٩٧ (مخطوط) .

(٣٠) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٣٦٨ — (تحقيق محمد مصطفى زيادة) .

سنة ١٢٥٠ م (٦٤٨ هـ) « فخلعت شجر الدر نفسها من مملكة مصر » وتنازلت عن الحكم لأيبك ، بعد أن ظلت فى السلطنة ثمانين يوما ، أثبتت فيها « حسن سيرتها وغزير عقلها وجودة تدبيرها »[٣١] .

السلطان المعز أيبك التركمانى :

ولى المعز أيبك السلطنة فى سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م ليجد نفسه فى مواجهة مشاكل خطيرة ، أهمها تهديد الايوبيين بغزو مصر . وكان أن لجأ المماليك فى مصر الى ألعوبة لتخدير بنى أيوب ، فأتوا بطفل صغير من أبناء البيت الايوبى اسمه الأشرف موسى — عمره ست سنوات — وأقاموه سلطانا ليكون شريكا للمعز أيبك فى الحكم . وبذلك صارت المراسيم تصدر باسم الملكين الشريكين — الاشرف والمعز — « الا أن الاشرف ليس له سوى الاسم فى الشركة لا غير ، وجميع الامور بيد المعز أيبك »[٣٢] .

غير أن هذه الخديعة لم تجز على الايوبيين بالشام ، فجمعوا قواهم بزعامة الناسر يوسف الايوبى وزحفوا على مصر ، يريدون محاربة المماليك والقضاء عليهم . وكانت قوة المماليك الرئيسية تتألف من البحرية ، فدارت موقعة فاصلة بين الطرفين فى ٢ فبراير سنة ١٢٥١ م (٦٤٨ هـ) قرب العباسة بالشرقية ، هزم فيها الايوبيون وفر الناصر يوسف ورجاله عائدين الى الشام[٣٣] . ولا شك فى أن هذه الموقعة كن لها أثرها وأهميتها فى تثبيت أقدام دولة المماليك الناشئة ، الامر

---

(٣١) ابن ايبك : كنز الدرر ، جـ ٨ ، ص ١٣ (تحقيق هارمان) ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ص ٣٧٣

(٣٢) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٣٦٩

(٣٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ورقة ٣٧٢ (مخطوط) ، ابن أيبك : كنز الدرر ، جـ ٨ ، ص ١٦ — ١٧ (تحقيق هارمان) .

الذى شجع المعز أيبك بعد ذلك بشهر على ارسال جيش بقيادة فارس الدين أقطاى — زعيم البحرية — استولى على غزة ٠

وفى تلك المرحلة كان لويس التاسع زعيم الحملة الصليبية السابعة مقيما بالشام — عقب اطلاق سراحه من الاسر — حيث أخذ يرقب الموقف بين الايوبيين والمماليك ، دون أن يجاهر بالانضمام الى جبهة معينة ، حتى يرى ما تسفر عنه الاحداث ٠ فلما انجلى الموقف بانتصار المماليك وهزيمة الناصر يوسف ، بادر المماليك بتجديد اتفاقية الصلح مع الصليبيين ليضمنوا عدم مؤازرتهم للناصر يوسف والايوبيين ٠ وفى سنة ٦٥٠ هـ (١٢٥٢ م) وافق المماليك فى الاتفاقية الجديدة على أن يطلقوا سراح بقية أسرى الصليبيين فى مصر ، وعلى اعفاء لويس التاسع من بقية المبلغ المتبقى عليه من الفدية ٠ بل أكثر من هذا وذاك ، تشير بعض المصادر الى أن المماليك فى مصر وعدوا لويس التاسع باعطائه بيت المقدس اذا هو أيدهم ضد الصليبيين بالشام[٣٤] ٠

على أنه لم يقدر للعداء بين المماليك فى مصر والايوبيين فى الشام أن يطول ويستمر ، وذلك بسبب ظهور خطر جديد هدد المسلمين جميعا فى الشرق الادنى ، وتطلب منهم الوقوف صفا واحدا لمواجهته ٠ ونعنى بهذا الخطر التتار الذين ابتلعوا أجزاء واسعة من المشرق الاسلامى ، واقتربوا من العراق ، مما جعل الخليفة العباسى المستعصم بالله يبادر بارسال رسوله الى الناصر يوسف الايوبى صاحب دمشق « يأمره بمصالحة الملك المعز (أيبك) وأن يتفقا على حرب التتار »[٣٥] ٠ ويبدو أن موجة الرعب التى أثارتها أخبار التتار ووحشيتهم جعلت الطرفين

---

(٣٤) العينى : عقد الجمان ، جـ ١٨ ، ورقة ٣١٤ (مخطوط) ،
Grousset : Hist. des Croisades III, p. 502.

(٣٥) السبكى : طبقات الشافعية ، جـ ٥ ، ص ١١٣ ، المقريزى : السلوك ، جـ ١ ص ٣٨٢ ، ٣٨٥ ٠

يستجيبان فى سهولة لدعوة الخليفة المستعصم ، فتم الصلح فى ابريل سنة ١٢٥٣ م (٦٥١ هـ) بين المماليك فى مصر والايوبيين فى الشام ، بشرط أن يكون للمماليك مصر حتى نهر الاردن ، وللايوبيين ما وراء ذلك من بلاد الشام ، بمعنى أن تستولى سلطنة المماليك على غزة والقدس ونابلس « والساحل كله » فضلا عن مصر[٣٦] .

مقتل السلطان المعز أيبك وشجر الدر :

ولم يكن موقف الايوبيين العدائى بالشام هو المشكلة الوحيدة التى واجهت المعز أيبك ، وانما وجدت مشاكل أخرى داخلية أقلقته وهددت سلطانه فى الفترة القصيرة التى ولى فيها الحكم . وجاءت أولى هذه المشاكل من ناحية المماليك البحرية الذين ازداد نفوذهم ازديادا خطيرا عقب انتصارهم على الصليبيين فى المنصورة وفارسكور من ناحية ؛ ثم عقب انتصارهم على الناصر يوسف الايوبى عند العباسة من ناحية أخرى . ولا شك فى أن هذه الانتصارات المتعاقبة أشعرت البحرية بقوتهم وقدرتهم فتمادوا فى البغى والإفساد . ومن الثابت أن ازدياد نفوذ البحرية فى ذلك الدور لم يهدد نفوذ أيبك فحسب ، بل هدد أمن عامة الناس وسلامتهم . من ذلك ما يذكره المقريزى فى حوادث سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) من أنه « كثر ضرر المماليك البحرية بمصر ، ومالوا على الناس وقتلوا ، ونهبوا الاموال ، وسبوا الحريم ، وبالغوا فى الفساد ، حتى لو ملك الفرنج ما فعلوا فعلهم »[٣٧] .

وقد أدرك أيبك مدى خطورة البحرية ، فأقطع زعيمهم الفارس أقطاى ثغر الاسكندرية ، ولكن ذلك لم يفلح فى الحد من شرهم « فكثر

---

(٣٦) ابو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٣ ص ١٨٦ ، ابن أيبك : كنز الدرر ، جـ ٨ ، ص ٢٢ .

(٣٧) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ، ص ٣٨٠ .

تمردهم وطغيانهم »[٣٨] . ثم يعود المقريزى فيشير فى حوادث سنة ٦٥١ هـ (١٢٥٣ م) الى تفاقم خطر البحرية « وفيها قويت البحرية — وكبيرهم فارس الدين أقطاى — على المعز ، وكثر تمنتهم واستطالتهم وتوثبهم على الملك المعز (أيبك) وهموا بقتله »[٣٩] . وعندما أحس أيبك بنية البحرية ، ووجد أن زعيمهم أقطاى « طغى وتجبر ، وبغى وتكبر »[٤٠] ، استدرجه الى القلعة وقتله . وكان أن تجمع تحت أسوار القلعة نحو سبعمائة فارس من البحرية ، فألقى اليهم أيبك برأس أقطاى . وكان أن خاف البحرية على أنفسهم ، وفروا الى الشام ، وعلى رأسهم ركن الدين بيبرس البندقدارى ، والامير سيف الدين قلاوون . وهناك دخلوا فى خدمة بنى أيوب[٤١] .

أما المشكلة الداخلية الكبرى التى واجهت المعز أيبك ، والتى أودت بحياته فى نهاية الأمر ، فكان مصدرها شجر الدر . ذلك أن هذه المرأة كانت من ذلك النوع من النساء الذى يهوى الحكم ويعشق السلطان . وقد سبق لشجر الدر أن تذوقت طعم الحكم عندما انفردت بمنصب السلطنة ثمانين يوما . مما جعل من الصعب عليها بعد ذلك أن تقبل الانزواء محرومة من كل نفوذ وجاه ، ويبدو أنها ندمت على أنها تنازلت عن الحكم لأيبك ، فأخذت تفكر فى وسيلة أو أخرى للتخلص منه ، مثلما تخلصت من توران شاه من قبل . ويذكر المؤرخ ابن تغرى بردى أن شجر الدر سيطرت على زوجها المعز أيبك سيطرة تامة ، بحيث صار فى جميع أحواله « ليس له معها كلام »[٤٢] . ثم انها لم تكتف بالاستبداد بأمور المملكة ، بل منعت أيبك من الاجتماع بزوجته أم ابنه على « وألزمته بطلاقها » . وعندما استبد الضيق بأيبك ، أخذ

---

(٣٨) نفس المصدر والجزء ، ص ٣٨٤ .

(٣٩) نفس المصدر والجزء ، ص ٣٨٦ .

(٤٠) ابن أيبك : كنز الدرر ، جـ ٨ ، ص ٤٢ .

(٤١) ابو الفدا : المختصر فى اخبار البشر ، جـ ٣ ، ص ١٩٠

(٤٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٣٧٤ .

يفكر فى التخلص من شجر الدر بقتلها[٤٣] ، فى الوقت الذى اتصلت هى بالناصر يوسف الايوبى بالشام ، فبعثت اليه بهدية « وأعلمته أنها قد عزمت على قتل المعز (أيبك) والتزوج به (بالناصر) وتمليكه مصر » . ولكن الناصر يوسف خشى أن يكون فى الامر خدعة ، فلم يجبها بشىء[٤٤] .

وكانت أخبار مؤامرات شجر الدر تصل أولا بأول الى أيبك ، فرأى أن يحتاط لنفسه ، وقرر انزالها من القلعة . وهكذا أمسى الزوجان — أيبك وشجر الدر — يتربصان كل للآخر . وعندما بلغت الاشاعات مسامع شجر الدر بأن زوجها أيبك شارع فى الزواج من ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، « تخيلت منه أنه ربما عزم على ابعادها أو اعدامها ، لأنه سئم من هجرها واستطالتها ، فعاجلته وعزمت على الفتك به ، واقامة غيره فى الملك »[٤٥] .

وكانت شجر الدر أسرع من أيبك فى الحركة ، فحرضت جماعة من الخدم على قتله بالحمام . وأسهمت هى بنفسها فى تنفيذ الجريمة : فأخذت « تضربه بالقبقاب وهو يستغيث ويتضرع اليها الى أن مات » .

ولكن مماليك المعز أيبك — بزعامة كبيرهم قطز — لم يغفروا لشجر الدر فعلتها ، فقتلوها خنقا بعد قليل ، وألقوا بجثتها على باب القلعة من ناحية القرافة . وبذلك خلا المسرح من أيبك وشجر الدر جميعا (سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م)[٤٦] .

---

(٤٣) ابن ايبك : كنز الدرر ، جـ ٨ ، ص ٢٥ .
(٤٤) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٠٢ .
(٤٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٣٧٥ .
(٤٦) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ص ٤٠٣ — ٤٠٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٣٧٦ — ٣٧٧ .

الفصل الثانى

قطـز والتتـار

سـلطنة على بن أيبـك :

أحدث موت أيبك وشجر الدر فراغا ضخما فى صفوف المماليك ، حيث أنه فتح الباب على مصراعيه أمام القوى المتنافسة على الحكم ، وبخاصة بين كبار أمراء المماليك. ومن المعروف أن المماليك لم يؤمنوا مطلقا بمبدأ الوراثة فى الحكم ، وانما كان شعارهم (الحكم للأقـوى) . وكانت التمثيلية التى تتكرر عادة عقب وفاة كل سلطان من سلاطينهم ، هى أن يسرع الأمراء الى تنصيب ابن السلطان المتوفى ليحل فى الظاهر محل أبيه ، وذلك حتى تهدأ الأمور وتستقر الاوضاع ، ويظهر بين صفوف الأمراء من يتفوق على منافسيه ، وعندئذ لا يصعب عليه خلع ذلك الابن واحلال نفسه محله فى الحكم .

وعندما وجد أمراء المماليك أنفسـهم ــ بعد مقتل أيبـك ــ لا يستطيعون الاجماع على أحدهم ليتولى منصب السلطنة ، استقر رأيهم على اختيار على بن أيبك ، فأعلن سلطانا عقب مقتل أبيـه وقبل مقتل شجر الدر سـنة ٦٥٥ هـ (١٢٥٧ م) . وقد لقب السـلطان الجديد بالمنصور وكان فى الخامسة عشر من عمره ، فأقيم الأمير سيف الدين قطز ــ أتابكا له ، ونائبا للسلطنة « وصار مدبر الدولة »[1].

ويبدو أن أمراء البحرية ــ الذين كانوا بالشام ــ أدركوا عندئذ أن فرصتهم قد حانت للعودة الى مصر وتحقيق طموحاتهم ، فاتصلوا

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٠٥ .

بالملك المغيث عمر الايوبى ــ صاحب الكرك ــ وزينوا له غزو مصر[٢] .
وكان أن استجاب الملك المغيث لتلك الدعوة ، واتجه الغزاة عن طريق الشرقية قاصدين القاهرة ، ولكن قطز استطاع صدهم وأنزل بهم الهزيمة عند الصالحية[٣] .

وفى الوقت الذى كان السلطان الصغير ــ المنصور نور الدين على ابن أيبك ــ يقضى وقته فى اللعب وركوب الحمير بالقلعة ، اذا بالأخبار تصل الى مصر بأن التتار استولوا على بغداد سنة ١٢٥٨ م (صفر ٦٥٦ هـ) ، وأنهم « رموا السيف فيها » ، فقتلوا الخليفة المستعصم بالله العباسى وأحرقوا المساجد والمدارس ، وسفكوا الدماء حتى جرت فى الطرقات[٤] .. وبدلا من أن يتدبر الناصر يوسف الأيوبى ذلك الخطر الذى صار على أبواب الشام ، اذا به يرسل ابنه الملك العزيز الى هولاكو طالبا مساعدته فى الاستيلاء على مصر من المماليك . وكان أن استجاب هولاكو لتلك الدعوة ، وقرر ارسال قوة من عشرين ألف فارس الى الشام . وعندما جاءت أخبار تهديد التتار لبلاد الشام ، عقد مجلس بالقلعة للتشاور فى الأمر ، فوجد الأمير سيف الدين قطز فرصته قد حانت ، وأخذ ينكر على السلطان الصغير الملك المنصور على بن أيبك سلوكه ، وقال « لابد من سلطان قاهر يقاتل هذا العدو ، والملك المنصور صبى صغير لا يعرف تدبير المملكة !! » . ولم يلبث أن انتهز قطز فرصة خروج الأمراء للصيد (٦٥٧ هـ ــ ١٢٥٩ م) ، وقبض على المنصور على وأخيه وأمهما . وبذلك انتهى حكم المنصور على بعد أن استمر عامين وثمانية أشهر وثلاثة أيام[٥] .

---

(٢) كانت العلاقة قد ساءت بين البحرية والناصر يوسف الايوبى ، فطردهم من دمشق ، وعندئذ « انتموا الى الملك المغيث عمر » .
ابو الفدا : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٩٢ — ١٩٣ .
(٣) المقريزى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٤٠٢ (تحقيق محمد مصطفى زيادة) .
(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٥٠ .
(٥) المقريزى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٤١٧ .

سلطنة سيف الدين قطز :

ويبدو أن سيف الدين قطز تخوف من غضب الأمراء الذين أنكروا عليه ما فعله بالمنصور على ، لذلك اعتذر لهم بأنه ما عزل المنصور على الا تخوفا من التتار من ناحية ، ومن الملك الناصر يوسف الايوبي من ناحية أخرى ، « وأنى ما قصدت الا أن نجتمع على قتال التتر ، ولا يتأتى ذلك بغير ملك . فاذا خرجنا وكسرنا هذا العدو ، فالأمر لكم أقيموا فى السلطنة من شئتم »(٦) .

وهكذا أخذ قطز يسترضى الأمراء « حتى تمكن » ، وعندئذ أمسك بزمام الأمور بيد من حديد « فقبض على الأمراء من كل جهة مثل التساء ، وأودعهم الاعتقال »(٧) . وعندما اطمئن الى أنه ثبت أقدامه فى الحكم ، أخذ يعد العدة لمواجهة الخطر الأكبر الذى هدد الشام ومصر عندئذ ، وهو خطر التتار .

ذلك أن التتار زحفوا من العراق على الشام ، وانتقلوا فى سرعة مذهلة من ديار بكر الى آمد يريدون حلب . ولم يوفق المسلمون فى الدفاع عن حلب ، فدخلها التتر وقتلوا ونهبوا وسلبوا « وفعلوا تلك الأفعال القبيحة على عادة فعلهم »(٨) .

وكان أن روعت تلك الحوادث المتلاحقة المسلمين ، وعندئذ أفاق الناصر يوسف لحقيقة الخطر التترى ، فأرسل الى قريبه المغيث عمر صاحب الكرك ، والمظفر قطز صاحب مصر ، يطلب منهما النجدة السريعة . على أنه يبدو أن كثيرين خافوا عاقبة مقاومة التتار ، ونادوا

---

(٦) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ٤١٧ — ٤١٨ . هذا ، ومن الثابت ان قطز كان مملوكا للسلطان الملك المعز ايبك التركمانى ، وأنه لم يكن من فرقة المماليك البحرية التى انشاها الصالح نجم الدين أيوب (نفس المصدر والجزء ، ص ٤٣٧ ، حاشية ٣) .

(٧) ابن ايبك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٣٩ (تحقيق هارمان) .

(٨) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٧٦ .

بأنه لا فائدة من تلك المقاومة بعد أن غدا « التتار ملاك الدنيا من مطلع الشمس الى حدود الفرات »(٩) . من ذلك أن أحد الأمراء — هو الأمير زين الدين الحافظى — أخذ يعظم شأن هولاكو ، ويشير بأنه لا يقاتل ، وبأن الأوفق الدخول فى طاعته . ولكن الأمير بيبرس البندقدارى صاح به ، وضربه وسبه وقال « أنتم سبب هلاك المسلمين !! »(١٠) .

ولم يرض الأمير ركن الدين بيبرس — ومن معه من البحرية — عن مسلك الناصر يوسف وأمراء الشام ، فساروا الى غزة . ومن هناك أرسل بيبرس الى السلطان قطز يعرض عليه توحيد جهود المسلمين ضد خطر التتار . وفى الحال استجاب قطز للدعوة ، وأرسل الى بيبرس يطلب منه القدوم الى القاهرة ، حيث استقبله بدار الوزارة ، وأقطعه قليوب وأعمالها(١١) .

موقعة عين جالوت :

اضطربت أحوال الشام نتيجة للغزو التترى . ذلك أنه لم يمض على استيلاء هولاكو على حلب ستة عشر يوما حتى شرع فى الزحف على دمشق « فهرب كثير من الدماشقة بعدما باعوا حواصلهم ، وخرجوا على وجوههم جافلين : متفرقين فى البلاد والجبال الى الحصون والى ديار مصر »(١٢) . وكان أن دخل التتار دمشق ونهبوها ، ثم ساروا الى بعلبك ، واتجهت طائفة منهم الى غزة ، وخربوا بانياس « وأسعروا البلاد حربا وملأوها قتلا ونهبا »(١٣) .

ولم يلبث أن تسلم قطز رسالة من هولاكو يهدده فيها ويطلب منه

---

(٩) ابن أيبك : كنز الدرر ، جـ ٨ ، ص ٤٥ .
(١٠) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ، ص ٤١٩ .
(١١) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ٣٦٤ (مخطوط) .
(١٢) ابن أيبك : كنز الدرر ، جـ ٨ ، ص ٤٤ .
(١٣) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٢٦ .

الاستسلام ويقول « يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الاعمال ، أنا نحن جند الله فى أرضه ، خلقنا من سخطه ، وسلطه على من حل به غضبه ... فأتعظوا بغيركم .. فنحن ما نرحم من بكى ، ولا نرق لمن شكا ... »[١٤] . ولكن قطز لم يجبن أمام ذلك التهديد، فضرب مشورا — أى عقد مجلس مشورة يضم كبار الأمراء — واستقر الرأى على ضرب رقاب رسل هولاكو والاستعداد لملاقاة التتار . وفعلا قطعت رؤوس الرسل وعلقت على باب زويلة ، فكانت أول ما علق على ذلك الباب من رؤوس التتار ، وكان عددها نيفا وأربعين رأسا[١٥] .

ولما وجد قطز أن بعض الأمراء مترددون فى الخروج لمحاربة التتار ، صاح فيهم « يا أمراء المسلمين ! لكم زمان تأكلون أموال بيت المال وأنتم للغزاة كارهون ؟ ! أنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبنى ، ومن لم يختر ذلك يرجع الى بيته ، فان الله مطلع عليه ، وخطيئة حريم المسلمين فى رقاب المتأخرين »[١٦] .

وفى الوقت الذى أخذ قطز يعد العدة للقاء التتار ، أوفد بيبرس على رأس مقدمة الجيش ليتحسس أخبار العدو . وكان التتار قد وصلوا الى غزة ، فلما اقترب منها بيبرس ، انسحبوا منها ، فاحتلها المماليك . وبعد قليل وصل قطز على رأس بقية الجيش . ولم يشأ قطز أن يضيع الوقت فزحف مباشرة فى اتجاه بحيرة طبرية . ويبدو أن وصول ذلك الجيش الكبير من مصر الى الشام أزعج الصليبيين فى عكا ، فخرجوا الى السلطان قطز ، وعرضوا عليه المساعدة . ولكنه

---

(١٤) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٨ ، ص ٦٣ .

(١٥) هذا ما ذكره ابن ايبك فى كنز الدرر ، ج ٨ ص ٤٨ . أما المقريزى : السلوك ، ج١ ، ص ٤٢٩ . فيقول ان رسل التتر كانوا اربعة « وسط واحد بسوق الخيل تحت قلعة الجبل ، ووسط آخر بظاهر باب زويلة ، ووسط الثالث بظاهر باب النصر ، ووسط الرابع بالريدانية ، وعلقت رءوسهم على باب زويلة » .

(١٦) ابن ايبك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٤٨ .

شكرهم ، واستحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه ، وهددهم اذا هم اعتدوا على مؤخرة جيش المسلمين ، منذرا إياهم بأنه فى هـذه الحالة سيعود اليهم ويقاتلهم قبل أن يقاتل التتار[١٧] .

وفى تلك الأثناء كان هولاكو قد عاد الى حاضرة التتار فى آسيا ، وترك أحد أمرائه — واسمه كتبغا — لينوب عنه فى الشام . وعندما علم كتبغا بوصول قطز على رأس الجيش المصرى الى الشام ، قر رأيه على منازلة المسلمين ، فاتجه صوب عين جالوت قرب بيسـان ، فى فلسطين . وفى موقعة عين جالوت التى دارت بين المسلمين والتتار سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) ، تفوق التتار فى أول الأمر ، ولكن قطز ثبت فى القتال . ويقال أن قطز ألقى خوذته عن رأسه على الارض ، وصـاح « وإسـلاماه » ، ثم حمل على التتار حملة صادقة زعزعهم بها ، فقتل كتبغا وكثير من رجاله ، ومن نجا من التتار ولى الأدبار ، « وركب المسلمون اكتافهم أسرا وقتلا »[١٨] .

ولا شك فى أن موقعة عين جالوت كانت نقطة تحول خطيرة فى التاريخ . ومهما يقال من أن التتار كانوا بوصولهم الى عين جالوت قد بلغوا نهاية الشوط فى حركتهم التوسعية فى اتجاه بلاد الشـام ومصر ، ومن أنه كان لابد وأن تنتهى تلك الحركة الى التوقف عند نقطة معينة ... فان الذى يعنينا فى هذه الدراسة هو أن موقعة عين جالوت أنقذت الشام ومصر من خطر التتار ، وجعلت دولة تتار فارس تقف عند نهر الفرات . واذا كان التتار قد استمروا بعد ذلك يهـددون الشام ، فان ذلك التهديد — بعد عين جالوت — لم يتخذ شكل غزوات كاسحة ، مثلما كان الحال من قبل ، وانما اتخذ شكل اغارات متقطعة تنتهى بالانسحاب السريع عندما تلوح لهم مقدمة الجيوش الاسلامية الآتية من مصر .

---

(١٧) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٣٠ .

(١٨) ابن ايبك : كنز الدرر ، جـ ٨ ، ص ٤٩ — ٥٠ .

أما عن الموقف فى بلاد الشام عقب عين جالوت ، فيتلخص فى قيام السلطان قطز بحركة تطهير سريعة فى البلاد ، فاسترد دمشق من التتار ، فى حين قام الأمير ركن بيبرس بمطاردة التتار حتى حلب[١٩] .

نهـاية قطـز :

وفى الفترة القصيرة التى قضاها قطز ببلاد الشام بعد عين جالوت ، تمكن من أن يبسط سيطرة دولة المماليك على الشام ، وأن يعيد الحياة الى مجراها الطبيعى فى تلك البلاد . واذا كان قطز قد سمح لبعض أمراء بنى أيوب بأن يعودوا الى ولاياتهم فى حمص وحماة ، فان هؤلاء اعترفوا بالتبعية لسلطنة المماليك فى مصر ، وتعهدوا بدفع الجزية للسلطان قطز ، والدعاء له على المنابر .

أما فى مصر ، فقد كان لانتصار قطز فى عين جالوت أجمل الوقع ، فدقت البشائر بالقلعة ، وأقيمت الزينات بالقاهـرة ، وأخذت جماهير الناس يستعدون لاستقبال بطل عين جالوت عند عودته . ولكن شاءت الظروف ألا يعود قطز مرة أخرى الى القاهرة ، وأن يقتل غدرا وهو فى طريق عودته اليها . ذلك أن السلطان قطـز كان قد وعد الامير ركن بيبرس باعطائه ولاية حلب تقديرا لجهوده وبلائه فى محـاربة التتار . ولكن ما كاد يتم طرد التتار من الشام ، وتسترد حلب من التتار ، حتى تنكر قطز لوعوده ، وفوض نيابة السلطنة بحلب الى الملك السعيد بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل[٢٠] . ومنذ ذلك الوقت دبت الوحشة بين قطز وبيبرس « فاحترس كل منهما من الآخر ، وعمل فى القبض عليه » . ولا شك فى أن قطز أظهر قصر نظر وعدم مرونة بهذا التصرف ، لأنه لم يدرك ما حققه الأمير ركن الدين بيبرس من مكانة وأهمية من خلال المعارك التى خاضها ضد التتار . ولو كان قطز على شىء من الحكمة لألقى حلب للأمير بيبرس وألهاه بها عن منافسته فى

---

(١٩) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٨١ — ٨٢ .
(٢٠) أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٠٧ .

مصر ، وبذلك كان فى استطاعة قطز أن يباشر سلطانه فى مصر دون
أو حاقد .

وهكذا اتجه موكب المحاربين الى القاهرة ، يضم قطز
وقد أضمر كلاهما سوءا للآخر . ويقال أن بيبرس حدث ج
الأمراء فى قتل السلطان قطز ، فأقروه على رأيه « وساروا معه
الفرصة » . وعندما اقترب الجمع من الصالحية ، انصرف
الصيد — صيد الارانب — فثارت أرنب وجمحت ، وعندئذ
أن يحترز على نفسه ، وتعقب الأرنب حتى ابتعد عن رفاقه . وعن
المتآمرون ، حتى لم يبق معه غيرهم ، فتقدم بيبرس حتى اق
السلطان ليطلب منه طلبا[21] . وعندما أجابه قطز الى طلب
برغبته فى تقبيل يد السلطان اعترافا بفضله . وما كاد قطز
حتى قبض عليها بيبرس بشدة ليحول بينه وبين الحركة ، فى ح
عليه بقية المتآمرين بسيوفهم حتى أجهزوا عليه[22] . وعلى هذ
انتهت حياة بطل عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) .

---

(٢١) ذكرت بعض المصادر ان بيبرس طلب من السلطان
سبى التار ، فانعم بها عليه (المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٣٥
وذكرت مصادر اخرى ان بيبرس شفع عند السلطان فى
فأجابه (ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٨٣ — ٤
(٢٢) أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٠٧ .

الفصل الثالث

الظاهر بيبرس وتأسيس دولة البحـرية

سـلطنة بيبرس :

من الأمور المألوفة فى عرف المماليك أن يحل القاتل فى سهولة محل القتيـل فى دست السلطنة ، ما دام القاتل قد أظهـر من الشـجاعة والقوة ما حقق له التفوق على زملائه من الأمراء . وبعبارة أخـرى فان شعارهم كان « من قتل ملكا أصبح هو الملك »[١] .

وقد تردد فى المصادر المعاصرة أنه بينما كان قطز لا يزال ملقى على الأرض لم يدفن ولم تجف دماؤه بعد ، تقدم الأمير فارس الدين أقطاى المستعرب وبايع الامير بيبرس بالسلطنة ، ثم تبعه بقية الأمراء ، وذلك قرب الصالحية[٢] . ويروى المقريزى أن الأمراء الذين قتلوا قطز اتجهوا بعد ذلك الى الدهليز السلطانى بالصالحية — وأيديهم مخضبة بالدماء — فلقيهم هناك الأمير اقطاى المستعرب وسألهم : « من قتلـه منكم ؟ » فقال بيبرس : « أنا قتلته » ، فرد عليه أقطاى « يا خوند ! اجلس فى مرتبة السلطنة مكانه ! » . وبعد أن بايع أقطاى وبقية الامراء بيبرس بالسلطنة ، قال له أقطاى « لا تتم السلطنة الا بدخولك قلعة الجبل » ، فركب بيبرس وصحبته الأمراء قاصدين القاهرة[٣] .

---

(١) عبد العزيز بن عبد الله الخويطر : الملك الظاهر بيبرس ، ص ٣٠ .

(٢) ابن شاكر الكتبى : عيون التواريخ ، جـ ٢٠ ، ورقة ١٨٦ (مخطوط) .

(٣) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٣٦ — ٤٣٧ (تحقيق محمد مصطفى زيادة) .

وكانت القاهرة قد تزينت لاستقبال السلطان المظفر قطز ، والناس فى فرح وسرور بالغ لما حدث من انكسار التتار ونجاة مصر من شرهم ، فاذا بالمنادى يطوف شوارع القاهرة وهو يصيح « ترحموا على الملك المظفر ، وادعوا لسلطانكم الملك القاهر ركن الدين بيبرس » . ولا يخفى علينا ما أصاب الناس من غم عند سماع هذا الخبر ، لأن بشرى الانتصار على التتار فى عين جالوت جاءتهم مقرونة باسم قطز . هذا الى أن الناس لم ينسوا عندئذ ظلم البحرية وعسفهم ، « فخافوا من عودة دولة المماليك البحرية ، وسوء مملكتهم وجورهم »[٤] .

أما بيبرس فقد قصد القلعة حيث استقبله نائب السلطنة الأمير عز الدين أيدمر ، وكان قد خرج للقاء قطز ، ولكن بيبرس أخبره بما تم ، فلم يجد نائب السلطنة وغيره من الأمراء غضاضة فى أن يحلفوا للسلطان الجديد (٦٥٨ هـ — أكتوبر ١٢٦٠ م) . وهكذا استقر بيبرس فى القلعة « وجلس فى ايوان ملكه ، وحلف الناس على اختلاف طبقاتهم ، فما بقى أحد الا حلف ، واستقام الأمر بغير منازع ، فأمر ونهى ، وبذل الاموال ، وأمر وأمر ، وولى وعزل .. »[٥] .

وفى تلك المرحلة الاولى من سلطنته ، أخذ بيبرس يتقرب من الخاصة والعامة ، فخفف عن الاهالى عبء الضرائب ، وألغى الاموال التى كان قطز قد فرضها واستحدثها بدعوى محاربة التتار ، كما عفا « عمن بالمحبوس من أصحاب الجرائم ، وأفرج عنهم »[٦] .

وقد تلقب بيبرس فى أول الأمر بلقب « القاهر » ، ولكن الوزير زين الدين بن يعقوب أشار عليه بأن يغير لقب « القـاهر » الى

(٤) المقريزى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٤٣٧ .

(٥) محيى الدين بن عبد الظاهر : الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ، ص ٧٠ (تحقيق عبد العزيز الخويطر) .

(٦) ابن تغرى بردى : النجـوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٠٣ ، ابن أيبك : كنز الدرر ، ج٨ص ٦٣ .

« الظاهر » ، لأن اللقب الاول « ما تلقب به أحد فأفلح » . فوافق بيبرس على ذلك ، وغدا لقبه « السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى »(٧) . وأرسل الى الملوك والامراء فى الشام واليمن وسائر الاقطار ليعترفوا بسلطنته .

على أن الأمور لم تتم لبيبرس فى سهولة تامة ، اذ امتنع بعض الامراء عن الاعتراف له بالولاء ، مما هدد سلطانه فى ذلك الدور الأول من حكمه . وكان أول هؤلاء الثائرين الأمير علم الدين سنجر الحلبى الذى كان قطز قد ولاه على دمشق فلما علم بمقتل قطز ثار وأعلن نفسه سلطانا ، كما طلب من أصحاب حمص وحماه الدخول فى طاعته ، ولكنهما امتنعا(٨) . ولم يتوان بيبرس فى القضاء على هذه الثورة التى هددت سلطانه بالشام ، فأرسل حملة بقيادة الأمير علاء الدين البندقدار ، نجحت فى القبض على الأمير علم الدين سنجر واحضاره الى القاهرة سنة ٦٥٩ هـ (يناير ١٢٦١ م)(٩) . وقد ولى الظاهر بيبرس الأمير علاء الدين البندقدار على دمشق وكلفه بالقبض على بعض الامراء الذين كان بيبرس متخوفا منهم . وكان أن فر أحد أولئك الأمراء — وهو شمس الدين آقوش البرلى — الى حلب ، واستولى عليها بمساعدة أعوانه ، ثم اعتزم السير الى مصر لغزوها . ولكن السلطان الظاهر بيبرس أرسل حملة قضت على جيش البرلى ، وفر البرلى نفسه ، حتى قبض عليه بيبرس فيما بعد ، بعد أن استسلم فى القاهرة عام ٦٦٠ هـ (أكتوبر ١٢٦٢ م)(١٠) .

ومع ذلك ، فقد ظل بيبرس يخشى قيام ثورة فى الشام ، وبخاصة من جانب بنى أيوب . ويبدو أن بيبرس كان متخوفا من المغيث عمر الأيوبى صاحب الكرك ، فتحايل عليه حتى استحضره لمقابلته فى بيسان ،

---

(٧) ابو الفدا : المختصر فى اخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٢٠٨ .
(٨) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ، ص ٣٩ وما بعدها .
(٩) المقريزى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٤٤٤ — ٤٥١ .
(١٠) عبد العزيز الخويطر : الملك الظاهر بيبرس ، ص ٣٣ .

وعندئذ قبض عليه رغم الأمان المعطى له ، واعتقله بالقلعة ، حتى قتل بعد ذلك[١١] .

ولم تكن جميع الثورات التى واجهت بيبرس فى مستهل حكمه فى بلاد الشام ، وانما قامت ثورة فى القاهرة استهدفت اعادة الدولة الفاطمية . وقد استولى الثوار على ما فى دكاكين السيوفيين من أسلحة ، وشقوا القاهرة وهم يصيحون « يا آل على » . ولكن جند بيبرس أحاطوا بالثوار وقضوا على حركتهم فى سهولة ، وبذلك خمدت الفتنة[١٢] .

إحياء الخلافة العباسية :

ويبدو أن هذه الثورات التى اعترضت طريق بيبرس فى بداية حكمه جملته يشعر بأنه فى حاجة الى دعامة كبرى يسند اليها سلطانه ، بعد أن نظر اليه كثير من المعاصرين من زاوية أنه قاتل السلطان قطز — قاهر التتار — ومغتصب العرش منه[١٣] . هذا الى أنه لا يخفى علينا أن المماليك بوجه عام شعروا منذ اللحظة الاولى التى أستأثروا فيها بحكم البلاد أنهم انتزعوا الملك من سادتهم بنى أيوب ، بدليل تحايلهم على مشاعر الناس بمحاولة اشراك بعض أبناء البيت الأيوبى معهم فى الحكم ، كما سبق أن أشرنا . فاذا أضفنا الى ذلك تجريح المعاصرين للمماليك بسبب أصلهم غير الحر ، أدركنا فى النهاية العوامل الخفية وراء تحمس السلطان الظاهر بيبرس لاحياء الخلافة العباسية فى مصر ، حتى يتخذ منها سندا يسند اليه حكمه بوجه خاص ، وحكم المماليك بوجه عام .

---

(١١) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ، ص ١٠٧ — ١٠٨ .
(١٢) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ق١ ص ٤٤ .
(١٣) محمد جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس فى مصر ، ص ٥٠ وما بعدها .

والواقع أن سقوط الخلافة العباسية فى بغداد على أيدى التتار سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) خلق موقفا غريبا فى العالم الاسلامى ، لم يألفه المسلمون منذ وفاة نبيهم عليه الصلاة والسلام . وحسبنا أن بعض المؤرخين المعاصرين يستهلون حولياتهم فى تلك الفترة بعبارة « لم يكن فى هذه السنة خليفة فيذكر » أو « لم يكن للمسلمين خليفة فيذكر فى هذه السنة »[١٤] . وفى وسط ذلك الفراغ الكبير الذى أحس به المسلمون ، حاول بعض الحكام فى الدولة الاسلامية احياء الخلافة فى بلده ، ليدعم مركزه ويكتسب تشريفا من ناحية ، ويجعل بلاطه قبلة بقية حكام العالم الاسلامى من ناحية أخرى . ولكن السلطان الظاهر بيبرس كان أسرع من هؤلاء جميعا ، فلم يكد يسمع بوصول أحد أبناء البيت العباسى الى دمشق ، حتى أرسل يستدعيه الى مصر فورا ، مع اتخاذ كافة الاحتياطات لضمان سلامته وراحته[١٥] .

أما ذلك الأمير ، فكان أحمد بن الظاهر بن الناصر العباسى ، وقد وصل فعلا الى مصر ، فاستقبله بيبرس بالحفاوة والاكرام . ثم عقد السلطان مجلسا بالقلعة ، دعا القضاة والعلماء والأمراء ليشهدوا على صحة نسب ذلك الامام . وبعد اثبات صحة الشهادة ، بايع السلطان الظاهر بيبرس الخليفة الجديد — الذى لقب بالمستنصر بالله — وتبعه القضاة والعلماء وسائر الناس . ومن ناحية أخرى قام الخليفة بتقليد الظاهر بيبرس السلطنة ، وتم ذلك فى حفل كبير اقيم بعد أيام . وبذلك تحقق لبيبرس ما أراد ، وصار يتولى منصبه بتفويض من السلطة الشرعية العليا فى العالم الاسلامى ، وهى الخلافة[١٦] .

ولكن يبدو أن بعض الناس تشككوا فى صحة نسب الخليفة

---

(١٤) ابن أيبك : كنز الدرر ، جـ ٨ ، ص ٣٨ ، ٤٥ ، ٦٧ (تحقيق هارمان ، القاهرة ، ١٩٧١) .

(١٥) النويرى : نهاية الأرب ، جـ ٢٨ ، ص ١٨ (مخطوط) .

(١٦) محيى الدين بن عبدالظاهر : الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ، ص ١٠٠ (تحقيق عبد العزيز الخويطر ، الرياض ، ١٩٧٦) .

المستنصر بالله ، وذلك على الرغم من الاحتياطات التى اتخذها الظاهر بيبرس ، وعلى الرغم من شهادة الشهود • ويبدو هذا التشكك واضحا فى الطريقة التى أشار بها بعض المؤرخين الى الخليفة الجديد ، وهى طريقة لا تخلو من الغمز الواضح • من ذلك ما يقوله المؤرخ أبو الفدا فى حوادث سنة ٦٥٩ هـ « وفى هذه السنة قدم الى مصر جماعة من العرب ، ومعهم شخص أسود اللون اسمه أحمد ، زعموا أنه ابن الامام الظاهر بالله محمد ابن الامام الناصر ••• وكانت العامة تلقب الخليفة المذكور بالزرابينى • وبرز الملك الظاهر والخليفة الاسود المذكور فى رمضان من هذه السنة ، وتوجها الى دمشق ••• »(١٧) • أما مفضل بن أبى الفضائل ، فقد أطلق على الخليفة الجديد اسم «المستنصر بالله الأسود »(١٨) • ومن الواضح أن هذا الاسلوب لا يخلو من غمز لا يتفق مع مكانة الخلافة •

أما السلطان الظاهر بيبرس ، فحسبه أن الخليفة المستنصر بالله قلده « البلاد الاسلامية وما سيفتحه من بلاد الكفار » ، وبذلك أضفى على نفسه وعلى حكمه صبغة شرعية • ولكن يبدو أن السلطان عاد وأحس بأنه أوجد لنفسه شريكا فى الملك • ذلك أن السكة — النقود — صارت تضرب باسمى السلطان والخليفة ، كما صار يدعى للخليفة على منابر الجوامع يوم الجمعة قبل الدعاء للسلطان(١٩) • ولعله لم يغب عن بيبرس أنه اذا حدث صدام فى المستقبل بينه وبين الخليفة ، فان الرأى العام فى العالم الاسلامى سيقف الى جانب الخلافة بوصفها السلطة الشرعية الاولى فى حكم المسلمين منذ وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام •

---

(١٧) ابو الفدا : المختصر فى اخبار البشر ، جـ ٣ ، ص ٢١٣ . جاء فى اللغة ان الزرب والزريبة ، حظيرة الغنم ، والزرابى الوسائد .

(١٨) مفضل بن ابى الفضائل : النهج السديد ، ص ١٠٥ .

(١٩) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ١٠٠ — ١٠١ (تحقيق عبد العزيز الخويطر) .

لذلك أخذ بيبرس يفكر فى التخلص بسرعة من الخليفة المستنصر ، بعد أن قضى وطره من الخلافة ، وحصل منها على ما كان يأمل فيه من تفويض بالسلطنة . وكان أن ادعى بيبرس أنه يرغب فى اعادة الخليفة الى قاعدة العباسيين فى بغداد . لذلك خرج السلطان الظاهر مع الخليفة المستنصر الى دمشق ، وهناك ترك بيبرس الخليفة يخترق الصحراء ، ومعه جماعة من العربان والتركمان قاصدا العراق[٢٠] . ويرى البعض أنه لو كان بيبرس جادا فى استرداد بغداد من التتار ، واعادة الخلافة العباسية الى قاعدتها الاولى ، لسار بنفسه صحبة الخليفة المستنصر الى العراق ، ولأعد للأمر عدته ، وجمع جيشا كبيرا يقوى على منازلة التتار . ولكن بيبرس — وهو خير من يعرف قوة التتار وخبرها — ترك الخليفة يذهب لمحاربتهم فى بضع مئات من الرجال ، مما أدى الى مقتل الخليفة ومعظم رجاله على أيدى التتار قرب هيت[٢١] ، فى حين هرب من كان معه من العربان والتركمان[٢٢] . ولم يعثر « للخليفة المستنصر على خبر ، ولا علم أى أرض أخذته ، فمنهم من ادعى أنه لم يزل يقاتل حتى قتل فى المعمعة ، ومنهم من قال خرج ونجا مجروحا فمات . وجملة الحال أنه عدم ، والله أعلم »[٢٣] .

والواقع ان أحكام الباحثين والمؤرخين تضاربت حـول موقف الظاهر بيبرس من تلك الواقعة . فمن قائل انه حزن على موت الخليفة المستنصر وأبدى أسفه على ما أنفقه من أموال فى الاعداد لتلك الحملة . ويرى هذا الفريق أن السلطان أعد لتلك الحملة « وأنفق أموالا كثيرة ، واشترى مائة مملوك كبارا وصغارا .. وأعطى كلا منهم ثلاثة أرؤس

---

(٢٠) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٣١٧ — ٣١٨ .

(٢١) المصدر السابق ، ص ٣١٨ ، ابن شاكر الكتبى : عيـون التواريخ ، جـ ٢٠ ورقة ٣٠، ٤٣ (مخطوط) .

(٢٢) ابن ايبك : كنز الدرر ، جـ ٨ ، ص ٨٣ (تحقيق هارمان) .

(٢٣) المصدر السابق،نفس الجزء ، ص ٨٣ — ٨٤ .

من الخيل وجملا لعدته ، ورتب سائر ما يحتاج اليه الخليفة »[٢٤] .

ويؤكد أصحاب هذا الرأى أن بيبرس كان جـادا فى نصرته للخليفة ، وأنه لو كان يستهدف الخلاص من المستنصر فانه لم يكن ليعجز « عن التفكير فى حل أفضل من ارسال الخليفة ليلقى حتفه .. دون أن يعرض سمعة المسلمين للخطر ... ولما سارع بتنصيب خليفة عباسى آخر عند الوهلة الاولى التى سمع فيها عن وجوده ... »[٢٥] .

أما الرأى الآخر فيدين بيبرس ويتهمه بالرغبة فى التخلص من المستنصر — كما سبق أن أوضحنا — ويستند هذا الرأى الى ما يردده بعض المؤرخين — مثل المقريزى — من أن بيبرس « لم يبعث مع الخليفة سوى ثلثمائة فارس » ، وهذه قوة يتعذر استطاعتها الصمود فى وجه التتار[٢٦] .

ونستطيع نحن أن نوفق بين الرأيين فنقول ان نوايا بيبرس تجاه الخليفة المستنصر كانت فى أول الامر طيبة ، وأنه كان جادا فى احياء الخلافة العباسية ، وأنه حتى اللحظة الاخيرة — وهو مع الخليفة بدمشق — كان « قد عزم أن يبعث مع الخليفة عشرة آلاف فارس حتى يستقر ببغداد » حسبما يذكر المقريزى . ولكن حدث أن « خلا أحدهم بالسلطان ، وأشار عليه ألا يفعل (فان الخليفة اذا استقر أمره ببغداد نازعك وأخرجك من مصر) . فرجع اليه الوسواس ولم يبعث مع الخليفة سوى ثلثمائة فارس »[٢٧] .

فمخاوف بيبرس من الخليفة المستنصر لم تظهر الا عندما

---

(٢٤) المقريزى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٤٥٨ (تحقيق محمد مصطفى زيادة) .

(٢٥) عبد العزيز الخويطر : الظاهر بيبرس ، ص ٣٨ — ٣٩ (١٩٧٦ م) .

(٢٦) المقريزى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٤٦٢ .

(٢٧) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

وسوس بعض الوشاة فى قلبه وذلك فى اللحظة الاخيرة قبل خروج الخليفة المستنصر الى العراق • وعندئذ أدرك بيبرس خطورة احياء الخلافة فى بغداد ، ورأى من الأوفق أن تظل تلك الخــلافة تحت اشرافه فى القــاهرة •

ومن هذا المنطلق قام بيبرس باستدعاء أمير آخر من بنى العباس ليحل محل الخليفة المستنصر القتيل • وكان هذا الامير الجديد هو أبو العباس أحمد الذى لقب بالحاكم بأمر الله ، وبايعه الســلطان بالخلافة ، كما حصل بيبرس على تقليد منه بالسلطنة سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٣ م)[٢٨] • وفى تلك المرة لم يحاول السلطان بيبرس ارســال الخليفة الى بغداد ، وانما أبقاه فى القاهرة تحت مراقبته ، بحيث لم يترك له فرصة للظهور واعلاء نفوذه على حساب السلطنة • كذلك استحضر بيبرس بعض أفراد آخرين من بنى العباس ، للتلويح بهم فى وجه الخليفة الحاكم ، اذا حدثته نفسه بالخروج عن الدائرة التى رسمها له السلطان[٢٩] •

وقد حاكى بقية سلاطين المماليك فى مصر الظاهر بيبرس فى الحد من نفوذ الخلفاء العباسيين بالقاهرة ، فصار الوضع طوال العصر المماليكى أن يفوض الخليفة الأمور العامة الى السلطان ، ويكتب له عهدا بالسلطنة ، ويدعى له قبل السلطان على المنابر • وفيما عدا ذلك ينفرد السلطان بكافة شئون الحكم ، فى حين يقنع الخلفاء بالتردد على أبواب السلاطين والامراء لتهنئتهم بالشهور والاعياد[٣٠] • وقد عبر

---

(٢٨) السيوطى : تاريخ اللخفاء ، ص ٣١٨ •

(٢٩) النويرى : نهاية الأرب ، جـ ٢٨ ، ص ١٢٩ (مخطوط) •

(٣٠) يذكر القلقشندى (صبح الاعشى ، جـ ٣ ، ص ٢٧٩) ما نصه « لمــا بايع الظاهر الامام الحاكم بأمر الله ... منعه من التصرف والدخول والخروج ... والذى استقر عليه حال الخلفاء بالديار المصرية ان الخليفة يفوض الامور العامة الى السلطان ويكتب له عنه عهد بالسلطنة ... ويستبد السلطان بما عدا ذلك من الولاية والعزل واقطاع الاقطاعات حتى للخليفة نفسه » •

المقريزى تعبيرا صادقا عن الخلافة العباسية فى وضعها الجديد — بعد احيائها بالقاهرة — فقال ان الخلافة عندئذ « ليس فيها أمر ولا نهى ، وإنما حظه أن يقال له أمير المؤمنين »[٣١] .

بيبرس والصليبيون :

على أن إحياء الخلافة العباسية بمصر ، وتمتع سلاطين المماليك بتقليد منها بالسلطنة ، كان لا يكفى وحده لتبرير اغتصاب المماليك حقوق بنى أيوب فى السلطنة . وقد أحس المماليك منذ البداية أنهم مجرحون ، وأن الأهالى قالوا عن السلطان أيبك انه « مملوك وقد مسه الرق » ، ووصفوا المماليك بأنهم « عبيد خوارج »[٣٢] .

ولا يخفى علينا أن المماليك وجدوا سندا ومبررا لانتزاعهم الحكم فى نجاحهم فى انزال الهزيمة بلويس التاسع وجيشه فى المنصورة وفارسكور ، الأمر الذى تطلب من سلاطين المماليك جهدا متواصلا لصد الأخطار التى هددت المسلمين عندئذ فى الشرق الأدنى ، وذلك لتبرير بقائهم فى الحكم . وكان أكبر خطرين يهددان المسلمين فى الشرق الأدنى عند قيام دولة سلاطين المماليك هما الخطر الصليبى وخطر التتار . وفى مواجهة كل من هذين الخطرين ، أبدى بيبرس ، ومن خلفه من سلاطين المماليك بطولة نادرة وشجاعة كبيرة .

وتبدو مهارة بيبرس السياسية فى أنه حرص أثناء حروبه ضد الصليبيين والتتار . على محالفة بعض القوى الخارجية المعادية لكل من هذين الخصمين ، فحالف الامبراطور البيزنطى ميخائيل باليولوجس ، وعقد معه حلفا دفاعيا (سنة ٦٦٠ هـ — ١٢٦٢ م) لعلمه أن الامبراطورية

---

(٣١) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، جـ ٢ ، ص٢٤٢ (بولاق) .

(٣٢) المقرزى : البيان والاعراب ، ص ٩٠ ، كتاب السلوك ، جـ ١ ، ص ٣٨٦ .

البيزنطية كانت دائما العدو اللدود للصليبيين بالشام(٣٣) . كذلك حالف بيبرس تتار القفجاق أو القبيلة الذهبية عند بحر قزوين ، وهم الذين اعتنقوا الاسـلام ، واشتدت العـداوة بينهم وبين تتـار فارس الوثنيين(٣٤) .

وهكذا خاض بيبرس المعركة ضد الاعداء ، والى جانبه حلفاء يشدون أزره ، ان لم يطمع فى مساعدتهم ، فانه على الأقل يطمئن الى حيادهم ليأمن خطرهم .

أما عن حروب بيبرس ضد الصليبيين فكانت طويلة عنيفة ، امتازت دائما برجحان كفة بيبرس وانتصاره على خصومه . ذلك أنه لم تمر سنة من السنوات العشر الواقعة بين عامى ٦٥٩ هـ ، ٦٦٩ هـ (١٢٦١ — ١٢٧١ م) دون أن يوجه بيبرس حملة صغيرة أو كبيرة ضد الصليبيين بالشام . وفى كل مرة كان بيبرس يحرز نصرا على الصليبيين ويستولى منهم على بعض المعاقل والمدن ، وقد يعقد معهم صلحا لمدة عشـر سنوات ، ولكنه لا يلبث أن يعاود هجومه عليهم بعد قليل(٣٥) .

وقد بـدأت الحرب بين بيبـرس والصـليبيين سنة ٦٦١ هـ (١٢٦٣ م) ، عندما هاجمت جيوشه الناصرة ، كما هاجم بيبرس على رأس قواته مدينة عكا ، ولكنه لم يفلح فى الاستيلاء عليها(٣٦) . على ان الحرب الشاملة التى شنها بيبرس على الصليبيين لم تبدأ الا عام ٦٦٣ هـ (١٢٦٥ م) ، وفيها استولى بيبرس على قيسارية ويافا وعثليث

---

(٣٣) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ، جـ ٩ ، ص ٩٢ — ٩٣ (تحقيق زبيدة عطا) ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ورقة ٤٠٢ ب (مخطوط) ،

(٣٤) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٦٥ ، ابن ايبـك : كنز الدرر ، جـ ٨ ، ص ٩٧ — ٩٨ .

(٣٥) Wiet : L'Egypte Arabe p. 432.

(٣٦) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ١٥٨ وما بعـدها (تحقيق عبد العزيز الخويطر) .

وأرسوف . وفى العام التالى استولى بيبرس على صفد ، ثم على هونين وتبنين ومدينة الرملة(٣٧) .

ولم يغفر بيبرس لملكة أرمينية الصغرى فى قيليقية ، أو لامارتى أنطاكية وطرابلس الصليبيتين ، تحالفها مع التتار ضد المسلمين ، فأخذ يمهد سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٦ م) للقيام بعمل حربى ضد هذه القوى المسيحية ، وأرسل جيشا تحت قيادة الأمير قلاون استولى على بعض القلاع الواقعة شمالى طرابلس لتحقيق ذلك الغرض(٣٨) . وفى صيف سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٦ م) ، وجه السلطان بيبرس حملة كبرى ضد أرمينية الصغرى أثناء غياب ملكها هيثوم الاول فى زيارة لتتار فارس ، ونجح المماليك فى انزال هزيمة كبرى بالأرمن قرب دربساك(٣٩) . (٢٤ أغسطس) .

وقد دمرت جيوش بيبرس فى تلك الغزوة مدن أرمينية الصغرى ، وبخاصة أذنه وطرسوس والمصيصة ، كما أشعلوا النار فى عاصمتها سيس ، وقتل أحد أبناء الملك هيثوم الأول فى الحرب ، فى حين أسر الابن الثانى . وبعد ذلك عاد المماليك الى الشام محملين بالغنائم ، ومعهم آلاف الأسرى من الأرمن(٤٠) .

وأخيرا ، توج بيبرس جهوده ضد الصليبيين بالاستيلاء على

---

(٣٧) العينى : عقد الجمان ، حوادث سنة ٦٦٤ هـ (مخطوط) ، المقريزى : السلوك ، جـ ١، ص ٥٥٠ .

(٣٨) Stevenson : The Crusaders in the East; p. 339.

(٣٩) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٩١٠ — ٩١١ (الطبعة الرابعة ١٩٨٦) .

(٤٠) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٤٠ ، المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ص ٥٥٢ ، سعيد عاشور : سلطنة المماليك ومملكة ارمينية الصغرى ، بحث نشر فى كتاب : بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص ٢٢٥ وما بعدها (بيروت ١٩٧٧) .

أنطاكية فى مايو سنة ١٢٦٨ (١٤ رمضان سنة ٦٦٦ هـ) . وكانت خسارة الصليبيين بضياع أنطاكية من أيديهم ضخمة ، لأنها كانت كبرى امارتهم بالشام ، وثانى امارة أقاموها فى الشرق بعد الرها . لذلك جاء سقوطها ايذانا بانهيار البناء الصليبى بالشام ، بحيث لم يبق للصليبيين بعد ذلك من المدن الكبرى سوى طرابلس وعكا[٤١] .

ثم ان حركة الجهاد التى قام بها بيبرس ضد القوى المسيحية فى الشرق الأدنى لم تقتصر على أرمينية الصغرى والصليبيين بالشام ، وانما امتدت الى جزيرة قبرس . وكانت هذه الجزيرة منذ أواخر القرن الثانى عشر للميلاد تخضع لحكم بيت لوزجنان — الذى يمثل أسرة صليبية — مما مكنها من القيام بدور بارز فى الحروب الصليبية فى أواخر العصور الوسطى . ولم يستطع السلطان الظاهر بيبرس أن يغفر للملك قبرس تهديده لسفن المسلمين فى شرق حوض البحر المتوسط ، أو مساعدته للصليبيين ضد المسلمين بالشام ، فأرسل حملة بحرية سنة ٦٦٨ هـ (١٢٧٠ م) لغزو قبرس[٤٢] . ولكن سفن الاسطول الاسلامى تعرضت لعاصفة شديدة قرب سواحل قبرس ، فتحطم بعضها ، وعاد البعض الآخر دون أن يحقق هدفا[٤٣] .

وهكذا شن بيبرس على الصليبيين حربا لا هوادة فيها ، فاستولى سنة ٦٦٩ هـ (١٢٧١ م) على صافيتا وحصن الاكراد وحصن عكار والقرين . وأخذ يستعد لمهاجمة طرابلس ذاتها لولا وصول الأمير ادوارد الانجليزى الى الشام ، ومعه بضع مئات من المحاربين ، مما جعل بيبرس يخشى أن يكون ذلك مقدمة لحملة صليبية كبيرة[٤٤] .

---

(٤١) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٣٠٧ وما بعدها ، تحقيق عبد العزيز الخويطر) ، ابن أيبك : كنز الدرر ، جـ ٨ ، ص ١٢٦ وما بعدها .

(٤٢) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ، ص ٤٧ — ٤٨ .

(٤٣) العينى : عقد الجمان ، حوادث سنة ٦٦٩ هـ .

(٤٤) Stevenson : The Crusaders in the East; p. 343.

وجدير بالذكر أن حرص بيبرس على تقليم أظافر الصليبيين بالشام دفعه الى استئصال شأفة الباطنية الحشيشية • وكانت هذه الطائفة قد قامت بدور خطير فى المعركة الصليبية ، وأسهمت بدور ملحوظ فى احتلال بلاد الشام فى ذلك العصر • ثم انهم لم يكتفوا باغتيال كثير من زعماء حركة الجهاد الاسلامى ، وانما حالفوا الصليبيين ودفعوا لهم الأموال رمزا للتبعية • لذلك عمل بيبرس على القضاء على الباطنية فى بلاد الشام قضاء مبرما ، فعزل مقدمهم نجم الدين الشعرانى ، واستولى على حصونهم حصنا بعد آخر حتى سقطت جميعا فى يده ، وبذلك أراح البلاد والعباد من شرهم(٤٥) •

بيبرس وتتار فارس :

وفى الوقت الذى قام بيبرس بمحاربة الصليبيين وانتزاع مدنهم وقلاعهم بالشام ، حارب أيضا تتار فارس ، ودفع خطرهم عن بلاد الشام ، ولم يسمح لهم مطلقا بالتقدم غربى الفرات •

والملاحظ عند دراسة حروب بيبرس أنه يصعب فى كثير من الحالات الفصل بين حروبه ضد التتار وحروبه ضد الصليبيين ، بسبب ما كان هناك من تحالف قوى بين التتار والصليبيين ضد المسلمين فى مصر والشام • لذلك كثيرا ما كان يحدث أن يحارب بيبرس التتار والصليبيين فى وقت واحد ، أو يخرج لمحاربة أحدهما فيحارب الآخر •

والواقع أن العداء بين المماليك والتتار لم ينقطع منذ موقعة عين جالوت اذ ظل تتار فارس يتحينون الفرصة للثأر ، ويغيرون بين حين وآخر على أطراف دولة المماليك الشمالية • واذا كان هولاكو خان تتار فارس — قد توفى سنة ٦٦٣ هـ (١٢٦٥ م) فان ابنه وخليفته أبغا واصل سياسة أبيه العدائية تجاه المسلمين من ناحية ، وسياسته الودية تجاه الصليبيين فى الشام وأرمينية الصغرى من ناحية أخرى •

---

(٤٥) عبد العزيز الخويطر : الظاهر بيبرس ، ص ١٢١ — ١٢٧ .

ولكن بيبرس وقف دائما بالمرصاد لتتار فارس ، وحال بينهم وبين ما يشتهون . من ذلك أن بيبرس لم يكد يسمع سنة ٦٦٣ هـ (١٢٦٥ م) باغارة التتار على البيرة — وهى قلعة هامة على الفرات — حتى أرسل حملة سريعة لردهم ، ففر التتار هاربين ، تاركين خلفهم أموالهم وعددهم(٤٦) .

ومن الواضح أن موجة التتار الكاسحة كانت قد انكسرت حدتها عندئذ ، وذلك بعد أن صار تتار فارس فى حالة من الاجهاد والاضطراب لا تمكنهم من القيام بمحاولة كبرى لغزو الشام فى النصف الأخير من القرن الثالث عشر للميلاد (السابع الهجرى) . لذلك لجأ أبغا الى طلب الصلح من بيبرس ، واستخدم فى طلبه مزيجا من الترغيب والتهديد ، اذ أرسل يقول للسلطان « فأنت لو صعدت الى السماء أو هبطت الى الأرض ما تخلصت منا فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحا »(٤٧) . ولكن بيبرس أدرك جيدا أن الصلح مع التتار أمر لا يرضى عنه مسلم ، بعد أن دمروا بغداد ، وقتلوا الخليفة العباسى ، وفعلوا مع المسلمين فى المشرق ما لا يتفق وأبسط المبادىء الانسانية . لذلك رفض بيبرس طلب أبغا للصلح ، وأعلن أنه لن يكف عن التتار حتى يسترد جميع البلاد التى اغتصبوها من المسلمين(٤٨) .

ولما يئس أبغا من الصلح ، أرسل رجاله للاغارة على بلاد الشام سنة ٦٦٨ هـ (١٢٦٩ م) ، فهاجموا الساجور ، ولكنهم ارتدوا خائبين ، وفروا ناكصين على أعقابهم عندما رأوا الجيوش التى أرسلها السلطان لصدهم . ثم عاد التتار مرة أخرى لمهاجمة عينتاب وعمق الحارم سنة ٦٦٩ هـ (١٢٧١ م) ، ولكن غارتهم كانت محدودة الأثر والأهمية .

---

(٤٦) ابن ايبك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ١٠٧ (تحقيق هارمان) .

(٤٧) المقريزى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٥٧٤ (تحقيق محمد مصطفى زيادة) .

(٤٨) العينى : عقد الجمان ، ج ٢٠ ، ورقة ٥٤٩ (مخطوط) .

وفى ذلك الدور ، حاول الامير ادوارد الانجليزى أن يستغل التتار فى مهاجمة المسلمين بالشام ، فأرسل سفارة الى أبغا لهذا الغرض ، ولكن أبغا لم يقدم للصليبيين أكثر من بضعة وعود ، بل انه أرسل الرسل الى السلطان بيبرس مجددا الكلام فى موضوع الصلح • وفى تلك المرة أحسن بيبرس استقبال رسل التتار فى دمشق ، وأرسل معهم بعض الهدايا الى أبغا • ومع ذلك لم يوافق بيبرس على مبدأ الصلح مع التتار ، مما جعلهم يجددون هجماتهم على البيرة سنة ٦٧٠ — ٦٧١ هـ (١٢٧٢ — ١٢٧٣ م)[٤٩] •

وعندما أيقن بيبرس أن التتار تحالفوا مع سلاجقة الروم بآسيا الصغرى ضده ، أعد حملة كبرة سنة ٦٧٣ هـ (١٢٧٦ م) لغزو سلاجقة الروم • وفى موقعة أبلستين حلت الهزيمة ساحقة بالتتار وحلفائهم السلاجقة ، وفر معين الدين سليمان البرواناه — زعيم السلاجقة — بعد أن قتل عدد ضخم من رجاله ، فضلا عمن قتل من التتار[٥٠] • ثم دخل بيبرس قيصرية ، ودعى له على منابرها ، وقدم له أمراء السلاجقة فروض الولاء والطاعة ، وذلك قبل أن ينصرف عائدا الى بلاد الشام • ويقال أن أبغا استشاط غضبا عندما سمع بما فعله بيبرس برجاله فى أبلستين ، وأسرع الى هناك سنة ٦٧٥ هـ (١٢٧٧ م) حيث شاهد الآلاف من رجاله صرعى فى حين لم ير قتيلا من السلاجقة • لذلك أمر بقتل مائتى ألف من السلاجقة المسلمين ، كما قتل البرواناه نفسه[٥١] • ثم كان أن شغل أبغا بالاضطرابات داخل دولته ، مما صرفه عن القيام بعمل آخر ضد المماليك •

---

(٤٩) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٤٠٤ (تحقيق عبد العزيز الخويطر) ، المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ، ص ٦٠٢ •

(٥٠) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، جـ ٩ ، ص ١٣٥ وما بعدها (تحقيق زبيدة محمد عطا) •

(٥١) رشيد الدين الهمذانى : جامع التواريخ ، جـ ٢ ، ص ٦٢ — ٦٣ (نقله الى العربية محمد صادق نشأت وفؤاد عبد المعطى الصياد) ، أبو الفدا : المختصر ، حوادث ٦٧٥ هـ •

أبنـاء بيبرس :

لم يلبث أن توفى الظاهر بيبرس بدمشق سنة ٦٧٦ هـ (١٢٧٧ م) بعد أن قام بنشاط ضخم فى دعم دولة سلاطين المماليك وارساء قواعدها والدفاع عنها ضد أعدائها ، وبخاصة الصليبيين والتتار . والواقع أن الظاهر بيبرس يعتبر المؤسس الحقيقى لدولة سلاطين المماليك ، لأن الفترة الطويلة نسبيا التى قضاها فى الحكم ، مكنته من القيام بكثير من المشاريع الداخلية والخارجية التى أضفت على دولة المماليـك الناشئة قدرا من الاستقرار والهيبة كانت فى أمس الحاجة اليهما .

ثم ان حروب بيبرس الطويلة ضد التتار والصليبيين لم تصرفه عن تأمين حدود مصر الجنوبية ، فأرسل حملة كبيرة الى مملكة النوبة المسيحية سنة ٦٧٤ هـ (١٢٧٦ م) ، نجحت فى اخضاعها واجبار ملكها على دفع الجزية[٥٢] . هذا بالاضافة الى ما قام به بيبرس من تثبيت نفوذه فى بلاد الحجاز ، وما قام به فى مصر من تحصين الثغور والعناية بالأسطول ، وما استحدثه من وظائف ونظم ادارية ... بحيث يمكن القول بأن دولة سلاطين المماليك اتخذت فى عهد بيبرس طابعها الخاص المميز الذى ظلت عليه حتى أوائل القرن العاشر الهجرى، السادس عشر للميـلاد[٥٣] .

وكان بيبرس — بوصفه أحد المماليك — لا يحترم مبدأ الوراثة فى الحكم . ومع ذلك فقد غلبت عليه غريزة الأبوة ، فأراد أن يتحدى طبيعة المماليك ونظامهم ، وأن يورث العرش لابنه البكر السعيد بركة . وقد ظن بيبرس أن ولاية ابنه عهد السلطنة فى حياته ، وجعل الأمراء يقسمون يمين الطاعة لذلك الابن ، كفيل بأن يضمن استقرار الأمور

---

(٥٢) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ، ص ٢٣٤ — ٢٣٨ .

(٥٣) سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ٤١ وما بعدها ، الظاهر بيبرس : ص ١٢٨ وما بعدها .

للابن بعد وفاة الأب . وفعلا أقسم الامراء يمين الطاعة للملك السعيد بركة سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦٢ م) ، وجعله بيبرس نائبا عنه فى مصر أثناء انشـغاله بعد ذلك بمحاربة الصليبيين والتتار . وفى سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٤ م) أقام بيبرس احتفالا كبيرا قرىء فيه تفويض عهد السلطنة للملك السعيد على القضاة والفقهاء والأمراء(٥٤) . ومع ذلك ، فان بيبرس لم يطمئن تماما الى ما سيفعله الامراء بابنه ، فحرص — وهو على فراش الموت — على أن يوصى الملك السعيد بأن يأخذ حذره من كبار الأمراء « فهؤلاء الامراء الاكابر يرونك بعين الصبى . فمن بلغه عنك ما يشوش عليك ملكك ، وتحققت ذلك عنه ، فاضرب عنقه فى وقته ، ولا تعتقله ، ولا تستشر أحدا فى هذا ، وافعل ما أمرتك به ، والا ضاعت مصلحتك »(٥٥) .

وما كادت تمضى على وفاة بيبرس فترة قصيرة حتى تحقق ظنه . ذلك أن أكابر الامراء تظاهروا فى غمرة الأسى التى صحبت وفاة السلطان باحترامهم العهد ، ونودى بالملك السعيد بركة سلطانا . ولكن أمراء المماليك الذين لم يؤمنوا مطلقا بمبدأ الوراثة فى الحكم ، أخذوا ينظرون الى الملك السعيد « بعين الصبى » ، فسببوا له المتاعب الجمة فى مصر والشام جميعا .

ولم يلبث أن اتهم الامراء السلطان الملك السعيد بركة بدس السم للأمير بدر الدين بيليك نائب السلطنة . وهكذا « اضطربت أمور الملك السعيد » وتعاقب بعض الامراء فى نيابة السلطنة . وكلما ولى أحدهم ذلك المنصب لجأت بطانة السلطان الى تخويفه منه ، فيبعده(٥٦) .

---

(٥٤) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٦٨ — ٥١٥ ، النويرى : نهاية الأرب ، جـ ٢٨ ، ورقة ١٦٠ (مخطوط) .

(٥٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ورقة ٢٤٠أ (مخطوط) .

(٥٦) المقريزى : كتاب السـلوك ، جـ ١ ، ص ٦٤٣ — ٦٤٤ (تحقيق محمد مصطفى زيادة) .

ويذكر المقريزى أن الملك السعيد قرب اليه صغار الامراء ، فنفرت منه قلوب كبار الامراء ، « فانهم كانوا يأنفون من تملك الملك الظاهر عليهم ، ويرون أنهم أحق منه بالملك ، فصار ابنه الملك السعيد يضع من أقدارهم ، ويقدم عليهم المماليك الأصاغر »(٥٧) .

وفى سنة ٦٧٧ هـ (١٢٧٨ م) خرج السلطان بركة الى دمشق ، فظن أمراء دمشق أنه يريد بهم سوءا وفروا من وجهه . وعبثا حاول السلطان أن يسترضيهم ليعودوا ، ولكنهم قالوا : « لا سبيل الى مراجعته ، وقد انصدعت القلوب وجرت بهذه الخطوب ! »(٥٨) . وعندما علم السلطان السعيد بركة أن هؤلاء الامراء ينوون السير الى مصر لخلعه ، أسرع بالعودة ، ولم يستطع دخول القلعة الا فى صعوبة بالغة . على أن الامراء بادروا بحصاره فى القلعة وشددوا عليه الحصار ، « وقطعوا الماء عن القلعة وطمعوا فيه وحاصروه ثلاثة أيام » . وهكذا حتى ساء موقفه ، فاضطر الى التنازل عن السلطنة بحضور الخليفة والقضاة والامراء سنة ٦٧٨ هـ (١٢٧٩ م)(٥٩) .

ولم يعد للسعيد بركة مقام فى مصر بعد خلعه من السلطنة ، فخرج الى الكرك حيث توفى بعد قليل ، قبل أن ينقضى عامان على قيامه فى منصب السلطنة . وقد عرضت السلطنة — بعد عزل الملك السعيد بركة — على أقوى أمراء البحرية وهو الامير قلاون الألفى ، ولكنه كان يدرك أن الامور لم تنضج عندئذ نضجا كافيا ، فتظاهر بالزهد ، وقال : « أنا لم أخلع الملك السعيد شرها الى السلطنة وحرصا على المملكة ، ولكن حفظا للنظام ... والأولى ألا يخرج الامر من

---

(٥٧) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ٦٤٥ .

(٥٨) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ١٥٢ وما بعدها (تحقيق زبيدة محمد عطا) .

(٥٩) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٤٥ (تحقيق محمد مصطفى) ؛ المقريزى : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٦٥٥ .

درية الملك الظاهر »(٦٠) . وهكذا اختير الابن الثانى لبيبرس — وهو الامير بدر الدين سلامش — سلطانا سنة ٦٧٨ هـ (١٢٧٩ م) ، فى حين غدا الامير قلاون أتابكا للسلطان الجديد ، أى وصيا عليه . وبهذه الطريقة حقق قلاون هدفه ، لأن السلطان كان فى السابعة من عمره ، فاستغل قلاون وصايته للاستئثار بالسلطة ، والتخلص من المماليك الظاهرية .

وعندما اطمأن قلاون تماما الى أن الامور غدت مهيأة لاعتلائه منصب السلطنة ، أعلن أنه « لا فائدة من بقاء ذلك الصبى الصغير ، لانتشار السمعة فى البلاد ، وامتهان الحرمة فى أنفس الحواضر والبواد » .

وهكذا تم عزل بدر الدين سلامش سنة ٦٧٨ هـ (١٢٧٩ م) ، قبل أن تمر على قيامه فى السلطنة ثلاثة أشهر ، وحل محله الامير سيف الدين قلاون الصالحى(٦١) .

---

(٦٠) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ، ص ٦٥٦ ، بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، جـ ٩ ، ص ١٥٣ (تحقيق زبيدة محمد عطا) .

(٦١) أبو الفدا : المختصر فى اخبار البشر ، جـ ٤ ، ص ١٢ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٢٨٧ — ٢٨٩ ، ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ١١٤ .

الفصل الرابع

بيت قـــلاون

يتمتع بيت قلاون بأهمية خاصة فى تاريخ دولة سلاطين المماليك • فمع أن المماليك لم يؤمنوا بمبدأ وراثة الملك ـ كما سبق أن أشرنا ـ الا أن بيت قلاون شذ عن هذه القاعدة ، واستطاع أن يحتفظ بمنصب السلطنة فى ذرية المنصور سيف الدين قلاون مدة طويلة أربت على قرن (٦٧٨ ــ ٧٨٤ هـ / ١٢٧٩ ــ ١٣٨٢ م) ، مما يعتبر حالة فريدة فى تاريخ دولة سلاطين المماليك •

هذا الى أن العصر الذى حكم فيه بيت قلاون يمثل عصر الازدهار فى الدولة المماليكية ، اذ نضجت فى ذلك العصر كافة خصائص تلك الدولة ، واكتملت معالمها ، وازدهرت حضارتها ، وذلك بعد أن انتهى الدور التأسيسى الذى نهض به السلطان الظاهر بيبرس ، وبعد أن أثبت المماليك قدرتهم على الحكم ، وعلى مواجهة الاخطار الكبرى التى هددت مصر والشام فى ذلك العصر •

وليس هناك شك فى أن الفضل يرجع الى السطان المنصـــور قلاون فى ارساء هيبة بيته فى النفوس ، وفى احاطة اسمه واسم أسرته بهالة المجد والعظمة ، مما جعل المعاصرين يتمسكون بأبنائه وأحفاده من بعده ، ويرون فى بيت قلاون رمزا للقوة والعظمة والاســـتقرار والنهضة فى الداخل ، والأمن والسلام فى الخارج •

الأمير سيف الدين قلاون الصالحى :

وكان الامير سيف الدين قلاون أحد المماليك البحرية الصالحية • وهو قبجاقى الجنس ، اشتراه الامير علاء الدين آقسنقر الساقى

العادلى — أحد مماليك العادل أبى بكر الايوبى — بألف دينار ، وهو مبلغ كبير بالنسبة لمتوسط أسعار المماليك فى ذلك الوقت ، مما يشير الى ما تميز به ذلك المملوك من مواهب وصفات رفعت من قيمته ، « وغالى فى قيمته لحسنه وصورته فعرف بالألفى »(١) ولما مات الامير علاء الدين ، انتقل قلاون الى الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فصار لقبه « الألفى العلائى الصالحى النجمى » .

وسرعان ما أخذ قلاون يرتقى بسرعة حتى وصل الى درجة الامارة وغدا من أبرز أمراء طائفة البحرية . وقد لمع اسمه فى الاحداث التى صحبت قيام دولة سلاطين المماليك ، حتى فر من مصر بصحبة البحرية عقب مقتل زعيمهم فارس الدين أقطاى ، وذلك فى عهد السلطان أيبك . ثم عاد قلاون الى مصر عندما حركب أحداث التتار روابط الاتحاد بين البحرية وقطز . وهكذا حتى كانت سلطنة الظاهر بيبرس فبرز الامير قلاون فى صورة أقوى أمراء الدولة ، وقويت مكانته عند السلطان بيبرس واعتمد عليه فى كثير من المهام الحربية والسلمية(٢) .

على أن مجتمع المماليك قام الى حد كبير على أســاس الشك والتحاسد ، لأن المماليك اعتبروا أنفسهم زملاء متساويين ، لا فضل لأمير على آخر ، فالكل كانوا رقيقا فى يوم من الايام ، جلبوا من بلادهم ، ونشأوا نشأة واحدة . لذلك يبدو أن قلاون أحس بشعور الغيرة عندما وجد أحد زملائه — وهو بيبرس — يلى منصب السلطنة ، وان كان قلاون لم يستطع أن يعبر عن ذلك الشعور لقوة بيبرس ودهائه . وفى ذلك يقول المقريزى عن كبار الامراء انهم « كانوا يأنفون من تملك الملك الظاهر عليهم ، ويرون أنهم أحق منه بالملك »(٣) . ولابد أن

---

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، ج٣ ، ورقة ٣٧ (مخطوط) .

(٢) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢٣٨ (بولاق) .

(٣) المقريزى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٦٤٥ (تحقيق محمـــد مصطفى زيادة) .

يكون بيبرس — وهو الرجل الذكى المشبع بروح المماليك — قد أحس بوزن الامير قلاون وعظم مكانته ، مما كان يهـدد تطلعات بيبرس بخصوص حفظ منصب السلطنة من بعده لابنه الملك السعيد بركة . لذلك لجأ بيبرس الى حيلة قوية ظن أنها تضمن بقاء العرش من بعده لابنائه ، وهى أنه زوج ابنه الملك السعيد بركة من غازية خاتون — ابنة الأمير قلاون — سنة ٦٧٤ هـ (١٢٧٥ م) ، وبذلك ظن أن قلاون لن يطمع فى انتزاع الملك من زوج ابنته(٤) .

ولكن أطماع أمراء المماليك فى منصب السلطنة كانت أقوى بكثير من روابط المصاهرة ، فلم يكد بيبرس يموت ، حتى أخذ قلاون يخطط لتحقيق أطماعه فى الحكم ، وان كان حريصا على عدم الكشف عن نواياه . ولم يكن قلاون فى تخطيطه هذا غادرا أو مغتصبا أو معتديا على حقوق زوج ابنته . وانما كان — وفقا للعقلية المماليكية — مطالبا بحق مشروع طال السكوت عنه . ويكفى أنه رضى بالظاهر بيبرس — وهو زميله — سلطانا ؛ فلا مبرر بعد ذلك للخضوع لأبناء الظاهر وهم فى نظره صبيان صغار ، لم يكونوا مماليكا فى يوم من الايام .

وكان قلاون على قدر من الذكاء وبعد النظر ، جعله ينفذ أطماعه بطريقة تدريجية بطيئة . ذلك أنه لم يعترض سـبيل الملك السعيد بركة عندما ولى السلطنة بعد أبيه ، وانما تركه يمضى فى حياته الخاصة ، مسرفا فى اللهو ، دون أن يحاول نصحه أو اصلاحه . وعندما اشتد حصار الامراء على السلطان بركة سنة ٦٧٨ هـ (١٢٧٩ م) ، وأرسل الاخير الى حميه الامير قلاون يطلب مساعدته ، نصح قلاون زوج ابنته بالتخلى عن السلطنة(٥) . وكان فى وسع قلاون أن يعتلى دست السلطنة بعد عزل الملك السعيد بركة مباشرة ، ولكنه أمعن فى التظاهر بالزهد ، فأقر بأن يتولى الحكم أخو بركة ، وهو الامير بدر الدين

---

(٤) أبو الفدا : المختصر ، جـ ٤ ، ص ١٥٥ .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٢٧٩ .

سلامش ابن الظاهر بيبرس ، فى حين قنع الامير سيف الدين قلاون بأن يكون أتابك العساكر فى عهد السلطان الجديد[٦] .

وهكذا أخذ قلاون — وهو أكبر أمراء الدولة وأقواهم — يتصرف فى حكمة بالغة — دون أن يستثير حقد بقية الامراء . ومن الواضح أن قلاون كان الحاكم الفعلى للبلاد بعد وفاة بيبرس ، وبخاصة فى عهد سلامش الذى كان طفلا لم يتجاوز السابعة من عمره ، مما جعل الكلمة الاولى والاخيرة فى شئون الحكم للأتابك سيف الدين قلاون . وحسب الامير قلاون فى ذلك الدور أن النقود كانت تسك وعلى أحد وجهيها اسم سلامش ، وعلى الوجه الآخر اسم قلاون ، كما ذكر اسم قلاون جنبا الى جنب مع اسم العادل سلامش فى خطبة الجمعة[٧] .

ولم يضع الامير قلاون تلك المدة القصيرة التى قضاها فى الوصاية على السلطان الصغير سدى ، وانما أخذ يمكن لنفسه فى شتى أرجاء الدولة وأجهزتها ، فقبض على نسبة كبيرة من المماليك الظاهرية — وهم مماليك الظاهر بيبرس المخلصين له ولأبنائه — وعزل كثيرا من الولاة والنواب الذين كان الظاهر بيبرس وابنه السعيد بركة قد عينوهم بالولايات ، وأحل محلهم جماعة من أنصاره . كذلك تخلص قلاون من بعض الأمراء المنافسين له — أو الذين توهم منافستهم له فى منصب السلطنة . وأرسل الامير شمس الدين سنقر الى دمشق ليكون نائب السلطنة بالشام . أما زملاؤه من المماليك البحرية ، فقد أحسن اليهم ، وأغدق عليهم الاقطاعيات ليستميلهم الى جانبه[٨] .

---

(٦) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، جـ ٢ ، ص ٢٣٨ (بولاق) .

(٧) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، جـ ٣ ، ورقة ٣٧ (مخطوط) ، ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ، جـ ٣ ، ص ٢٠٤ (تحقيق احسان عباس) .

(٨) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، جـ ٩ ، ص ١٥٦ (تحقيق زبيدة عطا) .

وأخيرا تأكد قلاون من أن جميع الامور باتت معدة ليتولى منصب السلطنة ، فدعا الامراء وتحدث معهم فى صغر سن سلامش ، وقال لهم « قد علمتم أن المملكة لا تقوم الا برجل كامل » . فاستقر الرأى على خلع سلامش وتولية الامير سيف الدين قلاون منصب السلطنة سنة ٦٧٨ هـ (١٢٧٩ م) . وهكذا لم يبق سلامش فى دست السلطنة أكثر من ثلاثة شهور ، أرسل بعدها — مع أخيه خضر — الى قلعة الكرك ، منفى أبناء السلاطين المعزولين فى عصر سلاطين المماليك[٩] .

سلطنة المن[illegible] ٦٨٩ هـ / ١٢٧٩ — ١٢٩٠ م)

أجمع المؤرخون على وصف السلطان قلاون بأطيب الصفات وأنقاها ، فبيبرس الدوادار قال عنه أنه « كان حليما ، عفيفا فى سفك الدماء ، مقتصدا فى العقاب ، كارها للأذى »[١٠] وابن فضل الله العمرى وصفه بأنه « كان رجلا مهيبا شجاعا »[١١] . أما ابن أيبك الدوادارى فقد وصفه بأنه « كان ملكا جليلا جميلا كبيرا أثيرا رحيما حليما رؤوفا شفوقا لا عسوفا ، تام الخلق حسن الخلق ، وافر الكمال ، بديع الجمال ، حسن الهيبة فى الرحال ، تام القامة ، عظيم الهامة ، مليح الوجه ، ظاهر اللون ، وافر الهيبة ، عظيم الشأن ، كثير الاحسان ... »[١٢] . وقال أبو الفدا « لما تولى السلطان الملك

---

(٩) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ص ٦٥٨ (تحقيق محمد مصطفى زيادة) ، ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ١ ص ١١٤ (تحقيق محمد مصطفى) ، Wiet : L'Egypte Arabe, p. 54.

(١٠) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، جـ ٩ ص ١٥٦ (تحقيق زبيدة عطا) .

(١١) ابن فضل الله العمرى : مسالك الابصار ، جـ ١٦ ورقة ٦٥٠ (مخطوط) .

(١٢) ابن أيبك الدوادارى : كنز الدرر وجامع الغرز — الجزء الثامن المعروف باسم « الدرة الزكية فى اخبار الدولة التركية » . ص ٣٠٢ — ٣٠٣ (تحقيق هارمان) .

المنصور ، أقام منار العدل ، وأحسن سياسة الملك ، وقام بتدبير المملكة أحسن قيام »[١٣] . وفى ضوء هذه المشاعر الطيبة ، يمكننا أن نفسر بقاء الحكم فى بيت قلاون مدة طويلة .

ولم يكد قلاون يعتلى العرش حتى أخذ يتقرب الى النـاس بالافعال الطيبة . واذا كان بعض المؤرخين قد أخذ عليه حبه لجمع المال[١٤] ، فان الاموال التى جمعها قلاون استخدمها فى اقامة العديد من المنشآت الحيوية التى خلدت اسمه ، والتى أشهرها المدرسـة والبيمارستان ، وهى مؤسسـات « لم يسبقه الى ذلك فيها أحد قديما ولا حديثا ، شرقا ولا غربا »[١٥] . هذا عدا القلاع التى جددها بالشام ، والحروب التى قام بها ضد الصليبيين والتتار ، مما استنفذ أموالا طائلة .

ولم يسلم السلطان المنصور قلاون من الثورات الداخلية التى تعرض لها معظم سلاطين المماليك فى مستهل حكمهم ، « فلم يبلع ريقه » — على قول المؤرخ ابن تغرى بردى — حتى خرج عليه الامير شمس الدين سنقر الاشقر نائب الشام . ويبدو أن الامير سنقر عز عليه أن يتولى الامير قلاون منصب السلطنة متخطيا اياه — وهو زميله — فدعا أهل الشام الى الخروج عن طاعة قلاون . بل ان سنقر الاشقر نادى بنفسه سلطانا ، وتلقب بالملك الكامل . ولكن الامير سنقر لم يجد استجابة من أهل الشام ، وامتنع أهل دمشق عن تأييده ، فى الوقت الذى بادر قلاون بارسال جيش قوى أنزل به الهزيمة سنة ٦٧٩ هـ (١٢٨٠ م) . وعندئذ فر سنقر الى المشرق ، وحاول أن يتصل بالتتار ويزين لهم غزو بلاد الشام .

---

(١٣) ابو الفدا : المختصر فى اخبار البشر ، جـ ٤ ص ١٢ .
(١٤) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ، ص ٦٧٦ وما بعدها .
(١٥) مفضل ابن ابى الفضائل : النهج السديد ، جـ ٢ ص ٣٢٢ .
(تحقيق بلوشيه Blochet) .

وفى العام التالى تآمر بعض الامراء الظاهرية — من مماليك الظاهر بيبرس — ضد السلطان قلاون ، واتصلوا بالصليبيين سرا ، ولكن قلاون كشف المؤامرة ، وعاقب المتآمرين بالاعدام والسجن ٠

ويبدو أن احساس قلاون بموقف المماليك الظاهرية منه ، جعله يفكر جديا فى انشاء عصبية لنفسه من المماليك ، يعتمد عليها فى مواجهة ما يصادفه من أخطار داخلية وخارجية ٠ لذلك أكثر السلطان قلاون من شراء المماليك ، حتى تراوح عدد مماليكه بين سبعة آلاف واثنا عشر ألف مملوك ، معظمهم من عنصر الجركس ، وكون منهم فرقة جديدة ، واختار أن يربيهم فى أبراج القلعة ، ولذا عرفوا بالمماليك البرجية[١٦] ٠

وبعد أن تخلص السلطان قلاون من الاخطار الداخلية التى واجهته ، بدأ ينصرف نحو التتار والصليبيين الذين ما فتئوا يهددون بلاد الشام بين فينة وأخرى ٠ وكان الامير سنقر الاشقر قد استولى على عدة قلاع بالشام ، أهمها قلعة صهيون ، ومن هناك أرسل يستنجد بالتتار والصليبيين جميعا ، ضد خصمه السلطان قلاون[١٧] ورأى تتار فارس فرصة سانحة فى تلك الاحداث الداخلية التى تعرضت لها دولة سلاطين المماليك : فأرسل أبغا فى سنة ٦٧٩ هـ (سبتمبر سنة ١٢٨٠ م) قوة احتلت بعض القلاع فى شمال الشام ٠ ثم تقدم التتار صوب حلب فاقتحموها وأحرقوا مساجدها ومدارسها ، وقتلوا كثيرا من أهلها ٠ غير أنه يبدو أن غزوة التتار للشام فى تلك السنة كانت من قبيل الغزوات الاستكشافية ، بدليل أنهم أسرعوا بالانسحاب الى ما وراء نهر الفرات

---

(١٦) ابن دقماق : الجوهر الثمين ، ص ٢٠٦ — ٢٠٨ (تحقيق المؤلف) ٠

(١٧) ابو الفدا : المختصر فى اخبار البشر ، ج ٤ ، ص ١٢ (حوادث سنة ٦٧٩ هـ) ٠

عندما علموا بأن السلطان قلاون قد وصل الى غزه فى طريقه اليهم ليضربهم[١٨] .

ومع ذلك ، فان غزو التتار للشام سنة ٦٧٩ هـ (١٢٨٠ م) نبه قلاون الى الخطر الذى يحيق به نتيجة لتحالف أعدائه الثلاثة وهم التتار والصليبيون وسنقر الاشقر . فالتتار هاجموا بلاد الشام عندئذ بناء على استغاثة الامير سنقر . وفى الوقت نفسه استغل الصليبيون فرصة اغارة التتار ، وحاولوا استرداد حصن الاكراد سنة ٦٧٩ هـ (أكتوبر سنة ١٢٨٠ م) ، وان كانت محاولتهم هى الاخرى قد باءت بالفشل[١٩] .

لذلك اتبع قلاون سياسة استهدفت التفرقة بين خصومه ، وعدم تمكينهم من الاتحاد ضده ، حتى يتمكن من منازلة كل منهم على حدة . واختار قلاون أن ينزل ضربته الرئيسية بالتتار ، فعقد صلحا سنة ٦٨٠ هـ (مايو سنة ١٢٨١ م) لمدة عشر سنوات مع القوى الصليبية فى بلاد الشام ، ممثلة فى الداوية والاسبتارية وبوهيموند السابع أمير طرابلس . أما سنقر الاشقر — خصم قلاون العنيد — فقد عفا عنه السلطان فيما بعد ، سنة ٦٨٦ هـ (١٢٨٧ م) ، وأجزل له العطاء ، وعينه حاكما على اقليم أنطاكية[٢٠] . هـذا فى الوقت الذى وقف الصليبيون فى عكا موقف الحياد بين السلطان قلاون وخصومه ، بل يرجـع الفضـل اليهم فى تنبيـه قلاون الى المؤامرة التى دبرها الظاهرية ضده .

وكان أن خرج أبغا بنفسه الى الشام على رأس جيش كبير من التتار سنة ٦٨٠ هـ (١٢٨١ م) . وقد دالف التتار فى غزوتهم هذه

---

(١٨) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٢٩٩ ،
Wiet : L'Egypte Arabe p. 445

(١٩) King : The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 282.

(٢٠) النويرى : نهاية الأرب ، جـ ٢٩ ورقة ٣٧٠ (مخطوط) .

ليو الثالث ملك أرمينية الصغرى . وانقسم جيش التتار الى شعبتين ، فاتجه أبغا الى الرحبة ، فى حين أرسل أخاه منكوتمر على رأس جيش كبير الى جهة حمص[٢١] . وفى موقعة حمص التى دارت بين السلطان قلاون والتتار سنة ٦٨٠ هـ (٣٠ أكتـوبر ١٢٨١ م) حلت الهزيمة ساحقة بالتتار ، وولوا الادبار الى شرقى الفرات ، بعد أن « هلك منهم خلق كثير »[٢٢] .

وما دام السلطان قلاون قد أحرز هذا النصر ، فانه لم يبق أمامه الا أن ينتهز الفرصة لينزل ضربة بالصليبيين ، على الرغم من أنه كان قد عقد معهم صلحا لمدة عشر سنوات ، لم تنقض منها سوى أربع سنوات فقط . وفعلا هاجم قلاون فى سنة ٦٨٤ هـ (١٢٨٥ م) الاسبتارية فى حصن المرقب — وهو من أخطر الحصون الصليبية ببلاد الشام ، ونجح فى الاستيلاء عليه ، مما سبب للصليبيين خسارة فادحة[٢٣] .

وفى الوقت الذى كان المماليك يتأهبون للاجهاز نهائيا على الكيان الصليبى بالشام ، لم ينتبه الصليبيون الى حقيقة الخطر الذى يتهددهم ، واستمروا غارقين فى منازعاتهم الداخلية ، وهى المنازعات التى ميزت تاريخ الصليبيين بالشام فى النصـف الاخير من القرن الثالث عشر للميلاد[٢٤] . وقد انتهز السلطان قلاون فرصة انشغال الصليبيين بتلك المنازعات ، وأرسل حملة استولت على اللاذقية سنة ٦٨٦ هـ (ابريل ١٢٨٧ م) ، وهى آخر مدينة تبقت للصليبيين من امارة أنطاكية .

---

(٢١) ابن حبيب : تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه ، جـ ١ ، ص ٦٢ (تحقيق محمد محمد أمين) .

(٢٢) رشيد الدين الهمذانى : جامع التواريخ ، جـ ٢ ، ص ٨٣ .

(٢٣) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ، ص ٧٢٨ ، ابو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٨٤ هـ ، ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور ، ص ٧٧ وما بعدها (تحقيق مراد كامل) .

(٢٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٩٢٥ (الطبعة الرابعة ١٩٨٦) .

وشاء سوء حظ الصليبيين عندئذ أن يموت بوهيموند السابع أمير طرابلس دون وريث ، فقام فى امارته نزاع داخلى حول الحكم ، واستنجد فريق من المتنازعين بالسلطان قلاون[٢٥] .

وكان أن أسرع قلاون الى افتراص الفرصة « فتجهز لأخذ طرابلس » ، وخرج من مصر على رأس جيشه فى فبراير سنة ١٢٨٩ م . وكان جيش السلطان المنصور قلاون كبيرا — يزيد على أربعين ألف فارس ومائة ألف من المشاة — ، فلم تستطع طرابلس مقاومة الحصار الذى فرضه عليها السلطان ، وسقطت فى قبضته سنة ٦٨٨ هـ (ابريل سنة ١٢٨٩)[٢٦] .

ولم يلبث المسلمون أن استولوا على المراكز التى أخلاها الصليبيون قرب طرابلس — مثل بيروت وجبلة — ، وبذلك لم يبق للصليبيين من ملكهم العريض فى بلاد الشام سوى عكا وصيدا وصور وعثليث[٢٧] . ومن الواضح أن عكا كانت أعظم هذه المدن وأمنعها ، فضلا عن كونها المركز الجديد لملكة بيت المقدس الصليبية بعد استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس . ومع ذلك فان المنصور قلاون اتجه بعد استيلائه على طرابلس الى دمشق ، حيث وافق على تجديد الهدنة مع الصليبيين لمدة عشر سنوات[٢٨] .

وبينما الصليبيون فى الشام يخطبون ود السلطان قلاون ، ويرجون أن تبقى لهم البقية الباقية من ممتلكاتهم بالشام ، اذا ببعض الجموع الصليبية تفد من ايطاليا سنة ٦٨٩ هـ (١٢٩٠ م) لتفسد الجو بين المسلمين والصليبيين . ذلك أن أولئك الصليبيين الجدد وصلوا الى عكا

---

(٢٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٣٢٠ — ٣٢١ .
(٢٦) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ، ص ٧٤٦ — ٧٤٧ .
(٢٧) Grousset : Op. cit., III, p. 145.
(٢٨) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٦٣١ (١٩٨٦) .

وهم يفيضون حماسة ، وفى الوقت نفسه ينقصهم النظام والخبرة وضبط النفس • وكانوا أن بدأوا فور وصولهم بالعدوان على المسلمين خارج أسوار عكا ، مما أنذر بتجدد الحرب بين المسلمين والصليبيين • ويقال ان السلطان قلاون استشاط غضبا عندما رأى بعض ملابس ضحايا المسلمين مضرجة بالدماء ، وأقسم على أن ينتقم لهم من الصليبيين • وفى الوقت الذى أخذ قلاون يستعد فى مصر والشام للقيام بعمل حربى كبير ضد الصليبيين فى عكا ، اذا بالسلطان يموت فجأة سنة ٦٨٩ هـ (١٠ نوفمبر سنة ١٢٩٠ م) • وكانت وفاته بمسجد التبر خارج القاهرة — قرب المطرية — « وقد برز اليه عازما على فتح عكا »(٢٩) •

السلطان الأشرف خليل والاستيلاء على عكا :

لم يتعظ السلطان المنصور قلاون بما حدث لأبناء بيبرس بعد وفاته ، لاسيما وأنه كان هو نفسه مسئولا عن خلع ابنى الظاهر بيبرس واحدا بعد آخر من دست السلطنة • وكان أن غلبت غريزة الابوة على المنصور قلاون وهو فى الحكم فأراد أن يعهد بالسلطنة من بعده لابنه الاكبر • بل ان المنصور قلاون تمادى فلم يكتف بتولية ابنه الاكبر ولاية عهد السلطنة فى حياته ، وانما أراد أن يقيم ذلك الابن — وهو علاء الدين على — سلطانا فى حياته ، وفعلا تمت هذه الخطوة سنة ٦٧٩ هـ (١٢٨٠ م) ، فأقيم حفل بالقلعة قرىء فيه تقليد علاء الدين على بن قلاون بحضور الامراء والكبراء ، ولقب السلطان الجديد بلقب « الملك الصالح »(٣٠) •

---

(٢٩) ابن حبيب : تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه ، جـ ١ ، ص ١٣٥ (تحقيق محمد محمد أمين) .

(٣٠) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ، جـ ٩ ، ص ١٦٧ — ١٧٠ (تحقيق زبيدة عطا) . ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ، ص ٢٠٠ (تحقيق مراد كامل) .

ولكن شاءت الظروف أن يموت الملك الصالح علاء الدين على بن قلاون سنة ٦٨٧ هـ (١٢٨٨ م) بعد أن قضى ثمان سنوات سلطانا فى حياة أبيه . وزاد من حزن قلاون على ابنه علاء الدين ، أن الابن الثانى — وهو خليل — كان مكروها من الامراء ، لما عرف عنه من قسوة وعدم تمسك بأصول الدين ، بل لقد اتهمه البعض بأنه هو الذى دس السم لأخيه علاء الدين[٣١] . ومن الثابت تاريخيا أن ولاية العهد للامير خليل كتبت فعلا فى حياة أبيه ، ولكن السلطان قلاون لم يوقعها . وسواء كان عدم التوقيع راجعا الى عدم ارتياح قلاون لأن يخلفه ابنه خليل فى حكم المسلمين — كما ذكر بعض المؤرخين — أو الى انشغال قلاون بأمر الصليبيين حتى دهمه الموت فجأة ، فالمهم هو أن السلطان المنصور قلاون توفى دون أن يعتمد ولاية العهد لابنه خليل[٣٢] .

ومع ذلك ، فان ما قام به السلطان قلاون فى حياته من اعلان ابنه علاء الدين سلطانا فى حياته بموافقة الامراء ، وما أعقب ذلك من كتابة ولاية العهد لابنه الثانى خليل — بعد وفاة علاء الدين على — كل ذلك جعل خليلا لا يصادف صعوبة فى المناداة به سلطانا عقب وفاة أبيه سنة ٦٨٩ هـ (١٢٩٠ م) ، لاسيما وأن الموقف كان يتطلب قيام سلطان جديد بسرعة ليقود الحملة التى كان السلطان قلاون قد أعدها للثأر من الصليبيين فى عكا . وهكذا أقسم الامراء الايمان للسلطان الجديد — الذى لقب بالأشرف — سنة ٦٨٩ هـ (١٢٩٠ م) . وبدأ السلطان الاشرف خليل يتأهب للخروج على رأس الحملة الى الشام .

على أن الامور لم تتم للسلطان الجديد فى يسر وسهولة ، دون أن

---

(٣١) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ، ص ٧٩٢ — ٧٩٣ (تحقيق محمد مصطفى زيادة) .

(٣٢) المصدر السابق — نفس الجزء ، ص ٦٨٣ ، ٨٥٠ ، ابن بردى تغرى : النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ص ٣٢٠ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ١٠ ص ١٦٦ — ١٧٣ ، النويرى : نهاية الأرب ، جـ ٢٩ ورقة ٢٩٣ (مخطوط) .

بتعرض للمنافسة التقليدية التى تعرض لها معظم سلاطين المماليك من جانب كبار الامراء . ذلك أن الامير حســام الدين طرنطاى ــ نائب السلطنة ــ عز عليه ألا يعتمد السلطان الاشرف خليل عليه مثلما كان يفعل والده . وكان السلطان خليل يحمل له فى قلبه كراهية قديمة ، ولذلك دبر الامير طرنطاى مؤامرة للتخلص من الاشرف خليل . وفى الوقت الذى تفاءل الصليبيون فى عكا بسبب الاحداث الجارية فى داخل دولة المماليك ، من وفاة السلطان المنصور قلاون وتآمر الامير طرنطاى ضد السلطان الجديد ، اذا بالسلطان الاشرف خليل يكتشــف عن المؤامرة بسرعة ، فقبض على حسام الدين طرنطاى وقتله بعد أن صادر ممتلكاته ، كما أعطى اقطــاعه للامير بدر الــدين بيدرا الــذى أصــبح نائب السلطنة[٣٣] .

وعندما علم الصليبيون فى عكا أن السلطان الاشرف خليل تغلب على الصعاب التى واجهته ، وأنه بصدد الخروج لمحاربتهم ، حاولوا استرضاءه وثنيه عن عزمه ، فأرسلوا اليه سفارة « يسألون العفو » ، ولكن السلطان « لم يقبل منهم ما اعتذروا به »[٣٤] . وكان أن اجتمعت الجيوش الاسلامية من مصر وبلاد الشــام أمام عكا سنة ٦٩٠ هـ (أوائل ابريل سنة ١٢٩١ م) ، وشرع المســلمون فى حصار المدينة ورميها بالمجانيق رميا متواصلا . وقد بذل الصليبيون جهدا مستميتا فى الدفاع عن عكا ، ولكن جهودهم ذهبت مع الريح ، فاقتحم المسلمون المدينة بالسيف فى ١٨ مايو سنة ١٢٩١ م (٦٩٠هـ) ، « وقتلوا وغنموا شيئا يفوق الحصر من كثرته » . أما الصليبيون فقد فر منهم كثيرون

---

(٣٣) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، جـ ٩ ، ص ٢٥٤ — ٢٥٥ (تحقيق زبيدة عطا) .

(٣٤) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٧٦٢ .

فى السفن الى عرض البحر ، حيث غرقت بعض السفن بسبب كثرة من حملته من الفارين[٣٥] •

ولا شك فى أن استيلاء المسلمين على عكا كان بمثابة الضربة الكبرى الختامية التى حلت بالصليبيين بالشام ، بحيث لم يبق للصليبيين بعد ذلك مقام فى تلك البلاد • ولم يصادف المسلمون صعوبة بعد ذلك فى الاستيلاء على ما تبقى فى أيدى الصليبيين من مراكز قليلة ، مثل صور وصيدا وأنطرطوس وعثليث[٣٦] ، بحيث كان السلطان الاشرف خليل بن قلاون هو بطل آخر صفحات الحروب الصليبية بأرض الشام •

على أن نجاح الاشرف خليل فى طرد آخر البقايا الصليبية من الشام لم يشفع له لدى كبار الامراء ، الذين ازداد حنقهم عليه لاستخفافه بهم • ويبدو أن نجاح الاشرف خليل فى الاستيلاء على عكا جعله يتمادى فى كبريائه وتعاظمه على كبار أمراء المماليك الذين ضاقوا به ذرعا ، وأخذوا يفكرون فى التخلص منه • وقد تزعم حركة التآمر على الاشرف خليل الامير بدر الدين بيدرا نائب السلطنة الذى ساءت العلاقة بشكل خطير بينه وبين السلطان • ذلك أن الوزير شمس اليدن بن السلعوس أخذ يوغر صدر السلطان خليل ضد بيدرا ، وأوهمه أن مقتنيات بيدرا ازدادت وتضخمت بشكل يهدد السلطان نفسه • وكان أن قام الاشرف خليل باستدعاء بيدرا بحضور الامراء « وأغلظ له فى الكلام ••• وتوعده بأشد الوعيد ، وتهدده أتم التهديد »[٣٧] •

---

(٣٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٦ — ٧ ، ابو الفدا : المختصر ، سنة ٦٩٠ هـ ، ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج ١ ، ص ١٣٧ (تحقيق محمد محمد أمين) •

(٣٦) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٩٣٥ — ٩٣٦ (الطبعة الرابعة) •

(٣٧) المقريزى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٧٨٢ — ٧٨٣ ، بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ٢٧٥ •

ولم يلبث أن أحس السلطان الاشرف خليل بتغير بيدرا عليه « حتى خاف أن يسطو فى ذاك الوقت عليه ، أو يمد اليد بالاذى اليه » . لذلك حاول السلطان أن يسترضيه — بعد فوات الاوان — ، وأرسل اليه مائة ألف دينار ليطيب خاطره بها[٣٨] . ولكن بيدرا كان قد أحكم خطته فعلا بالاشتراك مع بعض كبار الامراء — مثل حسام الدين لاجين ، وشمس الدين قراسنقر ، وسيف الدين بهادر — وجميعهم كانوا حانقين على السلطان لما نالهم من أذى على يديه . وعند خروج الاشرف خليل للصيد سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٣ م) تبعه الامراء المتآمرون . ولم يلبث أن ضربه بيدرا بالسيف ، ثم تبعه بقية الامراء حتى أجهزوا عليه[٣٩] .

السلطان الناصر محمد بن قلاون :

تكررت عقب مقتل الاشرف خليل نفس التمثيلية التى أعقبت مقتل السلطان قطز ، اذ اجتمع المتآمرون ، وقر رأيهم على أن يلى بطل المؤامرة عرش السلطنة . وكان أن حلف الامراء يمين الولاء للامير بدرا وقبلوا له الارض ، ولقبوه بالملك الاوحد[٤٠] . ولم يبق بعد ذلك سوى أن يغادر السلطان الجديد وشركاؤه مسرح الجريمة عند توجهه باقليم البحيرة فى طريقهم الى القاهرة ، ليحتل بيدرا دست السلطنة بالقلعة . ولكن المماليك الاشرفية — وهم مماليك الاشرف خليل بزعامة زين الدين كتبغا المنصورى — لم يتركوه يصل الى القاهرة سليما ،

---

(٣٨) مفضل بن ابى الفضائل : كتاب النهج السديد ، جـ ٢ ، ص ٤٠٣ — ٤٠٤ .

(٣٩) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، جـ ٩ ، ص ٢٧٥ — ٢٧٦ (تحقيق زبيدة عطا) .

(٤٠) وقيل الملك الامجد ، وقيل الملك القاهر ، وقيل الملك الرحيم . انظر : ابو الفدا : المختصر ، جـ ٤ ، ص ٣٠ . ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ١٢٧ ، تاريخ ابن الوردى ، جـ ٢ ، ص ٢٣٨ . ويقول ابن أيبك (كنز الدرر ، جـ ٨ ، ص ٣٤٨) : « ولقبوه الملك القاهر ، قلت : لا ، بل هو الملك العاهر لا القاهر ! » .

اذ ما كادوا يسمعون بمقتل أستاذهم حتى أسرعوا فى تعقب بيدرا ، وأنزلوا به الهزيمة ، ثم قتلوه وهو لا يزال فى البحيرة(٤١) .

وهكذا خلا المسرح من الاشرف خليل وبدر الدين بيدرا جميعا ، وظهر بطل جديد — هو سيف الدين كتبغا — الذى سار صحبة رجاله الى القاهرة لينادى بنفسه سلطانا فى القلعة . ولكن الامير علم الدين سنجر الشجاعى — الذى كان الاشرف خليل قد أنابه عنه فى قلعة الجبل قبل خروجه للصيد — حال بين كتبغا وبين دخول القاهرة ، حتى انتهت المفاوضات بين الطرفين باختيار الملك الناصر محمد بن قلاون سلطانا(٤٢) ، فى حين ولى الامير زين الدين كتبغا المنصورى نيابة السلطنة ، وتلقب بالملك الاوحد(٤٣) .

وكان الناصر محمد بن قلاون طفلا صغيرا فى التاسعة من عمره عندما ولى السلطنة لأول مرة سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٣ م) . ومن الواضح أن اختيار الامراء له لم يكن ناجما عن احترام شخصيته ، أو رعاية لأحقيته فى الحكم بوصفه ابن السلطان المنصور قلاون . وانما اختاره الامراء وفقا لسياستهم التقليدية وحسما للموقف بينهم وبين بعض ، حتى تظهر شخصية قوية بين صفوفهم تستطيع الاطاحة بذلك الطفل واحتلال مكانه فى الحكم . وفعلا قضى الناصر محمد سنة فى الحكم كان شبه محجور عليه بالقلعة ، فى حين استبد بأمور الدولة الامير علم الدين سنجر الشجاعى ، ثم الامير كتبغا المنصورى . وعندما أدرك كتبغا ازدياد نفوذ الشجاعى بدرجة تهدد مكانته ، تخلص منه بالقتل(٤٤) .

---

(٤١) المقريزى . كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٧٩٢ .

(٤٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٤١ ، مفضل بن ابى الفضائل : كتاب النهج السديد ، ص ٥٧٥ .

(٤٣) ابن حبيب تذكرة النبيه ، ج ١ ، ص ١٦٩ (تحقيق محمد محمد أمين) .

(٤٤) المقريزى كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٧٩٧ — ٨٠١ (تحقيق محمد مصطفى زيادة) .

وقد لجأ كتبغا الى العفو عن بعض الامراء الذين شاركوا فى قتل الاشرف خليل — مثل الامير حسام الدين لاجين والامير قراسنقر — فأثار ذلك المماليك الاشرفية • وكان أن اتخذ حسام الدين لاجين تلك الثورة ذريعة ليزين للأمير كتبغا عزل الناصر محمد واعلان نفسه سلطانا بدله ، « فمتى كبر الناصر محمد لا يبقيك البتة ... والمصلحة خلعه وسلطنتك »[٤٥] •

وهكذا جمع الامير كتبغا الامراء ، وتشدق بنفس الاسطورة القديمة التى سبق أن رددها قطز وقلاون ، فقال لهم : « لقد فسدت الاحوال ، لكون السلطان صغير السن ، وطمع المماليك فى حق الرعية ، ومن الرأى أن نولى سلطانا كبيرا يقمع المماليك عن هذه الافعال »[٤٦] • وعلى هذا الوجه تم عزل الناصر محمد الصغير من السلطنة سنة ٦٩٤ هـ (١٢٩٤ م) وحل محله كتبغا •

السلطان العادل كتبغا :

كان السلطان العادل كتبغا الذى تولى السلطنة سنة ٦٩٤ هـ (١٢٩٤ م) تترى الاصل ، ويقال انه من أسرى موقعة حمص (سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م) • وقد تشاءم الناس من كتبغا عندما ولى السلطنة ، لأن قيامه فى الحكم جاء مصحوبا بانخفاض النيل واشتداد المجاعة وارتفاع الاسعار وانتشار الوباء[٤٧] • ويذكر المقريزى أن جميع الناس بالقاهرة ترددت على ألسنتهم عبارة واحدة يوم ركوب كتبغا بشعار السلطنة ، هى « يا نهار الشوم ! ان هذا نحس ! »[٤٨] •

---

(٤٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٨ ، ص ٤٨ — ٤٩ •

(٤٦) ابن ایاس : بدائع الزهور ، جـ ١ ق ١ ، ص ٣٨٦ (تحقيق محمد مصطفى) •

(٤٧) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ، ص ٨١٣ — ٨١٤ (تحقيق محمد مصطفى زيادة) •

(٤٨) المصدر السابق — نفس الجزء — ص ٨٠٧ •

وزاد من كراهية الناس لكتبغا وحكمه أنه وفد على مصر فى عهده جماعة من بنى جنسه من التتار ، عرفوا باسم العويراتية أو الاويراتية ، فرحب بهم كتبغا ، وبالغ فى اكرامهم ، رغم أن معظمهم كانوا وثنيين ، وان كانوا قد أعلنوا انهم « يرغبون فى دين الاســلام » . وكانت أعدادهم كبيرة ، اذ قاربوا « عشرة آلاف بيت بحريمهم وأولادهم ومواشيهم » ، فأدى ترحيب كتبغا بهم الى استثارة شعور الاهالى ، والى نقمتهم على السلطان العادل كتبغا وحكمه(٤٩) .

وعلى الرغم من أن السلطان كتبغا عفا عن الامير حسام الدين لاجين الذى شارك فى قتل الاشرف خليل ، كما عين ذلك الامير نائبا للسلطنة ، الا أن لاجين لم يلبث أن طمع فى السلطنة ، مستغلا عوامل الكراهية التى أخذت تتجمع ضد كتبغا . ويردد بعض المؤرخين أن أمراء الشــام غضبوا على كتبغا لأنه عزل الامير عز الدين أيبــك الحموى — نائب السلطنة بالشام — وولى أحد مماليكه بدله . فضلا عن أن كتبغا — عندما زار دمشق لأول مرة بعد سلطنته ســنة ٦٩٤ هـ — لم يوزع على الأمراء ما جرت به عادة السلاطين السابقين من منح وانعامات(٥٠) .

وكان أن دبر الأمير حسام الدين لاجين مؤامرة لقتل كتبغا أثناء عودته من الشام الى مصر ، واختير موضــع قرب طبرية لتنفيــذ المؤامرة . غير أن كتبغا تمكن من الفرار ، وعاد الى دمشق ، فى حين أعلن حسام الدين لاجين نفسه سلطانا ، وبايعه الأمراء ، وأتى الى القاهرة حيث دخل القلعة ، وتلقب بالسلطان المنصور(٥١) .

---

(٤٩) ابن ايبــك : كنز الدرر وجامع الغرر ، جـ ٨ ، ص ٣٦١ (تحقيق هارمان).

(٥٠) مفضل بن ابى الفضــائل : كتاب النهج الســديد ، جـ ٢ ، ص ٥٩٢ — ٥٩٤ .

(٥١) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ، ص ٨٢٢ — ٨٢٣ .

السـلطان المنصـور لاجـين :

اعتلى السلطان المنصور حسام الدين لاجين دست السـلطنة سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) ، فى حين وجد كتبغا نفسه مغلوبا على أمره ، فقبل ما عرضه عليه لاجين من التنازل عن الحـكم ، والاقامة فى صرخد ، من أعمال دمشق(٥٢) .

على أن كتبغا لم يكن العقبة الوحيدة التى واجهت السلطان لاجين فى بداية حكمه ، وانما هناك الناصر محمد بن قلاون الذى كان لا يزال مقيما فى القلعة على مقربة من أهل القاهرة الذين نظروا اليه دائما على أنه صاحب حق شرعى فى السلطنة . لذلك تحايل السلطان المنصـور لاجين على ابعاد الناصر محمد الى قلعة الكرك سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) ، بعد أن أوهمه أنه سيعيده الى عرشه عندما يبلغ سن الرشـد ، وأنه يقوم بالوصاية على العرش بدله لصغر سنه(٥٣) .

كذلك يبدو أن لاجين نظر بعين القلق الى مقام الخلافة العباسية الى جواره بقلعة الجبل ، فنقل الخليفة الحاكم بأمر الله العباسى الى مناظر الكبش بجوار الجامع الطولونى(٥٤) .

وكان الأمراء قد اشترطوا على لاجين ـ عند مبايعته سلطانا ـ ألا يجابى مماليكه على حسابهم ، وألا ينفرد برأى ، « وألا تخول مملوكك منكوتمر فى التحكم والتدبير ، فتضل » . وعندئذ تعهد لهم

---

(٥٢) وقد ظل كتبغا مقيما فى صرخد حتى انعم عليه الناصر محمد ـ فى سلطنته الثانية ـ بحماة واعمالها ، نظل بها الى ان توفى سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م) انظر :

ابو الفدا : المختصر ، جـ ٤ ، ص ٣٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٨ ، ص ٦٧ .

(٥٣) النويرى : نهاية الأرب ، جـ ٢٩ ، ورقة ٣١٥ (مخطوط) .

(٥٤) ابن حبيب : تذكرة النبيه ، جـ ١ ، ص ١٩٥ (تحقيق محمـد محمد أمين) .

لاجين بكل ذلك ، وقال لهم « أنا واحد منكم ، ولا أخير نفسى عنكم ، ولست موليا عليكم من مماليكى أحدا »[٥٥] • ولكن سرعان ما نسى لاجين وعوده بعد أن استتبت له الأمور ، فعزل شمس الدين قراسنقر — الذى كان قد عينه أولا نائبا للسلطنة — وعين بدله فى منصبه مملوكه منكوتمر « وفوض اليه الأمور كلها » ، مما جاء بداية للمتاعب التى واجهت السلطان لاجين •

ذلك أن منكوتمر لم يلبث أن استثار الأمراء بتضبيقه عليهم ، وتشككه فيهم ، واقصائهم عن مناصب الدوله ، واحلال غيرهم من مماليك السلطان لاجين محلهم • بل ان منكوتمر تسلط على السلطان لاجين تسلطا غريبا « فاستحوذ على عقل مخدومه ، واستولى عليه وحجبه عن الخاصة والعامة » • ويبدو أن منكوتمر أعد نفسه لأن يخلف لاجين فى منصب السلطنة ، لاسيما وأن الاخير لم يكن له ولد يحرص على أن يوليه عهد السلطنة ، الأمر الذى أثار حنق الأمراء ، وجعلهم يفكرون فى التخلص من لاجين « لا لذنب سبق منه لأحد ، الا لأجل نائبه منكوتمر فقط »[٥٦] • ولم يلبث أن انتهى الأمر بقتل لاجين — وهو جالس بالقلعة يلعب الشطرنج سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٨ م) ، ثم قتل منكوتمر بعده بقليل[٥٧] •

---

(٥٥) بيبرس الدوادار : زبدة الفكر ، جـ ٩ ، ص ٢٩٥ (تحقيق زبيدة عطا) ،

مفضل بن ابى الفضائل : النهج السديد ، جـ ٢ ، ص ٥٩٦ •

(٥٦) ابن ايبك : كنز الدرر ، جـ ٨ ، ص ٣٧٦ (تحقيق هارمان) ، النويرى : نهاية الأرب ، جـ ٢٩ ، ورقة ٣١٩ ، ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، جـ ٣ ، ورقة ٦٧ (مخطوط) •

(٥٧) مفضل بن ابى الفضائل : كتاب النهج السديد ، ص ٦١٤ ، ابن ايلس : بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ١٣٧ — ١٣٨ (تحقيق محمد مصطفى) •

سلطنة الناصر محمد الثانية :

لم توجد بين أمراء المماليك — عقب مقتل لاجين ومنكوتمر شخصية كبرى تستطيع أن تسيطر على الموقف وتستأثر بالسلطنة ، فاضطر كبار الأمراء — وسط ذلك الفراغ — الى التفكير فى الناصر محمد بن قلاون ، الذى كان يقضى أيامه فى الكرك ، والذى ظل دائما يبدو فى صورة صاحب الحق الشرعى فى السلطنة • وكان أن استحضر الناصر محمد الى مصر ليتولى منصب السلطنة للمرة الثانية (٦٩٨ — ٧٠٨ هـ / ١٢٩٨ — ١٣٠٨ م) ، فاستقبل فى القاهرة استقبالا حماسيا رائعا من المماليك وعامة الناس سواء ، وتفاءل الناس بمقدمه ، وأقاموا الزينات فى طريقه حتى صعد الى القلعة • وهناك فى القلعة جددت له البيعة ، وأخذ يباشر سلطانه ، فعين الأمير سيف الدين سلار نائبا للسلطنة ، والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير استادارا ، كما فرق الخلع على أعيان الدولة ، ووزع على مماليك أبيه العطايا والهدايا(٥٨) •

وكان أخطر ما تعرضت له دولة سلاطين المماليك فى ذلك الدور ، تجدد هجمات التتار على بلاد الشام • ذلك أن جيوش غازان أوغلت فى بلاد الشام سنة ٦٩٧ هـ (١٢٩٨ م) وأنزلت الهزيمة بالمماليك عند مجمع المروج ، بين حمص وحماة • ويبدو أن مقاومة المماليك فى الشام انهارت بعد تلك الهزيمة ، فدخل غازان دمشق وعاث رجاله فيها فسادا • على أن غازان اكتفى بذلك ، وعاد الى بلاده بعد أن عين نائبا عنه فى دمشق • وكان ذلك فى الوقت الذى خرج من مصر جيش كبير من المماليك على رأسه السلطان الناصر محمد سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٩ م) • ولم يستجب المماليك لطلب غازان مهادنتهم ، وانما

(٥٨) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٨ ، ص ١١٥ — ١١٦ •

دخلوا دمشق(٥٩) ، الأمر الذى استثار غازان فخرج من بلاده شرقى الفرات سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م) قاصدا غزو الشام من جديد . وفى موقعة مرج الصفر التى دارت قرب دمشق فى تلك السنة ، حلت الهزيمة قاسية بالتتار ، الأمر الذى جعل الناس يتفاءلون بالناصر محمد رغم صغر سنه ، ويستقبلونه استقبالا حافلا فى دمشق والقاهرة(٦٠) .

ومع ذلك ، فان السلطان الناصر محمد كان لا يستطيع بأى حال الوقوف فى وجه كبار أمراء المماليك الذين اشتدت ضراوتهم ، ومرنوا التلاعب بكبار السلاطين ، فما بالنا بصبى صغير كان لا يزال عندئذ فى الرابعة عشر من عمره . لذلك كانت سلطنة الناصر محمد الثانية اسمية ، بعد أن ضيق الأميران سلار وبيبرس الجاشنكير الخناق عليها ، وحالا بينه وبين الاتصال بالناس أو التصرف فى أمواله(٦١) . بل لقد بلغ الأمر بالسلطان الناصر محمد عندئذ أنه كان اذا اشتهى لونا معينا من الطعام أرسل التماسا برغبته الى الأمير سلار . ويروى المؤرخون أنه حدث أن أرسل الناصر محمد الى الامير سلار يبلغه أنه يشتهى تناول بعض الحلوى والأوز ، فرد الامير سلار على حامل الطلب صائحا « وايش يعمل السلطان بالأوز ؟ هو الأكل عشرون مرة بالنهار ؟ ! »(٦٢) .

وأخيرا ضاق السلطان الناصر محمد بذلك الحجر المفروض

---

(٥٩) النويرى : نهاية الأرب ، جـ ٢٩ ، ورقة ٣٣١ ،
بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، جـ ٩ ، ص ٣١٥ — ٣١٦ (تحقيق زبيدة عطا) .

(٦٠) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ، ص ٩٣٨ (تحقيق محمد مصطفى زيادة) .

(٦١) ابو الفدا : المختصر ، جـ ٤ ، ص ٥٤ .

(٦٢) العينى : عقد الجمان ، حوادث سنة ٧٠٢ هـ ،
ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٨ ، ص ١٧٥ ، ٢٧٥ .

عليه ، فاستدعى الأمير بكتمر الجوكندار لمساعدته فى التخلص من الأميرين سلار وبيبرس الجاشنكير . ولكن هذين الأميرين علما بالمؤامرة ، فحاصرا القلعة للقبض على الناصر محمد ومنعه من الهروب ، مما أثار اشتباكا بين المماليك السلطانية وأتباع الأميرين . وجدير بالذكر أن الرأى العام بالقاهرة كان يعطف على السلطان الناصر محمد الصغير عطفا لا حدود له ، فلم يكد العامة يعرفون بما حدث من محاصرة الناصر محمد بالقلعة ، حتى تجمعوا أخذوا يرددون « يا ناصر يا منصور ! .. الله يخون من يخون ابن قلاون ! »(٦٣) . ولأول مرة نسمع عن تغلب ارادة الشعب فى عصر سلاطين المماليك ، فوجد بيبرس الجاشنكير وسلار نفسيهما فى مأزق إزاء مناصرة الرأى العام للسلطان الصغير ، فاضطرا الى الانحناء أمام العاصفة ، وجددا الولاء للناصر محمد بعد أن نفى عن نفسه أية نوايا سيئة تجاههما ، وأعلن أن أحدا من الأمراء لم يحرضه ضدهما(٦٤) .

ولكن اذا كانت العاصفة قد هدأت ، فان هدوءها كان فى الظاهر ، لأن سلار وبيبرس ظلا يضمران الكراهية للناصر محمد ، فى حين أن الناصر نفسه كان غير مرتاح الى وضعه ، ويخشى على نفسه عاقبة غدر هذين الأميرين . وأخيرا ضاق السلطان الصغير بحياته التى قضاها حبيس القلعة ، وأدرك تعذر التغلب على سلار وبيبرس بعد أن « تجاوزا الحد فى الانفراد بالأموال والأمر والنهى »(٦٥) . لذلك فكر الناصر محمد فى الهروب من السلطنة ، فتظاهر برغبته فى أداء فريضة الحج ، وخرج من مصر قاصدا الحجاز عن طريق الكرك . ولكنه ما كاد يصل الى الكرك سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٨ م) ، حتى كشف عن نواياه ، فدعا من يرافقه من الأمراء والمماليك ، وأخبرهم أنه اختار

---

(٦٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٨ ، ص ١٧٣ .

(٦٤) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ٤١٩ — ٤٢٠ . (تحقيق محمد مصطفى) .

(٦٥) ابو الفدا : المختصر ، جـ ٤ ، ص ٥٥ .

الحياة فى الكرك حرا ، وأنه راغب فى التحرر من السلطنة وقيودها . ثم أرسل السلطان الناصر محمد الى كبار الأمراء بمصر يخبرهم بقراره[٦٦] .

وكان أن ارتبك الأمراء فى مصر عندما وصلتهم رسالة الناصر محمد ، لأنهم لم يكونوا مستعدين لمواجهة مثل ذلك الموقف ، فأرسلوا اليه يطلبون منه العودة الى مصر ، والا حرموه من السلطنة ومن الاقامة فى الكرك . ولكن الناصر محمد أصر على رأيه ، ورد عليهم قائلا « دعونى أنا فى هذه القلعة منعزلا عنكم الى أن يفرج الله تعالى اما بالموت واما بغيره ... » . وعندئذ عرض الأمراء على سلار منصب السلطنة ، ولكنه تخوف من أن يحل به ما حل بكتبغا ولاجين ، لا سيما وأن أحوال الدولة كانت مرتبكة عندئذ ، ولا تبشر بخير . لذلك اعتذر سلار عن قبول المنصب ، وأشار الى زميله بيبرس الجاشنكير ، وقال : « والله يا أمراء ، أنا ما أصلح للملك ، ولا يصلح له إلا أخى هذا ! » وكان أن بايع الأمراء بيبرس الجاشنكير بالسلطنة[٦٧] .

السلطان المظفر بيبرس الجاشنكير :

تولى بيبرس الجاشنكير منصب السلطنة سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٨ م) وبادر فور اعتلائه دست السلطنة باصدار تقليد بمنح الناصر محمد الكرك . على أنه اذا كان لسلطان بيبرس (الثانى) قد ظن أن الأمور ستهدأ بعد ذلك ، فان آماله لم تلبث أن انهارت بسرعة . ذلك أن الناصر محمد ظل يتمتع دائما بشعبية كبيرة فى مصر والشام ، بحيث لم يستطع الناس أن ينسوه بسهولة .

---

(٦٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٨ ، ص ١٧٨ — ١٧٩ .

(٦٧) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ٢ ، ص ٤٦ (تحقيق محمد مصطفى زيادة) .

وقد عين السلطان المظفر بيبرس الجاشنكير الأمير سلار نائبا له . ولكن شاءت الظروف أن يأتى قيام بيبرس الجاشنكير فى الحكم مصحوبا بانخفاض النيل وارتفاع الاسعار « فحصل لأرباب المعايش البوار ، وانقطعت بوادر التجار »[٦٨] وقد فسر الناس ذلك بسوء طالع السلطان الجديد ، فصاروا يطوفون شوارع القاهرة وهم يرددون « سلطاننا ركين (تصغير ركن الدين بيبرس) ، ونائبنا دقين (يقصدون الأمير سلار ، وكان أجردا بذقنه شعيرات قليلة) ، يجينا الماء منين ؟؟ جيبوا لنا الأعرج (يقصدون الناصر محمد وكان به عرجا خفيفا) ، يجى الماء ويدحرج !! »[٦٩] .

ثم إن كثيرين من أمراء الشام رفضوا الاعتراف بالسلطان المظفر بيبرس ، وبخاصة نواب حلب وحماه وطرابلس ، الذين أبوا التراجع عن موقفهم وأعلنوا ولاءهم لبيت قلاون . بل لقد بلغ الأمر بهولاء الأمراء الثلاثة أنهم اجتمعوا وأرسلوا الى الناصر محمد بالكرك يستأذنونه فى القدوم عليه بالكرك لمناصرته ، « فاما أن نأخذ له الملك ، وإما أن نموت على خيولنا »[٧٠] .

أما الناصر محمد نفسه ، فكان كلما تقدم به الوقت ازداد نضجا ، وتنبه الى حقوقه فى الحكم والى سلطانه المسلوب . وبعبارة أخرى ، فان الناصر محمد صار فى سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٩ م) غير ما كان عليه سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٤ م) ، اذ فعلت فيه هذه السنوات الخمس عشرة — منذ عزله أول مرة — الكثير : فصقلته ، وأكسبته قدرا كبيرا من التجربة ، وبخاصة فى معاملة الأمراء .

---

(٦٨) ابن ايبك : كنز الدرر وجامع الغرر ، الجزء التاسع المسمى « الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر » ، ص ١٦٣ (تحقيق رويمر) .

(٦٩) المقريزى : كتاب السلوك ، ج ٢ ، ص ٥٥ .

(٧٠) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٢٢٧ .

وكان المظفر بيبرس قد علم بما دار من اتصالات بين الناصر محمد وأمراء الشام ، فأرسل الى الناصر يهدده ويقول له : « إذا أنت لم ترجع عن مكاتبتك للامراء والا نقلتك من الكرك الى القسطنطينية ، كما فعل الأشرف خليل مع أولاد الملك الظاهر بيبرس البندقداري »[٧١] . بل لقد بلغ الأمر بالسلطان بيبرس الجاشنكير أن أرسل الى الناصر محمد بالكرك ، يطلب منه ما لديه من خيل ومماليك[٧٢] وعندئذ غضب الناصر محمد غضبا شديدا ، وصاح : « أنا خليت ملك مصر والشام لبيبرس ، وما يكفيه حتى ضاقت عينه على فرس عندى أو مملوك لى ! ؟ » . وفى الحال أرسل الناصر محمد الى حلفائه من أمراء الشام يقول لهم « أنتم مماليك أبى وربيتمونى ، فاما أن تردوه عنى ، وإلا أسير الى بلاد التتار »[٧٣] .

وسرعان ما أخذ الناصر محمد ينظم صفوفه لاسترداد سلطنته المفقودة ، فترك كثيرا من الأمراء جانب بيبرس الجاشنكير وهربوا اليه . ويذكر ابن حبيب أنه حدث فى سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) أن « سار جماعة من الأمراء والمماليك السلطانية من الديار المصرية ؛ مفارقين طاعة السلطان الملك المظفر بيبرس ، ووصلوا الى السلطان الناصر ممحد بالكرك ، وأعلموه بما الناس عليه من طاعته ومحبته . ووصلت اليه المكاتبات من البلاد الشامية »[٧٤] .

وعندما زار الناصر محمد دمشق ، استقبله أهلها بحفاوة بالغة ،

---

(٧١) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٤٢٦ (تحقيق محمد مصطفى) .

(٧٢) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، جـ ٣ ، ص ٤٦٩ (تحقيق نبيل محمد عبد العزيز) .

(٧٣) المقريزى : السلوك ، جـ ٢ ، ص ٥٦ .

(٧٤) ابن حبيب : تذكرة النبيه ، جـ ٢ ، ص ١٧ (تحقيق محمد محمد أمين) .

وأقيمت الخطبة باسمه يوم الجمعة ٢٢ شعبان سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) .
أما المظفر بيبرس فقد ساء موقفه وانفض عنه معظم رجاله ، فحاول أن يقوى مركزه بالحصول على بيعة جديدة من الخليفة العباسى فى القاهرة — وهو أبو ربيعة سليمان الملقب بالمستكفى — ، ولكن كل ذلك لم يجد نفعا أمام التفاف الناس حول الناصر محمد وحبهم له .
هذا الى أن الخليفة العباسى فى القاهرة كان لا حول له ولا قوة ، حتى أنه عندما قرأ أحد أمراء المماليك العهد الذى منحه الخليفة سليمان للسلطان المظفر بيبرس ، ووجده يستهل بقوله تعالى « انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم » ، رد الأمير على الفور قائلا « ولسليمان الريح !! »[٧٥] .

وأخيرا اعتزم الناصر محمد — ومن حوله انصاره — الانتقال الى مصر . وعندئذ وجد بيبرس الجاشنكير نفسه وحيدا ، لا أحد يتعاطف معه ، ولا جيش يسنده . وكان أن دعا الأمراء لمشاورتهم فى الأمر ، فأشار عليه بعضهم بالنزول عن العرش واستسماح الناصر محمد ليعفو عنه . ولم يكن بوسع بيبرس الجاشنكير أن يفعل غير ذلك ، « فخلع نفسه من السلطنة »[٧٦] ، وغادر القلعة ليلا قاصدا أطفيح ، ومن خلفه العامة يطاردونه حتى أوسعوه سبا ، وأوشكوا على الفتك به لولا « أنه أشغلهم بشىء من الفضة نثرها لهم ، والا كان قتل لا محالة »[٧٧] .

وعلى هذا الوجه انتهت سلطنة بيبرس الجاشنكير .

---

(٧٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٨ ، ص ٢٦٢ .
(٧٦) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، جـ ٣ ، ص ٤٧١ (تحقيق نبيل محمد عبد العزيز) .
(٧٧) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٤٣٠ (تحقيق محمد مصطفى).

سلطنة الناصر محمد الثالثة : (٧٠٩ – ٧٤١ هـ / ١٣٠٩ – ١٣٤٠ م)

ما كاد الملك المظفر بيبرس الجاشنكير يغادر القلعة هاربا فى مساء يوم الثلاثاء سادس عشر رمضان ، حتى أصبح الحراس بقلعة الجبل يوم الاربعاء سابع عشرة « يصيحون باسم الملك الناصر » . وفى يوم الجمعة تاسع عشرة « خطب على منابر القاهرة ومصر باسم الملك الناصر ، وأسقط اسم الملك المظفر »[٧٨] .

أما السلطان الملك الناصر محمد ، فانه خرج من دمشق فى الثانية من نهار يوم الثلاثاء سادس عشر رمضان ، وهى الساعة التى خلع فيها الملك المظفر بيبرس نفسه من الملك . واتجه الناصر محمد الى مصر مارا بغزة ، يرافقه رجاله واتباعه ومؤيدوه . وكان المؤرخ أبو الفدا يرافق السلطان فى رحلته هذه ، فوصف كيف أنه بوصول الناصر محمد الى غزة ، قدم اليه عسكر مصر وأمراؤها من المقدمين ، بحيث « كان يلتقى مولانا السلطان فى كل يوم وهو سائر طلب بعد طلب من الأمراء والمماليك والأجناد ، يقبلون الارض ، ويسيرون صحبة الركاب الشريف »[٧٩] وهكذا حتى دخل القلعة مساء أول أيام عيد الفطر سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) . « وأصبح السلطان يوم الخميس جالسا على تخت الملك وسرير السلطنة ، وحضر الخليفة أبو الربيع والأمراء والقضاة وسائر أهل الدولة للهناء »[٨٠] .

وكان الناصر محمد عندما ولى السلطنة للمرة الثالثة سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) فى الخامسة والعشرين من عمره ، أى فى سن تمكنه من مباشرة شئون الحكم بنفسه . وكان أن بدأ بمعاقبة الأمراء الذين سبق

---

(٧٨) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ٢ ، ص ٧١ (تحقيق محمد مصطفى زيادة) .

(٧٩) ابو الفدا : المختصر ، جـ ٤ ، ص ٥٧ .

(٨٠) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ٢ ، ص ٧٣ .

لهم أن استخفوا به وآذوه ، فقبض على بيبرس الجاشنكير عند غزة وهو يحاول الفرار ، وأعدمه بعد أن عنفه وذكره بمواقفه منه[٨١] أما سلار ، فقد ألقى به فى السجن حتى مات[٨٢] وهكذا تنبه الناصر محمد فى تلك المرة الى مطامع الأمراء ، فصار كلما سمع بتآمر أمير ، أو شك فى تصرفاته ، تخلص منه فى الحال ، وأقصاه عن الوظائف العامة . وصارت سياسته تجاه كبار رجال الدولة بوجه عام ، هى أن يقرب الواحد منهم ، حتى اذا أحس أن نفوذه تخطى الحد الذى ينبغى أن يقف عنده ، تخلص منه فى الحال[٨٣] . يذكر المقريزى أن السلطان الناصر محمد « كان اذا كبر أحد من أمرائه قبض عليه ، وسلبه نعمته ، وأقام بدله صغيرا من مماليكه ، الى أن يكبر ، فيمسكه ، ويقيم غيره ، ليأمن بذلك شرهم »[٨٤] .

وقد دام حكم الناصر محمد فى تلك المرة الثالثة احدى وثلاثين سنة ، وهى مدة طويلة لم يدانيه فيها سلطان آخر من سلاطين المماليك . ويمثل ذلك العصر بالذات أعظم حلقات تاريخ عصر المماليك ازدهارا ، وأكثرها رقيا واستقرارا . ذلك أن نفوذ الناصر محمد امتد من المغرب غربا حتى الشام والحجاز شرقا ، ومن النوبة جنوبا حتى آسيا الصغرى شمالا . وقد أرسل الناصر محمد حملة الى النوبة سنة ٧٠٤ هـ (١٠٣٤ — ١٣٠٥ م) فى سلطنته الثانية ، ثم أرسل اليها حملتين سنة ٧١٥ هـ ، سنة ٧١٦ هـ (١٣١٥ م ، ١٣١٦ م) فى سلطنته الثالثة . وتمكنت هذه الحملات من اقامة أول ملك مسلم من أهل النوبة حاكما على تلك البلاد ، واسمه عبد الله برشنبو . واذا كانت أحوال مملكة النوبة

---

(٨١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٢٧٤ — ٢٧٥ ، المقريزى : السلوك ، ج ٢ ، ص ٨٠ — ٨١ .

(٨٢) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٤٣٦ (تحقيق محمد مصطفى) .

(٨٣) محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون فى مصر ، ص ٥٢ .

(٨٤) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٣٠٦ (بولاق) .

لم تستقر بعد ذلك ، مما تطلب من السلطان الناصر محمد ارسال حملة جديدة اليها سنة ٧٢٣ هـ (١٣٢٣ م) ، الا أنه يلاحظ أن بلاد النوبة أخذت منذ ذلك الوقت تفقد طابعها المسيحى تدريجيا ، لتتخذ مسحة اسلامية عربية(٨٥) .

أما فى الداخل ، فقد كان عهد الناصر محمد عهد رخاء واستقرار ومعران ، فأقام الناصر محمد كثيرا من المنشآت ، مثل المساجد والقناطر والجسور وغيرها(٨٦) . ومن منشآته الشهيرة المدرسة الناصرية ، والمسجد الذى شيده بالقلعة ، والخانقاة التى أقامها فى سرياقوس . هذا فضلا عن المؤسسات التى جددها ، مثل البيمارستان المنصورى الذى كان والده قد شيده سنة ٦٨٨ هـ (١٢٨٩ م) . وقد وصف المقريزى السلطان الناصر محمد بأنه « كان محبا للعمارة .. بلغ مصروف العمارة فى كل يوم من أيامه سبعة آلاف درهم فضة »(٨٧) . أما ابن أيبك فقد ذكر قائمة طويلة باسماء الجوامع التى أقيمت فى مصر والقاهرة — فضلا عن الممالك الشامية — فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاون(٨٨) .

وهكذا قضى السلطان الناصر محمد فترة حكمه الطويل فى الاصلاح والانشاء والتعمير ، الأمر الذى جعل المؤرخين والرحالة المعاصرين يشيدون بسيرته وعظمته(٨٩) .

---

(٨٥) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ٢ ، ص ١٦١ — ١٦٢ ، مصطفى محمد مسعد : الاسلام والنوبة ، ص ٩٦ وما بعدها .

(٨٦) عدد المؤرخ ابن تغرى بردى (النجوم ، جـ ٩ ، ص ١٧٨ وما بعدها) منشآت الناصر محمد ، وذكر ما لاحاجة بالتفصيل .

(٨٧) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، جـ ٢ ، ص ٣٠٦ .

(٨٨) ابن ايبك : كنز الدرر ، جـ ٩ ، ص ٢٨٨ وما بعدها .

(٨٩) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، جـ ٣ ، ورقة ٢٥٠ (مخطوط) ، رحلة ابن بطوطة ، ص ٢٢١ ، الشجاعى : تاريخ الملك الناصر ، ص ٣١ ، ٩٥ (تحقيق شيفر) .

أولاد الناصر محمد وأحفـــاده :

تمتع بيت قلاون بحب الناس واخلاصهم ، وحظى الناصر محمد بن قلاون بشعبية كبيرة عبرت عن نفسها فى تمسك رعاياه به واخلاصهم له .

وقد يكون السبب فى ذلك أن الناس فى عصر سلاطين المماليـك سئموا الاضطرابات والفتن ، والمنازعات بين طوائف المماليك وأمرائهم ، فلا يكاد ينتشر خبر بمرض سلطان أو وفاته أو مقتله ، حتى تغـلق الحوانيت ، ويختزن الناس الطعام ، ويتأهبون لفترة عصيبة يتزعزع فيها الأمن ، وتندر الأقوات ، وتضطرب كافة مظاهر الحياة . وكان أن سئم الناس فى عصر سلاطين المماليك تلك الأوضاع ، وأرادوا أن يهنئوا بقسط من الاستقرار والهدوء ، يباشرون فى ظله حياتهم العادية ، دون أن تقلقهم أزمة أو تهددهم فتنة . فوجدوا غايتهم فى عهد المنصور قلاون وعهد ابنه الناصر محمد . وفى ذلك يقول ابن أيبك « اعتبرت منذ أول الزمان الى آخر وقت ؛ فلم أجد زمانا أكثر خيرا وأمنـا وخصبا ، واقامة منار الاسلام فى سائر الممالك الاسلامية من زمان مولانا السلطان (الناصر محمد) ... »[٩٠] .

وهذه المكانة الكبيرة التى تمتع بها بيت قلاون ، هى التى جعلت الناس يتمسكون بسلالة الناصر محمـد بعد وفاته سـنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠ م) ، فظل أولاده وأحفاده يحكمون الدولة حتى سـنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م) ، أى على مدى أربعين عاما ، على الرغم من أنه كان بين هؤلاء الأبناء والأحفاد من لا يستحق الملك ، لضعفه ، أو سوء سيرته ، أو صغر سنه . ومع ذلك ، فان الهيبة التى صارت لبيت قلاون فى نفوس الناس جعلتهم يتمسكون بكل من ينتمى الى هذا البيت . ومن أمثلة ذلك ، أنه ما كاد ينادى بسلطنة الملك المنصور أبى بكر —

---

(٩٠) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٩ ، ص ٢٨٤ (تحقيق رويمر) .

بعد وفاة أبيه السلطان الناصر محمد بن قلاون — ، حتى « اطمأنت الناس ، وذهب ما كان عندهم من الخوف واليأس ، لما كانوا يظنون أن يجرى من الفتن عند موت السلطان »[٩١] .

وكان السلطان الناصر محمد بن قلاون يحس دائما بشعور القلق نحو مستقبل السلطنة بعد وفاته ، ويخشى أن يتعرض أبناؤه لما تعرض هو له في مستهل حياته من تلاعب كبار أمراء المماليك بمصالحه وحقوقه . لذلك عهد الناصر محمد سنة ٧٣١ هـ (١٣٣١ م) الى ابنه الأمير ناصر الدين آنوك بالسلطنة ، وأقر الأمراء تلك الخطوة . وكان أن وزعت الخلع على كبار رجال الدولة ، وركب الامير آنوك بشمار السلطنة . غير أن السلطان الناصر محمد لم يلبث أن غير رأيه فجأة ، وألغى ما أحدثه بالنسبة لآنوك من ولاية العهد ، « ورسم أن يلبس آنوك شعار الامراء ، ولا يطلق عليه اسم السلطنة »[٩٢] . وتقف المصادر المعاصرة وقفة صمت ازاء هذا التحول المفاجيء في سياسة الناصر محمد تجاه مسألة ولاية العهد . ولا نستطيع أن نفسر نحن ذلك الا فى ضوء عدم رضا الناصر محمد عن ولده آنوك ، أو أنه رأى أن يرجيء هذا الأمر حتى يكبر ابنه ويتجاوز مرحلة الطفولة ، لأنه لم يكن قد تجاوز عندئذ التاسعة من عمره .

ومهما يكن من أمر ، فان آنوك توفى سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠ م) ، بينما كان السلطان الناصر محمد يعانى من مرض الموت . وكان أن جمع السلطان كبار الأمراء حوله وأعرب لهم عن رأيه فى أن يخلفه فى الحكم ابنه المنصور سيف الدين أبو بكر ، فأقر الأمراء ذلك ، وتعهدوا

---

(٩١) الشجاعى (شمس الدين) : تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاون الصالحى وأولاده ، ص ١٢٤ (تحقيق بربارة شيفر) .

(٩٢) المقريزى : كتاب السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٤٣ (تحقيق محمد محمد أمين) .

بتنفيذ رغبة السلطان[٩٣] وبعد ذلك بقليل لفظ السلطان الناصر أنفاسه الاخيرة سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠ م) وسط مظاهر الاسى والحزن البالغ . وقد وصفه ابن حبيب بأنه « كان ملكا جليلا مهيبا ، ذكيا ، عارفا ، خبيرا بسياسة الملك ، عالى الهمة ، حسن الرأى والتدبير ... »[٩٤] .

والواقع ان وفاة السلطان الناصر محمد بن قلاون جاءت ايذانا بانتهاء فترة الاستقرار والرخاء التى تمتعت بها دولة سلاطين المماليك فى عهد هذا السلطان . واذا كان أبناء الناصر محمد وأحفاده قد تمكنوا من البقاء فى الحكم أربعين سنة بعد وفاة السلطان الناصر نفسه سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠ م) ؛ فان ذلك لا يرجع الى موهبة خاصة تميز بها أحدهم ، بقدر ما يرجع الى هيبة بيت قلاون نفسه ومكانته فى قلوب المعاصرين ، وهى الهيبة التى غرسها المنصور قلاون ، والتى ازدادت رسوخا فى عهد ابنه الناصر محمد . وبعبارة أخرى ، فان أبناء الناصر محمد وأحفاده عاشوا على السمعة الطيبة والمكانة الراسخة والشهرة الواسعة التى غرسها الناصر محمد بالذات فى قلوب معاصريه[٩٥] .

وليست هناك أهمية خاصة لأحد أبناء الناصر محمد أو أحفاده تجعلنا نتكلم عن كل واحد منهم على حدة . وانما تكفى الاشـــارة الى أنه فى العشرين سنة الاولى التى أعقبت وفاة الناصر محمد (٧٤١ — ٧٦٢ هـ / ١٣٤١ — ١٣٦١ م) تولى منصب السلطنة ثمانية من أولاده ، وفى العشرين سنة التالية (٧٦٢ — ٧٨٤ هـ / ١٣٦١ — ١٣٨٢ م) تعاقب فى ذلك المنصب أربعةمن أحفاده . وحسبنا أن نعلم أن بعض

---

(٩٣) تاريخ ابن الوردى ، جـ ٢ ، ص ٣٣ ،
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة،جـ٩ ، ص ١٦٤ .

(٩٤) ابن حبيب : تذكرة النبيه ، جـ ٢ ، ص ٣٢٥ (تحقيق محمد محمد أمين) .

(٩٥) Wiet : L'Egypte Arabe. p. 499.

هؤلاء الأبناء والأحفاد نودى به سلطانا وعمره عام واحد — مثل الكامل سيف الدين شعبان بن الناصر محمد — ، كما أن بعضهم لم يبق فى الحكم الا شهرين وبضعة أيام ، مثل الناصر شهاب الدين أحمد ابن الناصر محمد . ولعل هذه الأمثلة كافية لأن تعطينا فكرة عامة عن مدى ما عانته الدولة بعد وفاة الناصر محمد من اضطراب وعدم استقرار وفوضى ، تركت أثرها واضحا فى جميع نواحى الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

وزاد من أحوال البلاد سوءا فى ذلك الدور انتشار وباء خطير عرف باسم الوباء الاسود سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٩ م) ، أى فى عهد أولاد السلطان الناصر محمد ، فمات كثير من الناس ، وتأثرت الحياة الاقتصادية أسوأ أثر ، حتى كادت تتوقف تماما ، « وتوقفت الأحوال بالقاهرة ومصر »[٩٦] .

ولم يكن من المستطاع وقف استغلال الأمراء لصغر سن السلاطين ، مما أدى الى منافسات ومنازعات فيما بينهم وبين بعض من جهة ، والى تحكم بعضهم واستبدادهم بشئون الدولة من جهة أخرى[٩٧] . وعند دراستنا لعصر أبناء الناصر محمد وأحفاده ، تبدو لنا ظاهرة واضحة ، هى أن كل سلطان من بنى قلاون كان يقف خلفه أمير أو أكثر من كبار أمراء المماليك ، بحيث طغت شخصية هؤلاء الامراء الكبار على السلاطين ، وغدت أسماء الامراء — دون السلاطين — هى مدار الأحداث المعاصرة ، وموضع اهتمام المؤرخين المعاصرين وغير المعاصرين . ومن هؤلاء الأمراء ، لمع فى عصر أبناء الناصر محمد الأمير قوصون ، ويلبغا اليحاوى ، وآقسنقر السلارى ، وأرغون

---

(٩٦) المقريزى : السلوك ، ج ٢ ، ص ٧٧٠ — ٧٨ .

(٩٧) سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ١٢١ وما بعدها .

العلائى ، وشيخو ، وطاز ، وصرغتمش • أما عهد أحفاد الناصر محمد ، فقد ظهرت فيه أسماء قشتمر المنصورى ، ويلبغا الخاصكى ، وبرقوق ••

ويعنينا من أمر هؤلاء الأمراء ، أن بعضهم كان من المماليك البرجية أو الجراكسة ، الأمر الذى يدل على ازدياد نفوذ تلك الطائفة ، مما أدى الى تمكنهم من انتزاع الحكم سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م) ، كما سنرى فى الفصل الآتى •

الحملة الصليبية على الاسكندرية سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) :

هذا عن الأحوال الداخلية لدولة سلاطين المماليك فى عصر أبناء الناصر محمد وأحفاده • أما فى الخارج ، فان اضطراب أحوال مصر الداخلية ، وعدم وجود رجل قوى مهيب الجانب على رأس دولة المماليك ، أفقد تلك الدولة مكانتها وهيبتها التى كانت قد بلغت أوجها على عهد السلطان الناصر محمد • ولم يلبث أن استخف الاعداء بدولة سلاطين المماليك ، وطمع الطامعون فى أراضيها ، بل لقد تجرأ الصليبيون على غزو مصر ذاتها سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) •

ومن المعروف أن الحروب الصليبية فى الشرق لم تنته باستيلاء المسلمين على عكا سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) أو بطرد آخر البقايا الصليبية من الشام ، وانما استمرت تلك الحروب — فى صورة أو أخرى — حتى نهاية القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر للميلاد • وفى ذلك الدور الأخير من أدوار الحروب الصليبية ، اتخذ ملوك قبرس من آل لوزجنان جزيرتهم قاعدة كبرى لتهديد السفن والمتاجر الاسلامية فى شرق حوض البحر المتوسط ، فضلا عن القيام بغارات جريئة على بعض الموانى الاسلامية ، وبخاصة موانى دولة سلاطين المماليك فى مصر والشام[٩٨] وساعد ملوك قبرس فى تنفيذ ذلك

---

(٩٨) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ، ص ٥٢ — ٥٣ •

المخطط ، أن كثيرا من البقايا الصليبية التى طردت من بلاد الشام فى أواخر القرن الثالث عشر للميلاد ، اتخذت من جزيرة قبرص بالذات مستقرا ومقاما ، مما هيأ لآل لوزجنان قوة ضاربة ، مرنت على محاربة المسلمين ، وتتوق للانتقام مما حل بالصليبيين على أيديهم ببلاد الشام[٩٩] .

وهكذا حتى اعتلى عرش قبرص سنة ٧٦٠ هـ (١٣٥٩ م) الملك بطرس الأول لوزجنان ، الذى اشتهر بقوة شخصيته ، وتطرفه فى الحماسة الدينية . وقد أراد هذا الملك أن يجعل من نفسه بطل المسيحية فى صراعها ضد المسلمين ، ولذلك فكر فى القيام بحملة صليبية كبرى يطعن بها المسلمين طعنة قوية . وعندما أدرك أن تنفيذ هذا المشروع يحتاج الى استعدادات ضخمة وأموال كثيرة ، ورجال عديدين ، قام برحلة طويلة فى غرب أوربا (٧٦٣ — ٧٦٦ هـ / ١٣٦٢ — ١٣٦٥ م) للحصول على أكبر قدر ممكن من مساعدات البابوية وملوك الغرب الاوربى[١٠٠] .

وأخيرا جمع بطرس لوزجنان قواته فى جزيرة رودس ، حيث تم الاتفاق على اختيار الاسكندرية بالذات هدفا للهجوم الصليبى ، وذلك للقضاء على دولة سلاطين المماليك التى تسببت فى طرد الصليبيين من الشام من ناحية ، والاستفادة من استراتيجية تلك المدينة ومكانتها التجارية من ناحية أخرى . ولابد أن يكون الصليبيون والغرب الأوربى قد سمعوا بأخبار الفوضى التى غرقت فيها دولة سلاطين المماليك فى عصر أحفاد الناصر محمد ، وكيف كانت المدن والموانى خالية من وسائل الدفاع[١٠١] .

---

(٩٩) Schlumberger : Prise de Saint Jean d'Acre, p. 35.

(١٠٠) Machaut : La Prise de L'Alexandrie, p. p. 21 — 42.

(١٠١) النويرى الاسكندرانى : الالمام بالاعلام ، فيما جرت به الاحكام ، والامور المقضية ، فى واقعة الاسكندرية ، ج ٣ ، ص ٩٢ وما بعدها (تحقيق عزيز سوريال عطية ، ١٩٦٩) .

وعلى الرغم من أن أخبار الحملة الصليبية ووجهتها طارت الى مصر عن طريق التجار ، قبل وقوع الهجو مبمدة طويلة ، الا أنه « لم يكن من الدولة اهتمام » على حد تعبير المقريزى[١٠٢] . وكان سلطان دولة المماليك فى ذلك الوقت هو الأشرف شعبان — حفيد الناصر محمد — وهو عندئذ طفل صغير فى الحادية عشر من عمره . أما السلطة الفعلية فكانت بيد الأمير يلبغا الخاصكى الذى اشتهر بعسفه وجوره وكبريائه ، حتى أنه عندما سمع بنية ملك قبرس فى مهاجمة الاسكندرية ، قال : « ان القبرسى أقل وأذل من أن يأتى الى الاسكندرية »[١٠٣] .

ولكن هذه الكبرياء لم تجد شيئا فى صد المعتدين الذين نزلوا على شاطىء الاسكندرية صباح الجمعة ١٠ أكتوبر سنة ١٣٦٥ م (٢٣ من شهر المحرم سنة ٧٦٧ هـ) وهاجموا المدينة فور نزولهم . ولم تفلح الاستعدادات السريعة التى اتخذت لصد الخطر الصليبى ، فاقتحم الصليبيون الاسكندرية ، وفر العربان الذين استحضروا من البحيرة للدفاع عن الثغر[١٠٤] . وهكذا سقطت الاسكندرية فى قبضة الصليبيين ، فقضوا فيها ستة أيام ، تعتبر من أحلك الايام فى تاريخ الثغر . ذلك أن الصليبيين انتشروا فى شوارع المدينة وأزقتها ودروبها ، ينتقمون من أهلها المسلمين ، « فاستلموا الناس بالسيف ، ونهبوا الحوانيت والدور ، وأحرقوا الخانات والقصور ، وخربوا المساجد والزوايا ، واعتدوا على النساء والبنات »[١٠٥] .

---

(١٠٢) المقريزى : كتاب السلوك ، ج ٣ ، ص ١٠٥ (تحقيق المؤلف) .

(١٠٣) النويرى الاسكندرانى : الالمام ، ج ٢ ، ص ١١١ (تحقيق عزيز سوريال عطية) .

(١٠٤) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ، ص ٦٣ — ٦٤ .

(١٠٥) المقريزى : كتاب السلوك ، ج ٣ ، ص ١٠٥ (تحقيق المؤلف) ، النويرى الاسكندرانى ، الالمام : ج ٢ ، ص ١٤٨ وما بعدها (تحقيق عزيز سوريال عطية) .

وكان قائد الحملة ـــ الملك بطرس لوزجنان ـــ يرى ضرورة الاحتفاظ بالاسكندرية والبقاء فيها ، والدفاع عنها لاتخاذها نقطة ارتكاز لغزو مصر بأجمعها . ولكن بعض رجاله أقنعوه بخطورة تلك المحاولة ، فاضطر الصيلبيون الى الجلاء يوم الخميس ١٦ أكتوبر ١٣٦٥ م (٢٨ من المحرم ٧٦٧ هـ) بعد أن حملوا فى سفنهم آلاف الاسرى ، فضلا عن المنهوبات والبضائع .

وأخيرا وصل يلبغا الخاصكى على رأس جيشه الى الاسكندرية ، وكان وصوله عند رحيل الغزاة ، فشاهد ما حل بالمدينــة من دمار وخراب ، وأمر بدفن جثث القتلى ، وترميم ما خرب وأحرق[١٠٦] .

واذا كانت دولة سلاطين المماليك تمر عندئذ بدور من الانحلال والفوضى مما لم يمكنها من الثأر من جزيرة قبرس وملوكها ، الا أن المسلمين لم ينسوا ما حل بالاسكندرية على أيدى الصليبيين ســنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) ، ولم تهدأ نفوسهم الا عندما انتقموا لانفسهم ، وكان ذلك فى عصر دولة المماليك البرجية ، كما سنرى فى الفصــل الآتى .

---

(١٠٦) المقريزى : كتاب السلوك ، ج ٣ ، ص ١٠٧ (تحقيق المؤلف) ، وانظر للمؤلف أيضا كتاب : قبرس والحروب الصليبية ، ص ٦٨ — ٦٩ .

الفصل الخامس

دولة المماليك الجراكسة

نشأة فرقة المماليك الجراكسة :

أراد السلطان المنصور قلاون أن ينشأ فرقة جديدة من المماليك يعتمد عليها ضد منافسيه من كبار الأمراء ، وتكون سندا لاولاده وذريته فى الاحتفاظ بالعرش . وكان المنصور قلاون يقول « كل الملوك عملوا شيئا يذكرون به ما بين مال وعقار . وأنا عمرت أسوارا ، وعملت حصونا مانعة لى ولاولادى وللمسلمين ، وهم المماليك ! »[1] .

وقد رأى قلاون أن تكون فرقته الجديدة من جنس غير الأجناس التى انتمى اليها مماليك عصره : فأعرض عن شراء الأتراك والتتار والتركمان ، وأقبل على شراء الجراكسة الذين ينتمون الى بلاد الكرج (جورجيا) ، وهى البلاد الواقعة بين بحر قزوين والبحر الأسود .

وساعد قلاون فى تحقيق رغبته ، كثرة الجركس فى أسواق الرقيق فى النصف الأخير من القرن السابع الهجرى — الثالث عشر للميلاد — بسبب تعرض بلادهم لغزوات التتار ، حتى غدت ميدانا للصراع بين تتار فارس وتتار القفجاق . يذكر المقريزى أن طوائف الجراكسة كانوا « لملك سراى كالرعية ، فان داروه وهادوه كف عنهم ، والا غزاهم وحصرهم . وكم مرة قتلت عساكره منهم خلائق ، وسبت نساءهم وأولادهم ، وجلبتهم رقيقا الى الأقطار »[2] .

---

(١) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢١٣ (بولاق) .

(٢) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢٤١ (بولاق) .

ويبدو أن كثرة الجركس فى أسواق الرقيق فى ذلك العصر أدت الى انخفاض أثمانهم ، على الرغم مما امتازوا به من جمال الصورة ، وقوة البدن والشجاعة ، حتى أن متوسط ثمن المملوك الجركسى بلغ مائة وخمسة عشر دينارا ، فى حين كان متوسط ثمن المملوك التركى مائة وخمسين دينارا[٣] . ومهما يكن من أمر ، فان السلطان المنصور قلاون أكثر من شراء المماليك الجركس ، وان كان لم يسرف فى تمييزهم على غيرهم .

يذكر ابن تغرى بردى أنه « كان من محاسن الملك المنصور قلاون أنه لا يميل الى جنس بعينه ، بل كان ميله لمن يتخيل فيه النجابة كائنا من كان » . وفى الوقت نفسه كان حازما فى تربية مماليكه « ولو لم يكن من محاسنه الا تربية مماليكه وكف شرهم عن الناس اكفاه ذلك عند الله تعالى »[٤] . وقد بلغ عدد المماليك البرجية فى عهد المنصور قلاون أكثر من ثلاثة آلاف مملوك ، عنى بتربيتهم فى أبراج القلعة ؛ مما جعل اسم البرجية يلتصق بهم فى التاريخ[٥] .

وقد حرص أبناء المنصور قلاون وأحفاده على اتباع سياسته فى الاكثار من شراء المماليك ، حتى أن الأشرف خليل بن قلاون اشترى أثناء حكمه القصير ألفى مملوك . ومن جهة أخرى فان المماليك البرجية سرعان ما حققوا الغرض منهم ؛ فكانوا بمثابة الدعامة التى استند

=

ويذكر ابو الفدا — وهو معاصر — ان سراى ، او صراى ، كانت عاصمة أو كرسى مملكة تتار القفجاق « وهى فرضة عظيمة للتجار ورقيق الترك » .

(تقويم البلدان ، ص ٢١٦ — ٢١٧) .

(٣) Heyd : Hist. du Commerce uu Levant au Moyen Age, T. 2. p. 529.

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٣٢٧ — ٣٢٨ .

(٥) يذكر ابن تغرى بردى عن المنصور قلاون انه « جمع من المماليك خلقا عظيما لم يجمعهم احد قبله ، فبلغت عدتهم اثنى عشر الفا ، وصار منهم الامراء الكبار والنواب » (النجوم ، جـ ٧ ، ص ٣٢٧) .

اليها بيت قلاون ، والقوة التى دافعت عن مصالح سلالته . وقد سبق أن أشرنا الى ثورة المماليك الأشرفية ــ من البرجية ــ ضد قتلة استاذهم الأشرف خليل ، بحيث لم تهدأ ثائرتهم الا بعد أن انتقموا لمقتله ، وقتلوا بيدرا وشركاءه ممن شاركوا فى قتل استاذهم . وبفضل تأييد البرجية اختير الناصر محمد بن قلاون سلطانا لأول مرة سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٣ م) رغم صغر سنه . حقيقة ان تعلق الشعب ببيت قلاون كان له أثره فى ذلك الاختيار ، ولكن يجب أن نذكر أن الشعب المصرى فى ذلك العصر كان أعزلا ، لا حول له ولا قوة ، ولا يمتلك الأداة الحربية التى تمكنه من تنفيذ ارادته . وهكذا وقف البرجية بالمرصاد لكافة المحاولات التى استهدفت عزل السلطان الناصر محمد . وفى كل مرة عاد الناصر محمد الى الحكم بعد عزله ، نجد للبرجية أصبعا قويا فى عودته(٦) .

ازدياد نفــوذ البرجيــة :

والواقع ان تطور الأحداث الداخلية فى مصر عقب وفاة السلطان المنصور قلاون ساعد على ظهور البرجيــة على مسرح التــاريخ ، وازدياد نفوذهم فى توجيه الأحداث . وكان السلطان قلاون قد حاول فى أول الأمر أن يفرض نطاقا من العزلة حول البرجية ، فحال دون اتصالهم بغيرهم من طوائف المماليك ، حتى لا يتأثروا بروحهم التى تطرق اليها الفساد والتسيب ، كما حرص على عدم السماح لهم بمغادرة أبراجهم بالقلعة والنزول الى القاهرة والاختلاط بالأهالى ، بحيث أن أحدهم « لا يتزوج الا ان زوجه هو بعض جواريه »(٧) .

ولكن هذه الاوضاع كانت لا يمكن أن تدوم . واذا كان قلاون قد نجح فى أن يفرض تلك القيود على المماليك البرجية فى أول الأمر عندما

---

(٦) سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ١١١ وما بعدها .

(٧) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٣٢٨ .

كانت أعدادهم محدودة نسبيا ، فان خلفاء قلاون ، لم يستطيعوا فرضها عليهم عندما ازدادت أعدادهم ، حتى بلغوا فى أوائل عصر الناصر محمد خمسة آلاف مملوك • وكان السلطان الأشرف خليل قد سمح للبرجية بالنزول من القلعة أثناء النهار ، بشرط العودة اليها قبل المغرب للمبيت فيها • وبذلك أخذت خبرة البرجية بالحياة العامة تزداد ، فوقفوا على كثير من الأوضاع الداخلية للبلاد فى ذلك الوقت[٨] •

ولا شك فى أن ازدياد مكانة المماليك البرجية — ومعظمهم من الجراكسة — أدى الى اثارة نوع من الحساسية بينهم وبين طوائف المماليك القدامى الذين كان معظمهم من الاتراك • وقد عرف عن المنصور قلاون أنه عنى بالبرجية : فارتقى بعضهم الى وظائف السلاحدارية وغيرها من الوظائف الكبرى فى الدولة ، وحرص على أن يلبسهم زيا جديدا حسنا ، حتى « لبسوا أحسن الملابس »[٩] • وأجزل لهم العطاء فيما كانوا يتقاضونه من جوامك ورواتب • وعنى عناية خاصة بتعليمهم أصول الدين ، فضلا عن تدريبهم على القتال واستخدام الرماح ورمى النشاب •

وهكذا تلفت المماليك الأتراك حولهم ، فوجدوا فى البرجية منافسا جديدا خطيرا • فهم يحظون بعطف السلطان ورعايته ، وفى الوقت نفسه فانهم ينتمون الى عناصر غير عنصرهم وأصول غير أصلهم ، اذ كان معظم الطائفة الجديدة من عنصر الجركس • وكان أن ظهر التعصب الطائفى بين المماليك الأتراك والمماليك الجراكسة •

هذا الى أن دفاع البرجية عن أبناء المنصور قلاون وأحفاده ، وغضبهم لمقتل الأشرف خليل بن قلاون ثم لعزل أخيه الناصر محمد ،

---

(٨) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، جـ ٢ ، ص ٢٤١ •

(٩) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٣٦٢ (تحقيق محمد مصطفى) ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٣٣٠ •

جعلهم يقفون فى جانب وبقية المماليك القدامى فى جانب آخر . ولعل كثرة المنازعات التى اتصف بها تاريخ المماليك فى تلك الحقبة ، جعلت الأمر يتطور الى عداء بين أنصار بيت قلاون وخصومه ، أو بعبارة أخرى الى عداء بين البرجية وبقية طوائف الأتراك .

وقد جاء ذلك الصراع مصحوبا بازدياد نفـوذ البرجية الذين غدوا يمثلون قوة المستقبل . من ذلك ما يذكره المقريزى فى حوادث سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٩ م) — أى فى سلطنة الناصر محمد الثانية — اذ يقول « وقويت شوكة البرجية بديار مصر ، وصارت لهم الحمـايات الكبيرة وتردد الناس اليهم فى الاشغال »[١٠] . ثم يعود المـؤرخ نفسه فى حوادث سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٨ م) فيؤكد أن البرجية صـار لهم رأى مسموع فى اختيار السلاطين ، فعندما اختار الأمراء الأمير سـلار فى تلك السنة ليتولى منصب السلطنة « قلق البرجية ولم تبق الا اقامتهم الفتنة » . وعندما تنازل سلار عن المنصب ، ورشح له زميله بيبرس الجاشنكير : « تسارع البرجية ، وقالوا بأجمعهم : صدق الأمير . وأخذوا بيد بيبرس وأقاموه كرها ، فصاحوا بالجاويشية فصرخوا باسمه » .

وهنا نلاحظ أن بيبرس الجاشنكير الذى ولى السلطنة سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) « أصله من مماليك الملك المنصور (قلاون) البرجية ، وكان جركسى الجنس ، ولم نعلم أحدا ملك مصر من الجراكسة قبله ، ان صح أنه كان جركسيا » . وهكذا أخذ العنصر الجركسى يطفو على

---

(١٠) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٢٣٢ . هذا وقد تضاربت الاقوال حول اصل بيبرس الجاشنكير ، وهل هو تركى او جركسى ، والراى الاخير هو الارجح . يقول ابن تغرى بردى عنه « وقيل انه كان تركيا والاقوى عندى انه كان جاركسيا » (ج ٨ ، ص ٢٧٦) . غير أن نفس المؤرخ يقول فى ص ٢٢١ فى الجزء الحادى عشر من نفس الكتاب ما نصه « ان كان بيبرس تركى الجنس ، فبرقوق هذا هو الاول من ملوك الجراكسة ، وهو الاصح وبه نقول » .

السطح ليصل الى منصب السلطنة . غير أنه يبدو أن قصر عهد السلطان المظفر بيبرس الجاشنكير — اذ لم يظل فى الحكم سوى بضعة أشهر كما سبق أن أوضحنا — جعلته لا يستطيع أن يمكن لعنصر الجركس . وبعودة السلطان الناصر محمد الى الحكم ، عادت السلطنة الى بيت قلاون ، حتى برز فى عصر أحفاد الناصر محمد بن قلاون اسم أحد الأمراء الجراكسة وهو الأمير برقوق . والمعروف عن برقوق هذا أنه جركسى الاصل ، جلبه الخواجا عثمان — أحد كبار تجار المماليك — ، واشتراه الأمير الكبير يلبغا الخاصكى ثم اعتقه ، فصار من جملة اليلبغاوية . وقد ظل يرتقى بفضل طموحه وذكائه الى أن وصل الى تقدمة الألف ، ثم ولى منصب أتابك العسكر سنة ٧٨٠ هـ (١٣٧٨ م) ، وبذلك صار الأمير برقوق على جانب كبير من القوة فى عهد السلطان علاء الدين على (٧٧٨ — ٧٨٣ هـ / ١٣٧٦ — ١٣٨١ م) الذى لم يتجاوز سنه عندئذ ست سنوات[١١] .

قيام دولة المماليك الجراكسة :

ظل السلطان علاء الدين على — حفيد الناصر محمد بن قلاون — فى الحكم حتى وفاته سنة ٧٨٣ هـ (١٣٨١ م) ، وهو فى الثانية عشر من عمره . وكان باستطاعة برقوق أن يلى عرش السلطنة عقب وفاة السلطان المنصور علاء الدين على مباشرة ، ولكنه أدرك أن الأمور لم تكن قد نضجت بعد ، وأن معارضيه من كبار الأمراء سيقفون عقبة فى طريقه ، بعد أن أعلنوها جهرة وقالوا « لا نرضى أن يتسلطن علينا مملوك كتبغا » .

لذلك تظاهر برقوق بالزهد فى السلطنة ، فجمع الخليفة والقضاة وكبار الأمراء بقلعة الجبل ، وأعلن أمامهم جميعا أن المصلحة تتطلب

---

(١١) المقريزى : كتاب المواعظ ، جـ ٢ ، ص ٢٤١ (بولاق) ، الصيرفى : نزهة النفوس والأبدان ، جـ ١ ، ص ٣٣ وما بعدها (تحقيق حسن حبشى) ،

Wiet : L'Egypte Arabe, p. 510.

ابقاء منصب السلطنة فى بيت قلاون . وكان أن استدعى أمير حاجى — حفيد الناصر محمد — وسنه وقتئذ احدى عشرة سنة ، وأعلن سلطانا سنة ٧٨٣ هـ (١٣٨١ م) وتلقب بالصالح(١٢) . أما الأمير برقوق فقد حسنت سيرته « وشمل الناس منه أنواع الخيرات والفضائل » ، كما أظهر تمسكا شديدا بأحكام الشريعة(١٣) .

ولم يكن متوقعا أن يتمكن السلطان الصبى الجديد من الوقوف فى وجه الأمير برقوق ، الذى « أخذ فى التكلم فى الدولة على عادته من غير معاند » . هذا الى أن برقوق أخذ يمكن لنفسه ، فاختص زملاءه وأنصاره من المماليك اليلبغاوية بالوظائف الرئيسية فى الدولة ، فى الوقت الذى يعمل على اكتساب محبة عامة النـــاس فخفف عنهم الضرائب ، وسك عملة جيدة لتحل محل الفلوس الزائفة التى كان الأمير جركس قد سكها من قبل(١٤) . ولم يسلم برقوق فى تلك المرحلة من بعض المؤامرات التى حيكت ضده ؛ ولكنه اكتشف الخطر قبـــل وقوعه ، وتخلص من زعماء المؤامرة والمشاركين فيها بالســـجن أو النفى(١٥) . وهكذا غدا برقوق صاحب الكلمة العليا فى الحكم « ولاحت له لوائح النصر ، وانحط قدر الاترك لمـــا ظهر أمر لجراكسة ، فعند ذلك أخذ الأتابكى برقوق أسباب أمر سلطنته »(١٦) .

وعندما وجد برقوق أن الأمور باتت مهيأة لاعلان نفسه سلطانا ؛ انتحل نفس العذر الذى سبق أن تحجج به الطامعون فى الســـلطنة

---

(١٢) ابن حجر : انباء الغمر بأبناء العمر ، جـ ٢ ، ص ٤٥ (تحقيق محمد عبد المنعم خان — حيدر اباد) .

(١٣) الصيرفى : نزهة النفوس والابدان ، جـ ١ ، ص ٣٥ — ٣٦ .

(١٤) العينى : عقد اجمان ، جـ ٢٤ ، ق ٢ ، ورقة ٢٦ (مخطوط) .

(١٥) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ٣ ، ق ٢ ، ص ٤٧٣ (تحقيق المؤلف) .

(١٦) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٣٠٩ ، سنة ٧٨٤ هـ (تحقيق محمد مصطفى) .

من أمراء المماليك وهو صغر سن السلطان القائم ، وحاجة الدولة الى رجل رشيد يقضى على عوامل الاضطراب فى الداخل والاخطار فى الخارج . لذلك عقد اجتماعا بالقلعة سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م) حضره الخليفة والقضاة والأمراء ، ونهض كاتب السر القاضى بدر الدين ليعلن « أن الأمور مضطربة لصغر سن السلطان ، وقلة حرمته ، وأن الوقت محتاج الى ملك عاقل ... »(١٧) . وكان أن أجمع الحضور على أن السلطان القائم وهو الصالح حاجى « لا يفهم الخطاب ولا يرد الجواب »(١٨) ، فتقرر خلعه بعد أن ظل فى منصب السلطنة نحو عام ونصف ، وأعلن برقوق سلطانا وتلقب بلقب الظاهر ، « وبذلك انقضت دولة الاتراك من مصر ، وزالت دولة بنى قلاون »(١٩) .

وهنا نلاحظ أن قلاون الذى ولى السلطنة سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م) كان جركسيا ، ولكنه لم يكن من طائفة البرجية ، ولذا فاننا نعتبر عهده بداية لتغلب الجانب العنصرى ، بمعنى سيادة العنصر الجركسى وذبول العنصر التركى . ومن ناحية أخرى فان بداية عهده تجعلنا نغلب صفة العنصر على صفة المكان ، فنفضل وصفها بدولة المماليك الجراكسة على وصفها بالدولة البرجية .

خصائص عصر السلاطين الجراكسة :

تختلف دولة المماليك الثانية — أو الجراكسة — عن الأولى — أو البحرية — فى عدة جوانب ، أولها أن سلاطين الدولة الثانية كانوا جميعا من أصل جركسى . ما عدا اثنين يرجعان الى أصل رومى ، هما خشقدم وتمربغا . هذا الى أن مبدأ الحكم الوراثى الذى حاول بعض سلاطين المماليك الاولى تطبيقه فى عناد واصرار ، والذى طبق فعلا فى

---

(١٧) المقريزى : كتاب السلوك ، ج ٣ ، ص ٤٧٤ سنة ٧٨٤ هـ (تحقيق المؤلف) .

(١٨) الصيرفى : نزهة النفوس والابدان ، ج ١ ، ص ٣٦ .

(١٩) المقريزى : كتاب السلوك ، ج ٣ ، ق ٢ ، ص ٤٧٥ (تحقيق المؤلف) .

عصر بيت قلاون ، هذا المبدأ لا نجد له نفس الأثر فى عصر دولة المماليك الثانية .

والواقع ان حكام دولة المماليك الجراكسة كانوا زعماء أو أمراء كبارا أكثر منهم سلاطين . وكان نجاح الواحد منهم فى الوصول الى الحكم والبقاء فيه يتوقف على مدى نجاحه فى توجيه كبار الامراء وضرب طوائف المماليك بعضها ببعض . فاذا استطاع السلطان الاحتفاظ بمنصبه حتى الوفاة ، فان ابنه كان يخلفه عادة ، ولكن لبضعة أشهر فقط ، حتى ينجلى الموقف بين كبار الأمراء ، ويستطيع أحدهم أن ينفرد بالغنيمة[٢٠] .

وقد عمرت دولة المماليك الجراكسة أكثر من مائة وأربعة وثلاثين سنة (٧٨٤ — ٩٢٢ هـ / ١٣٨٢ — ١٥١٧ م) ، تعاقب على عرش السلطنة طوال ثلاثة وعشرون سلطانا . ومن هؤلاء السلاطين تسعة حكموا مائة وثلاث سنوات . فى حين حكم الاربعة عشر سلطانا الباقون تسع سنوات فقط .

أما هؤلاء السلاطين التسعة الذين ارتبط بهم تاريخ دولة المماليك الجراكسة ، فهم : برقوق ، وفرج ، وشيخ ، وبرسباى ، وجقمق ، واينال ، وخشقدم ، وقايتباى ، وقانصوه الغورى . ولا ترجع أهمية هؤلاء السلاطين الى مهارتهم الحربية ، بقدر ما ترجع الى مقدرتهم فى تحقيق أهدافهم عن طريق ضرب خصومهم ، وطوائف المماليك بعضها ببعض . وكثير من أولئك السلاطين — مثل برقوق وشيخ وجقمق وقايتباى — عرفوا بحبهم للادب ومجالس العلم ، كما عرف بعضهم بالتقوى والورع ، وبالرغبة فى اقامة المؤسسات الخيرية ، من مدارس ومساجد وسبل وبيمارستانات وغيرها . وفى بعض الاحيان كانت هذه المؤسسات ستارا حاول به بعض هؤلاء السلاطين

---

(٢٠) Lane — Poole : A Hist. of Egypt; p. 325.

التكفير عن ذنوبهم ، أو تغطية ما قاموا به من أعمال ضد خصومهم(٢١) .

ولا شك فى أن البلاد قاست كثيراً فى عهد المماليك الجراكسة من جراء المنازعات المستمرة بين طوائف المماليك ، وما كان ينجم عن تلك المنازعات من حوادث وقتال فى الشوارع ، مما أوجد جوا من القلق وعدم الاستقرار ، وبخاصة فى القاهرة عاصمة الدولة ومركزا السلطنة .

وزاد من قسوة البلاء ، أن السلاطين عجزوا فى ذلك العصر عن كبح جماح مماليكهم ، مما جعلهم لا يجدون وسيلة للاحتفاظ بمراكزهم ، سوى ضرب طوائف المماليك بعضها ببعض ، مثلما فعل السلطان خشقدم من ضرب الظاهرية بالاشرفية ، وضرب الناصرية بالمؤيدية . وبذلك يخلو الجو للسلطان ومماليكه ، فيعيثون فى الارض فسادا .

على أننا نلاحظ — على الرغم من كل ذلك — أن سلاطين الدولة الجركسية عملوا دائما على حصر تلك المنازعات فى نطاق دائرة داخلية بحتة ، بحيث لم يمكنوا قوة خارجية من التدخل فى شئون البلاد ، أو الانتقاص من سيادتها . وهكذا استطاعت دولة سلاطين المماليك فى ذلك العصر الصمود فى وجه تيمور لنك ، فى وقت اهتزت كافة الدول فى غرب القارة الاسيوية أمام هجماته(٢٢) .

برقوق وفرج وشيخ :

لم يمض على قيام الظاهر برقوق فى السلطنة عام واحد ، حتى حيكت مؤامرة لعزله واحلال الخليفة العباسى بدله . ولكن برقوق اكتشف المؤامرة وأحبطها سنة ٧٨٥ هـ (١٣٨٣ م) ، فعزل الخليفة

---

(٢١) سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، ص ١٤١ ، ص ١٥٩ .

(٢٢) Wiet : L'Egypte Arabe, p.p. 511 — 513.

المتوكل ، وأحل محله خليفة آخر لقب بالواثق بالله[٢٣] . ويبدو أن هذه المؤامرة جعلت الظاهر برقوق يشتد في عقوبة من شك في اخلاصهم له — وبخاصة من طوائف المماليك الاتراك — ، فطرد عددا كبيرا منهم من وظائفهم ، ونفى بعضهم الى الشام[٢٤] .

على أن هذه الاجراءات التى قام بها الظاهر برقوق لم تكف لحمايته من المؤامرات المتصلة لتى دبرها خصومه ضده ، حتى انتهى الأمر سنة ٧٩١ هـ (١٣٨٩ م) بقيام ثورة فى شمال الشام تزعمها منطاش نائب ملطية ويلبغا الناصرى نائب حلب . وقد زحف الثوار — تؤيدهم جموع غفيرة من التركمان والتتار — نحو دمشق ، فاستولوا عليها ، ثم استأنفوا زحفهم فى اتجاه القاهرة . ولم يلبث أن ساء موقف برقوق ، فهرب من القلعة ، حتى قبض عليه . فنفى الى الكرك[٢٥] .

وعندما دخل الثوار القاهرة ، أعادوا الى منصب السلطنة المنصور أمير حاجى على — ابن الاشرف شعبان حفيد الناصر محمد بن قلاون — (٧٩١ — ٧٩٢ هـ / ١٣٨٩ — ١٣٩٠ م)[٢٦] . لكن النزاع لم يلبث أن اشتد بين الأميرين الثائرين : منطاش ويلبغا ، مما أعطى برقوق فرصة لاسترداد مكانته . ذلك أنه تمكن من الفرار من حصن الكرك ، وجمع جيشا بالشام مكنه من انزال الهزيمة بخصومه عند شقحب سنة ٧٩٢ هـ (١٣٩٠ م) . ثم دخل برقوق القاهرة ظافرا ، فرحب به عامة

---

(٢٣) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ٣ ، ق ٢ ، ص ٤٩٣ (تحقيق المؤلف) ، ابن حجر : انباء الغمر ، جـ ٢ ، ص ١٢٨ وما بعدها (تحقيق محمد عبد المنعم خان — حيدر اباد) .

(٢٤) العينى : عقد الجمان ، جـ ٢٤ ورقة ٢٠٩ (مخطوط) .

(٢٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ١١ ، ص ٢٧٥ — ٢٨٩ .

(٢٦) ابن صصرى : الدرة المضية فى الدولة الظاهرية ، ص ١٩ (تحقيق ولیم برينر ، كاليفورنيا ١٩٦٣) .

الاهالى بعدما لاقوه من شدائد نتيجة لتحكم منطاش وتعسفه(٢٧) .

وكان مركز برقوق قويا فى تلك المرة ، فقضى العامين التاليين فى اخضاع منطاش بالشام . ولم يكد يفرغ من ذلك ، حتى واجه خطرا جديدا يتمثل فى التتار بزعامة تيمورلنك . ذلك أن تيمورلنك استولى على بغداد سنة ٧٩٥ هـ (١٣٩٣ م) ، « وصادر أهلها ثلاث مرات حتى أفقرهم كلهم .. بعد أن تنوع فى عقوبتهم ، وسقاهم الملح والماء ، وشواهم على النار »(٢٨) . ثم استولى تيمورلنك على بعض البلاد التابعة لسلطنة المماليك — مثل ماردين — مما جعل الظاهر برقوق يشعر بفداحة الخطر ، فعقد حلفا سريعا مع بعض القوى المجاورة التى أحست هى الأخرى بخطر تيمورلنك ؛ مثل أمير سيواس ، وتتار القفجاق ، وسلطنة العثمانيين(٢٩) .

وفى شهر ربيع الأول سنة ٧٩٦ هـ (١٣٩٤ م) أرسل تيمورلنك الى برقوق رسالة مخيفة ؛ من ذلك النوع الذى بعث به هولاكو الى قطز سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) يطلب منه الاستسلام فورا ، « فالويل كل الويل لمن لم يمتثل أمورنا ، فانا قد خربنا البلاد ، وأهلكنا العباد ، وأظهرنا فى الارض فسادا ... »(٣٠) . ولكن برقوق أظهر ثباتا . ورد على تيمور لنك بنفس أسلوبه ، بل لقد طرد رسول تيمور لنك من القاهرة . وفى الحال أجاب تيمور لنك بأن « فتح الرها وأخذ أموالها ،

---

(٢٧) ابن حجر : الدرر الكامنة فى اعيان المئة الثامنة — ترجمة منطاش الاشرفى (جـ ٤ ص ٣٦٥) ، المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ٣ حوادث سنة ٧٩٢ هـ (ص ٧٠٢ وما بعدها) — تحقيق المؤلف .

(٢٨) المصدر السابق — نفس الجزء ، ص ٧٩٠ .

(٢٩) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ٥٧٤ ، الصيرفى : نزهة النفوس ، جـ ١ ص ٣٦٥ وما بعدها (تحقيق حسن حبشى) ؛
Wiet : L'Egypte Arabe, 518 — 519.

(٣٠) ابن عربشاه : عجائب المقدور فى أخبار تيمور ، ص ٩٧ (تحقيق على محمد عمر) .

وسبى حريمها ، وأشعل جمرة الخامد ، حتى ملك رأس العين وآمد ...»[٣١] .

وكان أن خرج برقوق من مصر الى الشام ، على رأس حملة لاعادة أحمد بن أويس — صاحب بغداد الذي كان قد لجأ الى القاهرة — الى عاصمته بغداد ، ومحاربة تيمور لنك . وبينما السلطان برقوق — ومعه السلطان أحمد بن أويس — فى دمشق ، جاءت الاخبار بأن تيمور لنك خرج من بغداد الى بلاد الروم ، فأرسل أصحاب أحمد ابن أويس بالعراق يطلبون منه الحضور لاسترداد بغداد فى غيبة تيمورلنك ، وقالوا له « اجتمع على الفرات من جماعتك خلق كثير ينتظرونك » . وعندئذ سمح السلطان الظاهر برقوق لاحمد بن أويس بالمسير الى بلاده ، فى حين عاد برقوق الى القاهرة فى أوائل سنة ٧٩٧ هـ (١٣٩٤ — ١٣٩٥ م)[٣٢] .

ولم يلبث أن توفى برقوق بالقاهرة سنة ٨٠١ هـ (١٣٩٩ م) . دون أن تتاح له الفرصة لاظهار شجاعته فى محاربة التتار . وقد وصف الصيرفى السلطان الظاهر برقوق بأنه كان « رجلا شهما شجاعا باسلا فارسا ، ذا أدب وحشمة ووقار ، ومعرفة ورأى وتدبير وخبرة . وكان على مكانة عظيمة من الرأى والرزانة ، والتعبد والتحمل . وكان يلوح بين عينيه آثار الشجاعة والفروسية »[٣٣] .

وقد خلف برقوق فى الحكم أكبر أبنائه الثلاثة — وهو الناصر فرج — الذى كان فى الثالثة عشر من عمره . وكان أن أسرع السلطان الصغير الى الشام سنة ٨٠٣ هـ (١٤٠٠ م) على رأس جيش كبير ،

---

(٣١) ابن صصرى : الدرة المضية فى الدولة الظاهرية ، ص ١٤٨ (تحقيق وليم برينر) .

(٣٢) المصدر السابق ، ص ١٥٨ ، ١٦٢ .

(٣٣) الصيرفى : نزهة النفوس ، جـ ١ ، ص ٤٩٦ (تحقيق حسن حبشى) .

عندما سمع بزحف تيمور لنك عليها ، وأنه اجتاح حلب ، وأخذ يهدد دمشق . ولكن الناصر فرج لم يلبث أن أدرك حرج موقفه فى الشام ، وخشى على حياته ، فعاد الى القاهرة ، تاركا جيشه يلقى أسوأ مصير على يد تيمورلنك قرب حلب ، « واستحر القتل والأسر فى أهل حلب ، من التتار ، فقتلوا الرجال وسبوا النساء والاطفال ، وقتل خلق كثير من الأطفال تحت حوافر الخيل وعلى الطرقات ، وأحرقوا المدينة »(٣٤) . وهكذا اضطرت دمشق الى الاستسلام بشروط معينة ، أهمهـا أن تيمور لنك أمنهم « على أنفسهم وأهاليهم » . ولكن التتار لم يحترموا شروط الأمان الذى منحوه لأهل دمشق ، فنهبوا المدينة ودمروها ، وأشعلوا فيها النيران ، كما دمروا معظم الاطـراف الشمالية لبـلاد الشـام(٣٥) .

وعندما سمع السلطان فرج بأخبار الانتصارات التى أحرزها تيمورلنك فى بلاد الروم (آسيا الصغرى) ، وبأخبار الهزيمة التى حلت بالسلطان العثمانى بايزيد فى موقعة أنقرة سنة ٨٠٥ هـ (١٤٠٢ م) ، رضخ للشروط التى تقدم بها تيمورلنك ، فأطلق سراح من لديه من أسرى التتار ، بل لقد قبل أن يسك العملة باسم تيمورلنك ، وان كنا لم نعثر فعلا على أية قطعة من النقود المصرية تحمل اسـم تيمورلنك . ولم يلبث أن مات تيمورلنك سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٥ م) دون أن يحقق حلمه فى احتلال مصر(٣٦) .

أما السلطان الناصر فرج فانه خسر مكانته فى نفوس المعاصرين ، نتيجة لرضوخه لطلبات التتار . وسرعان ما نشب نزاع بين أمـراء

---

(٣٤) ابن حجر : انباء الغمر ، جـ ٤ ، ص ١٩٣ وما بعـدها (حيدر اباد) .

(٣٥) نفس المصدر والجزء ، ص ٢٠٨ ، سنة ٨٠٣ هـ .

(٣٦) ابن عربشاه : عجائب المقدور ، ص ٢٥٣ (تحقيـق على محمد عمر) ؛

Lane — Poole : A Hist. of Egypt. p. 334.

المماليك فى مصر ، فعمت الفوضى مدينة القاهرة ، واضطر السلطان فرج الى الاختفاء عن مسرح الأحداث قرابة شهرين ، فحل محله فى السلطنة أخوه المنصور عبد العزيز سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٥ م) ، حتى هدأت الأمور وتمكن الامير يشبك من اعادة الناصر فرج الى السلطنة فى نفس العام .

وقد قضى الناصر فرج بقية عهده فى اقرار الأوضاع ببلاد الشام بعد أن غدت هى الاخرى مسرحا للمنافسات بين كبار أمراء المماليك . ولكن الناصر فرج لم يستطع مقاومة الأميرين شيخ المحمودى ونوروز . ذلك أن الامير شيخ المحمودى نائب حلب ، والامير نوروز الحافظى نائب طرابلس ، أعلنا مخالفة السلطان ، ونزلا على حمص . وعندما خرج السلطان لمحاربتهما حلت به الهزيمة عند اللجون ، فانسحب الى دمشق ، حيث اضطر الى الاستسلام لاعدائه ، سنة ٨١٥ هـ (١٤١٢ م) ، بشرط تأمينه على حياته[٣٧] . ولكن على الرغم من ذلك ، فان الخليفة والعلماء أفتوا بقتل الناصر فرج لسوء خلقه وادمانه على شرب الخمر ، وتنكيله بمماليك أبيه ، حتى لقد وصفه بعض المؤرخين المعاصرين ، بأنه كان « سفاكا ، مسرفا على نفسه ، منهمكا على اللذات » . وكان أن اغتيل بدمشق فى نفس العام[٣٨] .

وكانت المشكلة التى ظهرت على المسرح السياسى بعد مقتل الناصر فرج ، هى أيهما يلى العرش : الأمير شيخ أم الأمير نوروز ؟ والى أن يتم الفصل فى هذه المشكلة عهد بالسلطنة الى الخليفة المستعين العباسى سنة ٨١٥ هـ (١٤١٢ م) . ومن الواضح أن سلطنة المستعين — التى استمرت خمسة أشهر تقريبا — كانت اسمية بحتة ، حتى فاز الامير شيخ فى حلبة

---

(٣٧) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ٤ ، ق ١ ، ص ٢٠٨ وما بعدها ، سنة ٨١٥ هـ (تحقيق المؤلف) .

(٣٨) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٨٢١ — ٨٢٢ (تحقيق محمد مصطفى) .

التنافس مع نوروز ، واعتلى كرسى السلطنة بلقب المؤيد[٣٩] . ولم يرض نوروز بذلك الوضع ، فأعلن الثورة بالشام . ورفض الاعتراف بالسلطان المؤيد شيخ ، وامتنع عن ضرب السكة باسمه ؛ مما دفع السلطان المؤيد شيخ الى الخروج فى العام التالى لاعتلائه العرش الى الشام حيث تخلص من نوروز بالقتل[٤٠] .

أما أهم الأحداث الخارجية فى عهد المؤيد شيخ ، فكانت قيامه بحملتين على الأطراف الشمالية لبلاد الشام ؛ وذلك لارغام الدويلات التركمانية على الحدود — وأهمها قرمان وذو الغادر ورمضان — على العودة الى سابق تبعيتها لدولة المماليك[٤١] . ففى سنة ٨٢١ هـ (١٤١٨ م) خرج السلطان المؤيد شيخ الى طرسوس حيث قدم له أمراء التركمان فروض الطاعة . بل ان الأمير قرمان رضى أن يسك عملته باسم السلطان المؤيد شيخ . ولكن ما كاد السلطان المؤيد يعود الى مصر حتى نقض التركمان الشروط التى تعهدوا بها . ومن ثم أرسل المؤيد ابنه ابراهيم لصدهم سنة ٨٢٢ هـ (١٤١٩ م) . فاستولى على قيصرية وقونية . وسك العملة فى بلاد التركمان باسم أبيه السلطان المؤيد شيخ . ولم يعد ابراهيم الى مصر الا بعد أن عين حاكما مواليا على تلك الجهات . كما ضم الى دولة المماليك بعض المدن الهامة مثل أذنه وطرسوس[٤٢] . وقد استقبل ابراهيم فى مصر استقبالا حماسيا ، ولكنه لم يلبث أن توفى فى العام التالى . وقيل ان أباه حقد عليه لما ناله من تقدير ، فدس له السم . يذكر ابن حجر ان السلطان المؤيد شيخ « أغرى بولده ابراهيم ،

---

(٣٩) العينى : السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد ، ص ٢٥٩ (تحقيق فهيم شلتوت ، مراجعة محمد مصطفى زيادة .

(٤٠) المصدر السابق ، ص ٣٢٦ .

(٤١) ابن حجر : انباء الغمر ، ج ٧ ، ص ٣٠٢ وما بعدها (طبعة حيدر أباد) .

(٤٢) المصدر السابق — نفس الجزء ، ص ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٥٤ — ٣٥٦ ، ٣٧٢ .

وأنه كان يتمنى موته ، ويعد الامراء بمواعيد اذا تم ذلك .. فأذن لبعض خوصه أن يعطيه سببا لقتله .. »[٤٣] .

وقد توفى السلطان المؤيد شيخ سنة ٨٢٤ هـ (١٤٢١ م) فخلفه ابنه أحمـد ، تحت وصاية الامير ططر . ولم تمض أشهر حتى ولى ططر السلطنة لفترة قصيرة ، فخلفه ابنه محمد بن الظاهر ططر فلبث فى الحكم بضعة أشهر تحت وصاية الامير برسباى . وفى سنة ٨٢٥ هـ (١٤٢٢ م) ، « رأى أهل الدولة وأصحاب الحل والعقد أن تكـون السلطنة لشخص كبير يفهم الخطاب ويرد الجواب ، وينظر فى أحوال الناس ، ويدبر الأمر ، وينصر المظلوم . ولم يروا كفوا لذلك الا نظام الملك برسباى لكونه متصفا بصفات الكمال ، من الدين والفقه والمهابة ، وطهارة الذيل واللسان ، وقـوة القلـب والجنـان ، والشـجاعة والفروسية .. » . وهكذا انتزع برسباى السلطنة لنفسه ، وتلقب بالسلطان الأشرف[٤٤] .

برسـباى وفتح جزيرة قبرس :

حكم برسباى مدة تزيد عن ستة عشر عاما ، وهى مدة طويلة لم يفقه فيها من سلاطين دولة المماليك الجراكسة سوى الاشرف قايتباى . وعلى الرغم مما قاساه الناس فى عهد برسباى من سوء الاحـوال الاقتصايدة وارتفاع الاسعار بسبب سياسته الاحتكارية الجائرة ، الا أن ذلك العهد اتصف بالاستقرار وقلة الاضطربات ، مما مكن برسباى من القيام بعمل حربى ضخم ، هو غزو جزيرة قبرس .

وقد سبق أن أشرنا الى ما قام به ملوك قبرس من آل لوزجنان من نشاط صليبى ضد سلطنة المماليك فى مصر والشام ، وخاصة بعد

---

(٤٣) نفس المصدر والجزء ، ص ٣٨٠ (حوادث ٨٢٣ هـ) — طبعة حيدر أباد .

(٤٤) الصيرفى : نزهة النفوس والابدان ، ج ٣ ، ص ٥ (تحقيق حسن حبشى) .

أن استولى المماليك على عكا سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) وطردوا آخر البقايا الصليبية من بلاد الشام . كذلك ذكرنا أن هجمات ملوك قبرس على شواطىء دولة المماليك بلغت ذروتها سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) عندما هاجم بطرس لوزجنان — ملك قبرس — ثغر الاسكندريه وخربه تخريبا لم يغفره له المسلمون .

ولم يستطع المماليك عندئذ الثأر من جزيرة قبرس ، نظرا للظروف التى أحاطت بدولة سلاطين المماليك فى عصر أحفاد الناصر محمد بن قلاون ، ثم للمشاكل التى تعرض لها السلاطين الاوائل من دولة المماليك الجراكسة . ويبدو أن ملوك قبرس ظنوا أن سكوت سلاطين المماليك عنهم معناه عجزهم عن مدافعتهم ، فاستمروا فى هجماتهم على شواطىء دولة المماليك مرة بعد أخرى . من ذلك أن مركبا للفرنج أغار على طرابلس الشام سنة ٧٦٩ هـ (١٣٦٧ م) ، ثم أغاروا على الاسكندرية سنة ٧٧٠ هـ (١٣٦٨ م) ، ثم على طرابلس سنة ٨٠٤ هـ (١٤٠١ م) . وكان بالميناء بعض مراكب لتجار الفرنج ، فتكاتفوا جميعا على مراكب المسلمين المشحونة بالبضائع « وأخذوا منها مركبين فيهما مال كبير ، وأسروا خمسة وثمانين مسلما »[٤٥] . وبعد ذلك بمدة قصيرة — سنة ٨٠٦ هـ (١٤٠٣ م) دهمت طرابلس الشام حملة من ثلاثين سفينة ، فقاتلهم المسلمون قتالا شديدا ، ثم اتجه الصليبيون الى بيروت ، ومنها الى صيدا « بعدما حرقوا مواضع ، وأخذوا مركبا قدم من دمياط ببضائع لها قيمة كبيرة » . وكان الصليبيون ينزلون الى البر لمباشرة عدوانهم ثم يعودون الى سفنهم . وأخيرا عادوا « الى جهة الماغوصة » ، والماغوصة هي مدينة فاماجوستا على الشاطىء الشرقى لجزيرة قبرس[٤٦] . وأكثر من هذا ، فان ملوك قبرس حرصوا على طعن دولة

---

(٤٥) المقريزى : كتاب السلوك ، ج ٣ ، ق ٣ ، ص ١٠٧٩ — سنة ٨٠٤ هـ (تحقيق المؤلف) .

(٤٦) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ١٤٩ ، ١٧٥ ، ١١١٤ .

المماليك فى أعظم موارد ثروتها وغناها ، فاعتدوا على السفن والمتاجر المماليكية فى عرض البحر ، كما منعوا السفن الاوربية من الوصول إلى الشواطىء المصرية لابتياع التوابل[٤٧] .

واذا صبر سلاطين المماليك فى مصر على ذلك العدوان السافر من جانب قبرس وملوكها ، فان هذا الصبر كان لا يمكن أن يطول . لذلك فكر السلطان برسباي فى القيام بعمل حاسم ضد قبرس ، لا سيما بعد أن تكرر العدوان فى أوائل حكمه من جانب قراصنتها على الاسكندرية والتجار المسلمين ، « فشق ذلك على الملك الاشرف الى الغاية »[٤٨] . وكان أن أرسل برسباى ثلاث حملات ضدجزيرة قبرس ، تعتبر من أعظم الاعمال الحربية التى تمت فى عصر دولة المماليك الجراكسة ، حتى انتهى الأمر بفتح الجزيرة واخضاعها لسيادة سلطنة المماليك . وكانت الحملة الاولى فى سنة ٨٢٧ هـ (١٤٢٤ م) ، وهى حملة صغيرة لا تعدو أن تكون مجرد حملة استطلاعية . ومع ذلك ، فقد نجح رجالها فى مهاجمة ثغر ليماسول بجزيرة قبرس ، واشعال النار فى بعض أحيائها ، ثم العودة سالمين الى مصر[٤٩] .

ولم تكد السفن المصرية تعود من تلك الغزوة سالمة ، حتى تشجع برسباى ، فأمر فورا بالاستعداد لحملة جديدة ، غادرت مصر فى صيف سنة ٨٢٨ هـ (١٤٢٥ م) قاصدة ميناء قرباص — على الشاطىء الشمالى الشرقى لجزيرة قبرس — ومنه تحركت جنوبا قاصدة ميناء فاماجوستا . وقد مكث المسلمون أربعة أيام فى اقليم فاماجوستا ، شنوا فيها الغارات على الضياع القريبة ، وأوسعوها نهبا وأسرا وتحريقا . وبعد أن أنزل المسلمون الهزيمة بالقوات القبرسية فى منطقة الملاحة ، توجهوا الى

---

(٤٧) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ، ص ٨٤ — ٨٥ .

(٤٨) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ١٤ ، ص ٢٤٩ — ٢٥٠ . (تحقيق جمال محرز وفهيم شلتوت) .

(٤٩) العينى : عقد الجمان ، ج ٢٥ ، ق ٣ ، ورقة ٥٧٢ (مخطوط) .

ليماسول ، حيث استطاعوا الاستيلاء على حصنها الحصين بعد جهد شاق ، ثم قفلوا راجعين الى مصر ، بعد أن سمعوا بالاستعدادات التى يجريها جانوس ملك الجزيرة[٥٠] .

على أن برسباى لم يقنع بالنتائج التى حققتها الحملتان السابقتان ، لأنه لم يستهدف مجرد السلب والنهب والعودة ببضع مئات من الأسرى وعدة أكوام من الغنائم ، لذلك بادر السلطان عقب عودة الحملة الثانية باعداد حملة كبرى تحقق له اخضاع قبرس وملوكها . ويبدو أن أخبار هذه الاستعدادات تسربت الى خارج البلاد ، حتى أن امبراطور القسطنطينية أوفد رسولا الى لسلطان برسباى يحمل له هدية « وشفع فى أهل قبرس أن لا يغزوا »[٥١] . ولكن ما كادت تتم كافة الترتيبات لتلك الحملة ، حتى خرجت من مصر سنة ٨٢٩ هـ (١٤٢٦ م) ، قاصدة قبرس ، حتى وصلت ميناء ليماسول ، فبدأ المسلمون بمهاجمته والاستيلاء عليه[٥٢] . وبعد أن قضى المسلمون ستة أيام فى اقليم ليماسول ، قرروا الزحف على داخلية الجزيرة للاستيلاء على عاصمتها وضرب ملكها .

وفى تلك الأثناء ، كان الملك جانوس — ملك قبرس — قد جمع جيوشه ، واستعد لمنازلة المسلمين ، فدارت الموقعة الفاصلة بين الطرفين عند خيروكيتا — الى الشمال الشرقى من ليماسول ، وفيها حلت الهزيمة ساحقة بالقبارسة ، ووقع جانوس نفسه أسيرا فى قبضة المماليك . أما المسلمون ، فقد زحفوا بعد ذلك على نيقوسيا

---

(٥٠) ابن حجر : انباء الغمر ، جـ ٨ ، ص ٧٠ وما بعدها (حيدر اباد) .

(٥١) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ٤ ، ق ٢ ، ص ٧١٨ — سنة ٨٢٩ هـ (تحقيق المؤلف) .

(٥٢) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ، ص ١٠٧ .

عاصمة قبرس ، فاقتحموها وصلوا الجمعة فى كنيستها ، ثم غادروها بعد أن أشعلوا النار فى أرجاء المدينة[٥٣] .

وأخيرا ، عادت الحملة الى القاهرة ، ومع المسلمين مئـــات الأسرى ، من جملتهم جانوس ملك قبرس نفسه ، وكميات ضـخمة من الغنائم . وقد أفاضت المصادر المعاصرة فى وصف الاسـتقبال الحافل الذى استقبل به الغزاة فى القاهرة . وظـل جانوس ملك قبرس أسيرا فى مصر حتى سنة ٨٣٠ هـ (١٤٢٧ م) عندما أفرج عنه السلطان برسباى مقابل فدية كبيرة ، وبشرط الاعتراف بسيادة سلطنة المماليك على مملكته . ومنذ ذلك الوقت وجزيرة قبرس تعتبر « من جملة بلاد السلطان » ، واستمرت كذلك حتى سقوط سلطنة المماليك سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م)[٥٤] .

شــاه رخ وكسوة الكعبــة :

مات السلطان برسباى سنة ٨٤١ هـ (١٤٣٨ م) غير مأسوف عليه من شعبه بسبب تعسفه فى سياسته الاقتصادية ، وتطـرفه فى سياسة الاحتكار ، مما أنزل ضررا فادحا بالعباد . ولم يستطع العزيز يوسف بن برسباى — الذى كان فى الرابعة عشر من عمره — أن يحتفظ بالعرش أمام نفوذ أقوى الأمراء عندئذ ، وهو الأمـير حقمق الذى لم يلبث أن ولى السلطنة بعد قليل .

وكان حكم الظاهر جقمق (٨٤٢ — ٨٥٧ هـ / ١٤٣٨ — ١٤٥٣ م) معتدلا نسبيا ، اذا قيس بحكم برسباى . كذلك عرف عن جقمق تدينه وورعه ، فحرم المعاصى وشرب الخمور ، « وفرح كل أحـد

---

(٥٣) خليل بن شاهين : زبـدة كشف الممـالك ، ص ١٤٣ ، العينى : عقد الجمان ، ج ٢٥ ، ق ٣ ورقة ٥٨٣ ، المقريزى : كتـاب السلوك ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٧١٨ — ٧٢٢ سنة ٨٢٩ هـ (تحقيق المؤلف) .

(٥٤) سـعيد عاشـور : قبرس والحروب الصليبية ، ص ١٢١ — ١٢٦ .

بسلطنته ، فانه كان دينا خيرا يحب فعل الخير ، كريم اليد ، سخى النفس »(٥٥) .

غير أن السلطان جقمق لم يلبث أن تعرض فى أوائل حكمه للثورات التقليدية التى تعرض لها غيره من سلاطين المماليك السابقين واللاحقين ، فثار ضده الأمير قرقماس الشعبانى أتابك العسكر فى مصر ، كما ثار ضده اينال الجكمى نائب الشام فى دمشق . ولكن جقمق تمكن من القضاء على هاتين الثورتين(٥٦) .

والواقع ان أهمية عهد جقمق ترجع الى ما امتاز به ذلك العهد من نشاط خارجى ، كانت أهم معالمه تحسن العلاقات بين التتار ودولة سلاطين المماليك من ناحية ، وقيام جقمق بغزو جزيرة رودس من ناحية أخرى . ذلك أن وفاة تيمورلنك سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٥ م) ، أعقبها تصدع دولته الواسعة ، حتى تمكن ابنه شاه رخ من استرداد سمرقند — مركز قوة أبيه ومقر حكمه — ودعم سلطانه ، واحياء مجد دولة التتار مثلما كانت فى عهد أبيه(٥٧) . وكان أن بدأ شاه رخ صفحة جديدة فى العلاقات مع دولة سلاطين المماليك ، فأرسل الى برسباى سنة ٨٣٢ هـ (١٤٢٩ م) يطلب السماح له بكسوة الكعبة ، كما طلب بعض الكتب التى ألفها علماء عصر المماليك ، مثل كتاب السلوك للمقريزى وكتاب شرح البخارى لابن حجر . ولما لم يتلق شاه رخ جوابا على طلبه ، أرسل سفارة أخرى الى القاهرة فى نفس العام يكرر طلبه ورغبته فى « أن يكسو الكعبة ويجرى بمكة عينا من

---

(٥٥) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ١٩٩ (تحقيق محمد مصطفى) .

(٥٦) المقريزى : كتاب السلوك ، ج ٤ ، ق ٣ ، ص ١٠٩١ ، ١١٢٣ ، ١١٥١ وما بعدها (تحقيق المؤلف) .

(٥٧) ابن عربشاه : عجائب المقدور فى نوائب تيمور ، ص ٢٦٣ وما بعدها (تحقيق على محمد عمر) .

الماء »(٥٨) . ومن الواضح أن برسباى والمماليك خشوا أن يكون وراء طلب شاه رخ أطماع يريد تحقيقها فى الشام والحجاز ، لا سيما وأن حماية الحرمين وخدمتهما كانت من الحقوق التى استأثر بها سلاطين المماليك ، والتى أضفت عليهم مكانة خاصة ، دون بقية حكام المسلمين . وزاد من مخاوف سلطنة المماليك الوقوف على رسائل موجهة من شاه رخ الى بعض أمراء المماليك يحرضهم فيها على « أخذ البلاد الشامية » ويعدهم بتقديم العون لهم(٥٩) .

وفى العام التالى — سنة ٨٣٣ هـ (١٤٣٠ م) أرسل شاه رخ الى السلطان برسباى رسولا يحمل هدية تتألف من عدة قطع فيروزج ، ومعها خطاب موجه الى برسباى ، لم يخاطبه فيه بلقب سلطان ، وانما لقبه بالأمير . كما أنه لم يفتتح خطابه بالبسملة — مثلما هو متبع — وانما بدأ مباشرة بسورة « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ... » الى آخر السورة الكريمة(٦٠) . وقد تكررت خطابات شاه رخ الى السلطان برسباى بعد ذلك . مطالبا بكسوة الكعبة : « ولم يخاطب السلطان الا بالأمير برسباى » كذلك تكررت مطالبته بكسوة الكعبة « ولم يظهر لذلك أثر »(٦١) . ذلك أن شاه رخ لم ييأس ، وانما ظل يكرر طلبه ، فأرسل الى برسباى سنة ٨٣٩ هـ (١٤٣٥ م) يطلب السماح له بزيارة بيت المقدس ، ثم تمادى فأرسل فى نفس العام يطلب من برسباى اقامة الخطبة له ، وضرب السكة باسمه . وجاء فى رسالة شاه رخ الى برسباى « انى قد جهزت اليكم خلعة بنيابة مصر ، فاضربوا السكة باسمى ، واخطبوا على

---

(٥٨) الصيرفى : نزهة النفوس والابدان ، جـ ٣ ، ص ١٠٠ ، ١٧٨ (تحقيق حسن حبشى) .

(٥٩) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ٣٣٤ .

(٦٠) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ٤ ، ق ٢ ، سنة ٨٣٣ هـ (تحقيق المؤلف) .

(٦١) نفس المصدر والجزء ، ص ٨٨٧ — سنة ٨٣٦ هـ .

المنابر كذلك »[٦٢] . وما كان من برسباى الا أن أساء الى السفير الموفد من قبل شاه رخ ، مما عكر العلاقة بين الطرفين ، وجعل شاه رخ يحاول الاتصال بأمراء التركمان ، وبالسلطان العثمانى ، مستهدفا تأليف حلف ضد السلطان الأشرف برسباى[٦٣] . وأخيرا أجاب برسباى على شاه رخ بأن « العادة جرت أن لا يكسو الكعبة الا ملوك مصر ، والعادة قد اعتبرت فى الشرع فى مواضع »[٦٤] .

وهكذا مات برسباى سنة ٨٤١ هـ (١٤٣٨ م) واعتلى الظاهر جقمق عرش سلطنة المماليك فى نفس العام ، ليجد نفسه أمام مشكلة لابد من حلها ، هى مشكلة العلاقة مع شاه رخ . وكان أن اتبع جقمق سياسة معتدلة متزنة فى علاج هذه المشكلة ، لا سيما وأن الظروف الخارجية التى أحاطت به ، واحساسه بخطر العثمانيين المتزايد من ناحية ، وبآثار فشل حملته الثالثة على رودس من ناحية ثانية ، أجبرته على ذلك[٦٥] .

لذلك أحسن الظاهر جقمق استقبال رسل شاه رخ الذين وفدوا على القاهرة لتهنئة السلطان الجديد سنة ٨٤٤ هـ (١٤٤٠ م) ، وزينت لهم القاهرة « بأحسن زينة » ، كما رد السلطان جقمق على الهدية بأحسن منها[٦٦] . وفى سنة ٨٤٨ هـ (١٤٤٤ م) وافق السلطان جقمق على السماح لشاه رخ بكسوة الكعبة : بشرط أن تكون الكسوة من الداخل ، أى تحت كسوة السلطان . وقد بادر شاه رخ بارسال سفارة

---

(٦٢) الصيرفى : نزهة النفوس ، جـ ٣ ، ص ٣٤٣ ، سنة ٨٣٩ هـ (تحقيق حسن حبشى) .

(٦٣) Wiet : L'Egypte Arabe, p. p. 564 — 565.

(٦٤) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ٤ ، ق ٢ ، ص ٩٣٢ (تحقيق المؤلف) .

(٦٥) ابراهيم على طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ، ص ٩٣ .

(٦٦) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ٤ ، ق ٣ ، سنة ٨٤٤ هـ ، ص ١٢٠٨ ، ١٢١١ (تحقيق المؤلف) .

تحمل كسوته للكعبة ، فاستقبل أعضاء السفارة استقبالا حسنا ، وان كان العوام وبعض طوائف المماليك لم يرضوا عن ذلك الوضع ، فاعتدوا على أعضاء البعثة ، اذ « عظم ذلك على أمراء الدولة والمصريين الى الغاية » . ومن الواضح أن الرأى العام فى العالم الاسلامى لم ينس للتتار عندئذ ماضيهم الملطخ بالدماء فى عدوانهم على المسلمين وعلى الخلافة العباسية . لذلك استاء المسلمون من فكرة قيام أحد حكام التتار — كائنا من كان — بكسوة الكعبة . أما السلطان جقمق ، فقد برر تصرفه بأن « هذه قربة ، ويجوز أن يكسو الكعبة كائنا من كان »(٦٧) . وعندما أحس جقمق بتفاقم خطر استياء المسلمين أمر بنزع كسوة شاه رخ سنة ٨٥٦ هـ (١٤٥٢ م) ، وبقيت للكعبة كسوة سلطان المماليك فقط(٦٨) .

جقمق وجزيرة رودس :

هذا عن علاقة السلطان الظاهر جقمق بالدولة التيمورية . أما عن علاقته بجزيرة رودس ، فيلاحظ أن هذه الجزيرة صارت قاعدة للفرسان الاسبتارية منذ سنة ٧١٠ هـ (١٣١٠ م) ، وهم فرسان المنظمة التى نهضت بدور كبير فى خدمة الحركة الصليبية ببلاد الشام ، حتى اذا مادالت دولة الصليبيين بالشام ، غادروها الى قبرس ، ومنها الى رودس ، ليواصلوا نشاطهم ضد المسلمين فى شرق حوض البحر المتوسط .

وقد أحس الاسبتارية فى رودس بالخطر ، عندما قامت قوات السلطان الأشرف برسباى بغزو جزيرة قبرس ، فأسرع مقدم الاسبتارية فى ودس — واسمه فلوفيان — الى محاولة كسب ود

---

(٦٧) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ١٥ ، ص ٣٦٤ — ٣٦٥ (تحقيق ابراهيم على طرخان) .

(٦٨) السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، ص ٩٦ وما بعدها .

السلطان برسباى عن طريق تقديم الهدايا ، والتعهد بدفع جزية سنوية لسلطنة المماليك . على أنه يبدو أن عهد برسباى لم يتسع للقيام بغزو رودس ، فتأجل المشروع لعهد جقمق .

والواقع ان برسباى استطاع بنجاحه فى فتح جزيرة قبرس أن يضرب لمن يأتى بعده من سلاطين المماليك مثلا يحتذى لحماية دولة سلاطين المماليك من خطر الصليبيين البحرى فى شرق حوض البحر المتوسط . ويقال ان السلطان مراد الثانى العثمانى حرض جقمق على غزو رودس . وكان هدف السلطان مراد من ذلك هو أن يشغل فرسان الاسبتارية عن الانضمام الى الحلف المسيحى الذى أوشك أن يتألف بين القوى المسيحية الاوربية لشن حملة صليبية ضد العثمانيين فى البلقان(٦٩) . هذا الى أن اغارات القراصنة المسيحيين لم تنقطع على شواطىء دولة سلاطين المماليك ، فأغارت أربع سفن لهم على رشيد سنة ٨٤٣ هـ (أغسطس ١٤٣٩ م) ، وأوغلت فى النيل حيث اعتدت على عدة قرى وأماكن . ولما كانت قبرس فى ذلك الوقت قد تم اخضاعها لسلطنة المماليك ، فان الشبهات قويت ضد رودس حيث أنه لم تتبق قاعدة عداها للصليبيين فى شرق حوض البحر المتوسط(٧٠) .

ولم تلبث أن وصلت أخبار استعدادات جقمق لغزو رودس الى أصحاب الجزيرة من الاسبتارية ، فأخذوا يستعدون بدورهم لمواجهة الموقف على عجل ، كما أرسلوا الى القوى المسيحية فى أوربا يستنجدون بها خوفا من أن يحل بهم ما حل بأهل قبرس(٧١) . والى هذه الاستعدادات يرجع فشل جهود جقمق فى اخضاع رودس ، ليجعلها تابعة لسلطنة المماليك فى مصر تبعية تامة . مثلما حدث فى حالة جزيرة قبرس .

---

(٦٩) محمد مصطفى زيادة : المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس ، ص ٢٩٧ .

(٧٠) Wiet : L'Egypte Arabe p. 582.

(٧١) Atiya : The Crusade in the Later Middle Ages. p. 474.

وقد أرسل السلطان جقمق ثلاث حملات ضد رودس ، فى سنوات ٨٤٤ ، ٨٤٧ ، ٨٤٨ هـ (١٤٤٠ ، ١٤٤٣ ، ١٤٤٤ م)[٧٢] • وعندما فشلت الحملتان الاولى والثانية فى تحقيق أى هدف واضح ، اهتم جقمق بإعداد حملة ثالثة ، وحشد لها عددا كبيرا من المحاربين والسفن • وقامت هذه الحملة بحصار مدينة رودس — حاضرة الجزيرة لمدة أربعين يوما ، ولكن « مدينة رودس لا تزداد الا قوة لشدة مقاتليها ، ولعظم مهارتها ، وقد تأهبوا للقتال ، وحصنوا رودس بالآلات والسلاح والمقاتلة ••• فعند ذلك أجمع المسلمون على العود »[٧٣] •

وكان أن تم عقد الصلح بين فرسان رودس وسلطنة المماليك بعد قليل ، وان كانت العلاقة بين الطرفين ظلت تتأرجح بين الهدوء حينا والعداء أحيانا بقية القرن الخامس عشر للميلاد • ومن الواضح أن سلطنه المماليك صارت فى النصف الأخير من ذلك القرن فى حال لا تمكنها من القيام بعمل حربى كبير ضد رودس أو غيرها من القوى المعادية ، وبذلك لم يبق أمام سلاطين المماليك للرد على العدوان سوى مضايقة التجار الأوربيين فى مصر وربما القبض عليهم[٧٤] •

السلطان الأشرف قايتباى والتركمان :

تعرض السلطان الظاهر جقمق للمرض فى أواخر سنة ٨٥٦ هـ (١٤٥٢ م) • وفى العام التالى « قوى عليه المرض وظهرت عليه علامة الموت » • ولما ثقل عليه المرض ، خلع نفسه من السلطنة ، وعهد الى ولده عثمان بالسلطنة ، فتسلطن عثمان فى حياة أبيه الذى

---

(٧٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ١٥ ، ص ٣٤٣ ، ٣٥١ ، ٣٦٠ (تحقيق ابراهيم على طرخان) .

(٧٣) المصدر السابق — نفس الجزء ، ص ٣٦٠ — ٣٦٣ ، سنة ٨٤٨ هـ .

(٧٤) Wiet : op. cit. pp. 621 — 622

لم يلبث أن توفى فى رابع صفر سنة ٨٥٧ هـ (١٤٥٣ م)[٧٥] .

ولكن المنصور عثمان بن جقمق لم يستطع البقاء فى السلطنة سوى ثلاثة وأربعين يوما ، اذ عزله الأمير اينال وحل محله ، وتلقب بلقب الأشرف . ولعل الظاهرة الواضحة فى تاريخ المماليك فى تلك الحقبة ، هى انعدام روح النظام وكثرة المنازعات بين طوائف المماليك ، حتى لقد وصف المؤرخ ابن تغرى بردى ما آل اليه أمرهم فى القرن التاسع الهجرى — الخامس عشر للميلاد — فقال عنهم « ليس لهم صناعة الا نهب البضاعة . يتعدون على الضعيف ويشرهون حتى فى الرغيف . جهادهم الاخراق بالرئيس ، وغزوهم فى التبن والدريس . وحظهم منقام ، ولا مروءة لهم والسلام »[٧٦] .

وقد ظل الأشرف اينال فى الحكم ثمان سنوات (٨٥٧ — ٨٦٥ هـ / ١٤٥٣ — ١٤٦١ م) ثار أثناؤها المماليك الجلبان سبع مرات . وفيما عدا هذه الفتن والقلاقل الداخلية ، لا يوجد ما يستحق الذكر فى الفترة التالية التى تعاقبت فيها على عرش سلطنة المماليك ، أحمد بن إينال (٨٦٥ هـ — ١٤٦١ م) ، فالظاهر سيف الدين خشقدم (٨٦٥ — ٨٧٢ هـ / ١٤٦١ — ١٤٦٧ م) ، فالظاهر سيف الدين يلباى الملقب بالمجنون سنة ٨٧٢ هـ (١٤٦٧ م) ، فالظاهر تمربغا الرومى سنة ٨٧٢ هـ (ديسمبر ١٤٦٧ — يناير ١٤٦٨ م) . وهكذا تعاقب السلاطين على عرش دولة المماليك فى سرعة ، مما يدل على حالة عدم الثبات والاستقرار . وبعضهم لم يظل فى منصب السلطنة الا أياما معدودة ، بل ان أحدهم — فى تلك الفترة القلقة — لم يبق فى منصب السلطنة سوى ليلة واحدة . ونقصد بذلك السلطان خاير بك (٨٧٢ هـ — ١٤٦٨ م) الذى تسلطن فى المساء ، وتم عزله فى الصباح

---

(٧٥) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ٢٩٦ (تحقيق محمد مصطفى) .

(٧٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٣٢٩ .

التالى ، مما جعل المعاصرين يطلقون عليه اسم (سلطان ليلة) . وطوال تلك الليلة ظل خاير بك يتصرف « بما إقتضى له الاختيار ، ولسان حاله يناديه : كلام الليل يمحوه النهار »[٧٧] . وهكذا حتى قام السلطان الأشرف قايتباى فى منصب السلطنة سنة ٨٧٢ هـ (١٤٦٨ م) ، وعندئذ دخلت الدولة فى مرحلة مؤقتة من الاستقرار .

ذلك أن السلطان الأشرف قايتباى ظل فى الحكم قرابة تسعة وعشرين عاما (٨٧٢ — ٩٠١ هـ / ١٤٦٨ — ١٤٩٦ م) ، وهى مدة طويلة لم يسبقه فيها أحد من سلاطين المماليك ، عدا السلطان الناصر محمد بن قلاون . وقد أثبت السلطان قايتباى طوال حكمه أنه من أقدر السلاطين المماليك فى ميدان الحرب ، وأوسعهم خبرة بشئون العالم الخارجى ، وأكثرهم شجاعة وحكمة ، حتى وصفه المؤرخ ابن اياس بأنه « كان كفؤا للسلطنة ، وافر العقل ، سديد الرأى ، عارفا بأحوال المملكة ، يضع الاشياء فى محلها .. وكان موصوفا بالشجاعة »[٧٨] .

وعلى الرغم من ثورات الجلبان[٧٩] فى عهد قايتباى ، وجشعهم فى الحصول على المال دون مراعاة لظروف الدولة عندئذ ، فان قايتباى استطاع أن يواجه فى جرأة وعزيمة المشاكل الكبرى التى هددت

---

(٧٧) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٤٧٤ ، سنة ٨٧٢ هـ (تحقيق محمد مصطفى) .

(٧٨) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٢٥ — حوادث سنة ٩٠١ هـ (تحقيق محمد مصطفى) .

(٧٩) المماليك الجلبان او الاجلاب أو المشتريات او المشتروات هم الذين اشتراهم سلطان المماليك او احد الامراء بقدر ما تسمح به رتبته ، وكانوا موضع ايثار عند أساتذتهم دائما . انظر :
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ١٥ ، ص ٢٠ حاشية ١ للمحقق ابراهيم على طرخان .

دولته . وكانت المشكلة الخارجية الكبرى التى واجهت دولة سلاطين المماليك فى ذلك العصر من جانب الدول التركمانية التى هددت الاطراف الشمالية للدولة ، فى شمال الشام والعراق وشرق آسيا الصغرى . وأهم هذه الدول : دولة دلغادر ، ودولة رمضان ، ودولة قرمان ، ثم دولتى الشاه البيضاء والشاه السوداء[٨٠] .

وقد رأينا كيف تم فى عهد السلطان المؤيد شيخ خروج حملتين سنتى ٨٢١ ، ٨٢٢ هـ (١٤١٨ ، ١٤١٩ م) الى الاطراف الشمالية لبلاد الشام ، لارغام تلك الدويلات التركمانية على الولاء لسلطنة المماليك . واذا كانت هاتان الحملتان قد نجحتا فى ارهاب التركمان ، مما ترتب عليه هدوء العلاقات بينهم وبين سلطنة المماليك ، فان هذا الهدوء جاء مؤقتا ، بدليل أن زعيم دولة الشاه البيضاء انتهز فرصة سوء التفاهم بين برسباى وشاه رخ حول مسألة كسوة الكعبة ، وأغار على حدود سلطنة المماليك ببلاد الشام . وقد رد برسباى على ذلك بارسال حملة خربت الرها سنة ٨٣٢ هـ (١٤٣٠ م) — وكانت تابعة للشاه البيضاء — ولكنه لم يستطع مع ذلك القيام بعمل حاسم لتأديب التركمان[٨١] . وربما كان اختلال أحوال المماليك ، وما سببوه من اضطرابات منذ أواخر عهد برسباى ، سببا لهدوء الموقف نسبيا بين التركمان من ناحية ، وسلطنة المماليك حتى قيام قايتباى فى الحكم ، من ناحية أخرى .

على أن ازدياد نفوذ العثمانيين فى تلك المرحلة الجديدة ، وتدخلهم فى شئون تلك الامارات التركمانية على حدود دولة سلاطين المماليك ، جعل السلطان الأشرف قايتباى يحس بالخطر الجديد ،

---

(٨٠) Wiet : L'Egypte Arabe, p. 590.

(٨١) الصيرف : نزهة النفوس ، جـ ٣ ، ص ١٦٣ ، سنة ٨٣٢ هـ (تحقيق حسن حبشى) .

ويفكر فى وضع حد لخطر التركمان ، حتى لا يكونوا أداة لتغلغل النفوذ العثمانى فى أطراف دولة المماليك من ناحية الشمال .

لذلك قام السلطان قايتباى بإرسال عدة حملات ضد شاه سوار أمير دلغادر الذى كان يتمتع بتأييد السلطان محمد الفاتح العثمانى[٨٢] . وقد نجحت الحملة الاخيرة التى أرسلها قايتباى بقيادة الامير يشبك من مهدى الدوادار سنة ٨٧٦ هـ (١٤٧١ م) فى انزال الهزيمة بشاه سوار ، والاستيلاء على قلعة عينتاب ، فضلا عن أذنة وطرسوس[٨٣] . وأخيرا تم القبض على شاه سوار ، وأرسل الى القاهرة ، فى حين قام الأمير يشبك بتنظيم شئون امارة دلغادر ، وعين عليها الأمير بوداق الذى كان يعتمد على تأييد سلطنة المماليك ، فى حين كان أخوه شاه سوار يعتمد على تأييد السلطنة العثمانية . ولم تلبث أن عادت حملة يشبك الى القاهرة سنة ٨٧٧ هـ (١٤٧٢ م) ، فاستقبلت استقبالا شعبيا رائعا ، وزينت القاهرة « زينة حافلة ، واصطفت الناس على الدكاكين للفرجة عليه ... » أما شاه سوار فقد شنق هو واخوته الاربعة ، وعلقوا على باب زويلة ، والمشاعلية تنادى « هذا جزاء من يخامر على السلطان »[٨٤] .

ولم تقتصر المتاعب التى واجهت سلطنة المماليك من جانب التركمان على ما أثاره أمراء دلغادر من فتن وقلاقل ، بل ان قبيلة الشياه البيضاء — وصاحبها حسن الطويل — دأبت على الاغارة على أعمال حلب ، الأمر الذى جعل السلطان قايتباى يرسل حملة بقيادة يشبك

---

(٨٢) الصيرفى : انباء الهصر بابناء العصر ، ص ١٨ ، ٢٦ ، ٣٠ وما بعدها (تحقيق حسن حبشى) .

(٨٣) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٥٩ وما بعدها (تحقيق محمد مصطفى) .

(٨٤) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ٧٦ — ٧٨ .

الدوادار سنة ٨٧٧ هـ (١٤٧٢ م) ضد حسن الطويل[٨٥] . وعلى الرغم من أن هذه الحملة أحرزت انتصارا على التركمان عند البيرة على نهر الفرات ، الا أن يشبك انتهز فرصة الفوضى التى عمت امارة الشاه البيضاء عقب وفاة أميرها حسن الطويل سنة ٨٨٣ هـ (١٤٧٨ م) وقام بحملة جديدة لاخضاع تلك الامارة سنة ٨٨٥ هـ (١٤٨٠ م) ولكن حاكم الرها — وهو أحد نواب يعقوب بك ابن حسن الطويل — استطاع أن ينزل هزيمة بالمماليك أثناء حصارهم مدينة الرها ، ووقع الامير يشبك الدوادار نفسه أسيرا . فحزت رأسه ، وألقيت جثته فى العراء ، فى حين « قتل من العساكر التى كانوا مع الأمير يشبك ما لا يحصى عددهم »[٨٦] . ويبدو أن ظروف قايتباى عندئذ لم تساعده على الانتقام من التركمان عقب تلك الكارثة ، فقنع بعقد الصلح مع دولة الشاه البيضاء بعد قليل .

وفى الوقت الذى حرص السلطان قايتباى على تأمين حدود دولته من ناحية الشمال ، فانه لم يهمل شئون رعاياه . حقيقة انه تعسف فى جمع الاموال ، وفرض الضرائب ، وتطبيق سياسة الاحتكار ، حتى وصفه المؤرخون المعاصرون بأنه « كان محبا لجمع المال ، ناظرا لما فى أيدى الناس » . ولكن نفس المؤرخين قالوا عنه انه « كان معذورا فى ذلك »[٨٧] ، لأنه استغل الاموال الطائلة التى جمعها فى اقامة المنشآت العديدة وتجهيز الجيوش . ويعتبر مسجدا قايتباى بالقاهرة ، والوكالات التى أقامها ، من أجمل المنشآت التى تتميز بفنها الاسلامى الأصيل[٨٨] . هذا الى عناية قايتباى باصلاح آثار أسلافه وترميمها ، كما يتضح ذلك من الكتابات والنقوش العديدة المثبتة فى مدارس ذلك

---

(٨٥) نفس المصدر والجزء ، ج ٣ ، ص ١٧١ .
(٨٦) نفس المصدر والجزء ، ص ١٧١ (تحقيق محمد مصطفى) .
(٨٧) المصدر السابق ، ص ٣٢٥ .
(٨٨) زكى محمد حسن : فنون الاسلام ، ص ٧٧ — ٧٨ ، ٨٢—٨٤ .

العصر ومساجده ، فضلا عن القلعة التى ما زالت تحمل اسم قايتباى بالاسكندرية •

وقد عرف عن قايتباى حب التنقل والاسفار ، فطاف بالشام وأعالى الفرات ، ومصر العليا والدلتا ، بالاضافة الى الحج وزيارة الأماكن المقدسة بالحجاز وبيت المقدس(٨٩) • وأينما ذهب ، كان يخلد اسمه بانشاء الطرق والجسور والمساجد والمدارس ، وغيرها من المؤسسات الحيوية • وقد دفع ذلك بعض الباحثين الى القول بأنه لا يوجد سلطان آخر من سلاطين المماليك — عدا الناصر محمد بن قلاون — فعل ما فعله قايتباى من عناية بالفنون ، وبخاصة فن العمارة(٩٠) •

---

(٨٩) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٣٢٩ وما بعدها

(٩٠) Lane — Poole : op. cit. p. 344.

الفصل السادس

خاتمة دولة سلاطين المماليك

قانصوه الغوري :

ساءت أحوال البلاد فى أواخر عصر السلطان قايتباى ، اذ ضاق الناس بكثرة الأعباء المالية الملقاة على عاتقهم ، كما انتشر الطاعون انتشارا خطيرا سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) « وفتك فى الناس فتكا ذريعا » على قول ابن اياس ، حتى أنه كان يموت بالقاهرة فى اليوم الواحد أكثر من عشرة آلاف نفس . ولم ينج المماليك أنفسهم من ذلك الوباء ، فماتت أعداد غفيرة منهم ، قدرها المؤرخون بثلثهم . وكان من جملة الموتى زوجة السلطان قايتباى وابنته . وزاد الموقف سوءا انعدام الأقوات ، وانخفاض النيل ، وانتشار طاعون المواشى . وقد بدأ هذا الطاعون فى حلب ، ثم امتد الى مصر ، بمعنى أن شمل دولة المماليك بأجمعها « وفشى جملة واحدة »(1) .

وفى وسط تلك الظروف القاسية ، لم يتورع المماليك عن اثارة الفتن والانغماس فى منازعات مع بعضهم البعض ، مثلما حدث سنة ٩٠٠ هـ (١٤٩٥ م) . أما السلطان قايتباى نفسه ، فقد تقدم به السن حتى جاوز الرابعة والثمانين من عمره ، واستبد به الضعف والمرض ، حتى كاد يفقد الوعى . وكان أن اجتمع الأمراء والقضاة والخليفة ، وبايعوا ابنه محمد ، كل ذلك « والسلطان قايتباى فى النزع الأخير ،

---

(1) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٢٨٧ (تحقيق محمد مصطفى) .

لم يشعر بشيء مما جرى » ، حتى لفظ أنفاسه الاخيرة فى ذى القعدة سنة ٩٠١ هـ (١٤٩٦ م)[٢] .

وكان محمد بن قايتباى الذى تلقب بالناصر فى الرابعة عشر من عمره ، لا يستطيع الصمود أمام كبار الأمراء الذين اشتد التنافس بينهم حول الوصاية على السلطان القاصر ، باعتبار أن هذه الوصاية هى الخطوة المؤدية الى الاستئثار بالحكم وبمنصب السلطنة . وقد خرج الأمير قانصوه خمسمائة منتصرا فى تلك الجولة ، اذ تولى منصب الأتابكية ، واستبد بالسلطة[٣] .

ولم يلبث أن تمكن الأمير قانصوه خمسمائة من عزل محمد بن قايتباى واعلان نفسه سلطانا (٩٠٢ هـ — ١٤٩٧ م) ، « وما كان أغناه عن هذه السلطنة » على قول المؤرخ المعاصر ابن اياس ، لأن خصومه سرعان ما خلعوه ثم قتلوه ، ثم أعادوا الناصر محمد بن قايتباى مرة أخرى الى السلطنة[٤] . ولكن الناصر محمد لم يلبث أن استثار غضب الناس ونفورهم منه ، نظرا لحماقته وطيشه ، وميله لسفك الدماء ، فى الوقت الذى استبد المماليك الجلبان بالامور ، وطغوا وعاثوا فسادا فى البلاد . وعندما ضاق الأمراء باستبداد المماليك الجلبان ، وخضوع السلطان الصغير محمد بن قايتباى لرأيهم ، قتلوا السلطان محمد سنة ٩٠٤ هـ (١٤٩٨ م) ، واختاروا الظاهر قانصوه — وهو خال السلطان القتيل — ليتولى السلطنة .

وهكذا تعاقب السلاطين بسرعة فى تلك الفترة المضطربة التى تمثل الفصل الختامى فى تاريخ سلطنة المماليك ، اذ لم يلبث أن عزل الظاهر قانصوه ليتولى السلطنة بدله الأشرف جانبلاط ٩٠٥ هـ

---

(٢) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ٣٢٣ — ٣٢٤ ،
Wiet : op. Cit. p. 604.

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٣٣٥ وما بعدها .

(٤) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ٣٥٤ .

(١٥٠٠ م) ، ثم عزل هذا الاخير وخنق ليحل محله العادل طومان باى (الأول) سنة ٩٠٦ هـ (١٥٠٦ م) . ولم يبق العادل طومان باى فى منصب السلطنة سوى بضعة أشهر ، حتى خنق وحل محله الأشرف قانصوه الغورى (٩٠٦ هـ — ١٥٠١ م) .

ولعل الموتة الوحشية التى تعرض لها سلاطين المماليك الأواخر عند عزلهم ، هى التى جعلت قانصـوه الغورى يتهرب من منصـب السلطنة عندما عرضه عليه الأمراء : « ويمتنع من ذلك ويبكى » . ولكنه قبل أخيرا ذلك المنصب بعد أن اشترط عليهم عدم قتله اذا أرادوا خلعه[٥] . ولم يكن اصرار الأمراء على اختيار قانصوه الغورى ايمانا منهم بأحقيته أو تقديرا لكبر سنه ، وانما لاعتقادهم أنه ضعيف ، يمكنهم التلاعب به وفق أهوائهم .

ولكن ما كاد السلطان الأشرف قانصوه الغورى يلى السـلطنة ، حتى أثبت أنه رجل قوى صلب العود ، على الرغم من أنه كان قـد تجاوز الستين من عمره . ذلك أنه عمل فى سرعة على اعادة الأمن والاستقرار الى العاصمة ، وملأ مناصب الدولة بمن يثق فيهم من كبار الأمراء[٦] ثم اتجه الى علاج الأزمة المالية بعد أن أفلسـت خزانة الدولة ، وان كان يؤخذ عليه أنه اتبع سياسة تعسفية فى اشباع خزانة الدولة بالمال ، فجمع ضرائب عشرة أشهر مقدما دفعة واحدة . ولم يكتف بفرض الضرائب على الأرض والحوانيت والعقارات ، وانما تجاوز ذلك الى الطواحين والمعديات والسفن ودواب النقل ، بل حتى الأوقاف الخيرية . هذا الى أنه تلاعب فى العملة لتستفيد الخـزانة من الفارق بين العملة الجيدة والعملة الرديئة . وضاعف المكـوس والرسوم الجمركية مما أنزل بالتجار — على وجه الخصـوص —

---

(٥) المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٤ وما بعدها (تحقيق محمـد مصطفى) .

(٦) المصدر السابق ، جـ ٥ : ص ٣٠ وما بعدها .

أضرارا بالغة[٧] . وكانت النتيجة أن حقق الغورى أغراضه ، وحصل على ما كان يتطلع اليه من أموال ، ولكن ذلك تم على حساب شعب محطم ، أثقلت كواهله الالتزامات والاحتكارات والضرائب ، وأقلقت مضاجعه الفتن والمنازعات بين أمرء المماليك وطوائفهم .

ولم يشفع للسلطان الغورى لدى رعاياه أن ذلك السلطان شيد مسجدا ومدرسة فى الحى الذى نسب اليه فيما بعد ، وهو حى الغورية ، فضلا عن « الوكالة والحواصل والربوع التى أنشأها خلف المدرسة »[٨] ، كما عنى بطريق الحج وحفر به بعض الآبار ، فضلا عن عنايته بحفر الترع وتحصين الاسكندرية ورشيد ، واجراء اصلاحات بقلعة الجبل . هذا الى أن السلطان الغورى اشتهر بعنايته بالمماليك ، فأكثر من شراء أعداد كبيرة منهم ، وصرف أموالا طائلة على مظهر بلاطه وفخامته ، حتى غدت مماليكه وخيوله وجواهره ، ومطبخه السلطانى . مضرب الأمثال ، كما اشتهرت مجالسه الأدبية ، التى ضمت العديدين من الشعراء والأدباء والعلماء[٩] .

الصدام بين المماليك والبرتغاليين :

ولم تحدث قلاقل ذات خطورة فى الفترة الاولى من حكم السلطان الغورى ، اذا استثنينا بعض الفتن والثورات من جانب المماليك والعربان . وهذ النوع من الفتن كان من الأمور المألوفة فى ذلك العصر ، بحيث لم يصعب على السلطان الغورى اخمادها . ولكن لخطر الكبير الذى ظهر عندئذ والذى هدد كيان الاقتصاد المصرى ، والمصدر الأول لايرادات الدولة ، لاح فى الجنوب ، أى من ناحية المدخل الجنوبى

---

(٧) المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ٨٩ — ٩٠ .

(٨) نفس المصدر والجزء ، ص ٩٤ .

(٩) انظر كتاب (الكوكب الدرى فى مسائل الغورى) ، نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية . وكذلك كتاب (مجالس السلطان الغورى) تاليف عبد الوهاب عزام .

للبحر الأحمر ، وجاء مقرونا بخطر آخر ظهر فى الشمال ممثلا فى الخطر العثمانى .

ومن المعروف أن حركة التتار التوسعية أدت منذ القرن السابع الهجـرى — الثالث عشر للميلاد — الى انسـداد طـرق التجارة العالمية المألوفة بين الشرق ولغرب ، وبخاصة طريق الخليج ، والطريق البرى المار بسمرقند . ولم يبق طريق آمن ، بعيد عن سيطرة التتار سوى طريق البحر الاحمر ومصر . وكان أن استغل سلاطين المماليك تلك الفرصة ، وفرضوا ضرائب باهظة على الغلات لاسيوية — وبخاصة التوابل والفلفل والبخور — التى حرص الغرب الاوربى على استيرادها من الشرق . وجاء ذلك مصحوبا بنظام احتكارى عنيف طبقه سلاطين المماليك على تجارة التوابل بوجه خاص ، حتى غدت تباع للتجـار الاوربيين فى الاسكندرية ودمياط بأسعار تفوق أربعين مرة أسعارها المستوردة به من بلدان الشرق الأقصى(١٠) .

وعندما ضاق الغرب الاوربى — ممثلا فى التجار والمستهلكين — بذلك الوضع ، بدأ التفكير فى البحث عن طريق آخر — غير طريق مصر ودولة سلاطين المماليك — للوصول الى الشرق الاقصى والحصول على حاصلاته دون وسيط . ولمـا كانت البندقية هى العميل الاول لدولة سلاطين المماليك فى تجارة الشرق الأقصى ، فان منافستها جنوة تزعمت حركة الكشف عن طريق جديد يربط أوربا بالشرق الاقصى . وفعلا استطاعت جنوة اكتشاف بعض أجزاء الساحل الغربى للقارة الافريقية — فى مواجهة جزر كناريا — مما يعتبر مقدمة للجهـود التى

---

(١٠) انظر للمؤلف (مركز مصر فى التجارة العالمية فى أواخر العصور الوسطى) بحث نشر فى المجلة المصرية للعلوم السياسية ، ديسـمبر ١٩٦٧ .

ادت الى اكتشاف طريق رأس الرجا ءالصالح فيما بعد(١١) . وكان أن نجح بارثلميو دياز فى اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح سنة ٨٩٢ هـ (١٤٨٧ م) ، وأعقبه فاسكو دى جاما الذى تمكن من الوصول الى الهند عن طريق الطواف حول افريقية سنة ٩٠٤ هـ (١٤٩٨ م) . وبذلك حقق البرتغاليون نصرا عالميا جديدا ، واستطاعوا أن يوفروا للسوق الاوربية التوابل — وغيرها من حاصلات الشرق الاقصى — بثمن يعادل ربع ثمنها فى الاسكندرية ودمياط .

وسرعان ما اهتزت سلطنة المماليك لذلك الانقلاب المفاجىء فى طرق التجارة العالمية ، وما ترتب عليه من خلل فى الميزان الاقتصادى . ذلك أن التوابل غدت مكدسة فى الاسكندرية ودمياط بعد أن قل عدد المشترين من التجار الاوربيين ، مما حرم سلطنة المماليك من المورد الأول لثروتها وعظمتها وقوتها . ولم تكن البندقية أقل تأثرا من سلطنة المماليك بما أحدثه اكتشاف البرتغاليين للطريق الجديد بين الغرب والشرق من آثار ، لأن معنى ذلك أن يحل البرتغاليون محل البنادقة فى الوساطة التجارية بين الشرق والغرب(١٢) . لذلك اتفقت مصالح البندقية مع مصالح سلطنة المماليك ، فحرض البنادقة السلطان الغورى على ارسال حملة — عبر البحر الاحمر — الى قاليقوط لطرد البرتغاليين من الهند . هذا فى الوقت الذى لجأ الغورى الى أسلوب آخر ، هو تحريض الحكام المسلمين بالهند على طرد البرتغاليين من بلادهم ، وشن حرب عليهم . ومن ناحية أخرى ، فقد دأبت البندقية على تأليب القوى الاوربية ضد البرتغاليين وحثها على عدم التعامل معهم . على أن جميع جهود الغورى والبنادقة ذهبت مع الريح ، فلا الحكام المسلمون فى الهند تحركوا ضد البرتغاليين ، ولا الدول الاوربية قبلت

---

(١١) انظر للمؤلف (الحصار الاقتصادى على مصر زمن الحروب الصليبية) بحث نشر فى المجلة المصرية للعلوم السياسية ، اكتوبر ١٩٦٢ .

(١٢) Heyd : Hist. du Commerce: T.2 p 320.

أن تتخلى عن التعامل مع البرتغاليين الذين قاموا بتموين السوق الاوربية بحاجته من التوابل بأسعار تقل كثيرا عن أسعار البنادقة[١٣] .

ولما وجد الغورى أن الغرب الاوربى لم يعبأ بتهديداته ، وأن جهود البندقية لم تفلح فى عرقلة طريق البرتغاليين ، صمم على القيام بعمل حاسم ضد البرتغاليين بعد أن غدت المعركة معركة بقاء أو فناء بالنسبة لسلطنة المماليك . لذلك أعد الغورى حملة بحرية كبيرة ، وأرسلها فى البحر الاحمر سنة ٩١١ هـ (١٥٠٥ م) بقيادة حسين الكردى — نائب جدة — . وأعلن السلطان الغورى أنه يرسل هذه الحملة « بسبب تعبث الفرنج فى بحر الهند »[١٤] . واستطاعت هذه الحملة أن تنزل الهزيمة فعلا بالبرتغاليين قرب الشواطىء الغربية للهند سنة ٩١٤ هـ (١٥٠٨ م) . ولكن البرتغاليين انتقموا بسرعة لأنفسهم ، فحطموا اسطول المماليك فى العام التالى — سنة ٩١٥ هـ (١٥٠٩ م) — وذلك فى موقعة ديو البحرية[١٥] .

ولم ييأس السلطان الغورى بعد الهزيمة التى حلت باسطوله فى موقعة ديو ، وانما قام بعدة محاولات أخرى للقضاء على النفوذ البرتغالى فى الهند ، ولكن هذه المحاولات لم يكتب لها النجاح منذ بدايتها . لقد كانت حلقة من حلقات الصراع بين القديم والجديد .

وهكذا ذبلت تجارة مصر مع الشرق الاقصى والغرب الاوربى جميعا . وبذبول هذه التجارة ذبلت دولة سلاطين المماليك كلها . وجاء ذلك فى الوقت الذى اشتد خطر العثمانيين على دولة المماليك فى مصر والشام .

---

(١٣) ابن ایاس : بدائع الزهور ، جـ ٥ ، ص ٨٤ ، ١٤٦ .
(١٤) المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٤٣٥ .
(١٥) Wiet : op. Cit; p. 618.

المماليك والعثمانيون :

شهد القرن الثامن الهجرى — الرابع عشر للميلاد — تضخم نفوذ قوة جديدة على مسرح الشرق الأدنى ، هى قوة الاتراك العثمانيين ، الذين كانوا يعيشون فى بداية القرن السابع الهجرى — الثالث عشر للميلاد — فى اقليم خراسان ، ثم اضطروا تحت ضغط التتار الى التحرك غربا ، حتى استقروا فى آسيا الصغرى . وقد أتاح انهيار سلطنة سلاجقة الروم بقونية سنة ٧٠٧ هـ (١٣٠٧ م) فرصة طيبة للعثمانيين ، فأخذوا يتوسعون بسرعة فى آسيا الصغرى على حساب بقية الامارات والقبائل التركية ، فضلا عن بقية الممتلكات والبقايا البيزنطية والمسيحية ، فاستولوا على بروسة سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢٦ م) ، وعلى نيقية سنة ٧٣٠ هـ (١٣٣٠ م) ، ثم عبروا الى الشاطىء الاوربى واستولوا على غاليبولى سنة ٧٥٥ هـ (١٣٥٤ م)(١٦) . وهكذا أخذت الدولة العثمانية الناشئة تتوسع توسعا آمنا سريعا على حساب الدولة البيزنطية من ناحية ، وعلى حساب القوى الاسلامية فى آسيا الصغرى من ناحية أخرى ، دون أن يعوق تقدمها عائق حتى نهاية القرن الثامن الهجرى ؛ الرابع عشر للميلاد .

على أن الدولة العثمانية الناشئة تعرضت لضربة خطيرة كان من الممكن أن تقضى عليها قضاءا نهائيا فى أوائل القرن التاسع الهجرى — الخامس عشر للميلاد — عندما اجتاح تيمورلنك معظم آسيا الصغرى ، وأنزل هزيمة ساحقة بالجيوش العثمانية فى موقعة أنقرة سنة ٨٠٥ هـ (١٤٠٢ م) ، ووقع السلطان العثمانى بايزيد الاول أسيرا حيث مات فى الأسر فى العام التالى . وهكذا انتشرت جيوش تيمورلنك فى آسيا الصغرى « تعبث وتفسد وتنهب ... ومكثوا ستة أشهر يقتلون ويأسرون وينهبون ويفسدون » . أما بنو عثمان ، فقد لاذوا بالفرار « الى بر

---

(١٦) Gibbon : The Decline and Fall of the Roman Empire, pp. 101 — 103.

القسطنطينية » أى الى الجانب الاوربى طلبا للنجاة[١٧] .

وكان الأمل ضعيفا فى استطاعة الدولة العثمانية النهوض من تلك الكبوة ، ولكنها نهضت بسرعة ، وتمكن السلطان محمد الاول العثمانى من احياء الدولة ، وربط أجزائها ، وابستئناف سياسة التوسع على حساب القوى المجاورة من جديد . ولم يستطع الغرب الاوربى وقف توسع العثمانيين المسلمين فى البلقان ، حتى سقطت القسطنطينية فى قبضة محمد الفاتح سنة ٨٥٧ هـ (١٤٥٣ م) ع وبذلك انتهت الدولة البيزنطية — أو دولة الروم — من صفحة التاريخ ، وحل سلاطين آل عثمان محل أباطرة الروم فى مدينة الامبراطور قسطنطين العظيم[١٨] .

وفى خلال تلك الأحداث التى صحبت نمو الدولة العثمانية ، كانت العلاقات طيبة بين القوتين الاسلاميتين فى الشرق لادنى — وهما دولة المماليك ودولة العثمانيين — وبخاصة فيما يتعلق بمواجهة القوى المسيحية ، فى عصر شهد ذيول الحرب الصليبية . من ذلك ما يذكره المقريزى فى حوادث سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٦ م) — عقب حملة بطرس لوزجنان ملك قبرس على الإسكندرية — من أن السلطان العثمانى أرخان أرسل الى سلطان المماليك الأشرف شعبان يخبره « أنه جهز مائتى غراب بحرية نجدة للسلطان على متملك قبرس ، فأجيب بالشكر والثناء »[١٩] . وفى سنة ٧٩٥ هـ (١٣٩٣ م) أرسل السلطان العثمانى بايزيد الى سلطان المماليك برقوق رسلا يحملون اليه هدية سنية

---

(١٧) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ٣ ، ق ٣ ، ص ١٠٩٢ وما بعدها ، ٨٠٥ هـ (تحقيق المؤلف) ،

Cam. Med. Hist. vol 4, 782 — 784

(١٨) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى : جـ ١ ، ص ٦٨٣ .

(١٩) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ٣ ، ق ١ ، ص ١٢١ (تحقيق المؤلف) .

ويسألون « تجهيز طبيب من أطباء القاهرة الى ابن عثمان ليداويه من مرض به » . وعلى الفور ، تم ارسال الطبيب والدواء[٢٠] .

وطوال توسع الدولة العثمانية ونموها فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر للميلاد ، لم يظهر فى الأفق ما يدل على احتمال حدوث صدام بين العثمانيين ودولة سلاطين المماليك ، وذلك باستثناء بعض الشائعات التى كانت تنتشر أحيانا عن عزم ابن عثمان التحرك « للمشى على بلاد الشام » ، مثلما حدث سنة ٨٠١ هـ (١٣٩٩ م)[٢١] . ولا نكون مبالغين ، اذا ذكرنا أن دولة سلاطين المماليك أخذت تنظر بعين الارتياح الى الانتصارات التى كان يحققها العثمانيون المسلمون على حساب القوى الاوربية المسيحية فى البلقان . بل ان السلطان إينال أمر بتزيين القاهرة سنة ٨٥٧ هـ (١٤٥٣ م) عندما وصلته الاخبار باستيلاء العثمانيين على القسطنطينية . يذكر المؤرخ المعاصر ابن تغرى بردى أنه عندما وصل خبر استيلاء العثمانيين على القسطنطينية « سر السلطان والناس قاطبة بهذا الفتح العظيم سرورا زائدا ، ودقت البشائر لذلك ، وزينت القاهرة بسبب ذلك أياما ... »[٢٢] .

وهكذا أخذ المماليك ينظرون الى كل نصر يحققه العثمانيون على حساب القوى المسيحية على أنه نصر للاسلام والمسلمين . وقد أدرك العثمانيون هذه الحقيقة ، فدأبوا كلما أحرزوا نصرا فى موقعة كبرى على ارسال بعض أسرى الاوربيين الى القاهرة ، حتى يشارك أهل مصر فى فرحة النصر . وفى الوقت نفسه حرص سلاطين المماليك فى القاهرة على ارسال التهانى الى الدولة العثمانية كلما اعتلى عرشها

---

(٢٠) المصدر السابق ، جـ ٣ ، ق ٢ ، ص ٧٩٠ .

(٢١) المصدر السابق ، جـ ٣ ، ق ٣ ، ص ٩٦٥ ، ٩٧١ .

(٢٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ١٦ ، ص ٧١ ، سنة ٨٥٧ هـ (تحقيق جمال الدين الشيال وفهيم شلتوت) ، محمد مصطفى زيادة : نهاية سلاطين المماليك فى مصر ، ص ١٩٩ .

سلطان جديد ، أو كلما أحرزت الجيوش العثمانية نصرا جديدا[٢٣] .

غير أنه لم يكد يلى الظاهر خشقدم عرش سلطنة المماليك سنة ٨٦٥ هـ (١٤٦١ م) ، حتى أخذت العلاقات يتعكر صفوها بين دولتى المماليك والعثمانيين . ذلك أن الدولة العثمانية كانت قد قنعت عندئذ بما حققته من فتوح فى البلقان ، وأخذت تولى وجهها مرة أخرى صوب ما تبقى خارجا عن سيادتها من الامارات فى آسيا الصغرى . وكانت أهم هذه الامارات امارتا قرمان وذلغادر ، وهما امارتان تركمانيتان مشمولتان بحماية سلطنة المماليك ، واعتمدت عليهما هذه السلطنة فى شئون الأمن والدفاع عن مصالحها فى شمال الشام وشرقى آسيا الصغرى[٢٤] .

والواقع ان الصدام بين دولتى المماليك والعثمانيين كان لابد أن يحدث فى يوم ما ، بين قوتين تتزعمان العالم الاسلامى فى الشرق الأدنى واتخذتا من القتال أداة لتحقيق أهدافهما . وكان لابد لاحدى هاتين القوتين من أن تنتصر على منافستها لتستأثر بزعامة المسلمين فى الشرق الأدنى . وكان أن اتخذ التنافس بين سلطنتى المماليك والعثمانيين امارتى قرمان ودلغادر مجالا له . وظهر ذلك بوضوح عندما توفى أميرا قرمان ودلغادر سنة ٨٦٩ هـ (١٤٦٥ م) ، اذ قامت الدولة العثمانية بمناصرة أميرين غير الاميرين اللذين قامت دولة المماليك بتأييدهما ، مما أدى الى أن « تتسع الفتنة بين ابن عثمان والسلطان »[٢٥] .

---

(٢٣) ابن اياس : بدائع الزهور ، صفحات لم تنشر ، حققها ونشرها محمد مصطفى ، ص ١٤ .

(٢٤) Lane — Poole : op. Cit; pp. 346 — 347.

(٢٥) ابن اياس : بدائع الزهور ، سنة ٨٧٠ هـ (صفحات لم تنشر حققها ونشرها محمد مصطفى ، ص١٦٠ — ١٦١) ، ج ٤ ص ٣٥ ، سنة ٩٢١ هـ .

واذا كانت العلاقات قد تحسنت بعد عهد الظاهر خشقدم بين سلطنتى المماليك والعثمانيين ، فان هذا التحسن لم يكن الا فى ظاهر الأمور ، لأن أطماع الدولة العثمانية وسياستها التوسعية من ناحية ، ومخاوف دولة سلاطين المماليك من ناحية أخرى ، ظلت قائمة . ولا أدل على ذلك من أن كل طرف من الطرفين حرص على ايواء الأمراء الخارجين على الطرف الآخر . فرحبت سلطنة العثمانيين ببعض كبار الأمراء الفارين من القاهرة والشام ، ورحب السلطان قايتباى بأخ للسلطان بايزيد الثانى — اسمه جم — هارب من وجهه(٣٦) . وقد حاول بايزيد الثانى أن يحرم سلطة المماليك من انفرادها بحماية الحرمين مما يضفى عليها مكانة خاصة لا تتمتع بها دولة اسلامية أخرى ، فطلب السماح له بالقيام ببضعة اصلاحات فى مكة . ولكن قايتباى رفض طلبه ، مثلما رفض سلاطين المماليك السابقين طلبات شاه رخ لكسوة الكعبة من قبل . وازاء ذلك لم يسع بايزيد الثانى سوى أن يتحرش بسلطنة المماليك ، واتخذ امارة دلغادر — الخارجة على طاعة سلطنة المماليك عندئذ — محورا ومسرحا لذلك التحرش(٣٧) . على أنه مهما يكن من مصادمات بين المماليك والعثمانيين فى ذلك الدور(٣٨) ، فان الحرب الفعلية بين الطرفين لم تتخذ شكلا جديا خطيرا الا فى عهد السلطان سليم الأول العثمانى من ناحية ، والسلطان قانصوه الغورى من ناحية أخرى .

أما عن السلطان سليم الأول العثمانى (٩١٨ — ٩٢٦ هـ / ١٥١٢ — ١٥٢٠ م) فقد دخل فى حرب ضد الشاه اسماعيل الصفوى فى ايران لتصفية ما بين الدولتين العثمانية والصفوية من مشاكل مذهبية وسياسية . وأدى انتصار العثمانيين على الصفويين سنة ٩٢٠ هـ

---

(٣٦) Wiet : L'Egypte Arabe, p. 598.

(٣٧) نهاية السلاطين المماليك ، ص ٢٠٥ (محمد مصطفى زيادة) .

(٣٨) ابن ايلس : بدائع الزهور ، صفحات لم تنشر ، سنة ٨٧١ هـ ، ص ١٧٦ وما بعدها (حققها ونشرها محمد مصطفى) .

(١٥١٤ م)، واستيلاء السلطان سليم الأول على اقليم الجزيرة ومدينة الموصل — وغير ذلك من الاقاليم ذات الروابط القديمة بسلطنة مصر منذ أيام الايوبيين — الى تهيئة مزيد من الفرص لوقوع الصدام المنتظر بين العثمانيين والمماليك . ويقال ان السلطان سليم العثمانى اطلع على اتصالات أجراها الغورى مع الشاه اسماعيل الصفوى يستحثه فيها على قتال السلطان العثمانى[٢٩] . وقد رد السلطان سليم على ذلك بأن قضى فى سنة ٩٢١ هـ (١٥١٥ م) على امارة دلغادر المشمولة بحماية سلطنة المماليك ، مما جعل الصدام بين السلطنتين الكبيرتين أمرا لا مفر منه[٣٠] .

ولم يستطع السلطان الغورى أن يظل ساكتا ازاء الاستفزاز العثمانى المتكرر على أطراف دولته من ناحية ، والاخبار التى أخذت تترامى على مسامعه عن قرب هجوم العثمانيين على الدولة المماليكية من ناحية أخرى . لذلك أسرع الغورى الى استرضاء المماليك الثائرين بسبب تأخر صرف رواتبهم ، ثم أخذ يستعد للمعركة المقبلة ، فاستدعى العسكر الى ديوان الجيش ، وأعد آلات الحرب ، وعنى بتحصين قلعة قايتباى بالاسكندرية . وفى ذلك الجو المشحون بروح الحرب ، وصلت رسالة من خاير بك نائب حلب ، ملخصها أن السلطان مخدوع فيما لديه من أخبار بخصوص نوايا السلطان سليم العثمانى ، وأن المقصود من الاستعدادات التى قام بها السلطان سليم ، محاربة الشاه اسماعيل الصفوى[٣١] .

وترجع أهميــة هذه الرســالة الى أنها تكشف الستار عن دور

---

(٢٩) ابن طولون : مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان ، ق ٢ ، ص ٢٣ (تحقيق محمد مصطفى) .

(٣٠) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ٤٣٥ وما بعدها (تحقيق محمد مصطفى) ؛

Wiet : op. Cit; pp. 632 — 633.

(٣١) محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين المماليك ، ص ٢١٤ .

الخيانة الذى حرص خاير بك على أن يلعبه فى ذلك الوقت ، وهو الدور الذى كان له فيما بعد أبعد الأثر فى الهزيمة التى حلت بالغورى .

ومهما يكن من أمر ، فان الغورى لم ينخدع بتلك الرسالة ، وانما عقد مجلسا لبحث الأمر مع كبار أمراء الدولة ، واستقر رأى الجميع على ضرورة المبادرة بارسال حملة كبيرة الى حلب استعدادا للطوارىء ، على أن يكون السلطان الغورى نفسه على رأس تلك الحملة[٣٢] . وهكذا لم ينتصف شهر مايو سنة ١٥١٦ م (صفر ٩٢٢ هـ) ، الا وكان الغورى قد تأهب للخروج على رأس جيشه الى الشام . وفى مرحلة التأهب النهائى بالريدانية ، وصلت الى الغورى رسالة من خاير بك ، تصحبها رسالة أخرى من السلطان سليم العثمانى ، تحوى كثيرا من عبارات الود والمحبة ، والرغبة فى التعايش السلمى مع سلطنة المماليك . وفى هذه الرسالة يوجه السلطان سليم الخطاب الى السلطان الغورى قائلا « أنت والدى ، وأسألك الدعاء !! »[٣٣] . ولكن الخدعة لم تنطل على الغورى ، فخرج على رأس جيشه الى الشام بعد أن أناب عنه فى السلطنة الأمير طومانباى .

والواقع ان السلطان الغورى لم يكن مبالغا فى سوء ظنه بالعثمانيين ، عندما أرسل اليه السلطان سليم رسولين فى حلب يعرضان الصلح . وكان الغورى محقا عندما أدرك أن « كل هذا حيل وخداع حتى يبطل همة السلطان عن القتال ، ويثنى عزمه عن ذلك » ، على قول المؤرخ المعاصر ابن اياس . كذلك لم يكن الغورى مبالغا فى الحذر عندما استدعى — وهو بحلب — أمراءه جميعا ، وحلفهم على القرآن — فى حضرة الخليفة العباسى — بأنهم لن يخونوه فى ساعة الشدة . ذلك أن الأحداث السريعة أثبتت أن الغورى كان على حق فى كافة مخاوفه ،

---

(٣٢) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ٣٥ وما بعدها ، جـ ٥ ، ص ٢٧ — ٣٨ .

(٣٣) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ٥ ، ص ٤٥ (تحقيق محمد مصطفى) .

واذا كان قد أجاب على رسالة سليم بالحسنى ، فان السلطان العثمانى أساء استقبال رسول الغورى ، وصاح فيه « قل لاستاذك يلاقينا على مرج دابق »[٣٤] .

وكان أن دارت المعركة فعلا عند مرج دابق ، فأبلى المماليك بلاء حسنًا ، وحاربوا بشجاعة نادرة ، حتى لقد فكر السلطان سليم العثمانى فى التقهقر لاعادة تنظيم صفوفه . وفى تلك المرحلة الحرجة ، كشف الخائن خاير بك النقاب عن وجهه ، فأشاع بين صفوف الجند أن السلطان الغورى يأمرهم بعدم التقدم لحين صدور أوامر أخرى . ثم لم يلبث خاير بك أن انسحب من الميدان ، بعد أن أشاع أن السلطان الغورى خر قتيلا . وهكذا تفرق المماليك ، واختلت صفوفهم ، وانهارت مقاومتهم . وعبثا حاول الغورى — بعد فوات الأوان — أن يوقف تيار النكوص ، فصاح فى رجاله : « يا أغوات ! الشجاعة ! صبر ساعة ! »[٣٥] . وكان لهذه الصدمة وقعها فى قلب الشيخ ، فطلب ماء ليشرب ، « ثم أغمى عليه وسقط ميتا » من فوق فرسه . وقيل ان السلطان سليم قطع رأس الغورى وأرسلها الى استنبول ، فى حين دفنت جثته عند حلب « والصحيح أنه لم يعلم حاله »[٣٦] .

طومان باى وسقوط دولة سلاطين المماليك :

صارت كارثة مرج دابق مزدوجة بوفاة الغورى ، ففرت فلول المماليك هاربة نحو دمشق فى طريقها الى مصر . أما أهل القاهرة « فجرحهم طرى ، بسبب موت السلطان وكسرة العسكر » . ذلك أن الخبر وقع عليهم وقع الصاعقة ، لا سيما وأن هزيمة مرج دابق وصل خبرها مصحوبا بأنباء زحف السلطان سليم العثمانى على بلاد الشام فى طريقه الى مصر . وكان الموقف فى القاهرة يتطلب اجراء عاجلا

---

(٣٤) المصدر السابق — نفس الجزء — ص ٦٨ .

(٣٥) ابن زنبل : آخرة المماليك ، ص ٣٠ (تحقيق عبد المنعم عامر) .

(٣٦) ابن طولون : مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان ، ق ٢ ، ص ٢٤ (تحقيق محمد مصطفى) .

سريعا ، فاختير طومان باي سلطانا سنة ٩٢٢ هـ (أكتوبر ١٥١٦ م) ، وتلقب بلقب الاشرف ، وبذلك كان آخر سلاطين المماليك فى مصر والشـــام[٣٧] .

ومن الواضح أن السلطان الأشرف طومانباى ورث تركة مثقلة ، وولي السلطنة فى ظروف لا يحسد عليها حاكم . وكان أقل ما ينتظره بعد أن ضحى وقبل منصب السلطنة فى تلك الظروف ، هو أن يجد تعاونا من أمراء المماليك . ولكن خاب ظنه ، لأن المماليك كانوا قـــد وصلوا فى ذلك الدور الى درجة من الانحلال أعمتهم عن رؤية الخطر المحيط بهم .

من ذلك أن طومان باى فكر فى الإسراع الى بلاد الشام لملاقاة العثمانيين هناك قبل أن يتمكنوا من دخول مصر . ولكن المماليك تعللوا بالأعذار ، وطالبوه بنفقات وأموال باهظة ليستجيبوا لطلبه . ولـمـا لم يجد طومان باى تعاونا من المماليك فى تلك الظروف الحرجة ، اضطر أن يجمع من استطاع جمعه « من الزعر والصبيان والشطار والمغاربة » ، وخرج الى الريدانية فى طريقه لمواجهة العثمانيين[٣٨] .

أما السلطان سليم العثمانى فكان قد اســتولى على حلب فى سهولة عقب موقعة مرج دابق ، ثم دخل دمشق بعد مفاوضـــات قصيرة ، وقضى بها نحو شهرين ، استأنف بعدهما الزحف تجاه حدود مصر . وفى الوقت الذى استولى السلطان سليم على غزة ، وأخذ يخترق الصحراء الشرقية فى طريقه الى القاهرة ، رأى طومانباى الخروج لملاقاة العثمانيين فى تلك الصحراء وهم مجهدون من مشقة الطريق . ولكن من معه من أمراء المماليك رفضوا الأخذ برأيه ، اعتقادا منهم أن خنادقهم ستعصمهم من الهزيمة[٣٩] .

---

(٣٧) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ٥ ، ص ١٠٣ ، ١١١ (تحقيق محمد مصطفى) .

(٣٨) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ١١١ .

(٣٩) ابن زنبل : آخرة المماليك ، ص ٤٧ — ٥٠ (تحقيق عبد المنعم عامر) .

وفى معركة الريدانية ، أظهر طومان باى شجاعة لا تقل عن شجاعة الغورى فى مرج دابق . ولكن فردا واحدا مهما تبلغ ارادته وشجاعته ، لا يستطيع أن يصد جيشا متماسكا كبيرا . وكان أن حلت انهزيمة بالمماليك ، وفر طومان باى ليواصل المقاومة بين دروب القاهرة وأحيائها ، حتى نجح فعلا فى اخراج سليم من القاهرة بعد أن كان قد دخلها . وعندئذ ظهرت عوامل الخيانة مرة أخرى ، ليقضى الله أمرا كان مفعولا . ففوجىء طومان باى أثناء مقاومته الجبارة على ضفاف النيل بالجيزة بهجوم العربان والبدو على مؤخرته ، مما أوقعه بين نارين ، فاضطر الى التقهقر قرب وردان ، حيث دارت موقعة بين العثمانيين وجيشه الصغير[٤٠] . وعندما تغلب عليه العثمانيون ، فر طومان باى الى أحد مشايخ العربان باقليم البحيرة — واسمه حسن ابن مرعى — طالبا حمايته . ولكن هذا الاعرابى نسى ما كان لطومان باى من فضل سابق عليه ، اذ كان طومان باى قد أخرجه من السجن أيام الغورى ، فتنكر له وسلمه للعثمانيين . ولما وقع طومان باى فى قبضة السلطان سليم ، فرح السلطان العثمانى وصاح : « الآن ملكنا مصر »[٤١] .

وتجمع المصادر على شجاعة طومان باى عندما وقف بين يدى السلطان سليم العثمانى ، اذ قال فى جرأة انه لم يفعل غير ما أملاه عليه الواجب ، وأن الله تعالى أمر بالدفاع عن النفس ورد المعتدين . ولما عاتبه السلطان سليم لأنه لم يطعه من أول الامر ، رد عليه طومان باى فى شجاعة : « الأنفس التى تربت فى العز لا تقبل الذل . وهل سمعت أن الاسد يخضع للذئب ؟ لا أنتم أفرس منا ولا أشجع منا . وليس فى عسكرك من يقايسنى فى حومة الميدان ... » .

---

(٤٠) محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين المماليك ، ص ٢٢٦ .
(٤١) ابن زنبل : آخرة المماليك ، ص ١٣٢ .

وكان أن سيق طومان باى الى باب زويلة حيث شنق (٢٢ ربيع الاول سنة ٩٢٣ هـ / ٢٣ ابريل ١٥١٧ م)[٤٢] .

وقد وصف المؤرخ المعاصر ابن اياس اللحظات الاخيرة فى حياة طومان باى وصفا رائعا ، فقال انه سيق من بولاق الى باب زويلة : فجعل يسلم على الناس بطول الطريق حتى وصل الى باب زويلة ، وهو لا يدرى ما يصنع به . فلما أتى الى باب زويلة أنزلوه من على الفرس ، وأرخوا له الحبال ، ووقفت حوله العثمانية بالسيوف . فلما تحقق أنه سيشنق ، وقف على أقدامه على باب زويلة ، وقال للناس الذين حوله : اقرأوا لى سورة الفاتحة ثلاث مرات . فبسط يده وقرأ سورة الفاتحة ثلاث مرات ، وقرأت الناس معه . ثم قال للمشاعلى : اعمل شغلك . فلما وضعوا الخية فى رقبته ، ورفعوا الحبل ، فانقطع به فسقط على باب زويلة . وقيل انقطع به الحبل مرتين وهو يقع على الارض ، ثم شنقوه وهو مكشوف الرأس ؛ وعلى رأسه شاياه جوخ أحمر ، وفوقها ملوطة بيضاء بأكمام كبار ، وفى رجله لباس جوخ أزرق .

فلما شنق وطلعت روحه ، صرخت عليه الناس صرخة عظيمة ، وكثر عليه الحزن والأسف ، فانه كان شابا حسن الشكل ، سنه أربع وأربعين سنة . وكان شجاعا وبطلا ، تصدى لقتال ابن عثمان ، وقتل منهم ما لا يحصى ، وكسرهم ثلاث مرات فى نفر قليل من عسكره . ووقع منه فى الحرب أمور ما لا تقع من الأبطال ...][٤٣] .

هذا هو حكم التاريخ على أحد أبطاله ، هو آخر سلاطين دولة المماليك فى مصر والشام .

---

(٤٢) المصدر السابق ، ص ١٤٢ ، ابن اياس : إبدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ١٧٥ .

(٤٣) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ١٧٦ ، ابن زنبل : آخرة المماليك ، ص ١٣٢ .

الفصل السابع

أحوال مصر فى عصر سلاطين المماليك

الحياة الاقتصادية :

أدرك سلاطين المماليك أهمية الزراعة للبلاد ، بوصفها الدعامة الأولى للحياة الاقتصادية فى تلك العصور . لذلك اتبعوا نفس السياسة التى اتبعها المصلحون من حكام مصر عبر كافة عصور تاريخها الطويل ، فعنوا بالزراعة عناية فائقة ، وقاموا بالعديد من المشروعات مثل انشاء الجسور وشق الترع لتوفير مياه الرى للاراضى التى يتعذر وصول الماء اليها . ومن أبرز سلاطين المماليك الذين عنوا بهذه الناحية السلطان الناصر محمد بن قلاون ، الذى عهد الى بعض الأمراء بعمارة كافة جسور مصر فى الوجهين البحرى والقبلى ، والكشف عليها . بل ان هذا السلطان أشرف بنفسه على انشاء بعض الجسور ، وكان يخرج أحيانا وبصحبته بعض المهندسين ليوجههم ويوضح لهم رغباته ، حتى يتم بناء الجسر(١) .

وقد قسمت أرض مصر الزراعية الى أربعة وعشرين قيراطا ، اختص السلطان منها بأربعة قراريط ، والأمراء بعشرة ، وما تبقى خصص للاجناد . وروعى فى ذلك التقسيم أن توزع الارض على هيئة اقطاعات تتفاوت فى مساحتها ، وفى خصوبتها ، ومقدار ريعها . على أن زمام الارض فك وعدل أكثر من مرة فى عصر سلاطين المماليك . وكانت هذه العملية التى عرفت باسم الروك تتم بعد مسح الاراضى الزراعية فى البلاد . وقد اشتهر فى عصر سلاطين المماليك الروك الذى تم فى عهد السلطان لاجين سنة ٦٩٧ هـ (١٢٩٨ م) والروك الذى تم

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ورقة ٩١ (مخطوط) .

فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاون سنة ٧١٥ هـ (١٣١٥ م)(٢) .

وقام بفلاحة الارض الفلاحون الذين عاشوا فى حال من الفقر والحرمان لا يخفى على الباحث فى تاريخ ذلك العصر . فالفلاح عندئذ كان مربوطا الى الارض التى يفنى حياته فى خدمتها ، دون أن يتمتع بنصيب يذكر من خيراتها . وقد تعرض الفلاحون لكثير من العسف من جانب أمراء المماليك من ناحية ، ومن جانب الأعراب الذين طغوا عليهم من ناحية أخرى ، حتى « خرب معظم القرى لموت أكثر الفلاحين وتشردهم فى البلاد »(٣) . وكانت الارض تزرع مرة واحدة فى السنة عقب فيضان النيل ، لأن البلاد لم تعرف فى ذلك العصر غير رى الحياض ، كما أن الفلاح لم يعرف من وسائل الزراعة وأدواتها غير الوسائل والأدوات العتيقة التى عرفت منذ أيام الفراعنة .

ومع ذلك ، فان محصول الارض الزراعية فى مصر ازداد على عصر سلاطين المماليك ، نتيجة للعناية بمرافق الزراعة ، من جسور وترع ومقاييس للنيل ، وغيرها(٤) .

وفى عصر سلاطين المماليك ارتقت الصناعة رقيا كبيرا ، حتى غدت مصنوعات ذلك العصر تكون فى مجموعها انتاجا فنيا رائعا ، تزدان به متاحف العالم اليوم . وتكفى الاشارة الى الاقمشة الفاخرة المصنوعة من الحرير والصوف والكتان والقطن . وقد خيطت من هذه الاقمشة الخلع السلطانية والفرش والستور والخيام . هذا عدا المصنوعات المعدنية التى تتمثل فى عدد كبير من الاوانى النحاسية والطاسات المزخرفة ذات النقوش والكتابات الرائعة .

---

(٢) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ١ ، ص ٨٤٢ — ٨٤٤ (تحقيق محمد مصطفى زيادة) .

(٣) المقريزى : اغاثة الامة ، ص ٣٦ — ٤٠ (تحقيق جمال الدين الشيال) .

(٤) سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ٢٧٥ .

وانتشرت فى ذلك العصر صنعة تكفيت البرونز والنحاس بالذهب والفضة . وقد شغف المعاصرون بالنحاس المكفت بحيث « لا تكاد دار تخلو بالقاهرة ومصر من عدة قطع نحاس مكفت »[٥] .

أما الزجاج ، فقد صنعت منه أنواع جميلة ، بعضها من البللور الصخرى المحبب ، والبعض الآخر من الزجاج الملون المستخدم فى النوافذ . وكذلك الخزف الذى صنعت منه أوانى متقنة جميلة ، كان بعضهايصنع بناء على توصية خاصة من السلاطين والأمراء ، ولذلك زينت برنو كهم[٦] .

ولم تكن الصناعات الخشبية أقل تقدما فى عصر سلاطين المماليك ، اذ ما زالت الأبواب والدكك والمشربيات ، وغيرها من المصنوعات الخشبية الباقية من ذلك العصر ، تشهد على دقة الصناعة وتنوع أساليبها ورقى وسائلها . وسنشير الى ذلك عند الكلام عن الفنون فى ذلك العصر .

على أنه مهما يكن للزراعة والصناعةمن أهمية فى عصر سلاطين المماليك ، فان كافة الشواهد تدل على أن التجارة صار لها المقام الأول فى النشاط الاقتصادى فى ذلك العصر ، وأنها كانت المصدر الاول للثروة الهائلة التى انعكست صورتها فى منشآت سلاطين المماليك وأمرائهم ، وفى حياتهم الخاصة والعامة .

وقد سبق أن أشرنا الى أن السبب فى النشاط التجارى الذى تميزت به دولة سلاطين المماليك ، يكمن فى انسداد معظم طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب منذ القرن الثالث عشر ، بسبب حركة التتار التوسعية ، وهى الحركة التى ترتب عليها انعدام الأمن والسلام فى تلك الطرق . ويكفى أن مؤرخا معاصرا يصف حاكما كبيرا من حكام

---

(٥) المقريزى : كتاب المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ١٠٥ .
(٦) زكى محمد حسن : فنون الاسلام ، ص ٣١٩ .

التتار — هو تيمور لنك — فيقول عنه انه « كان قاطع طريق »[٧] .
ولم يبق آمنا بعيدا عن تهديد التتار من طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب سوى طريق البحر الاحمر ومصر ، مما جعل مصر فى ذلك العصر تقوم بدور الوسيط بين الشرق والغرب . وعندما أدرك سلاطين المماليك ما يمكن أن تعود به عليهم التجارة الخارجية من ثروة ، اهتموا بتنشيطها ، وتأمين مسالكها ، وانشاء المؤسسات اللازمة للتجارة والتجار ، كالفنادق والخانات والوكالات والقياسر والاسواق ، وغيرها . كذلك حرصوا على التودد الى قوى البحر الاحمر من ناحية ، والى التجار الاوربيين وغير الاوربيين المترددين على مصر وثغورها من ناحية أخرى .

وقد أمر السلطان قلاون نوابه بالثغور أن يحسنوا معاملة التجار ويلاطفونهم ويتوددوا اليهم ، ولا يجبون منهم سوى الحقوق السلطانية[٨] . كذلك أصدر السلطان قلاون منشورا الى التجار الذين يفدون الى مصر من الشرق والغرب ، يصف لهم محاسن مصر وحسن ضيافتها ، ويغريهم على القدوم اليها بمتاجرهم ، ويعدهم بحسن المعاملة والاحسان اليهم[٩] . ويفهم من المصادر المعاصرة أنه خصصت لكل جالية من التجار الاوربيين فنادق خاصة فى الثغور والمراكز التجارية الكبرى فى مصر ، ورتبت أمور هذه الفنادق بحيث يتمتع التجار الاوربيون النازلون فيها بأكبر قسط من الحرية والتسهيلات[١٠] .

ومن أقوى مظاهر النشاط التجارى فى عصر سلاطين المماليك ، انتعاش ثغور الدولة وموانيها ، مثل أسوان بالنسبة لتجارة النوبة ،

---

(٧) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ٤ ، ق ١ ، ص ٢٦ ، سنة ٨٠٨ هـ (تحقيق المؤلف) .
(٨) تاريخ ابن الفرات ، جـ ٧ ، ص ١٩٧ .
(٩) القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ١٣ ، ص ٣٤٠ — ٣٤١ .
(١٠) Kammerer : Le Regime et le Status des Etrangers en Egypte pp. 17 — 20.

وعيذاب بالنسبة لتجارة الصين والهند واليمن ، ودمياط والاسكندرية وموانى الشام بالنسبة للتجارة مع القوى الاوربية ، وبخاصة الايطالية(١١) .

وما يقال عن التجارة الخارجية يمكن تطبيقه على التجارة الداخلية فى الدولة ، فنشطت القوافل بين مصر من ناحية ودمشق وحلب والقدس وغزة من ناحية أخرى ، واشتهرت المدن الكبرى فى مصر والشام بأسواقها الحافلة بالبضائع . وقام المحتسبون بالاشراف على هذه الأسواق واحكام الرقابة على التجار والباعة لمنع التلاعب فى الاسعار أو الغش فى الموازين أو فى أصناف البضاعة(١٢) .

على أن الجشع سرعان ما دفع سلاطين دولة المماليك الجراكسة الى اتباع سياسة احتكارية عنيفة ، فاحتكروا تجارة التوابل والبخور ، وبالغوا فى تقدير أثمانها ، حتى بلغ ثمن الفلفل فى الاسكندرية أضعاف ثمنه فى موطنه الأصلى ، وربما فاق الثمن عشرين ضعف ثمنه الحقيقى . وقد بلغت سياسة الاحتكار هذه أشدها على عهد السلطان الأشرف برسباى (٨٢٥ — ٨٤١ هـ / ١٤٢٢ — ١٤٣٨ م) الذى أبطل التعامل بالنقد البندقى والفلورنسى ، وسك الدينار الأشرفى ليكون أساسا للتعامل مع التجار الاوربيين . وكثيرا ما كان السلطان يجبر التجار على شراء ما احتكره من توابل بالسعر الذى يحدده هو ؛ مما يلحق بهم الأذى . من ذلك أن السلطان برسباى « طرح سنة ٨٣٩ هـ (١٤٣٥ م) على التجار بالقاهرة ودمشق ألف حمل فلفل بمائة ألف دينار ، حسابا عن كل حمل مائة دينار ، فنزل بهم منها بلاء لا يوصف »(١٣) .

---

(١١) سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ٢٩٠ .

(١٢) المقريزى : كتاب المواعظ ، جـ ٢ ص ٩٢ ، ابن الاخوة : معالم القربة ، ص ٨ .

(١٣) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ٤ ، ص ٩٧٢ ، ١١٢٧ (تحقيق المؤلف) .

وأخيرا ، ضاق الاوربيون ذرعا بسياسة سلاطين المماليك واحتكاراتهم ، فجدوا فى البحث عن طريق آخر — غير طريق دولة سلاطين المماليك — يوصلهم الى حاصلات الشرق الأقصى بثمن معقول . وما زالوا يجدون حتى اكتشفوا طريق رأس الرجاء الصالح فى نهاية القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر للميلاد) ، فكان ذلك ايذانا بتدهور مركز دولة سلاطين المماليك فى التجارة العالمية .

وأخيرا ، فاننا نلاحظ فى أواخر عصر سلاطين المماليك عدم استقرار الحياة الاقتصادية بسبب تلاعب السلاطين بالعملة ، واستخدام العملة الرديئة — أعنى الفلوس النحاسية — بدلا من العملات الذهبية والفضية[١٤] . « ذلك أن سنة الله فى خلقه أن النقود التى تكون أثمانا للمبيعات وقيما للاعمال ، انما هي الذهب والفضة فقط . أما الفلوس (النحاسية) فانها لمحقرات المبيعات »[١٥] .

يضاف الى ذلك حدوث الفتن والمنازعات بين طوائف المماليك وبخاصة فى أواخر عصر الدولة[١٦] . ومع هذا وذاك ، علينا أن نذكر أن أهل مصر كانوا يعيشون دائما تحت رحمة فيضان النيل ، فاذا انخفض الفيضان ، حدثت أزمة اقتصادية فى البلاد ، وارتفعت الاسعار ، واشتد الجوع ، وربما انتشر الطاعون وسقط المئات

---

(١٤) السخاوى : التبر المسبوك ، ص ٢٦٠ ، ابن ایاس : بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ١٧٧ وما بعدها ، المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ٢ ص ١٧ ، جـ ٣ ص ٨٢ ، ٤٥٢ ، ٦٦٧ ، ١١٣١ ، ١١٥٥ ، ١١٦١ ، ج ٤ ص ٥٤٩ ، ٦٣٨ ، ٦٤٨ ، ٦٩٨ ، ٩٤٢ ، ٩٧٢ ...

(١٥) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ٣ ص ١١٣١ ، سنة ٨٠٧ هـ (تحقيق المؤلف) .

(١٦) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ٣ ، ص ٣٣ ، ١٣٠ ، ١٥٠ ، ٢١٢ ، ٣٢٢ ، ٣٦٥ ، ٣٨١ ، ٦٠٨ ، ٩٨٦ ، ١١٦٢ ...

من الموتى فى الطرقات ، لا يوجد من يدفنهم ويوارى أجسادهم فى التـراب[١٧] .

الحيـاة الاجتماعية :

اتصفت الحياة الاجتماعية فى عصر سلاطين المماليك بالحـركة والنشاط والصخب ، فضلا عن الثراء والترف . والمعروف عن المماليك أنفسهم أنهم عاشوا طبقة ارستقراطية ، يحكمون البلاد ، ويتمتعون بالجزء الأكبر من خيراتها ، دون أن يحاولوا الذوبان فى محيطهـا والامتزاج بأهلها . وقد شهد الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر فى ذلك العصر بعظم ثروة أمراء المماليك ، وحياة الترف والنعيم التى كانوا يعيشونها[١٨] . أما أهل البلاد ، فقد استطاعت بعض فئاتهم — مثل المعممين والتجار — أن يحتفظوا لأنفسهم بمكانة مرموقة فى المجتمع ، ومستوى لائق من المعيشة ، فى حين ظل غالب أهل البلاد من العوام والفلاحين ، يحيون حياة أقرب الى البؤس والحرمان[١٩] .

وكانت مدن الدولة الكبرى — مثل القاهرة والاسكندرية ودمشق وحلب — تفيض بالحركة والنشاط ، وتميزت بأسواقها العديدة المليئة بأصناف البضائع والتى خضعت — كما سبق أن أشرنا — لرقابة المحتسب الذى كان يراعى فيه أن يكون « ذا رأى وصرامة وخشونة فى الدين »[٢٠] .

كذلك اهتم سلاطين المماليك باقامة العديد من المنشآت الاجتماعية المتنوعة ، مثل الفنادق والخانات والوكالات والأسبلة والحمامات والبيمارستانات وغيرها . وعلى الرغم مما كان يتعرض له أهل المدن

(١٧) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٥٠٧ — ٥٠٨ .
(١٨) Schefer : Le Voyage d'Outremer; p. X.
(١٩) سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، ص ٣٧ ، ٤٨ .
(٢٠) ابن الاخوة : معالم القربة ، ص ٨ .

أحيانا من قلق نتيجة لعدم الاستقرار السياسى والاقتصادى ، الا أنهم عاشوا عيشة مرحة ، فحرصوا على الاقبال على وسائل التسلية ، والخروج الى الحدائق العامة ، والرغبة فى سماع الموسيقى والغناء ، والتلهى بمشاهدة خيال الظل أو بعض الألعاب مثل نطاح الكباش ومناقرة الديوك(٢١) .

وفى ذلك النشاط الحافل ، أسهمت المرأة بنصيب أكبر مما يتصور البعض ، اذ تمتعت بقدر كاف من الاحترام ، مكنها من المشاركة فى الحياة العامة ، سواء بالخروج الى الاسواق ، أو التردد على الحمامات ، أو طلب العلم بالمساجد(٢٢) .

كذلك اتصفت الحياة الاجتماعية فى عصر سلاطين المماليك بالمبالغة فى احياء الأعياد الدينية والقومية . ففى الاعياد ذات الصبغة الدينية كان الناس يتبادلون التهانى ، ويقيمون الولائم ، ويتصدقون على الفقراء ، ويبالغون فى اظهار السرور(٢٣) . وربما جاءت هذه الاحتفالات بالأعياد مصحوبة ببعض المواكب — مثل الاحتفال بدوران المحمل — وعندئذ يخرج الناس من كل مكان للفرجة ، ويزين أصحاب الحوانيت والأسواق حوانيتهم بالحرير والحلى .

أما فى الاحتفالات القومية — مثل الاحتفال بوفاء النيل ، أو اعتلاء سلطان جديد العرش — فكان السلطان عادة يشق القاهرة فى موكب حافل ، وقد فرشت الشوارع بشقق الحرير ، وأقام الأمراء القلاع — وهى أقواس النصر — فى طريق السلطان . وتتضاعف مظاهر

---

(٢١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ١٣٦ ، المقريزى : السلوك ، ج ٢ ص ٥٧٤ .

(٢٢) سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، ص ١٢٧ — ١٤٠ .

(٢٣) السخاوى : التبر المسبك ، ص ١٣ — ١٤ .

الفرح والبهجة اذا كان السلطان عائدا منتصرا من ساحة الحرب ، اذ يبالغ الأمراء والناس فى الزينة ، ويقوم نائب السلطنة « باحضار سائر مغانى العرب من أعمال مصر كلها »[٢٤] .

على أن المجتمع لم يخل من بعض المشاكل فى ذلك العصر ، منها تفشى بعض الأمراض الاجتماعية . يضاف الى ذلك أن بعض المدن الكبرى — وبخاصة القاهرة — واجهت مشكلة تزايد هجرة أهل الريف اليها ليعيشوا عالة على المجتمع المدنى . وكثيرا ما كانت الحكومة تواجه هذه المشاكل فى حزم وتنزل العقوبة بالمفسدين . من ذلك ما يذكره المقريزى فى حوادث سنة ٨٢١ هـ من أنه « نودى بالقاهرة أن كل غريب ينزح الى وطنه »[٢٥] .

الحيـاة الدينيـة :

شـهدت مصر فى عصر سلاطين المماليك نشاطا دينيا يستدعى الانتباه ، وبخاصة بعد أن غدت قاعدة الخلافة العباسية . ومقصد المسلمين فى المشرق والمغرب . وكانت مصر لا يزال يوجد بها أثر واضح للتشيع فى أوائل عصر المماليك ، على الرغم من الجهود التى بذلها صلاح الدين وخلفاؤه لدعم المذهب السنى ، عقب اسقاط الخلافة الفاطمية . ولكن سلاطين المماليك اتبعوا سياسة حازمة للقضاء على تلك الآثار الشيعية المتخلفة عن العصر الفاطمى ، بحيث لم ينته عصر سلاطين المماليك ، الا وكانت آثار التشيع قد خفت أو كادت تزول من البلاد[٢٦] . من ذلك ما قام به السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٧ م) من تحريم أى مذهب عدا المذاهب السنية الأربعة ، بحيث

---

(٢٤) المقريزى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ١٢٨ (تحقيق محمد مصطفى زيادة) .

(٢٥) المصدر السابق ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٤٣٩ (تحقيق المؤلف) .

(٢٦) محمد كامل حسين : التشيع فى الشعر المصرى فى عصر الايوبيين والمماليك ، ص ٧٣ — ٧٤ .

لاتقبل شهادة أحد ولا يرشح لوظيفة من وظائف القضاء أو الخطابة ، أو الامارة ، أو التدريس ، الا اذا كان من أتباع أحد هذه المذاهب السنية الأربعة(٢٧) .

ولخير ما يوضح اتساع دائرة النشاط الدينى فى عصر سلاطين المماليك ، كثرة المنشآت الدينية التى أقيمت فى ذلك العصر . وما زالت المدن الكبرى فى مصر والشام تعتز بالجوامع الجميلة الرائعة التى تنسب الى سلاطين المماليك ، حتى لقد قدر خليل بن شاهين عدد المساجد بمصر (الفسطاط) والقاهرة على عصر سلاطين المماليك بأكثر من ألف مسجد(٢٨) . وقلما نجد سلطانا من سلاطين المماليك لم يشيد مسجدا أو أكثر ، حتى يقال ان السلطان الناصر محمد وأمراءه شيدوا ثمانية وعشرين مسجدا(٢٩) . ولم تستخدم المساجد فى ذلك العصر فى العبادة فحسب ، بل استخدمت أيضا مواضع للعلم يقصدها المعلمون والمتعلمون .

على أن أهم ظاهرة اتصفت بها الحياة الدينية فى عصر سلاطين المماليك ، كانت انتشار التصوف . ومن الثابت أنه أخذ يفد على مصر منذ القرن السابع الهجرى — الثالث عشر للميلاد — كثير من مشايخ الصوفية ، معظمهم من المغرب والاندلس — مثل أبى الحسن الشاذلى وأبى العباس المرسى وأبى القاسم القبارى والسيد أحمد البدوى — وهؤلاء وجدوا فى مصر تربة صالحة لنشر مذاهبهم وتعاليمهم(٣٠) . ولم يلبث أن انقسم الصوفية الى فرق ، لكل فرقة — أو طريقة — شيخها وشعارها . وكان أن ازداد عدد المصريين الذين أقبلوا على هذا

---

(٢٧) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٣٤٤ (بولاق) .
(٢٨) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ٣١ .
(٢٩) زيترشتين : تاريخ المماليك ، ص ٢٢٥ — ٢٢٦ .
(٣٠) سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، ص ١٦٢ — ١٦٣ .

اللون الجديد من ألوان الحياة الدينية ؛ وأخذ السلاطين يتقربون الى الله ببناء الخانقاوات ووقف الاوقاف عليها ، والاحسان الى الصوفية ومشايخهم . من ذلك أن السلطان برقوق رتب للمدرسة التى أنشأها بين القصرين عددا من الصوفية ، وقدر لهم مرتبات وفيرة[٣١] . أما عامة الشعب المصرى فى عصر سلاطين المماليك فقد آمنوا بالصوفية ايمانا راسخا ، فقصدوهم لقضاء حوائجهم ، ومشاركتهم فى أذكارهم ، ووصفوا الصوفية بأنهم « ملوك الآخرة الذين يدخلون الجنة قبل الأغنياء »[٣٢] .

ولا شك فى أن ازدياد تيار التصوف على عصر سلاطين المماليك ، كان له أثره الخطير فى الحياتين الاجتماعية والفكرية . ويرى بعض المفكرين أن المتصوفة صبغوا القيم والمثل العليا بصفة الزهد ، والرغبة عن الدنيا ومتاعها ، والاتجاه نحو الآخرة والعمل لها . وترتب على هذه الاتجاهات — فى نظر هذا الفريق من المفكرين — نشر روح الاستكانة ، والقناعة بالقليل ، والتذلل للحكام بين عامة الناس ، مما استمرت بقاياه فى نفوس الكثيرين أمدا طويلا .

الحياة العلمية :

ازدهرت الحركة العلمية فى مصر على عصر سلاطين المماليك ازدهارا واسعا ، فغدت هذه الدولة محورا لنشاط علمى متعدد الاطراف . ويرجع ذلك الى ما أصاب العالم الاسلامى فى المشرق على أيدى التتار وفى الاندلس على أيدى الصليبيين من كوارث ، فضلا عما أصاب بلاد الشام بسبب هجمات الصليبيين والتتار جميعا . وفى وسط تلك الغمة التى ألمت بالوطن الاسلامى ، لم يجد علماء المشرق والمغرب بلدا اسلاميا آمنا سوى مصر التى غدت منذ القرن السابع الهجرى —

(٣١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ١١٣ ، المقريزى : كتاب السلوك ، ج ٣ ، ق ٢ ، ص ٩٤٦ (تحقيق المؤلف) .
(٣٢) الذهبى : تاريخ الاسلام ، ج ٣٢ ، ص ٤١ — ٤٢ .

الثالث عشر للميلاد — مركزا للخلافة العباسية ، « وصارت محل سكن العلماء ومحط رحال الفضلاء »[٣٣] .

وكان المماليك أنفسهم — رغم كونهم من أصول غير عربية متعددة — أصحاب فضل فى ازدهار النشاط العلمى فى مصر . من ذلك ما نسمعه عن ولع بعض السلاطين — مثل الظاهر بيبرس — بسماع التاريخ[٣٤] . هذا فى حين حرص البعض الآخر — مثل الغورى — على عقد المجالس العلمية والدينية بالقلعة وحضورها ، بل والمشاركة فى المسائل العلمية التى تثار فى تلك المجالس[٣٥] . أما أمراء المماليك ، فقد وجد منهم من اشتغل بالتاريخ والفقه والحديث واللغة العربية ، بل لقد تصدى بعضهم لاقراء الطلبة والتدريس لهم[٣٦] .

وخير ما يدل على ازدهار الحياة العلمية على عصر سلاطين المماليك ، عظم الثروة العلمية التى وصلتنا من ذلك العصر بالذات . وما زالت دور الكتب فى كافة أنحاء العالم مشحونة بمئات المخطوطات التى ترجع الى ذلك العصر ، والتى تناولت معظم ألوان المعرفة : الأدب والتاريخ والجغرافيا والعلوم الدينية والطب والفلاحة والمعارف العامة ... وغيرها . فاذا أضفنا الى هذه المخطوطات النسبة الضئيلة التى طبعت من تراث العصر المماليكى ، والكتب التى فقدت ولم نعد نعرف عنها سوى أسماء مؤلفيها ، أدركنا أن عصر سلاطين المماليك شهد نشاطا علميا فائقا ليس له مثيل فى عصر آخر .

ففى الأدب عرف عن سلاطين المماليك تقريبهم الأدباء . هذا وان كان يؤخذ على الأدب — شعرا ونثرا — ضعف اللغة الفصحى نتيجة

---

(٣٣) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ٢٢ ، ص ٨٦ .
(٣٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٨٢ .
(٣٥) عبد الوهاب عزام : مجالس الغورى ، ص ٤٩ .
(٣٦) سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، ص ١٤٢ .

زحف الأعاجم ، فضلا عن دخول كثير من الالفاظ العامية . وقد اشتهر من شعراء مصر فى ذلك العصر البوصيرى المصرى صاحب البردة ، وتعرف باسم « الكواكب الدرية فى مدح خير البرية » ، وتقع فى ١٦٢ بيتا(٣٧) . وفى نفس السنة التى توفى البوصيرى — وهى سنة ٦٩٥ هـ (١٢٩٦ م) — توفى أيضا سراج الدين الوراق ، وكان شاعرا كثير النظم ، صحيح المعانى ، عذب التورية ، عارفا بالبديع(٣٨) . أما شهاب الدين العزازى المتوفى سنة ٧١٠ هـ (١٣١٠ م) فكان بزازا يعمل فى قيسارية جركس بالقاهرة ، وله ديوان فى خمسة أبواب ، وأجاد فى الموشحات ، وامتاز شعره بالظروف وخفة الروح(٣٩) . وهناك ابن نباتة المصرى المتوفى سنة ٧٦٨ هـ (١٣٦٧ م) ، وقد نبغ فى النظم والنثر ، ومثله ابن أبى حجلة نزيل القاهرة المتوفى سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٤ م) . ومن شعراء ذلك العصر من يرجع الى أصل مماليكى ، مثل على بن سودون البشنغاوى ، المتوفى سنة ٨٧٨ هـ(١٤٧٣ م) . بل لقد كان السلطان قانصوه الغورى نفسه المتوفى سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٦ م) شاعرا ، وله ديوان غير منشور حتى الآن .

أما الأدباء الذين اشتغلوا بالنثر فهم عديدون ، فمنهم القلقشندى المتوفى سنة ٨٢١ هـ (١٤١٨ م) ، وله مؤلفات عديدة أهمها موسوعة « صبح الأعشى فى صناعة الانشا » ، وشمس الدين النواجى المتوفى سنة ٨٥٩ هـ (١٤٥٥ م) — وقد نسب الى نواج احدى قرى الغربية — وله كثير من الآثار الأدبية شعرا ونثرا ، منها حلبة الكميت ، وهو كتاب فى الخمر وما قيل فيها ، والندماء ومجالسهم وآدابهم .. وختمه بفصل فى التوبة وذم الخمر(٤٠) .

---

(٣٧) السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ٤٥ ، جـ ٢ ، ص ١٤٣ .
(٣٨) الكتبى : فوات الوفيات ، جـ ٢ ص ١٠٧ ، ابن تغرى : النجوم الزاهرة ، جـ ٨ ، ص ٨٣ .
(٣٩) الكتبى : فوات الوفيات ، جـ ٢ ، ص ٤٨ .
(٤٠) السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ٣٣٠ .

وفى ذلك العصر ، كثر الاشتغال باللغة وعلومها . وظهر من علماء اللغة كثيرون ، على رأسهم ابن منظور المصرى المتوفى سنة ٧١١ هـ (١٣١١ م) . وله كثير من المؤلفات ، على رأسها المعجم الشهير « لسان العرب »[٤١] . كذلك اشتهر من علماء اللغة ابن هشام المصرى المتوفى سنة ٧٦١ هـ (١٣٦٠ م) ، والدمينى السكندرى المتوفى سنة ٨٢٧ هـ (١٤٢٤ م) .

على أن أبرز العلوم فى عصر سلاطين المماليك ا كان بحق علم التاريخ ، اذ ظهر فيه عدد كبير من المؤرخين خلفوا لنا تراثا ضخما فى ذلك العلم . فمن أصحاب السير ابن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ هـ (١٢٩٣ م) ، وله كتاب فى سيرة الملك الظاهر بيبرس ، وآخر فى سيرة الاشرف خليل بن قلاون . ونذكر أيضا من كتاب السير ابن سيد الناس المتوفى سنة ٧٣٤ هـ (١٣٣٤ م) ، والقسطلانى المتوفى سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) ، وغيرهم كثيرون[٤٢] . ولم يقف الأمر عند حد كتابة السير الفردية ، بل ظهر فى عصر سلاطين المماليك جماعة من المؤرخين وجهوا نشاطهم نحو تأليف كتب الطبقات . ومن هؤلاء ابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م) صاحب كتاب وفيات الأعيان ، والأدفوى المتوفى سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٧ م) صاحب كتاب الطالع السعيد الجامع لاسماء نجباء الصعيد ، وابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢ هـ (١٤٤٨ م) صاحب كتاب الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، وشمس الدين السخاوى المتوفى سنة ٩٠٢ هـ (١٤٩٧ م) صاحب كتاب الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع ، والسبكى المتوفى سنة ٧٧١ هـ (١٣٦٩ م) صاحب كتاب طبقات الشافعية .

وهناك فريق من مؤرخى ذلك العصر اختاروا أن يؤلفوا عن بلد معين أو دولة بعينها ، مثل جمال الدين بن واصل المتوفى سنة ٦٩٧ هـ

---

(٤١) ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ، ج ٢ ص ٢٦٥ .

(٤٢) جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٣ ، ص ١٧٠ .

(١٢٩٨ م) صاحب كتاب مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، وابن دقماق المصرى المتوفى سنة ٨٠٩ هـ (١٤٠٦ م) صاحب كتاب نزهة الأنام وكتاب الانتصار بواسطة عقد الأمصار[٤٣] ، وتقى الدين أحمد ابن على المقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١ م) صاحب كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، وكتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، وأبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى المتوفى سنة ٨٧٤ هـ (١٤٦٩ م) — وهو من أصل مماليكى — من مؤلفاته النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، وكتاب المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى[٤٤] .. وغيرهم كثيرون . أما أصحاب الحوليات العامة ، فلا يقلون عددا ، نذكر منهم بيبرس المنصورى المتوفى سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٥ م) وكان أحد أمراء المماليك وله كتاب زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ، وبدر الدين العينى المتوفى سنة ٨٥٥ هـ (١٤٥١ م) وله كتاب عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ... وغيرهما خارج مصر كثيرون .

أما فى علوم الجغرافيا والسياسة والادارة ، فقد كتب شرف الدين ابن الجيعان سنة ٧٧٧ هـ (١٣٧٥ هـ) كتاب التحفة السنية فى أسماء البلاد المصرية ، ويشتمل على احصاءات ادارية وخراجية عن أرض مصر . وكذلك كتب نجم الدين أحمد بن الرفعة المصرى الشافعى — محتسب القاهرة المتوفى سنة ٧١٠ هـ (١٣١٠ م) كتاب « بذل النصائح الشرعية فيما على السلطان وولاة الأمور وسائر الرعية »[٤٥] . وكتب حسن بن عبد الله العباسى للملك المظفر السلطان بيبرس المنصورى كتابا أسماه « آثار الأول فى تدبير الدول » ، رتبه على أربعة أقسام : فى الضوابط والأصول وقواعد المملكة ، وفى أحوال الملك فى ذاته مع

---

(٤٣) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ، ج ٧ ، ص ٨٠ ، السخاوى : الضوء اللامع ، جـ ١ ص ١٤٥ .

(٤٤) محمد مصطفى زيادة : المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ، القرن التاسع الهجرى ، ص ٢٦ — ٤٥ .

(٤٥) السبكى : طبقات الشافعية ، جـ ٥ ، ص ١٧٧ .

خواصه وخدمه ، وفى الأمور المختصة بالملك وخواصه وحاشيته ، وفى الحروب وشروطها وما يتعلق بها برا وبحرا • ويحوى هذا الكتاب كثيرا من الفوائد السياسية والاجتماعية والادارية •

وثمة ظاهرة امتازت بها الحياة الفكرية فى عصر سلاطين المماليك ، هى الاقبال الشديد على تأليف الموسوعات الضخمة التى تحوى الموسوعة الواحدة منها كثيرا من المعلومات المتنوعة المتباينة • وبالاضافة الى كتاب صبح الاعشى فى صناعة الانشا للقلقشندى — وهو الذى سبق أن أشرنا اليه — هناك كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى المتوفى سنة ٧٣٢ هـ (١٢٣٢ م) ، وهو موسوعة كبيرة تقع فى نيف وثلاثين مجلدا ، قسمها مؤلفها الى خمسة فنون : الأول فى السماء والآثار العلوية ، والثانى فى الانسان وطبائعه ، والثالث فى الحيوانات الأخرى ، والرابع فى النبات على اختلاف أشكاله ، والخامس ، وهو أكبرها وأهمها فى التاريخ[٤٦] • أما ابن فضل الله العمرى المتوفى سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٧ م) فقد كتب موسوعته الشهيرة « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » وتقع فى أكثر من عشرين مجلدا ، تناولت فنون الأدب والتاريخ والجغرافيا والتاريخ الطبيعى وغيرها • هذا فضلا عما كتبه السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ (١٥٠٥ م) وغيره من مؤلفات عديدة يضيق المقام عن ذكرها[٤٧] •

وكان للعلوم الاسلامية نصيبها فى تلك الحركة الواسعة ، فظهر من كتب فى الفقه — مثل خليل بن اسحق المالكى المصرى المتوفى سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٦ م) ، وتقى الدين السبكى المتوفى سنة ٧٥٦ هـ (١٣٥٥ م) ، كما ظهر من كتب فى التصوف ، مثل تاج الدين بن عطاء الاسكندرى ، المتوفى سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) •

---

(٤٦) السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ، ص ٣٢٠ •

(٤٧) جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، جـ ٣ ، ص ٢٤٤ — ٢٥٠ •

وأخيرا ، فقد كان للعلوم التجريبية والتطبيقية والطبيعية حظها فيما خلفه علماء عصر سلاطين المماليك ، فوجد من العلماء من كتب فى الهندسة والنجوم والفلك ، مثل شهاب الدين بن طيبغا القاهرى المتوفى سنة ٨٠٥ هـ (١٤٠٢ م) • وهناك من كتب فى الزراعة والفلاحة ، مثل طيبغا الجركسى وهو من أهل القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر للميلاد) • واشتهر ممن كتب فى علم الحيوان كمال الدين محمد بن عيسى الدميرى المتوفى سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٥ م) صاحب كتاب حياة الحيوان الكبرى ، وقد وصف فيه كل حيوان وخصائصه فضلا عما يتعلق به من حديث وأمثال وأشعار ، مما جعل قيمته الأدبية والتاريخية لا تقل عن قيمته العلمية البحتة(٤٨) •

ويرتبط بالحياة العلمية النشاط التعليمى ، وهو الجانب الذى حظى باهتمام كبير فى عصر سلاطين المماليك والذى يتمثل فى العناية بانشاء المؤسسات التعليمية من مدارس ومكاتب وغيرها • أما المدارس فكانت بمثابة معاهد للتعليم العالى — أشبه بالجامعات اليوم — بحيث يخصص لكل مدرسة عدد من المدرسين والطلاب والموظفين ، وتلحق بها خزانة كتب كبيرة(٤٩) • وقد حرص سلاطين المماليك على محاكاة سلاطين بنى أيوب فى انشاء عدد كبير من المدارس ، مثل المدرسة الظاهرية التى أنشأها الظاهر بيبرس ، والمدرسة الناصرية التى أنشأها الناصر محمد بن قلاون • وقد وقفت على هذه المدارس الأوقاف الغنية لتضمن للطلاب والمدرسين قدرا من الحياة الهادئة ، تجعلهم ينصرفون الى الاشتغال بالعلم آمنين مطمئنين(٥٠) •

---

(٤٨) السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ ص ٢٠٧ ، السخاوى : الضوء اللامع جـ ١٠ ص ٢٠٤ •

(٤٩) القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ١ ، ص ٤٦٧ ، جـ ١١ ، ص ٢٤٦ — ٢٤٧ •

(٥٠) النويرى : نهاية الأرب جـ ٣٠ ، ورقة ٣٤١ ب وما بعدها (مخطوط) •

واذا كان التعليم العالى قد وجد قسطا كافيا من العنـاية فى المدارس ، فان التعليم الاولى نهضت به المكاتب التى أنشأ عدد كبير منها فى عصر سلاطين المماليك . ويبدو أن الهدف الاول لانشاء المكاتب فى ذلك العصر كان تعليم أيتام المسلمين ، الأمر الذى دفع الخيرين الى الاكثار منها ، وحبس الاوقاف عليها ، للعناية بأمر الأيتام وتعليمهم وتوزيع الغذاء والكساء عليهم[٥١] . وقد خصص لكل مكتب مؤدب ، يساعده عريف ، ويقوم المؤدب وعريفه بتعليم الصغار الكتابة وتحفيظهم القرآن . ولما كانت مهمة تعليم الصغار وتربيتهم شاقة عسيرة ، فقد اشترطت فى المؤدب والعريف شروط دقيقة خاصة ، منها العقل والدين وحسن الخلق ، والبعد عن القسوة والعنف[٥٢] .

الادارة ونظم الحـكم والقضـاء :

ترأس دولة المماليك سلطان لم يتول الحكم نتيجة لحق شرعى موروث ، وانما تمكن بفضل قوته ومواهبه وكثرة مماليكه من الوصول الى ذلك المنصب . فاذا توفى السلطان القائم أتيحت الفرصة لأقوى الأمراء أن يخلفه فى الحكم . وربما أدرك ذلك الامير أن الظروف غير مواتية ، وأن هناك من كبار الأمراء من ينافسه ، فيقبل فى تلك الحالة تعيين ابن السلطان المتوفى مكان أبيه ، لا اعتقادا من أمراء المماليك أحقية ذلك الابن ، ولكن كحل مؤقت حتى ينجلى الموقف ، وعندئذ يسهل على أقوى الأمراء عزله واعتلاء العرش بدله .

ومع أن سلطان المماليك تمتع بنفوذ واسع فى الدولة ، وبخاصة فيما يتعلق بشئون السياسة والحرب ، وملء المناصب الكبرى وتوزيع

---

(٥١) محمد محمد امين : الاوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر ، ص ٢٦١ وما بعدها .

(٥٢) سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، ص ١٥٠ — ١٥٢ .

الاقطاعات ، الا أنه لم يستغن فى أحوال كثيرة عن استشارة كبار رجال الدولة فى مهام الأمور ، لا سيما فى الأمور المتعلقة بشن الحرب وعقد السلم . ولذلك وجد فى عصر سلاطين المماليك مجلس المشورة الذى كان يعقد برئاسة السلطان أو من يقوم بالوصاية عليه ، وعضوية أتابك العسكر والخليفة العباسى ، والوزير ، وقضاة المذاهب الاربعة ، وأمراء المئين وعددهم أربعة وعشرين أميرا . هذا مع ملاحظة أن السلطان لم يكن ملزما بدعوة مجلس المشورة أو الأخذ برأيه ، وانما ترك ذلك لرغبة السلطان ومشيئته[٥٣] .

والى جانب سلطان المماليك ، وجد عدد من كبار الموظفين ، مهمتهم مساعدته فى شئون الحكم والادارة . ومن هؤلاء الموظفين الكبار :

١ — نواب السلطنة ، وهم مساعدو السلطان . فهناك نائب للسلطان بالقاهرة ، هو ساعده الأيمن فى تصريف شئون الدولة ، ويشترك معه فى توزيع الاقطاعات ومنح ألقاب الامارة . واذا كان هذا النائب ينوب عن السلطان فى حضوره فانه يتلقب بنائب الحضرة . أما اذا كان لا يجوز له أن ينوب عن السلطان الا فى غيبته ، فيكون لقبه « نائب الغيبة » ، وهو أقل درجة من الأول .

وقد وجد للسلطان نواب فى البلاد الشامية ، فى دمشق وحلب وطرابلس وحماه وصفد والكرك . وأعلى هؤلاء درجة هو نائب دمشق الذى أطلق عليه « نائب الشام »[٥٤] .

---

(٥٣) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١٠٦ ، القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٦ — ١٧ .

(٥٤) العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ٦٥ — ٦٦ ، القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ٤ ص ١٦ — ١٧ .

٢ ـ الأتابك ، وهو القائد العام للجيش المماليكى . وقد أتاحت له وظيفته التمتع بنفوذ كبير فى الدولة .

٣ ـ الوزير : وقد تضاءلت وظيفته فى عصر المماليك نتيجة لوجـود نائب للسلطنة ، بحيث لم تتعد اختصاصاته تنفيذ تعليمات السلطان ونائب السلطنة ، والاشراف على الشئون المالية فى الدولة . وكان يحدث أحيانا أن يتعرض الوزير للطرد من وظيفته ، بل ربما تعرض للضرب اذا غضب عليه السلطان ، مثلما حدث للوزير علم الدين عبد الوهاب الطنساوى سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م)[٥٥] .

أما الادارة المحلية فى المدن والاقاليم ، فقد تولى الاشراف عليها عدد كبير من الولاة اختيروا دائما من بين الامراء . وهنـاك مدينة واحدة فى مصر ـ هى مدينة الاسكندرية ـ عين لها نائب سلطنة سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) . ويبدو أن الخطر الصليبى الذى تمثل فى حملة بطرس لوزجنان ملك قبرس على الاسكندرية فى تلك السـنة ، كان له أثر فى ذلك الاجراء الادارى . أما القاهرة ، فكان لها والى يشرف على شئونها ويتعقب المفسدين فيها ، ويحمى أهلها من الأشرار والعابثين . وبالجملة فقد كان منصبه يشبه منصب محافظ القاهرة اليوم . كذلك وجد فى الوجهين البحرى والقبلى ولاة أشرفوا على حكم الاقاليم والاعمال . وكان عددهم عشرة فى الوجه البحرى وثمانية فى الوجه القبلى . وفى عصر دولة المماليك الجراكسة وجد نائب لكل من الوجهين البحرى والقبلى ، مهمته الاشراف على جميع الولاة والعمال الذين يقومون بادارة شئون الوجه التابع له[٥٦] .

---

(٥٥) المقريزى : كتاب السلوك ، ج ٣ ، ق ٢ ، ص ٤٨٠ (تحقيق المؤلف) .

(٥٦) القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٦٤ .

وقد اعتمد هذا الجهاز الادارى الضخم على مجموعة من الدواوين الكبيرة التى ضمت عددا ضمخا من الموظفين لادارة مرافق الدولة المتنوعة • وأهم هذه الدواوين :

١ — ديوان الجيش ، ومهمته الاشراف على طوائف الجند وتوزيع الاقطاعات عليهم •

٢ — ديوان الانشاء ، ومهمته تلقى الرسائل العديدة التى ترد الى السلطان وابلاغها اليه ، واعداد الردود عليها . وكانت تتبع هذا الديوان ادارة البريد ، وهى ادارة ضخمة ، تولت فى عصر سلاطين المماليك كافة شئون البريدين البرى والجوى(٥٧) •

٣ — ديوان الأحباس ، أى الاوقاف ، ويقوم صاحبه برعاية شئون المؤسسات الدينية والخيرية من مساجد ومدارس وزوايا وغيرها ••• كما يشرف على الاراضى والعقارات المحبوسة عليها •

٤ — ديوان النظر ، وقد اختص بمراقبة حسابات الدولة ، والاشراف على ايراداتها ومصروفاتها ، وما يتبع ذلك من صرف مرتبات الموظفين • وكان جانب من هذه المرتبات يصرف نقدا ، فى حين يصرف الجانب الآخر عينا من غلات ولحوم وتوابل وسكر وشمع ، وغير ذلك(٥٨) •

أما عن شئون القضاء والعدالة ، فقد أولاها سلاطين المماليك جانبا كبيرا من اهتمامهم وعنايتهم • وكان أهم تطور حدث فى النظام القضائى فى عصر سلاطين المماليك هو ما قام به السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٥ م) من تعيين أربعة من قضاة القضاة يمثلون المذاهب الاربعة ، بعد أن كان الوضع منذ أيام صلاح الدين

---

(٥٧) القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ١ ، ص ١١٥ •

(٥٨) سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ٣٥٢ •

أن يقتصر ذلك المنصب على قاضى القضاة الشافعى[٥٩] • وقد قام القضاة فى ذلك العصر بدور هام فى المجتمع ، اذ امتدت اختصاصاتهم الى مختلف أوضاع القضايا المدنية والجنائية • وكانت جلسات المحاكم تعقد فى دور القضاء ، فان لم توجد ، عقدت فى المساجد •

وهناك محكمة عليا كانت تعقد فى دار العدل برئاسة السلطان ، عرفت باسم محكمة المظالم ، ومهمتها النظر فى القضايا التى اختص السلطان بالنظر فيها مباشرة ، أو التى يستأنفها أصحابها أمام السلطان ، بعد أن يحكم فيها القضاء العادى ، أو تلك التى تكون بين الحكام والمحكومين •

أما رجال الجيش . فكان لهم « قضاة العسكر » ، وهم مختصون بشئون الجند وليس لهم ولاية على غيرهم ، كما كانوا يفصلون فى القضايا الناشبة بين العسكر والمدنيين • وقد جرت العادة أن يصحب قضاة العسكر السلطان فى أسفاره[٦٠] •

الجيش والبحرية :

اذا حاول باحث أن يعثر على صفة بارزة مميزة لدولة سلاطين المماليك فى مصر والشام . فانه لن يجد أفضل من وصف هذه الدولة بأنها اقطاعية حربية • فطبيعة المماليك ونظامهم ، وظاهرة الرغبة فى شرائهم واقتنائهم : نبعت من فكرة أساسية واحدة ؛ هى تكوين جماعة من المحاربين الأشداء ، واعدادهم ليكونوا درعا حاميا لاساتذتهم الذين دفعوا الأموال فى شرائهم ، وتعهدوهم بالتربية • ولا يكاد المملوك يدرك سن البلوغ ، حتى يدخل مرحلة تعلم فنون الحرب ، من « الرمى بالنشاب ، واللعب بالرمح ، وركوب الخيل ، وأنواع

---

(٥٩) المقريزى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٥٣٨ — ٥٣٩ (تحقيق محمد مصطفى زيادة)

(٦٠) القلقشندى صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٣٦ .

الفروسية »[٦١] . وعندما يتم المملوك هذه المرحلة التعليمية ، ينقل الى الخدمة ، ويمـر بأدوارها رتبة بعد رتبـة ، حتى يصـير من الأمراء[٦٢] .

وفى أول الأمر يتقاضى المملوك جامكية — أى مصروفا — يتدرج من ثلاثة دنانير الى خمسة الى سبعة الى عشرة . ولكنه بعد ذلك ينقل من الجامكيات الى الاقطـاعات ، والى امـرة العشرات ، ثم الى الطبلخانات . ومنهم من ينقل بعد ذلك الى تقدمة الالوف وامرة المئين . أما اقطاعه ، فيتراوح — فى حالة كونه مملوكا — بين زمام قرية وزمام نصف قرية . فاذا صار أميرا ، تراوح اقطاعه بين زمام قرية وعشر قـرى[٦٣] .

وفى معظم الأحوال ، كان السلطان بنفسه يقوم بتوزيع الاقطاعات ، فاذا تقدم اليه المملوك ، سأله عن اسمه وأصله ، وتاريخ قدومه الى الديار المصرية ، وأستاذه الذى اشتراه من تاجره ، وصفاته حتى أصبح فارسا[٦٤] . فاذا وقع اختيار السلطان عليه ليمنحه اقطاعا ، أمر ناظر الجيش بأن يكتب له ورقة تسمى المثال ، تحدد حدود اقطاعه ، ثم تخرج الوثيقة النهائية للاقطاع من ديوان الانشاء . وعلى هذا فقد كان الاقطاع فى عصر سلاطين المماليك يرتبط ارتباطا قويا متينا بديوان الجيش ، حتى لقد أطلق على هذا الديوان اسم ديـوان الاقطـاع . وعبر القلقشندى عن ديـوان الجيش بأنه « مظنـة الاقطاع » ، أى سجله ومركزه ، فقال ما نصه : « اعلم أن مظنة

---

(٦١) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ ٢ ، ص ٥٢٤ (تحقيق محمد مصطفى زيادة) ،

نبيل محمد عبد العزيز : الخيل ورياضتها فى عصر سلاطين المماليك (الانجلو ، ١٩٧٥) .

(٦٢) المقريزى : كتاب المواعظ ، جـ ٢ ، ص ٢١٦ وما بعـدها (بولاق) .

(٦٣) القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ٤ ، ص ٥٠ .

(٦٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٩ ص ٥١ — ٥٢ .

الاقطاعات هو ديوان الجيش دون ديوان الانشاء . وما يكتب فيه من ديوان الانشاء هو فرع ما يكتب من ديوان الجيش »(٦٥) . وهكذا ارتبط الجيش بنظام الاقطاع فى عصر دولة سلاطين المماليك ، الأمر الذى جعلنا نختار صفة الاقطاع الحربى لتلك الدولة(٦٦) .

واذا كان ديوان الجيش هو المشرف على شئون الجيش فى عصر سلاطين المماليك ، فانه روعى أن يكون على رأس هذا الديوان ناظر على درجة كبيرة من الكفاية ، يعاونه مجموعة من كبار الموظفين الأكفاء ، هم : صاحب ديوان الجيش ، وينوب عن ناظر الجيش فى حالة غيابه . ومستوفى الجيش ، ويقوم بتحديد مرتبات الجند وحفظ بيان بها فى سجلاته ، فى حين يقوم بصرف هذه المرتبات للجند موظف ثالث يطلق عليه لقب مستوفى الرزق . وجميع هؤلاء الموظفين ، روعى فيهم الكفاية المتناهية ، واختير لمساعدتهم عدد من الكتاب والشهود من ذوى الخبرة(٦٧) .

وقد تكون الجيش فى عصر سلاطين المماليك من ثلاث فرق أساسية ، الفرقة الاولى عبارة عن طائفة المماليك السلطانية — أى مماليك السلطان القائم فى الحكم — وقد وصفهم القلقشندى بأنهم « أعظم الأجناد شأنا ، وأرفعهم قدرا ، وأشدهم قربا ، وأوفرهم اقطاعا ، ومنهم تؤمر الأمراء رتبة بعد رتبة »(٦٨) . ولهم جوامك

---

(٦٥) القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ١٣ ، ص ١٥٣ .

(٦٦) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، جـ ٢ ، ص ٢١٥ — ٢١٩ (بولاق) .

(٦٧) الخالدى : المقصد الرفيع ، ص ١٣٦ .

نبيل محمد عبد العزيز : خزانة السلاح ، ص ١٤ وما بعدها (الانجلو ، ١٩٧٨) .

(٦٨) القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ٤ ، ص ١٥ .

مقررة فى كل شهر ، وجرايات ولحوم فى كل يوم ، وكسوة فى كل سنة .

وتشمل الفرقة الثانية طائفة مماليك الأمراء ، أى الذين اشتراهم الأمراء ، كل حسب درجته ورتبته ، وتعهدوهم بالرعاية . ومن هؤلاء كانت تتألف الوحدات الحربية التى ترافق السلطان فى حروبه . وكل وحدة تتألف من أمير على رأس مماليكه ، « ويعتد بطائفة من اقطاع الأمير للعدة المقررة له منهم » .

وأخيرا تأتى الفرقة الثالثة ، وهم طائفة أجناد الحلقة ، وتشمل مماليك السلاطين والأمراء السابقين وأولادهم الذين احترفوا الجندية ، وصاروا بمثابة جيش ثابت للدولة ، لا يتغير بتغير السلطان . ويشرف على كل ألف منهم فى وقت الحرب أمير مائة مقدم ألف ، أى أمير له الحق فى امتلاك مائة مملوك لنفسه ويقود فى وقت الحرب ألف جندى من أجناد الحلقة[٦٩] . « ولكل منهم اقطاع يقال له خبز » . ومنذ أيام السلطان الظاهر برقوق ، صار الامراء يأخذون اقطاعات الحلقة باسماء مماليكهم ، وتخدم أجناد الحلقة عندهم ، كما صارت المماليك السلطانية أيضا تأخذ الاقطاعات مع الجوامك[٧٠] .

واذا نحن تكلمنا عن نظام الجيش فى عصر سلاطين المماليك ، فانه ينبغى أن نتذكر أمجاد ذلك العصر ، ونعى الانتصارات التى حققتها الجيوش المماليكية على مختلف الجبهات . وحسب جيوش المماليك أنها طردت الصليبيين نهائيا من بلاد الشام ، وأنزلت الهزيمة بالتتار فى عين جالوت ؛ ووقفت بالمرصاد لكل محاولة من جانبهم للتغلغل فى بلاد الشام ، ودمرت مملكة أرمينية الصغرى فى قيليقية ،

---

(٦٩) العمرى : مسالك الابصار ، ج ٥ ، ص ١٦٦ .

(٧٠) المقريزى : كتاب السلوك ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٢٦٢ (تحقيق المؤلف) .

وغزت بلاد النوبة وأخضعت مملكتها • ومن البديهى أن جيشا لا يستطيع تحقيق كل هذه المكاسب الضخمة الا اذا توافر له من الامكانات وحسن النظام ودقة التدريب ، ما يساعده على ذلك(٧١) •

والواقع أننا نجد فى المصادر المعاصرة كثيرا من الاوصاف التى تعطى انطباعا عن حسن تنظيم الجيش المماليكى • فالسلطان — كما سبق أن أوضحنا — لا يقدم على حرب عادة ، الا بعد استشارة « مجلس الجيش » الذى يضم كبار الامراء ، فضلا عن الخليفة وقضاة القضاة الاربعة • فاذا تقررت الحرب ، اجتمع الجند ليقسموا يمين الطاعة والولاء للسلطان ، وعندئذ تفتح السلاح خاناه أبوابها ، لتوزيع السلاح على المحاربين •

أما عن نظام الجيش أثناء المعركة ، فكان يقوم على أساس ترتيب الجند على هيئة صفوف متراصة تكون أقسام الجيش الثلاثة — وهى القلب والميمنة والميسرة — فضلا عن المقدمة • ويكون القائد العام للحملة عادة فى قلب الجيش ، وربما فى مقدمته ليستثير روح الاقدام والشجاعة فى الجند • وكانت الطبول والموسيقى الحماسية جزءا أساسيا فى الجيش المماليكى ، فتحمل الطبول على عشرين بغلا ، ويعتمد عليها فى تنظيم الحركة واعطاء الاشارات ببدء القتال(٧٢) • هذا فضلا عن الاعلام والرايات التى كانت تتقدم الجيش ، ويلتف حولها كل قسم من أقسامه •

وأخيرا ، فانه يلاحظ أن المماليك كانوا فرسانا قبل أى اعتبار آخر ، واعتمد نظامهم بصفة أساسية على الفروسية • لذلك كان الجيش

---

(٧١) نبيل محمد عبد العزيز : كتاب نهاية السؤل والامنية فى تعلم أعمال الفروسية ، مع دراسة تاريخية عن نظام الفروسية فى عصر سلاطين المماليك • (رسالة تحت اشراف المؤلف محفوظة بمكتبة جامعة القاهرة) •

(٧٢) القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ٣ ، ص ٤٧٥ •

المماليكى يتألف أساسا من الفرسان ، الأمر الذى جعلهم يهتمـون بالخيل اهتماما بالغا ، ويعينون كبار الموظفين للاشراف عليها ، وعلى أدواتها وعددها ، كاللجم والسروج وغير ذلك ، فضلا عن الانفـاق بسخاء على الاصطبلات الخاصة بالخيل(٧٣) .

ولكن ليس معنى تغلب صفة الفروسية على المماليك أنهم أهملوا جانب البحر والاسطول . وحسب دولة سلاطين المماليك أن المؤرخين المعاصرين وصفوها بأنها دولة البرين والبحرين ، بمعنى أنها ضمت برى مصر والشام ، وأطلت على بحرى الروم والقلزم .

وقد سبق أن أشرنا الى أن أية دولة تقوم فى تلك البقعة من الارض لابد لها من أسطول قوى يحمى شواطئها ويؤمن لها قدرا من الطمأنينة . واذا كان سلاطين بنى أيوب قد أهملوا شأن الاسطول بعد صلاح الدين — كما سبق أن أوضحنا فيما سبق — فان الظروف التى قامت فيها دولة سلاطين المماليك جاءت نتيجة مباشرة لحملة لويس التاسع على مصر فى أواسط القرن السابع الهجرى — الثالث عشر للميلاد — وهى حملة بحرية أتت عن طريق البحر ، واعتمدت على البحر فى الاحتفاظ بالشريان الذى يربطها بالغرب الاوربى . والمماليك هم أول من أنزل الهزيمة بلويس التاسع ورجاله ، وفى احتكاكهم بتلك الحملة الصليبية أدركوا أهمية الاسطول بالنسبة لأمن البلاد والعباد .

وهكذا ما كاد الظاهر بيبرس يرتقى دست السلطنة ، حتى « نظر فى أمر الشوانى الحربية ، واستدعى رجال الاسطول .. ومنع الناس من التصرف فى الاخشاب ، وتقدم بعمارة الشوانى فى ثغرى الاسكندرية

---

(٧٣) نبيل محمد عبد العزيز : الخيل ورياضتها فى عصر سـلاطين المماليك ، ص ٩ وما بعدها (مكتبة الانجلو ، ١٩٧٥) .

وانظر ايضا لنفس المؤلف كتاب (الانيق فى المناجيق — وضع ارنبغا الزردكاش) — مكتبة الانجلو ، ١٩٨١ .

ودمياط ، وصار ينزل بنفسه الى دار الصناعة بمصر ، ويرتب ما يجب ترتيبه من عمل الشوانى ومصالحها . واستدعى شوانى الثغور الى مصر ، فبلغت زيادة على أربعين قطعة ، سوى الحراريق والطرائد ، فانها كانت عدة كثيرة ... »[٧٤] .

وسرعان ما صدق ظن بيبرس ، اذ أخذت دولة سلاطين المماليك فى مصر والشام تحس احساسا شديدا بالضغط البحرى الذى تمارسه عليها مملكة لوزجنان الصليبية فى قبرص ، سواء من ناحية مساعدة البقايا الصليبية بالشام ، أو من ناحية قطع الطريق على السفن الاسلامية فى عرض البحر[٧٥] . وما كاد بيبرس يطمئن الى قوة أسطوله ، حتى عزم على تأديب قبرص وملوكها ، فأرسل اليها حملة عدتها سبع عشرة سفينة كبيرة ، بقيادة الرئيس البحرى ابن حسون . غير أن ريحا عاتية هبت على السفن المماليكية قرب شواطىء قبرص ، فحطمت منها أحد عشر شينيا . وعندما أرسل ملك قبرص يعيب على بيبرس انكسار سفنه ، رد عليه السلطان برسالة طويلة جاء فيها : « أنتم خيولكم المراكب ونحن مراكبنا الخيول » . وتتضمن هذه الاشارة اعترافا صريحا بأن أساس قوة دولة المماليك فرسانها ، وجيوشها البرية ، لا أساطيلها البحرية[٧٦] .

ومع ذلك ، فان بيبرس لم يهمل شأن الاسطول ، وانما عاود الكرة ، وسعى بسرعة لتعويض الخسارة ، فأمر بانشاء عشرين شينيا ، « وأحضر خمسة شوانى كانت على مدينة قوص من صعيد مصر ، ولزم الركوب الى صناعة العمارة بمصر كل يوم ، فى مدة شهر المحرم سنة سبعين وستمائة ، الى أن تنجزت ... »[٧٧] . ولا شك فى أن

---

(٧٤) المقريزى : كتاب المواعظ ، ج ٢ ، ص ١٩٤ .
(٧٥) سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ، ص ٤٧ .
(٧٦) المرجع السابق ، ص ٤٩ .
(٧٧) المقريزى : كتاب المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ١٩٤ .

الاسطول المماليكى كان له دور كبير فى مساندة القوات البرية التى قامت بتطهير بلاد الشام من آخر البقايا الصيلبية ، وخاصة أن هذه البقايا الكبرى — وهى انطاكية وطرابلس وعكا — كانت كلها موانى بحرية .

واذا كان السلطان الأشرف خليل بن قلاون هو صاحب الفضل فى الاستيلاء على آخر هذه البقايا — وهى مدينة عكا — سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) ، فان ذلك جعل الأشرف أكثر احساسا بأهمية الاسطول لدولته . لذلك لم يكن عجبا أن يهتم السلطان الأشرف خليل اهتماما خاصا بأمر الاسطول ، « فنزل الى (دار) الصناعة ، واستدعى الرئيس . وهيأ جميع ما تحتاج اليه الشوانى ، حتى كملت عدتها نحو ستين شونة ، وشحنها بالعدد وآلات الحرب » ورتب بها عدة من المماليك السلطانية ، وألبسهم السلاح ... »[٧٨] .

وثمة حقيقة كبرى ، هى أن طرد الصليبين نهائيا من الشام فى أواخر القرن السابع الهجرى — الثالث عشر للميلاد — ضاعف من أهمية العمل البحرى فى شرق البحر المتوسط ، لأنه جعل الحروب الصليبية تتحول من معارك برية الى معارك بحرية . ذلك أن البابوية لم تجد وسيلة للانتقام من سلطنة المماليك ، سوى تهديد نشاطها التجارى ، وحرمانها من المصدر الأول لثروتها وقوتها . ولذلك استغلت الحركة الصليبية موقع جزيرة قبرس فى قطع الطريق على السفن التجارية الايطالية التى رفض أصحابها الاذعان لسياسة البابوية ، واستمروا يواصلون نشاطهم التجارى مع سلطنة المماليك[٧٩] . هذا الى أن ملك قبرس — بطرس لوزجنان — قام سنة ٧٦٧ هـ / ١٣٦٥ م —

---

(٧٨) المصدر السابق ، ص ١٩٥ .

(٧٩) سعيد عاشور : الحركة الصيبية ، ج ٢ ، ص ٩٥٢ وما بعدها (الطبعة الرابعة ، ١٩٨٦) .

بحملة صليبية جريئة على الاسكندرية ، دمر فيها المدينة — كما سبق أن ذكرنا — وأتى من الأعمال الوحشية ما استثار غضب المسلمين جميعا[٨٠] . وهكذا تحولت الحروب الصليبية فى القرنين الثامن والتاسع للهجرة — الرابع عشر والخامس عشر للميلاد — الى حروب بحرية ، وخاصة بعد أن دخلت رودس حلبة هــذه الحروب ، وأخذ فرسان الاسبتارية برودس يهددون دولة المماليك وتجارتها البحرية[٨١] .

ولم يقف الاسطول المماليكى جامدا أمام ذلك التهديد ، وانما أرسل السلطان الأشرف برسباى ثلاث حملات فى اسنوات ٨٢٧ ، ٨٢٨ هـ ، ٨٢٩ هـ (١٤٢٤ ، ١٤٢٥ ، ١٤٢٦ م) لغزو قبرس ، حتى نجح فى اخضاع الجزيرة وأسر ملكها فى الحملة الأخيرة . ثم عاد الاسطول المماليكى يحمل مئات من الأسرى الذين تم استعراضهم فى شوارع القاهرة ، وعلى رأسهم ملك قبرس الأسير[٨٢] .

وبعد قبرس جاء دور رودس ، فأرسل السلطان جقمق ثلاث حملات بحرية ضد رودس فى سنوات ٨٤٤ ، ٨٤٧ ، ٨٤٨ هـ (١٤٤٠ ، ١٤٤٣ ، ١٤٤٤ م) . وقد نجحت هذه الحملات فى تأديب الجزيرة ، وان لم تستطع اخضاعها لسلطنة المماليك مثلما حدث فى حالة قبرس[٨٣] .

وهكذا ظل الاسطول فى عصر سلاطين المماليك يقوم بدوره كاملا فى الدفاع عن البلاد ومهاجمة الأعداء . وفى أواخر عصر سلاطين المماليك ، ظهر خطر البرتغاليين واضحا على الشرق ، بعد أن وصلوا الى الهند عن طريق الطواف حول افريقية ، الأمر الذى مكنهم من

---

(٨٠) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ، ص ٥٧ وما بعدها.
(٨١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٩٧٤ وما بعدها.
(٨٢) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ، ص ٨٤ وما بعدها .
(٨٣) سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ١٦٩ وما بعدها .

تهديد البلاد الاسلامية فى جنوب آسيا وعند مدخل البحر الأحمر ، فضلا عن تهديد سلطنة المماليك فى أعز ما تعتمد عليه ، أعنى احتكار التجـارة بين الشرق والغرب . وفى المعركة الحتميـة بين المماليك والبرتغاليين ، أدرك السلطان قانصوه الغورى أنها معركة البقاء أو الفناء ، ففزع الى الأسطول لدعمه فى البحر الأحمر ، وبنى عشرين سفينة كبيرة زودت بالمكاحل النحاسية والحديدية . وأخـذت دار الصناعة فى مصر تصنع السفن لتحمل أجزاؤها مفككة على ظهـور الابل ، ويتم تجميعها وتركيبها على شاطىء البحر الأحمر . وفى المحرم سنة ٩٢٠ هـ (١٥١٤ م) قام السلطان الغورى بزيارة السويس لمشاهدة هذه السفن واستعراضها ، حتى قيل أن نفقات بناء الاسطول فى البحر الاحمر تجاوزت أربعمائة ألف دينار .

ولكن عوامل الضـعف التى أخذت تنخر فى عظام دولة سلاطين المماليك فى أواخر أيامها امتدت الى كافة أجهزة الدولة ومرافقها ، فلم يستطع الاسطول المماليكى الصمود أمام البرتغاليين فى موقعة ديو البحرية سنة ٩١٦ هـ (١٥٠٩ م) ، وحلت به الهزيمة ، وعاد أمير البحر حسين الكردى الى مصر « مع فلول أسطوله »[٨٤] .

هذا عن النشاط البحرى فى عصر سلاطين المماليك ، أما أنواع السفن التى استخدمت فى الأساطيل الاسلامية فى تلك العصور ، فعديدة ، بحيث تخصص كل نوع منها لغرض معين . ونكتفى هنا بالأشارة الى أهم أنواع تلك السفن ، وهى الشوانى والحراريق والطرادات والأغربة والبطس والمسطحات .

أما الشوانى — ومفردها شينى — فكانت أكثر السفن استعمالا فى الأساطيل الاسلامية . وهى عبارة عن سفن حربية كبيرة ذات أبراج وقلاع ، تستعمل فى حالتى الدفاع والهجوم ، وتجهز للحرب

---

(٨٤) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ٤ ص ١٨٥ وما بعـدها ، سنة ٩١٦ هـ (تحقيق محمد مصطفى) .

بالسلاح والمقاتلة الذين يبلغ عددهم مائة وخمسين . ويجدف الشينى بمائة مجداف[٨٥] .

وأما الحراريق أو الحراقات ، ومفردها حراقة ، فهى سفن حربية كبيرة ، تقل فى حجمها عن الشوانى ، سميت حراريق لأنها كانت تحمل مرامى النيران — مثل النار الافريقية والنفط — ومنها تلقى النار على سفن العدو وأهدافه فتحرقها[٨٦] .

وكانت الطرادات — ومفردها طراد — سفن صغيرة سريعة ، تستخدم فى الكر والفر ، وخصصت عادة لحمل الخيول ، فيحمل الطراد الواحد منها ما يتراوح بين أربعين وثمانين فرسا[٨٧] .

وأما الأغربة — ومفردها غراب — فسميت كذلك لأن رأسها يشبه رأس الغراب أو الطائر . وهى تمثل فى الماء شكل الطير فى الهواء . والغراب يحمل الغزاة ، ويسير بعدد من المجاديف يبلغ مائة وثمانين مجدافا ، ومن خصائصه أنه كان مزودا بجسر من الخشب ، يهبط على مركب العدو ، ويمر على ظهره الجند ، فيقاتلون بالأساليب البرية .

ثم تأتى البطس — ومفردها بطسة — وهى سفن كبيرة الحجم ، تسير الواحدة بعدد من الأشرعة يبلغ أربعين شراعا . وهى أشبه بالناقلات الضخمة فتتسع الواحدة لعدد من الجند يصل الى سبعمائة ، فضلا عن المحاربين والأسلحة والذخيرة والغلال والميرة . ولها أسطح عالية وطبقات متعددة[٨٨] .

---

(٨٥) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، جـ ٢ ، ص ١٩٤ — ١٩٥ ، عبد الفتاح عبادة : سفن الاسطول الاسلامى ، ص ٤ .

(٨٦) درويش النخيلى : السفن الاسلامية على حروف المعجم ، ص ٣٢ ، جميل خانكى : البحرية المصرية ، ص ١٣١ .

(٨٧) ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٣٩ — ٣٤٠ .

(٨٨) درويش النخيلى : السفن الاسلامية على حروف المعجم ، ص ١٤ .

أما المسطحات — ومفردها مسطح — فنوع من السفن الضخمة الكبيرة ، سميت كذلك لأن لها سطح ، وهى تشبه البطسة . كانت تسير وقت الحرب خلف السفن الاخرى خشية أن تخوض فى منطقة ضحلة المياه يصعب عليها الحركة فيها ، فعندئذ تسعفها المسطحات ، لأن غاطسها قليل العمق فى الماء(٨٩) .

الفنـــــون :

كان عصر سلاطين المماليك بمثابة العصر الذهبى لكثير من الفنون فى مصر الاسلامية . ويمكن تفسير هذه الحقيقة فى ضوء ما اشتهر به ذلك العصر من ثروة ومال نتيجة للدور الذى قامت به تلك الدولة فى النشاط التجارى بين الشرق والغرب . ومع المال والثراء ، كان الترف والرغبة فى التأنق واقتناء التحف . هذا الى أن الفنان فى المجتمع الغنى لا يقنع بالجهد البسيط والانتاج السهل فى عمله ، وانما يبالغ وهو مطمئن الى أنه سيجد من التقدير وارتفاع الأجر ما يحفزه الى مزيد من الجهد والعنـــاية .

ففى العمارة ، تشهد عمائر العصر المماليكى التى تزدان بها مدن دولة سلاطين المماليك فى مصر والشـــام — وبخاصة القاهرة عاصـــمة الدولة — من مساجد ومدارس وأضرحة وسبل وحمامات وبيمارستانات ... وغيرها ، على الذوق الجميل والرغبة فى الابداع والحرص على التفنن . ومن أمثلة هذه العمائر مدرسة السلطان الناصر حسن بن محمد ابن قلاون — قرب القلعة بالقاهرة — وما تتصف به من تصميم عجيب ، وقبة عظيمة ، وأبواب فخمة ، وايوانات عالية ، وزخارف دقيقة ... وهذا المثل واحد من كثير(٩٠) .

---

(٨٩) Dozy : Supplèment Aux Dictionnaires Arabes.

(٩٠) زكى محمد حسن : فنون الاسلام ، ص ٧٣ .

وقد امتازت عمارة المساجد فى ذلك العصر بالعنــاية بواجهات المساجد وجمال مآذنها ورشاقتها ، وزخرفة الأرضيات والوزرات بالرخام الملون ، فضلا عن السقوف المذهبة ، والكتابات الزخرفية ••• مما أضفى عليها روعة وبهاءا •

وما يقال عن المساجد والمدارس ، يمكن أن يقال من زاوية أخرى عن روعة فن العمارة فى بقية المنشآت فى العصر المماليكى • فالمدافن مثل مدفن برقوق ومدفن قايتباى بالصحراء الشرقية ، ومجمع قلاون الذى يشمل قبة ومدرسة وبيمارستان ••• جاءت كلها فى تصميمها وعمارتها نماذج فنية رائعة • ومثل هذا يقال عن حمام بشتاك الذى لم يبق منه الا مدخله المكسو بالرخام الملون ، وقصر قوصون — خلف مدرسة السلطان الناصر حسن — ، ووكالة الأمير قوصون ، ووكالة الغورى ••• وغير ذلك من آثار ذلك العصر •

أما فن النحت . فقد استطاع الفنانون فى العصر المماليكى ابتكار أشكال فى النحت على الخشب ، أكثر اتقانا مما كان عليه الوضع فى العصر الأيوبى • ذلك أن فنانى عصر المماليك ابتكروا أشكالا جديدة من المراوح النخيليه ، ووحدات من الزخارف النباتية ، كما شاعت فى ذلك العصر الزخارف الهندسية المؤلفة من حشوات صغيرة تمثل أشكالا سداسية الأضلاع . تنتظم حول شكل نجمى فى الوسط • وقد استخدمت فى الحفر أخشاب متباينة الألوان ، طعمت أحيانا بالأبنوس والعظم[٩١] • ويشهد على رقى فن النحت على الخشب فى عصر سلاطين المماليك عديد من المنابر الرائعة فى المساجد التى ترجع الى ذلك العصر • كذلك ازدهرت فى عصر المماليك صناعة الشبكيات أو المشربيات الخاصة بالنوافذ وواجهات البيوت ، وهى من الخشب المخروط • هذا فضلا عن التحف الدقيقة المصنوعة من الخشب . مثل الدكك والكراسى والصناديق ، وغيرها •

---

(٩١) ديماند الفنون الاسلامية ، ص ١٢٢ •

ولم يكن النحت على الرخام والجص أقل روعة من النحت على الخشب ، اذ تشهد المنابر الرخامية ، والأفرايز المنقوشة ، والألواح الرخامية فى الأسبلة ، والشبابيك المصنوعة من الحجر المفرغ ... تشهد كلها بما فيها من نقوش منحوتة ، على مهارة الفنان فى عصر سلاطين المماليك . وكذلك كان النحت على العاج ، اذ تحوى المتاحف العالمية ، تحفا عديدة من العاج ، ترجع الى عصر سلاطين المماليك ، ومعظمها اقتصرت الزخرفة فيه على الأشكال النباتية والهندسية . هذا وان كان العاج قد استخدم على وجه الخصوص فى التطعيم والترصيع ، لاسيما فى حشوات المنابر وقطع الأثاث[٩٢] .

أما صناعة المعادن ، فقد بلغت شأوا بعيدا من الرقى الفنى فى عصر سلاطين المماليك . وقد امتازت التحف المعدنية التى ترجع الى ذلك العصر بصفات خاصة وطابع مميز يجعل من السهل تمييزها . ذلك أنها جمعت بين الزخارف النباتية التقليدية ، وزخارف جديدة شاع استخدامها فى ذلك العصر ، مثل رسم أزواج من الطيور مرتبة داخل معينات ، كما يبدو على ابريق جميل يرجع الى عصر السلطان الناصر محمـد ، ومحفوظ فى متحف المتروبوليتان[٩٣] . كذلك بقى من عصر المماليك عدد من الأبواب الجميلة المصفحة بالنحاس ، وبها زخارف تؤلف الأطباق النجمية التى امتاز بها ذلك العصر . وازدهرت فى عصر سلاطين المماليك صناعة التكفيت ، أى تطعيم النحاس بالذهب والفضة ، فذكر المقريزى أنه لا تكاد دار تخلو بالقاهرة ومصر من عدة قطـع نحاس مكفت .

كذلك بلغت صناعة الزجاج المطلى بالمينا أوجها فى مصر والشام على عصر سلاطين المماليك ، اذ شـاع استخدام الموضوعات الآدمية والحيوانية والنباتية ، فضلا عن الكتابة على الأوانى الزجاجية التى

---

(٩٢) زكى محمد حسن : فنون الاسلام ، ص ٥٠٤ .

(٩٣) ديماند : الفنون الاسلامية ، ص ١٥٥ .

صنعت فى ذلك العصر . وما زالت الكؤوس والأباريق والقوارير والمشكايات الباقية من ذلك العصر تعتبر من أجمل ما تزدان به المتاحف العالمية . ومن أمثلتها دورق من الزجاج المموه بالمينا فى متحف برلين . والمينا عليه متعددة الألوان بين أحمر وأخضر وأصفر وأبيض ، وعليه تذهيب ما زال محتفظا ببريقه ، وعلى رقبته كتابة بالخط الثلث الجميل[٩٤] .

وما يقال عن الزجاج ، يمكن تطبيقه على الخزف . ومعظم الأوانى الخزفية التى ترجع الى عصر سلاطين المماليك من النوع المرسومة زخارفه تحت طلاء شفاف . كما يزين بعض الأوانى المماليكية ، زخارف من الكتابة العربية على أرضية منقطعة منتظمة فى أشرطة أو داخل فصوص . وتوجد فى متحف المتروبوليتان مجموعة من الأوانى تمثل الخزف المماليكى فى القرن الثامن الهجرى ، الرابع عشر للميلاد ، وتتكون زخارفها الأساسية من كتابات عربية تتضمن تمنيات طيبة لصاحب التحفة[٩٥] .

وقد وصلت الينا أسماء بعض الخزفيين الذين عملوا فى انتاج الخزف أى الزخارف المنقوشة تحت الدهان ، مثل غيبى التوريزى — وهو كما يتضح من اسمه ايرانى الأصل نزح الى القاهرة — ، وغزال ، والاستاذ المصرى . وغيرهم ممن وجدنا أسماءهم على منتجات ذلك العصر . وثمة ملاحظة أخرى ، هى أن الفخار المطلى بالمينا كان يستعمل بكثرة فى بيوت الأمراء . ولذا امتازت زخارفه بالرنوك أو الشارات التى اتخذها أولئك الأمراء علامة لكل منهم[٩٦] .

أما انتاج النسيج فى عصر سلاطين المماليك ، فقد احتفظ بمستواه الرفيع . وتميزت الزخارف المطرزه فى ذلك العصر بخطوطها المتعرجة

---

(٩٤) زكى محمد حسن : فنون الاسلام . ص ٥٠١ .
(٩٥) ديماند : الفنون الاسلامية ، ص ٢٢٠ .
(٩٦) زكى محمد حسن : فنون الاسلام ، ص ٣٢٦ .

التى تتفق والأسلوب الصناعى المتبع فى انتاجها ، وهو عبارة عن غرز متتابعة متدرجة كالســـلم ، يطلق عليها أحيانا اسم غرزة هلبابين . أما الأقمشة المطبوعة فقد ظلــت تستخدم فى عصر المماليك ، وكانت رسومها السائدة فى القرنين السابع والثامن للهجرة ــ الثالث عشر والرابع عشر للميلاد ــ هى الأشكال المسننة والتفريعات المزهرة ذات الألوان المتعددة[٩٧] .

وتوجد بالمتحف الاســـلامى بالقاهرة قطعة من الحرير ، قوام زخرفتها شريطان من الكتابة النسخية المماليكية ، تتكرر فيها عبارة « عز لمولانا السلطان الملك الناصر » . وبين هذين الشريطين شريط ثالث به رسوم شجيرات مورقة ، يفصل كل شجيرة عن الاخرى رسم فهد يطارد غزالا .

* * *

(٩٧) ديماند : الفنون الاسلامية ، ص ٢٥٧

وهكذا كان عصر سلاطين المماليك يمثل عصر النشاط الاقتصادى ، عصر المال والثراء ، عصر الترف والرقى الاجتماعى ، عصر الازدهار الحضارى بالمدلول الواسع لمعنى الحضارة • وفى الوقت نفسه كان عصر دولة سلاطين المماليك بالنسبة لمصر والشام يمثل عصر النشاط السياسى ، والقوة الحربية ، والقدرة على الصمود فى وجه الأخطار الخارجية ، التى هددت منطقة الشرق الأدنى فى ذلك العصر •

ونحن عندما ننظر الى التاريخ ينبغى ألا ننظر اليه بعين واحدة ، ولا أن نقيس الماضى بمقاييس الحاضر ، فلكل عصر مستوياته ومقاييسه ونظرته الخاصة الى الحياة ، وهذه كلها تكسبه طابعه الخاص المميز •

والحمد لله رب العـــالمين

فهـرس الموضوعات

صفحة

مقـــــــدمة ٣

القسم الاول ـ الدولة الايوبية ٧

الفصل الاول : مولد الدولة ٩

الفصل الثانى : صلاح الدين وتأسيس الدولة الايوبية ٢٩

الفصل الثالث : صلاح الدين والصليبيون ٥٥

الفصل الرابع : الدولة الايوبية بعد صلاح الدين . . . ٧٣

الفصل الخامس : السلطان الكامل والحملة الخامسة . . . ٨٥

الفصل السادس : السلطان الكامل والامبراطور فردريك الثانى ٩٩

الفصل السابع : الصالح نجم الدين أيوب ولويس التاسع ١١٥

الفصل الثامن : الأوضاع الحضــارية فى العصر الايوبى ١٣٧

القسم الثانى ـ الدولة المماليكية ١٧٣

الفصل الاول : قيام دولة المماليك البحرية ١٧٥

الفصل الثانى : قطز والتتـــار ١٩٣

الفصل الثالث : الظاهر بيبرس وتأسيس دولة البحرية . . . ٢٠١

الفصل الرابع : بيت قلاون ٢٢١

الفصل الخامس : دولة المماليك الجراكسة ٢٥٩

الفصل السادس : خاتمة دولة سلاطين المماليك ٢٩٣

الفصل السابع : أحوال مصر فى عصر سلاطين المماليك . . . ٣١١

« تـــم بحمــــد الله »

رقم الايداع ٢١٠٠/١٩٩٠
الترقيم الدولي ٤ — ٠٥٧٤ — ٠٤ — ٩٧٧

مطبعة العمرانية للأوفست
٢ ش يوسف عثمان ـ العمرانية الغربية ـ الجيزة
تليفون ٥٢٧٥٥٠